الفكر السياسي

عند الأنصار



الجزء الأول

تأليف

الدكتور/ ياسين غضبان

دار الوفاء

للطباعة والنشر والتوزيع

الفكر السياسي عند الأنصار

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

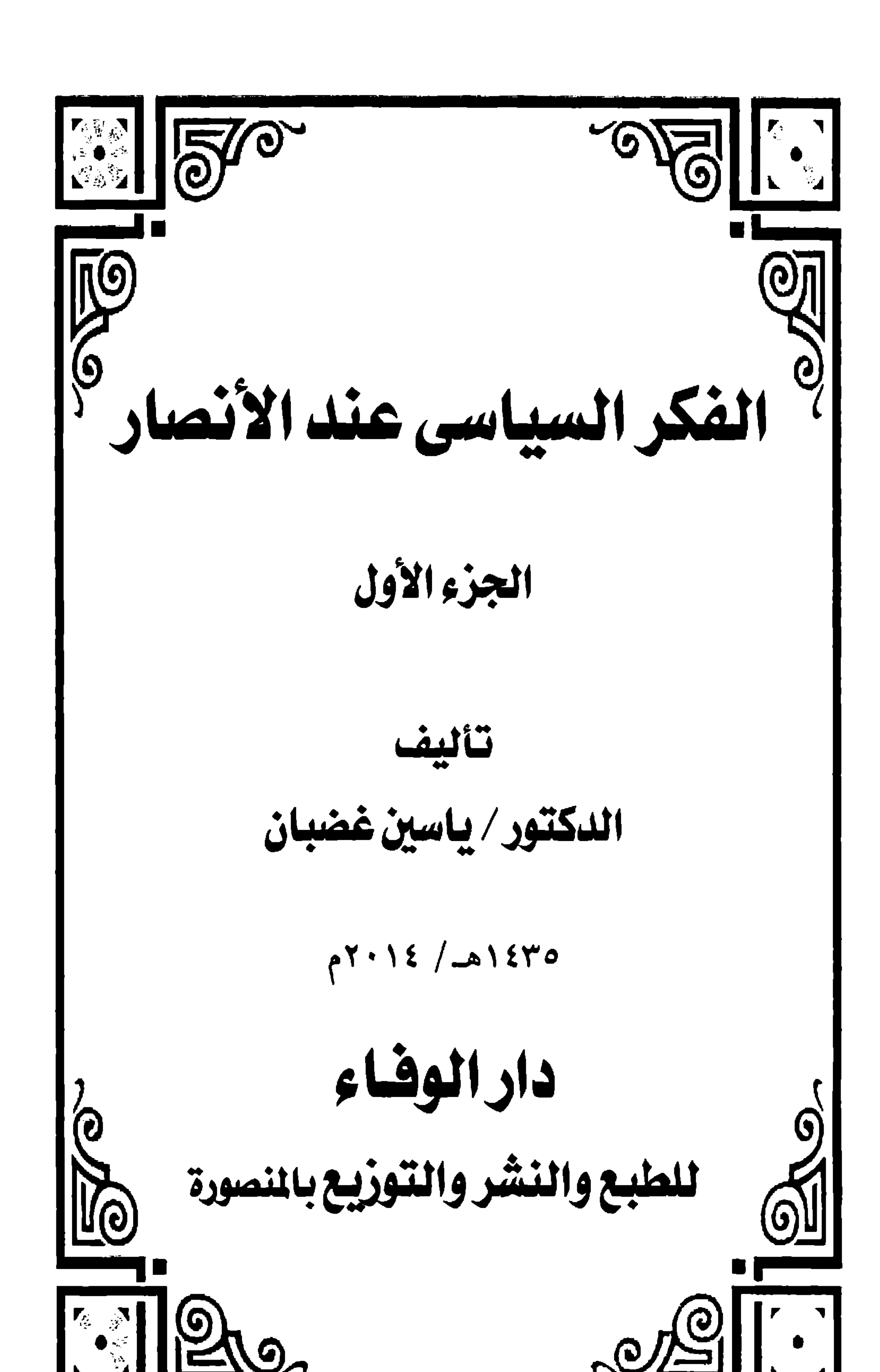


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية

الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية الطب - المنصورة

تليفون وفاكس: 20502370863+ ص.ب: 230

www.darelwafaa.com E-mail: darelwafa2005@yahoo.com



الفكر السياسى عند الأنصار

الجزء الأول

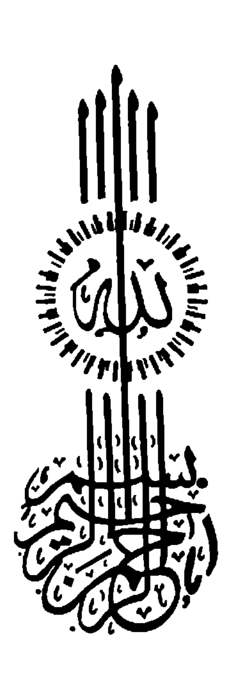
تأليف

الدكتور / ياسين غضبان

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

دار الوفاء

للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة



الإهـداء

إلى روح والدى الطاهرتين

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]

المؤلف

كلمة شكر وتقدير

لا يسع المرء إلا أن يقر بالشكر والتقدير والعرفان إلى الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث وإظهاره بشكله الذي هو فيه . الفضل الأول إلى فضيلة الدكتور « أبو الفتح محمد صغير الدين» رئيس قسم التاريخ الإسلامي في جامعة السند ، الذي قبل مشكورًا الإشراف على الرسالة ، وتجشم الكثير من الجهد بالإرشاد والمراجعة والتوجيه ، حتى استحق أن يقدم لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة فيه . فالشكر الجزيل له .

وأحب أن أسجل في هذا المقام الشكر لكل الذين أبدوا رأيًا ، أو قدموا مشورة ، أو ساعدوا في الحصول على مرجع، أو سهلوا صعبًا، أو ذللوا عقبة وإلى الذين قاموا بإعداد هذا البحث وطبعه.

ومن المناسب أن أقول لأم أولادي : إن هذا العمل ـ في هذا العمر ـ اجتزاء وقت أحق به هي وأسرتنا ، لكنها كانت تدفعنى للبحث وتسد ورائى كل فجوة وتسامحني عن كل تقصير ، وترى في جدي واجتهادي وبحثي مثالًا طيبًا لأولادي التسعة الذين يتناثرون على مقاعد الدراسة من الدكتوراة حتى المرحلة الابتدائية .

وإلى كل أولادي الذين قاموا بجهود مشكورة في المراجعة ، وعمل الفهارس وتشكيل الآيات وتحقيقها،والأحاديث والأقوال. فكان عملهم تخفيفًا عني ، ودفعًا لي ، وجذبًا لهم ليقرؤوا البحث ويزدادوا اطلاعًا لحوادثه .

وأخيرًا إلى الذين يرون عملي هذا في مثل سني تحقيقًا للحكمة المأثورة :

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» فكانوا العون لي والمشجعين لعملي أشكر لكل هؤلاء ما قدموه وأرجو الله أن يجزيهم عني خير الجزاء .

والحمد لله رب العالمين.

المقدمة

الحمد لله تعالى وحده ، المنعم المتفضل ، القاهر فوق عباده ، الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد :

لقد استغرقت هذه الدراسة « تاريخ الأنصار السياسي » زمنًا طويلًا جدًا من حياتي ، فهي كانت أفكارًا تراود مخيلتي عند دراستي الجامعية في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضى ، ورافقتنى طويلاً حتى كتب الله تعالى لى أن أنجزها كرسالة للدكتوراة في الثمانينيات من القرن الماضى ونوقشت في نهاية ذلك العقد تحت عنوان «الفكر السياسي عند الأنصار» حيث حصلت بموجبها على شهادة الدكتوراه في الفكر الإسلامي ، وليس في التاريخ الإسلامى .

لقد أردت من هذه الدراسة التأريخ للأنصار رضوان الله عليهم منذ خروجهم من اليمن إلى أن غابوا في العالم الإسلامي بعد أن نصروا النبي ﷺ وأيدوه وصدقوا في تأييده ، ومن ثم حملهم رسالة الإسلام مع بقية صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والمؤمنين الآخرين ممن كان لهم جميعًا الدور المبدع في نشر رسالة الإسلام ، وقد انتشروا في أصقاع العالم المفتوح واستقروا به ولم يعد لهم ذلك التجمع الذي عرفوا به «الأنصار» وإنما خرجوا إلى العالم يحملون رسالة الإسلام قادة وسياسين وعلماء ودعاة،وفاتحين،وكان عطاؤهم في كل هذا عطاء أصحاب الرسل وحواريهم والمؤمنين بهم فكانوا لرسول الله ﷺ الأنصار والجنود ، والدعاة ، والقادة .. وكل ما يطلب من أتباع الرسل من تضحيات ونصرة وجهاد حتى قال الرسول ﷺ : والله لولا الهجرة لكنت فتى من الأنصار : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

لقد قسمت الموضوع إلى سبعة فصول .. ارتأت إحدى دور النشر أن تجعل من كل فصل كتابًا ، وفعلًا فقد صدر الجزء الأول ، وطبع الثاني ، وتوقفت العجلة عن الدوران ـ ومرت السنون والكتاب في مكانه ثابت لم يتحرك .. إلى أن قيض الله له ولنا ـ دار الوفاء ـ لتأخذ على عاقتها تحريك عجلة هذا الكتاب الذي استغرق انجازه حوالي خمس سنوات تقريبًا ليصدر بحلته الجديدة في ثلاثة أجزاء ليسد في المكتبة الإسلامية تاريخًا متواصلًا وتحركًا سياسيًا نابعًا من فكر مبدع لجيل الأنصار رضى الله عنهم وأرضاهم

إن الحديث المستقل عن الأنصار جاء بعد أن قرأت في بطون الكتب الكثيرة الحديث عنهم في ظل غيرهم .

لقد ارتضوا أن يكونوا وزراء حسب ما توجه به الصديق ﷺ في سقيفة بنى ساعدة ، ليكون المهاجرون هم الأمراء ، فأرخ الناس للأمراء وربما أغمضوا غير قاصدين دور الأنصار الفاعل بعد ذلك . فسعيت لأن أتحدث عن الأنصار وهذا هو حديثي بين يدي القارئ الكريم ، وقد علمت أن بحوثًا أخرى قد صدرت عن الأنصار وأنا أعنت أعدادًا من الباحثين على ما قمت به من دراسة غير منشورة .

أرجو الله العلى القدير أن يعينني ، ويعين من أعانني على نشر هذا البحث.

وإني أحفظ وصية من الأستاذ المشرف حيث طلب مني الاختصار للمناقشة والعودة إلى الأصل عند النشر ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ ومازالت رسالته في محفوظاتي .

وبعــد :

أيها القارئ العزيز أتوجه إليك بالحديث ، فالشكر الجزيل لك ، والخير الذي أرجوه أن توقفني على أخطائي لتداركها مستقبلًا ، والتوجه بالشكر إلى أصحاب الرأي السديد في تقديمهم آرائهم لى لتكون هذه الآراء منارة لي في دربي الذي أسلكه. والحمد لله أولًا وآخرًا هو حسبي ونعم الوكيل .

المؤلف

مدخل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

هذه الدراسة ـ كما ذكرت آنفا ـ ليست جديدة في تفكيري ، ولم تكتمل حدودها وأبعادها الآن بل إنها تراود ذهني منذ أيام الدراسة الجامعية في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات عندما كتبت مخطوطًا عن حياة الصحابي الأنصاري سعد بن معاذ ثم سعد بن عبادة ، ثم أسيد بن حضير وطويت هذا المخطوط منذ أعوام طويلة ولم أعد له إطلاقًا .

وعندما كنت أتابع دراستي العليا في مصر أول ما تبادر إلى ذهني أن أكتب عن الأنصار ، وفعلًا فقد وضعت مخططًا لبحث الماجستير عن هذا الموضوع لكنه لم يجد قبولًا من الأستاذ المشرف وتوقفت عن الدراسة وقتها لأسباب كثيرة وطويت الموضوع ثانية .

وعندما نلت شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية عاودني الحنين ثانية إلى الأنصار لأن يكون موضوعًا لنيل شهادة الدكتوراة . عرضت الموضوع على بعض الأخصائيين فنال رضاهم ، وكان لقاء مباركًا مع الأستاذ الفاضل أبو الفتح محمد صغير الدين الذي وافق على الموضوع وأصبح المقرر لرسالة الدكتوراة في جامعة الجمهورية باكستان الإسلامية،وعادت المياه إلى مجاريها تصب في بحر الأنصار.

الجديد في الموضوع هو تحول الدراسة من تاريخ الأنصار الذي وجدت فيه أثناء البحث أنني إن دخلت فيه فقد لا أخرج لتشعب الموضوع واتساعه ، وكثرة مراجعه والتأليف فيه على الرغم من أن الدافع الأساسي الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع بالذات هو عدم الترابط في الحديث عن الأنصار في معظم كتب التراث ، وحتى لا أتيه أو

أمل من كثرة البحث والتقصي وتكرار الحديث في أكثر المراجع ، فقد تحولت قليلاً جداً الآن للحديث عن الفكر السياسى عند الأنصار أو تاريخ الأنصار السياسي.

هذا الموضوع يدخل في مجال دراستي من ناحيتين :

الأولى : إجمال الدراسات الإسلامية في موضوع دراستى .

والثانية : اتجاهي لدراسة التاريخ الإسلامى والفكر السياسي الإسلامي حولني إلى اختيار هذا النوع من الدراسة .

والفكر السياسي عند الأنصار بحث طويل تنتابه التحولات،وتتيه به الحدود إلى أن استقر أخيرًا في الإسلام . وأصبح فكرًا إسلاميًا خالصًا لا عوج فيه ، حيث لم يثبت أو يظهر أن أنصاريًا قد تردد في قبول حكم الله ورسوله ، وأيده تضحياتهم اللامتناهية من أجل الإسلام ورسول الإسلام .

إلا أن الشيء لا يعرف إلا بضده ، فإن قسمًا كبيرًا من سكان المدينة (الأوس والخزرج وحلفائهم) ـ كما كان بعض قريش ـ قد وجدوا في الإسلام سلباً لمكاسبهم ، فنتج عن ذلك النفاق الذي استشرى في المدينة . فكان الأنصار والمنافقون من منبت واحد كما كان المهاجرون والكفار من منبت واحد ، كما أن اليهود كان لهم كبير الأثر في نماء هذه الظاهرة واستمرارها .

الفكر السياسي عند الأنصار ـ الموضوع الذي نحن بصدده ـ كان بارزاً في شعرهم في الجاهلية واضحاً في شعرهم في الإسلام ، فقد انبرى (الشعراء) حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ليكونوا لسان الدعوة الإسلامية ، والمدافعين عنها ضد الحاقدين والمنافقين والكافرين . وتوضح الفكر السياسى عندهم . في حروبهم وفي اتحادهم وفي إسلامهم وفي بيعتهم لأبي بكر ، وفي مشاركتهم بكل ما أتوا من قوة في سبيل تحقيق سيادة الإسلام ووجوده .

لا يمنع الحديث في هذا التوجه الوقوف على الأفكار السياسية التي سبقت الإسلام سواء منها الديني أو السياسي وخاصة الممالك والقبائل والإمبراطوريات

التي أحاطت بالجزيرة العربية ، والتي كان لها تأثير قريب على فكر الأوس والخزرج وتوجهاتهم قبل الإسلام ، ومن ثم تحولهم إلى فكر الإسلام ودولته التي كانت نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية قاطبة .

كما أن الحديث لا يقف إزاء التوجهات السياسية فقط فهذه حالة من حياة الشعب وليست كل حالاته ، فإذا طغت السياسة على تفكير شعب وصل إلى مرحلة الجدل التي تقود عادة إلى الدمار . ولا يكثر الجدل في هذا الباب إلا عند فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم حيث يتوجه الحاكم لفرض آراء معينة ، أو الأخذ بأسباب القوة التي تقود إلى حب السيطرة والظلم وهذا أمر موثوق معروف في تاريخ الدول والممالك . ولذلك نرى أن الشقة بين الحاكم والمحكوم كلما صغرت كلما توجه الناس إلى أفكار أخرى تختص بالمدنية والحضارة والنفع العام .

من هذا المنطلق نجد أن الثقة المطلقة التي أولاها المسلمون قادتهم ، وخاصة محبتهم اللا محدودة للرسول ﷺ ـ كما سنقف في بحثنا على بعض الشواهد ـ دليل على أن هذه الثقة هي التي أدت إلى تلك الفتوحات ، وتلك الانتصارات ثم إن الإيمان العميق الذي دخل قلوب المسلمين أوسهم وخزرجهم وقرشييهم قد حولهم من حمل مشاع إلى قادة للدنيا . علمائها وساداتها وساستها والقائمين على أمر العباد فيها في فترة لا تعتبر شيئاً إذا قيست بعمر الأمم والشعوب .

وهذا هو النصر الذي وعد الله به عباده المتقين ـ وهذا هو الاستخلاف الذي أراده الله لعباده المؤمنين في الأرض ، وهذا هو الميراث الذي قدره الله تعالى لعباده الأوفياء في أن تكون الأرض بعض ميراثهم .

يطول الحديث ويتشعب عن فكر الإسلام في الحكم ونظريته التي لم يكن لها سابقة في تاريخ البشرية ، وتلك القواعد والأسس التي نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

ومهما قلنا فإن السياسة في الإسلام قد حوت من الفكر والتوجهات والحدود ما لا يقدر على حملها إلا الأوفياء من الناس وهذا هو جيل المسلمين شقه الأول

المهاجرون وسائره الأنصار والذين تجلت لديهم معاني التضحية في مواقف رائعة كما سيرد الحديث عنها بعون الله .

ليس فقط التوجه السياسي ونظام الحكم هو المقصود بذاته في هذه الدراسة وإنما هي الحدود التي أقرها الإسلام والتي ما عرفها نظام قبله ، ولا عرفتها أفكار الشعوب ، وعند التطبيق الأمثل أعطى نتائج مذهلة ما زالت في نظر الباحثين والمؤرخين معجزة قائمة وكلما عاود المسلمون تطبيقها بعودتهم إليها ، وعادوا للعمل الجاد بها بنفوس المؤمنين الأتقياء ، فإن وعد الله يتكرر ونصره المؤزر يظهر والعاقبة للمتقين .

حسبنا الله ونعم الوكيل ، وهو المستعان ، وإليه المآب ، والحمد لله رب العالمين .

عمان في ٢٥ / صفر ١٤١٣هـ

١٩٩٢/٨/٢٤م

الفصل الأول

مدينة يثرب قبل الإسلام

«موطن الأنصار»

القسم الأول : مدينة يثرب .

القسم الثاني : اليهود وقدومهم إلى يثرب .

القسم الثالث: العرب .

الفصل الأول

مدينة يثرب قبل الإسلام

((موطن الأنصار))

القسم الأول

مدينة يثرب

معنى يثرب في « لسان العرب » مادة «ثرب » :

الثرب : شحم رقيق يخشى الكرش والأمعاء وجمعه « ثروب »

و**الثرب** : الشحم المبسوط على الأمعاء والمصارين .

شاة ثرباء : عظيمة الثرب ، وأنشد شعرا :

وأنتم بـشحم الكليتـين مـع « الثـرب »

وفي الحديث : نهى عن الصلاة إذا صارت الشمس « كالأثارب» ، أي إذا تفرقت وخصت موضعا دون موضع عند المغيب .

وفي الحديث : «إن المنافق يؤخر العصر حتى إذا صارت الشمس «كثرب» البقرة صلاها»

التَّثْرِيبُ : التأنيب ، والتَّعييرُ ، والاستقصاء في اللوم .

الثاربُ : الموبخ . يقال : ثرب وثرّب وأثرب : إذا وبخ .

قال نصيب :

إني لأكـره مـا كَرِهْـتَ مِـنَ الـذي يؤذيـك سـوء ثنائـه لم يَثْـرِبِ

قال : « الـمثْـرَب » قليل العطاء ـ وهو الذي يمن بما أعطى .

ثَرَبَ عليه: لامه وعيره بذنبه ، وذكره به .

قال تعالى : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] .

قال الزجاج : معناه لا إفساد عليكم .

قال ثعلب : معناه لا تذكر ذنوبكم .

قال الجوهري : وهو من الثرب ، كالشغف من الشغاف .

والمثرب : المعير ، وقيل : المخلط المفسد .

والتثريب : الإفساد والتخليط .

ويصل بعد ذلك صاحب اللسان إلى القول :

ويثرب : مدينة سيدنا رسول الله ﷺ ، والنسب إليها : يَثْرَبِيّ ويَثْرِبِى وأَثَرِبىّ ، وأثِرِبى ففتحوا الراء استثقالا لتوالي الكسرات .

وروى عن النبي ﷺ : أنه نهى أن يقال للمدينة : يثرب وسماها : « طيبة » .

كأنه كره كلمة « الثرب » لأنه فساد في كلام العرب .

قال ابن الأثير : يثرب اسم مدينة النبي ﷺ قديمة ، فغيرها وسماها :« طيبة» و«طابة» كراهية التثريب وهو اللوم والتعيير .

وقيل : هو اسم أرضها .

وقيل : سميت باسم رجل من العمالقة .

ونصل يثربي ، وأثربي: منسوب إلى يثرب .

وقوله: ما هو إلا اليثربي المقطع .

زعم بعض الرواة أن المراد باليثربي السهم لا النصل وأن يثرب لا يعمل فيها النصال .

قال أبو حنيفة : وليس كذلك لأن النصال تعمل بيثرب وبوادي القرى وبالرقم وبغيرهن من أرض الحجاز .

والثرب : أرض حجارتها كحجارة الحرة إلا أنها بيض .

وأثارب : موضع [١] .

وفي مختار الصحاح ثَ رَ بَ (الثرب) شحم قد غشى الكرش والأمعاء .

والثرب : التعيير والاستقصاء في اللوم .

ويثرب : مدينة الرسول ﷺ [٢] .

وفي معجم البلدان يثرب : بفتح أوله وسكون ثانية ، وكسر الراء ، وباء موحدة .

وقال أبو القاسم الزجاجي : يثرب مدينة الرسول ﷺ سميت بذلك لأن أول من سكنها عند التفرق (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عوْض ابن أرم بن سام بن نوح عليه السلام) .

فلما نزلها رسول الله ﷺ سماها طيبة وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسول لنزوله فيها [٣] .

قال : ولو تكلف متكلف أن يقول في يثرب : أنه يفعل من قوله تعالى: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يوسف:٩٢] . قال المفسرون وأهل اللغة : معناه لا تعيير عليكم بما صنعتم .

ويقال: أصل التثريب ، الإفساد .

ويقال: ثرب علينا فلان .

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ١/ ٣٥٢ .

(٢) مختار الصحاح ـ الرازي ص٨٣ وتهذيب الصحاح ـ الزنجاني مادة (ثرب) ١/ ٤١ .

(٣) جواد علي ٤/ ١٢٨ . شعراء الحرب ـ الخطراوي ١٩ .

وفي الحديث :«إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ، ولا يثرب» أي لا يعير بالزنا . ثم اختلفوا فقيل : إن يثرب للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ . وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ ولما حملت (نائلة بنت الفرافصة) إلى عثمان بن عفان ﷺ قالت تخاطب أخاها :

أحقا تـراه اليـوم يـا خـب أننـي مـصاحبة نحـــو المدينـــة أركبـــا

لقد كان في فتيـان حـصن بـن خـضم لـك الويـل مـا يجرى الحبـاء المحجبا

قـضـــى الله أن تمـوتـــي غريبـــة بيثـــرب لا تلقـــين أمـــا ولا أبـــا

قال ابن عباس ﷺ : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثا ، إنما هي طيبة.

وقال النبي ﷺ لما هاجر: «اللهم إنك أخرجتنس من أحب أرضك إلى فأسكنى أحب أرضك إليك » ، فأسكنه المدينة ، وأما حديثها وعمارتها فقد ذكرته في المدينة وقد نسبوا إليها السهام فقال « كثير » :

ومـــاء كـــأن اليثربيـــة انـــصلت بأعقـــاره دفـــع الإزار نـــزوع[١]

وكانت يثرب موضعا معروفا منذ زمن بعيد ، منذ أيام المعنيين ، ومع أن تاريخها الأول غامض أيضا فإن الأخبار التي وصلت إلينا من تاريخها أقدم من تلك التي وصلت إلينا من تاريخ مكة .

أسماء المواضيع المشتقة من الجذر « ثرب » وقريبه « ثرب » ليست قليلة ، ولعل الموضوع الذي يأخذ اسمه من ثرب بالثاء المنقوطة بثلاث نقط فقط أقدم عهدا من الموضع الذي يأخذ اسمه من ترب في القاموس المحيط ١ / ٤٠ .

ترب : كثر ترابه، مما يدل على أن الموضع المسمى بصيغة من هذا الجذر كثير التربة خصب وتربة واد ، وتربية ، وترابة : موضعان في اليمن . وتربان : واد بين الحفير

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموى ، ص ٤٣٠ .

والمدينة.وثربان بالثاء حصن في اليمن.وأثارب بالثاء أيضا:قرية بحلب . ويثرب، وأثرب بالثاء : مدينة النبي ﷺ موضع بحثنا هنا . أما يترب بنقطتين فوقها فقط فموضع قرب اليمامة القاموس ١/ ٣٩ ـ ٤٠ ويبدو أن اسم «المدينة» علما على يثرب كان قديما ، ولكن الاسم ((يثرب))أقدم ، ولعله الاسم ((أترب))أكثر قدما[١] .

ويثرب : مدينة قديمة ورد ذكرها في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي أقامت فيها جاليات من معين،ثم آل أمرها إلى السبئيين بعد أن دالت دولة المعينين. ومن المعروف أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهما في بلاد العرب الشمالية .

كذلك جاء ذكر يثرب في جغرافية بطليموس البيزنطي باسم **Iathrippe** ومرة باسم **Iothrippe** . وذكر (اصطفيانوس) البيزنطي باسم **Iathrippapolis** وعرفت عند الإخباريين باسم ((أثرب)) ويثرب .

وذكر أن يثرب هي أم قرى المدينة ، وحددوا امتدادها ما بين طرف (قناة) إلى طرف (الجرف) . وما بين المال الذي يقال له : (البرناوي) إلى (زبالة) .

ويزعم بعض الإخباريين أنها سميت يثرب نسبة إلى (يثرب بن قانية بن مهلائيل .....) وهو أول من نزلها من بعد تفرق ذرية نوح .

وزعم أخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو (التثريب) أي المؤاخذة بالذنب .

وذكروا أن النبي ﷺ ، نهى عن تسمية يثرب بيثرب وسماها طيبة وطابا كراهية للتثريب .

وذكر البلاذري أن يثرب سميت باسم رئيس للعماليق الذين نزلوها بعد أن أخرجوا منها بني عبيل بن عوض بن سام من ولد نوح[٢] .

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) أنساب الأشراف ـ البلاذري ص د ، مروج الذهب ـ المسعودي ١ / ٤٢ .

وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقوله المنافقون .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

ويشير المسعودي إلى أن ما وقع في القرآن الكريم من تسميتها بهذا الاسم إنما هو حكاية من قول المنافقين[١] ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن(يثرب) في سالف الزمان قوم يقال لهم (صعل) و (فالج) فغزاهم النبي داوود عليه السلام وأخذ منهم أسرى ، وهلك أكثرهم وقبورهم في ناحية الجرف .

وسكنها العماليق ، فأرسل عليهم النبي موسى جيشا انتصر عليهم وعلى من كان ساكنا منهم بـ(تيماء) فقتلوهم . وكان ذلك في عهد ملكهم (الأرقم بن أبى الأرقم) ولم يترك الإسرائيليون منهم أحدا وسكن اليهود في مواضعهم[٢] .

ونزل عليهم بعض قبائل العرب ، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل ، ومن هؤلاء (بنو أنيف) تصغير (أنف) وهم حي من (بلى) .

ويقال : إنهم بقية من العماليق .

(وبنومريد) مزيد (مرثد) ، حي من «بلى» وبنو معاوية بن الحارث بن بهته بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان .

---

(١) تاريخ العرب ـ سيد عبد العزيز ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٢) يلاحظ كثير من المغالطة فى هذه الرواية من «الإسرائيليات» ، وذلك لإثبات بعض الحق لليهود فى المدينة ، خاصة أنهم أخرجوا منها وقتلوا . فسيدنا موسى عليه السلام لم يتمكن من ضبط بني إسرائيل ليقاتلوا عدوهم ويدخلوا أرضهم التي وعدوا بها فقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] .

فكيف يتسنى لموسى عليه السلام أن يرسل جيشا كبيرا من صحراء التيه إلى يثرب ليقاتل ملكها الأرقم ابن أبي الأرقم ، مع توافق اسم الملك مع الرجل الصحابي الذي فتح داره للدعوة الإسلامية في بداية عهد الإسلام . ومن المؤكد تاريخيا أن اليهود جاؤوا إلى يثرب بعد النكبات التي لحقت بهم على يد الآشوريين والبابليين ومن بعدهم الرومان «شعراء الحرب: الخطراوي» ٣٥ فما بعد .

وبنو الجدمي (الجدماء) هي من اليمن . فعاشوا مع من كان بيثرب وأطرافها من اليهود ، واتخذوا المنازل والآطام يتحصنون فيها من عدوهم إلى قدوم الأوس والخزرج إياها[١] .

الاسم القديم لمدينة الرسول إنما هو يثرب، وقد اختلفوا فيها إذا كان اسما للمدينة نفسها أم لموضع مخصوص من أرضها،أو أنها اسم للناحية التي منها مدينة الرسول. أما اسم المدينة الذي أطلق على يثرب بعد الهجرة النبوية فقد يكون مأخوذا من لفظة (مدينتا) **MEDINTA** الآرامية ، ومعناها الحمى أو المدينة ، وقد يكون اختصارا من (مدينة الرسول) . وأعتقد أنه في كلتا الحالتين أطلق عليها بعد الهجرة ولم يكن يطلق عليها قبل ذلك ، وإن كان بعض المستشرقين يرى أن اليهود والمتأثرين بالثقافة الآرامية ، أو بعض المتهودة من بني أرم الذين نزلوا بيثرب ودعوها «مدينتا» ومن هذه اللفظة جاءت لفظة المدينة أي أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل ظهور الإسلام على يثرب[٢] .

وأقدم مورد أشير فيه إلى «يثرب» هو نص الملك «بنونيد» ملك بابل الذي سكن (تيماء) أمدا، وذكر فيه أنه بلغ هذه المدينة وقد عرفت (بيثربة) **(JATHRIPA)** في جغرافية بطليموس ، وعند اصطيفان البيزنطي عرفت بالمدينة كذلك وكلمة **MEDINTA** و **MEDINTO** الإرمية التي تعني (مدنية) في (عربتنا) و (هكر) في العربية الجنوبية .

وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية ، ويظهر أنها عرفت (بمدينة يثرب) على نحو ما وجدنا في كتاب (إصطيفان البيزنطي) ثم اختصرت فقيل لها (مدنيتا): أي المدينة ولما نزل الرسول بها عرفت (بمدينة الرسول) في الإسلام

ولقدم تاريخ (يثرب) ولورود اسمها في نص (بنونيد) الذي يدل على أنها كانت

---

(١) جواد علي ٤/ ١٢٩ .

(٢) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ٣٣٢ .

معروفة آنذاك ، لا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات وآثار قد تكشف عن بعض تاريخ هذه المدينة في أيام ما قبل الإسلام .

وعثر في مواضع لا تبعد كثيرا عن (يثرب) على كتابات جاهلية لم تعرف هويتها الآن لأن الباحثين لم يتمكنوا من فحص مواضعها ، ومن نقلها إلى العلماء المختصين لقرائتها ؟ كما أنهم لم يتمكنوا من تصويرها . ولا من التنقيب في تلك الأماكن تنقيبا علميا .

وقد أشار عثمان رستم إلى وجود كتابات من هذا النوع على جبل (سلع) وعند موضع بئر عروة بوادي العقيق .

وفي أماكن أخرى أرجو أن يصل إليها الباحثون للتنقيب فيها وحل رموز هذه الكتابات وقد يعثر على كتابات أخرى مطمورة في تربة (يثرب) ، وفي الأماكن القريبة منها تقدم للقادمين من بعدنا أسرار هذه المدينة المقدسة[١] .

وإطلاق اسم يثرب على المدينة فيه خلاف بين المؤرخين فبينما يراه ابن عباس ﷺ عنه اسما للمدينة نفسها نجد أن أبا عبيدة يؤكد أنه اسم للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ ، أي أن لفظ يثرب أعم من لفظ المدينة .

ويذكر العلامة السمهودي[٢] أن محمد بن الحسن بن زبالة يقطع بأن يثرب أو أثرب اسم لموضع مخصوص من أرض المدينة لأنه كان ينشر فوق أرض المدينة عديد من القرى العامرة المأهولة ، غير أن يثرب هي أم قراها جميعا .

وسميت المدينة المنورة مدينة من قولهم مدن بالمكان إذا أقام ، أو من دان إذا أطاع والميم على هذا التفسير زائدة ، لأن السلطان يسكن المدن فتقدم له طاعة فيها أو لأن الله تعالى يطاع فيها . وهذه التسمية إسلامية ، فالاسم الذي كانت معروفة به قبل هجرة الرسول ﷺ إليها إنما هي يثرب ، وهي مكان مخصوص منها كما سلف ،

---

(١) جواد علي ٤ / ١٣٠-١٣١ .

(٢)وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ٨- ١٠ ، وأخبار المدينة (الدرة الثمينة) للحافظ بن محمود .

وأطلق عليها من باب إطلاق الجزء على الكل ، وهو الاسم الذي تعود أن يطلقه عليها بعض المؤرخين والشعراء .

وكانت يثرب من أول عهودها بلدا زراعيا راسخا في الحضارة ، بخلاف مكة التي كانت البداوة تغلب عليها في حياتها السياسية ، وحياتها الاجتماعية على الأقل لا في حياتها الاقتصادية[1](٢) . ويثرب هذه التي هي جزء من المدينة يشير بعضهم إلى أنها واقعة في الجزء الشمالي من المدينة ابتداء من شمال جبل سلع إلى منتهى (زغابة) ومنطقة العيون، على أن البعض يحدها جنوبا بزبالة، وزبالة هي المنطقة التي تقع فيها بئر رومة وبستان الأزهري ، ويقع شرقيها المجرى القديم لوادي مهزوز ، وعلى غربها مجرى وادي العقيق .

وحددها ابن النجار بأنها الجزء الواقع ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذي يقال له: البرناوي إلى زبالة .

أما المدينة نفسها فقد جعل لها الرسول ﷺ حرما محدودا جنوبا بجبل (عير) (مرادف للحمار) وبعضهم يسميه (عاير) ، وهو جبل كبير مشهور بغرب ذي الحليفة ـ ميقات المدينة .. وشمالا بجبل (ثور) (فحل البقر). وهو جبل صغير مدور شمالي أحد وهو إلى الحمرة أقرب على شمال المتجه إلى(العاقول) من الطريق المسفلت اليوم بين المدينة والمطار إذا ما وصل إلى المكان المعروف بمقعد بني مطير .

وقيل: هذا القبيل الذي شقه الطريق المسفلت إلى المطار والمعروف الآن بمقعد بني مدير[٣] ويتفق الإخباريون على أن يثرب سميت بمدينة الرسول لنزول رسول الله بها ، ولنفوره من اسمها القديم سواء أكان بمعنى التثريب أو الإفساد أو لأنه رئيس من العمالقة الذين نزلوا بها في العصور القديمة فيما يقرب سنة ٢٦٠٠ ق . م على حد قول بعض الباحثين المحدثين .

---

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ١١٦

(2) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ١١٦

(٣) شعراء الحرب ـ الخطراوي من ٢٠ -٢١ . مرآة الحرمين ـ رفعت باشا ١/ ٤٤٧

مدينة يثرب :

ذكر الإخباريون أن ليثرب أو المدينة تسعة وعشرون اسما هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة، والمسكنة ، و العذراء ، و الجابرة ، والمحببة ، والمحبورة ، ويثرب والناجية ، والموفية ، وأكالة البلدان ، والمحفوفة ، والمسلمة ، و المخبة ، والقدسية ، والعاصمة ، و المرزوقة ، و الشامية ، والخيرة ، و المحبوبة ، والمرحومة ، و جابرة ، و المختارة ، و المحرمة ، و القاصمة ، و طابا .

وأضاف إليهم بعضهم: البحرة ، البارة ، والبرة ، وتنور ، والحسيبة ، ودار الأنصار ، وحسنة ، ودار الأخبار ، ودار الإيمان ، ودار السنة ، ودار الهجرة ، والمختارة ، وغلبة ، وقبلة الإسلام ، والمحفوظة ، ومدخل صدق ، والمقدسة[1] وجعلها السمهودي أربعة وتسعين اسما[2] .

أما ابن زبالة فيجعل أسماءها أحد عشر اسما هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكنية، وجابرة، والمجبورة، والمرحومة، والعذراء، والمحبة، والمحبوبة، وقاصمة وكل هذه الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة ، أي في العصر الإسلامي باعتبارها دار الهجرة ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين .

وهناك اسم عرفت به بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين حرتي (راقم) و(وبرة) فهي ذات الحرار ، أو ذات الأحرين .

ومعظم أسمائها صفات وصفت بها لتغطيتها ، وإظهار فضائلها وآثارها[3] .

الموقع:

تقع مدينة يثرب على بعد نحو ٥٠٠ كيلو متر إلى الشمال من مكة في بسيط من

---

(١) عمدة الأخبار ص١٤ .

(٢)وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ٨- ٢٧ أولها (أثرب) وآخرها (يندر) وهي ٩٤ إسما.

(٣) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٣ . تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ١٨٥ المدينة في العصر الجاهلي ـ الخطراوي ، ص٢٤ .

الأرض مكشوف من سائر الجهات في مرة سبخة من الأرض كثيرة المياه والشجر والدوحات وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد ، ويقع شمال يثرب . في حين يقع جبل عير الوارد في جنوبها الغربي. وجبل عير جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق، أحدهما عير الوارد ، والآخر عير الصادر . وإلى الشرق من يثرب بقيع الغرقد ، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة ، وإلى الجنوب منها تقع قرية القرع على الطريق المؤدية إلى مكة .

الوديان:

وادي العقيق : من أخصب مناطق يثرب ، ويبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال ، وقيل : بستة أميال ، والعقيق مجموعة (أعقة) ، أي أودية شقتها السيول . أحدها عقيق المدينة عق عن حرثها ، وهذا العقيق الأصفر ، ومنه بئر رومة .

وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربى من يثرب على مسيرة ساعة منها بالقرب من مجمع الأسيال، في بـراح من الأرض،وكانت ملكا ليهودي في الجاهليـة فاشتراها منـه عثمان بـن عفان بماله،وتصدق بها على المسلمين في عهد الرسول ﷺ[1] .

وذكر ابن عبد البر : أنها كانت ركية (بئرا) ليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : «من يشتري (رومة) فيجعلها للمسلمين ؟ يقترب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة» .

فأتى عثمان بن عفان ﷺ اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى عثمان نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين ، فقال له عثمان : إن شئت جعلت لنصيبي قربين ، وإن شئت فلي يوم ولك يوم . فقال : بل لك يوم ولي يوم ، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلما رأى اليهودي ذلك

(١) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٥ . مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت ص٤٠٧ . تاريخ العرب في الجاهلية الجميلي ١٨٦. . دراسات في تاريخ العرب ـ بيومي ص ٤٣٥ مختارات من صبح الأعشى ٥/ ٢٧٩ . الروض الأنف ١/ ٣٥ حيث إن فكيهة كانت تمد عند محاصرته المدينة الماء من بئر رومة .

قال : أفسدت على ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم . وهذه البئر في أسفل وادي العقيق قريبة من مجمع الأسيال في براح واسع من الأرض[(١)] ويحيط العقيق بيثرب أيضا من جهة الجنوب الغربي،ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة، فهو يقع بعد قباء إلى الشمال من وادي النقيع ، وكانت تشغله غابات كثيفة ، أما من جهة الغرب فكان يمتد إلى ما بعد ذي الحليفة عند آبار علي . وكان الرسول ﷺ قد أقطعه بلال بن الحارث المزني ثم أقطعه عمر ﵁ عنه الناس .

ومن وديان المدينة أيضا وادي بطحان : ويقع إلى الغرب من يثرب ، ووادي رانون ويبدأ من جبل عير قبلي المدينة ، ويمبر بقباء ، ثم يختلط بوادي بطحان .

ومن أوديتها أيضا (وادي مذينيب) : في الجنوب الشرقي ، وهو شعبة من بطحان ووادي قناة ، ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب .

ووادي مهزوز : في الجنوب الشرقي ويأتي من الحرة الشرقية حرة واقم ، وبالعتيق عرصتان هما عرصة البقل ، وعرصة الماء ، وثلاث جماءات هي جماء تضارع ، وجماء أم خالد ، وجماء العاقر .

والعرصة : أرض فضاء متسعة لا يقوم فيها بناء ، أما الجماء فهضبة مسطحة لا قمم لها والعرصتان من أكرم بقاع المدينة[(٢)] .

الحرات:

أما حرات يثرب فهي ثلاث :

حرة واقم في الشرق : وهي من أشهر حرات بلاد العرب ، وتربتها من أخصب بقاع يثرب . وذكروا أن واقم اسم رجل من العماليق سميت به . وقيل إنه اسم أطم من آطام بني عبد الأشهل إليه تضاف الحرة ، وكانت تسكن أرض هذه الحرة بطون

---

(١) مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت ١ / ٤٣٠ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٥ . مكة قبل الإسلام ص٢٢ . تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص١٨٤ .

من الأوس منها بنو عبد الأشهل، وبنو ظفير ، وبنو معاوية ، كما كانت تسكنها أيضا قبائل من يهود بني قريظة والنضير ، وبهذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد سنة ٦٣ هـ [(١)] ، وعرفت أيضا بحرة قريظة لأنهم كانوا ينزلون بطونها القبلي ، كما عرفت أيضا بحرة زهرة لمجاورتها لها وزهرة من أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والسافلة .

حرة الوبرة في الغرب : وعرفت بحرة بني بياضه ، وكانت على بعد ثلاثة أميال من يثرب مشرفة على وادى العقيق الذي يليها غربا

حرة قباء : وتقع إلى الجنوب من يثرب .

إلى جانب هذه الحرات هناك ثلاث حرات أخرى بالقرب من يثرب هي حرة شوران وحرة النار بالقرب من حرة ليلى[(٢)]

بيوت يثرب :

يظهر من روايات أهل الأخبار عن البيوت أن في بيوت يثرب بيوت تكونت من طابقين أرضي وطابق علوي ، وكانوا يسكنون الطابقين ، ولعلهم كانوا يودعون مواشيهم ودوابهم الطابق الأرضي، أو مواضع ملحقة بهذا الطابق.(وكانت دار أبي أيوب الأنصاري التي نزل بها الرسول ﷺ ذات طابقين نزل الرسول ﷺ بطابق وسكن أبو أيوب الطابق الثاني)[(٣)]

الآبار والعيون :

وأشهر آبار المدينة عدا بئر رومة :

١ـ بئر أريس : وتسمى بئر الخاتم وبئر التفلة ، وهي داخل حديقة وعمقها ١٣م

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٦

(٢) تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص١٨٥ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٦

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٥/ ١٧

وفي أسفلها فتحتان يجري منهما الماء إلى قاع البئر ، وفتحة ثالثة تصلها بمجرى العين الزرقاء التي يشرب منها أهل المدينة . وأريس الذي سميت البئر باسمه رجل من اليهود ومعناه بلغة الشام (الفلاح) وتسمى بـ (الخاتم) ؛ لأن بها وقع خاتم الرسول ﷺ ، أخرج البخاري في صحيحه من حديث أنس قال : كان خاتم رسول الله ﷺ في يده وفي يد أبي بكر بعده ، وفي يد عمر بعد أبي بكر . قال : فلما كانت خلافة عثمان بن عفان ﷺ جلس على بئر أريس فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط . قال : فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان ننزح البئر فلم نجده . وكان ذلك بعد ست سنين من خلافته .

وثبت عن ابن عمر في صحيح مسلم أنه سقط من يدي معيقيب وهو دوسي من أصحاب الهجرتين وفي صحيح البخاري حديث طويل فيه أن النبي ﷺ ذهب إلى بئر أريس فتوضأ فيها وجلس على كتفها (المرتفع منها) وكشف عن ساقيه وأدلى بهما في البئر ، وأن أبا هريرة تبعه إليها ، وثلثهما أبو بكر ، وأتى بعده عمر ثم عثمان فتوضؤوا جميعا وجلسوا عليها كما جلس رسول الله ﷺ وتسمى هذه البئر أيضا بئر التفلة ، ويقولون: إن النبي ﷺ تفل فيها فعذب ماؤها بعد أن كان أجاجا ، وقد ذكر الغزالي هذا في إحياء علوم الدين، وقال العراقي مخرج أحاديث الكتاب : إنه لم يقف على أصل حديث تفله ﷺ في بئر أريس(١) .

٢ـ بئر الأعواف : وهي إحدى صدقات النبي ﷺ .

٣ـ بئر أنا: وهي التي ضرب الرسول الله ﷺ قبته عليها حينما حاصر بني قريظة وشرب منها ، وهذه البئر غير معروفة الآن ، وربما كانت معروفة بالمدينة باسم غير هذا الاسم .

٤ ـ بئر أنس بن مالك بن النضر : وتضاف أيضا لأبيه ، وهي التي ورد ذكرها في حديث أنس الصحيح قال: أتانا رسول الله ﷺ في دارنا هذه ، فاستسقى فحلبنا شاة

---

(١) مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت ١/ ٣٩٨ .

لنا ثم شبته من بئرنا هذه فأعطيته فشرب وعمر بين يديه ، وأبو بكر عن يساره واعرابي عن يمينه ، فأعطى الأعرابي فضله وقال الأيمن فالأيمن وهذه البئر الآن تعرف ببئر الحضارم ، وهي في رباط شمالي الحديقة المعروفة بـ (العينية) ويقرب البئر قبة على قبر يزعمونه قبر (عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم أبي النبي ﷺ) .

٥ــ بئر بضاعة : في منتهي عمار المدينة من جهة الشمال ، وهي التي كان يلقى فيها لحوم الكلاب والمحائض وعذر الناس وسئل ﷺ عن الوضوء فيه فقال :«الماء طهور لا ينجسه شيء» ـ روى ذلك أحمد والنسائي وصححه ، والترمذي وحسنه والدارقطني وأبو داود وابن ماجه ـ وزاد إلّا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه .

وفي رواية للبيهقي ، الماء طهور إلا إذا تغير ريحه أو طعمه أو لونه بنجاسة تحدث فيه ، وفي رواية النسائي عن أبي سعيد قال مررت بالنبي ﷺ وهو يتوضأ من بئر بضاعة فقلت أنتوضأ منها وهي يطرح فيها ما يكره من النتن..؟ قال «الماء لا ينجسه شيء» .

٦ــ بئر (بير حاء) : هذه البئر شمال المدينة بعد سورها شرقى بئر بضاعة ولكن يفصل بينهما بئر بضاعة ، وكان رسول الله ﷺ يستعذب ماءها ، وكانت فى بستان لأبي طلحة وقفه على أقاربه وبني عمه كما دل على ذلك حديث البخاري فى كتاب الأشربة (باب استعذاب الماء) .

روى عن أنس أنه قال : كان أبو طلحة أكثر أنصاري في المدينة مالا من نخل ، وكان أحب ماله إليه (بيرحاء) وكانت مستقبلة المسجد ـ المسجد قبلها ـ وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت آية: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة فقال : يارسول الله إن الله يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] ، وأنا أحب مالى إلى (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله ﷺ : «بخ ذلك مال (رابح أو رايح) – شك من الراوى ـ وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» .

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفي بني عمه.

٧ـ بئر رومة : وقد مر ذكرها بالحديث عن وديان يثرب .

٨ ـ بئر غرس وهي بئر بقباء في شرقي مسجدها على نصف ميل من جهة الشمال . روى ابن حبان فى كتاب الثقات عن أنس ﷺ أنه قال : ائتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت رسول ﷺ يشرب منها ويتوضأ[(١)]

وفى المدينة آبار أخرى مثل (**بئر القويم**) وهي من أكبر آبار المدينة ، (**وبئر العباسية** ، **وبئر العقيق**) ، وكان أهل المدينة فيما سلف يهدون مياه البئر الأخير إلى أمراء الشام.

هذه هي الآبار التي عليها معول أهل المدينة في سقى أراضيهم ومواشيهم أما مياه الشرب لأنفسهم فيأخذونها من عين الأزرق ، أو العين الزرقاء على ما هو مشهور في عرفهم وهذه العين منشؤوها بئر بقباء غربي مسجدها وتعرف بالجعفرية اجراها إلى المدينة مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة بأمر منه مشاربها حتى مصلى الأعياد[(٢)]

وفى ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عيون وادي حمزة التى تبلغ الأربعين عينا أو تزيد وحقيقة هذه العيون آبار فتح بعضها على بعض فتكونت منها مجارى ضيقة ومنشؤها شرق المدينة حيث الأرض عالية وتسير مغربة نحو حمزة ثم إلى غربي المدينة حيث الأرض هناك واطئة .

---

(١) حديث الآبار التي كان النبي ﷺ يتوضأ ويغتسل ويشرب منها وهي سبعة آبار ، تخريج الأحاديث وتصحيحها فى إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٠ من المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما فى الإحياء من أخبار

(٢) حديث طويل حول هذه العين مرآة الحرمين ١/ ٤٣١- ٤٣٣

ومن عيون المدينة عين السلطان وتجرى بحذاء عين الأزرق في مجرى دون مجراها، وماؤها ملح ، والغرض منها تطهير مجاري المدينة وسحب القاذورات خارج البلد [١].

المناخ :

والمناخ في يثرب شبيه بمناخ مكة فهو شديد الحرارة صيفا وبارد شتاء ، وتسقط أمطارها في أوقات قصيرة ولكنها بعنف محدثة سيولا في كثير من الأحيان . فقد سال وادي مهزور من بدايته عند حرة سوران والتقائه مع وادي بطحان في زغابة ملتقى السيول ، وسال هذا الوادي في خلافة عثمان بن عفان سيلا عظيما على المدينة خشى منه عليها من الغرق فأقام عثمان الردم الذي يقع عند بئر مدرى لرد السيل عن المسجد وعن المدينة . وسال مرة أخرى في خلافة أبي جعفر المنصور ، فندب والي المدينة الناس لصرف مياهه في وادي بطحان[٢] وتتخلف عن هذه الأمطار غدران ومستنقعات وبرك ، ومن أشهر الغدران في وادي العقيق ـ غدير السدر وغدير يرخم ، وغدير سلاقة ، وغدير البيوت ، وغدير حصير ، وغدير المجاز ، وغدير المرسى.

وينشأ عن ركود المياه في هذه المناطق انتشار الأوبئة والأمراض[٣].

وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها ، فقد قدم الرسول وأصحابه إلى المدينة وهي وبيئة ، فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها وحول وباءها إلى الجعفة»[٤]. فالمدينة كانت على حد قول بلال «أرض الوباء» وكان سبب هذه الحمى أن مياه بطحان كانت أجنة وروى ابن إسحاق : أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها

---

(١) مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت ١/ ٤٢٨ ـ ٤٣٤ .
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٧ .
(٣) تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص١٨٥ .
(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢/ ٢٣٩ .

وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرفه الله عن نبيه ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها : فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم اعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبي بكر فقال فقلت : كيف تجدك يا أبت ! أي كيف تجد نفسك .. ؟ فقال :

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه ... كالثور يحمي جلده بروقه

قالت: فقلت ما يدري عامر ما يقول . وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

ويجمع الإخباريون على أن الوباء كان شديدا عند دخول النبي إلى يثرب ، وذكر ابن إسحاق عن هشام بن عروة قال : وكان وباؤها معروفا في الجاهلية[1] .

وقد حدث أن غابت الأمطار وعزت على المدينة فترة طويلة، ولكنها أن تلبث أن جاءت بعد أن صلى النبي بالمسلمين صلاة الاستسقاء ، وامتد سقوطها أسبوعا حتى بدأت بعض بيوت المسلمين تنهار ، وانقطع المرعى عن الماشية بسبب كثرة مياه الأمطار فاضطر الرسول ﷺ أن يسأل الله اللطف ورفع يديه إلى السماء وقال:

---

(١) تاريخ العرب ـ سيد عبد العزيز ص٣٣٠ .

«اللهم حوالينا ـ أي أنزل المطر حوالينا ـ ولا تنزله علينا ـ والمراد صرفه عن الأبنية» [١]

وقد تكلمت قريش عن المسلمين في عمرة القضاء بأن حمى يثرب قد أكلتهم، باعتبار أن هذه الحمى معروفة للناس تماما . فأمر الرسول ﷺ أن يكشف المسلمون سواعدهم اليمنى وهم يطوفون حول الكعبة وهذه السواعد هي المقابلة لقريش حتى يروا مبلغ قوتهم وعزيمتهم ، وأن حمى يثرب قد زالت وبارك الله فيها

وجو يثرب على العموم خير من جو مكة فهو ألطف وأفرح ، ولم يعان أهلها ما عان أهل مكة من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليها ، حتى بعد حفر بئر (زمزم) فالماء متوفر بعض الشيء في المدينة وهوغير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر آبار في البيوت ولهذا صار في إمكان أهلها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق والتفسح فيها ، والخروج إلى أطراف المدينة للنزهة ، فأثر ذلك في طباع أهلها فجعلهم ألين عريكة وأشرح صدرا من أهل البيت الحرام[٢] وهذا دليل على أن المياه الجوفية متوفرة في يثرب بكثرة ، وذلك من عدد الآبار والينابيع الكثيرة في المدينة والتي ورد ذكرها ، وكذلك الأسيال والأودية التي تمر بقربها وبها ، تحمل المياه والسيول عند هطول الأمطار على جبال سراة الحجاز ، ولذلك اعتبرت من المناطق الزراعية الهامة التي حصل عليها نزاع كبير في الجاهلية .

ويثرب مثل مكة من شعاب تسكنها بطون الأوس والخزرج ، الأوس في شعاب والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب ، وفي الشعاب حوائط (بساتين صغيرة) وفي الحوائط (آبار) يستقون منها للشرب وللسقى وللغسل كما كانت فيها دور مبنية بالآجر ، ودور مبنية باللبن ، وبعضها ذو طابقين ، وقد احتفر اليهود آبارا كانوا يبيعون الماء منها بدلا مثل بئر رومة .

ويثرب على شاكلة مكة بغير سور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلا

---

(١) المصدر السابق ص٣٣٧ عن كتاب الإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ـ القسطلاني ٢/ ٣٧٢.
(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٢

أمام من يريد بالمدينة سوءا ، وقد كان عماد دفاع أهلها التحصن في بيوتهن وبسد منافذ الطرق في أثناء الخطر، والأغنياء والموسرون يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم ، يلجؤون إليها عند الشدة ومن معهم من أتباعهم يرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهام وبالحجارة ، إذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف .

وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخو بتلك الحرب ، وصاروا يؤرخون بـ (عام الآطام) وذكر أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت أيام عثمان ﷺ[١] . ويظهر من وصف أهل الأخبار ليثرب أنها كانت بشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوها من سور ، ومن تكونها من (قصور) وهي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضيع دفاعها آناء الشدة وأوقات الحروب .

وقد عرفت بـ (أطم) و (آطام) عند أهل يثرب . وذكر أن (الأطم) كان حصن بنى بحجارة ، أو كل بيت مربع مسطح . وورد أن (الأطوام) : القصور والحصون لأهل المدينة والأبنية المرتفعة كالحصون[٢] .

وقد كان يهود الحجاز الساكنون في شمال المدينة قد حصنوا قراهم بآطام يلجأون إليها،ويجتمعون بها أيام الخطر،وقد عرفت هذه الحصون عندهم (بآطام) وواحدها (آطم) ، وأما القرية فهي (قرية) في العبرانية وتسمى بـ«قريتا» **(KERITHA)** في لغة بني آرم .

ويقال للحصن (الأجم) والجمع (آجام) وقد ورد ذكر الاجم في شعر امرئ القيس :

وتـيماء لم يـترك بهـا جـذع نخلـة ولا أجمـا إلا مـشيدا بجنـدل

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ١/ ١٤ .

(٢) تاج العروس ٨/ ١٨٧ (أطم). اللسان ١٢ / ١٩ (حاشية من جواد على ٤/ ١٣٢) .

ويقال للحصن: (لآطم) كذلك والجمع (آطام) ولا تزال آثار آطام الجاهلية باقية في الحجاز ونجد ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب وفي وادى (الحفر) بنجد ويعرف (بحضر بني حسين) آثار قصور وآطام جاهلية وآبار كثيرة .

وذكر بعض علماء اللغة : أن (الآطام) القصور والحصون ، وخصصها بعض آخر بالدور المسطحة السقوف وقد اشتهر (الأبلق) وهو حصن(السموأل بن عادياء) في التاريخ ، وهو في تيماء ، وورد اسمه في شعر للأعشى مدح به السموأل .

وكانت الأوس والخزرج تتمنع بالآطام وتحارب عليها ، وقد أرخت بحرب وقعت فيما بينهم بها فقالوا : (عام الآطام) وقد أخربت في أيام عثمان ﷺ .

ويقال للأطم: (الأجم) أيضا . فكانت الآطام هي وسائل الدفاع عند أهل يثرث إذ لم يكن حولها سور يحميها من غزو الأعداء ، فكانوا إذا حوصروا ، أو وقع عليهم غزو لجأوا إلى آطامهم يتحصنون بها ، ويقذفون من أعاليها بما عندهم من وسائل دفاع لمنع العدو من الدنو منهم وإلحاق الأذى به . وهي جملة آطام تملكها البيوتات العريقة ، وسادات الشعاب المكونة ليثرب ، والقائمة على أساس التقسيم العشائري .

والآطام: بيوت السادات ورؤساء القوم ، يلجأ إليها الناس للدفاع عن أنفسهم وعنها وقت الخطر ، ويظهر من شعر (أوس بن صفراء) :

بث الجنود لهم في الأرض يقتلهم   ما بين بصرى إلى آطام نجران

إن نجران كانت ذات آطام كذلك[1] .

والمدينة عند وادى (أضم) يقال للقسم الذي هو عند المدينة منة (القناة) والتي هو أعلى منها عند السد،(الشظاة)،أما ما كان أسفل ذلك فيسمى (آخرا) إلى البحر، وذكر أن أضم عبارة عن واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر ، وأعلى أضم القناة

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٥/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

التي تمر دوين المدينة[1] .

وإن المدينة هي ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف ، وما بين الماء الذي يقال له (البوا) إلى (زبالة) [2] .

يتبع المدينة قباء :

قباء،بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف في الأخر،ويروى بالمد والقصر،والمد أشهر قال في (الروض المعطار) : ومن العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه قال : وسميت قباء ببئر كانت بدار توبة ابن الحسن بن السائب بن أبي لبابة يقال لها : (قباء) .

وهي قرية غرب المدينة على ميلين منها ، وبها مسجد التقوى الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] .

وقد روى أن رسول الله ﷺ كان يأتي قباء كل يوم سبت راكبا أو ماشيا ومصلاه بها مشهور[3] .

ويتبع المدينة أيضا ـ عدا قباء ـ قربان والعوالي : وكلها جنوب المدينة وتعتبر من ضواحيها ، وفي شمالها العيون والبركة عند مسجد حمزة ، وهي من الضواحي ، والحناكية ثم خيبر وهما بعيدان عن المدينة في شمالها الشرقي . وكانت خيبر في صدر الإسلام دار لبني قريظة ، وبني النضير (من يهود) [4] . وبها كان السموأل بن عاديا الشاعر المشهور ، وهي بلدة عامرة آهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجري .

وعلى مقربة من خيبر (فدك): التي صالح أهلها النبي ﷺ على النصف من ثمارها سنة أربع من الهجرة ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فكانت له ﷺ

---

(١) تاج العروس ٨/ ١٨٧ ، أضم حاشية جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٢ .
(٢) الأعلاق ـ ابن رسته ٦٣ جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٢ .
(٣) صبح الأعشى ـ للقلقشندي ٥/ ٢٨٤
(٤) زيادة عن الأصل .

خالصة ينفق منها في المصالح العامة . وكان معاوية قد وهبها لمروان بن الحكم ، ثم ارتجعها منه لموجدة وجدها عليه ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ردها إلى ما كانت زمن رسول الله ﷺ . وكانت تغل في أيام إمرته عشرة آلاف دينار ، وكان يتجافى عنها .

وتتبع المدينة (الفقرة) : وهي قرية على جبل عال منيع ، وبينها وبين المدينة ميسرة ٢٤ ساعة ، ومياهها ومزارعها في الجبل ، ولا يعرف مسالكها إلا سكانها ، حيث يسكنها الأحامدة الآن أقوى القبائل وأعتاها .

ثم (الحمراء) و (الصفراء) و (ينبع النخل) وينبع البحر . الحمراء على مسافة ٣٣ ساعة ونصف من المدينة ومسيرة ٢٥ ساعة من ينبع البحر وبها كثير من النخيل .

والصفراء على مسيرة ١٢كم من مدينة ينبع البحر وتشتهر بـ (الخيف) جمع (أخياف) و (خيفا) ، وهو ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء[1] .

(ودان) : بفتح الواو تشديد الدال المفتوحة ثم ألف ونون ، وهو واد قرى خراب لا تحصى كثرة .

و (الفرع) : بضم الفاء وسكون الراء والعين المهملة ، وهو وادى في جنوبى المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدة قرى آهلة . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية ، وماؤها يصب في رابغ حيث يحرم حجاج مصر ، وعليها طريق المشاة من مكة إلى المدينة . قال في (الروض المعطار) ويقال : إنها أول قرية مارت إسماعيل عليه السلام التمر . وهي الآن بيد بني حرب[2] .

و (الجار) : في اللباب بفتح الجيم ، وألف وراء مهملة ـ وهي فرضة المدينة الشريفة على ثلاث مراحل منها . قال ابن حوقل : وبينها وبين ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، منه عن آيلة نحو عشرين مرحلة .

---

(١) مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت ١/ ٤٤٦ .

(٢) زمن المؤلف .

«وادى القرى» : بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف في الآخر : جمع قرية ـ قال في (الروض المعطار) وهي مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون ، وبها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب ﷺ وهم الغالبون عليها[١] . وتعرف «بالواديين» والذي أخبرني به بعض أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدة قرى ، فخربت لاختلاف العرب ، وهي الآن خراب لا عامر بها ، ولو عمرت أغنت أهل الحجاز عن الميرة من غيرها . قلت : وبالغ الإدريسي في «نزهة المشتاق» فعد من مخاليفها تيماء ودومة الجندل ومدين والتحقيق خلاف ذلك .

الأماكن المقدسة في يثرب :

لم يشر أهل الأخبار إلى وجود حرم أو بيت بيثرب كان يتعبد فيه اليثربيون ، ويتقربون إليه بالنذور ، مع أنهم أشاروا إلى بيت اللات في الطائف ويثرب مثل الطائف . ومثل مدن أخرى ذات محجات ومعابد ، وقد كان أهل يثرب مثل غيرهم من المشركين يتقربون إلى الأصنام . وكانوا يحفظون أصناما لهم في بيوتهم يتقربون إليها كما كانوا يحجون إلى محجات كانت على مسافة من يثرب ولذلك يبدو غريبا سكوت أهل الأخبار عن ذكر بيت في هذه المدينة يحج إليه الأوس والخزرج ومن والاهم من قبائل وعشائر[٢] .

هذه بعض الأخبار المتعلقة بمدينة يثرب ، وعلى الرغم من تشابه الكثير من هذه الأخبار ، فإن بعضا منها ضرورى لدراسة سكان المدينة بعد ذلك ، وضرورى أيضا للتفصيل في حياتهم ومعاشهم وحروبهم . وما يزال الكثير غير معروف عن هذه المدينة ، حتى يقال : أن يثرب عند قيام بعض الحفريات فيها حديثا وجد أنها مدينة مبنية على مدينة أقدم منها لم يكشف النقاب عنها بعد . وهذا ما جعل أكبر مؤرخي العصر الجاهلي يقول : وتاريخ المدينة مثل سائر تواريخ هذه الأماكن التي نتحدث عنها (مناطق الجزيرة العربية ـ مكة ـ الطائف ..) مجهول لا يعرف من أمره شيئا

---

(١) صبح الأعشى ـ القلقشندي ٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٠ .

يذكره وإن مايذكره الإخباريون عن وجود العماليق وجرهم بها فأمر ـ وإن قالوه ـ لا يستند إلى دليل ، وحكمه حكم الأخبار الأخرى التي يروونها ، والتي عرفنا نوع أكثرها وطبيعته .

ولكن الشيء الذي نعرفه يقينا أن أهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الإسلام إلى يمن ، وكانوا يقسمون أنفسهم فرقتين الأوس والخزرج ، وبين الفرقتين صلة قربى على كل حال ، ثم يذكرون أنه كان بينهم يهود ، وهم على زعمهم من قدماء سكان يثرب[١] ويضيف بعض الباحثين الآخرين تأكيدا على هذا الرأي والقائل بعد وجود أسانيد قوية لتاريخ يثرب القديمة فيقول :

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول ، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها ، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة في تاريخ المدينة المقدسة القديم ، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمي ـ كالتي حدثت في الأعوام ١٣٣٣هـ ، ١٣٣٥هـ ، ١٣٥٢هـ في أحد البساتين ، وأبان حفر أساس القسم الشمالي لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء ، وفي المناخية جنوب السيل ، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية ، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى ـ الأمر الذي أشار إليه (السمهودي) منذ القرن التاسع الهجرى ، ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية إنما تعتمد في الدرجة الأولى على روايات الإخباريين[٢]

مناقب المدينة :

وأما المدينة الشريفة فهي «دار الهجرة» و«ذات الروضة والحجرة» وثبت أنه ﷺ قال : «إن الإيمان ليأرز ـ أي ينظم بتقديم الراء على الزاي ـ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها» متفق عليه .

---

(١) جواد علي ٤/ ١٣٣

(٢) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٣٦

وأنه ﷺ قال : «المدينة حرم من كذا إلى كذا». ولمسلم: «من عير إلى ثور لا يقطع شجرها ، ولا يحدث فيها حدث ، من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

و«ثور» جبل صغير خلف أحد من جهة الشمال[1]

ولأحمد ما بين عير إلى أحد (وعير مقابل لأحد) .

فضائل المدينة الشريفة :

وأنه ﷺ قال:«المدينة تنفي (خبث أو خبث) الناس كما تنفي النار خبث الحديد» متفق عليه

وأنه قال ﷺ :«على أنقاب أهل المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» متفق عليه

وأنه ﷺ قال :«صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» متفق عليه

وأنه ﷺ قال:«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» متفق عليه .

---

(١) إن تعريف ابن الديبع الشيباني «جبل ثور» على هذا النحو يتفق مع الحقيقة الواقعة وهو ما يتفق مع قول رسول الله ﷺ في تحديد حرم المدينة فى الحديث الذي أورده الإمام مسلم فى صحيحه : المدينة حرم ما بين عير وثور ولقد توهم أبو عبيد البكري ٤٨٧هـ في كتابه (معجم ما استعجم) وابن الأثير الجزرى م ٦٠٦هـ فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث» وياقوت الحموى م ٦٢٦هـ في كتابه «معجم البلدان» بنكران وجود جبل بهذا الاسم في المدينة ، وتأكيد وجوده فى مكة وهو الجبل الذي يحتوى على غار ثور الذي أوى إليه الرسول ﷺ فى طريق هجرته إلى المدينة (فتوح البلدان: البلاذري ص٢٢-٢٣) .

والحقيقة التي لا لبس فيها أن في حدود حرم مكة جبلا بهذا الاسم وفى حدود حرم المدينة جبل بالتسمية ذاتها ، ولذلك لا لزوم لكل التأويلات التي أخذ بعضهم فى شرح هذا الحديث . ولقد أولى المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي هذا الموضوع كل العناية في البحث لدفع هذا الخطأ ، وجاء بشتى الأدلة والأقوال التي تزيل الارتياب وتثبيت الحقيقة معتمدا على ما أورده القدامى في هذا الموضوع وما أخذ به المحدثون وأظهروه فى دراساتهم الطبوغرافية لحرمي مكة والمدينة مما يصح الرجوع إليه ـ صحيح مسلم ٢/ ٩٩٥ ـ ٩٩٨ حاشية (٤) .

ولا خلاف بين العلماء في أن هذين البلدين «مكة» و«المدينة» أفضل بلاد الله على الإطلاق ، وإن اختلفوا في أيهما أفضل ، فالجمهور على تفضيل مكة على المدينة إلا موضع قبره الشريف ، فأجمعوا أنه أفضل تربة في الأرض لما ورد أن كلا يدفن في تربته التي خلق منها

وهو ﷺ أفضل الخلق ، فتربته أفضل تربة في الأرض ، وأفضل موضع في مكة ، الكعبة ، ثم المسجد ، ثم دار خديجة ؓ لأنه أقام فيها نحو ثمانية وعشرين عاما .

وما أحسن قول القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في وصف تلك الرياض ـ أغنى مكة والمدينة : «وجدير بمواطن عمرت بالوحى والتنزيل ، وتردد في عرصاتها (عرصة ، وهو كل موضع واسع لا بناء فيه) «جبريل»، وعرجت (عرج: صعد) منها الملائكة والروح وضجت فيها (ضج ارتفع الصوت) بالتقديس والتسبيح، أن تعظم عرصاتها ، وتتنسم (تنسيم طلب النسيم واستنشقه) نفحاتها ،. وتقبل ربوعها وجدرانها مدارس الآيات ومشاهد الفضل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك (منسك : متعبد) الدين ، ومواقف سيد المرسلين ، حيث انفجرت النبوة والرسالة وفاض عبابها (العباب كغراب ـ معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه ـ وأول الشيء) وأول أرض مس جلد المصطفي ﷺ ترابها» (١)

وعن أبي هريرة ؓ يقول قال رسول الله ﷺ «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب .. وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد» (٢)

قال يونس قال لنا ابن وهب قلت لمالك ما تأكل القرى ؟ فقال تفتح القرى (فتحت مكة بالمدينة وما حول المدينة بها لأنها تأكل القرى أكلا إنما تفتح القرى بالمدينة)

(١) حدائق الأنوار ـ الشيباني قسم ١/ ٨٦ ـ ٩٠

(٢) متفق عليه ـ البخاري ٣/ ٢٦ ومسلم ٢/ ٤٨٨ .

وقال الغزالي[١] فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيرا ، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال : اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لى وقاية من النار،وأمانا من العذاب،وسوء الحساب.وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة ، وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه ، فإذا دخلها فليدخلها متواضعا معظما وليقل :

بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] صدق الله العظيم .

(١) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩

سرد تاريخي للحياة في يثرب

السكان :

أشارت الدراسات والاكتشافات في يثرب على أن هذه المدينة ربما تكون مبنية على أنقاض مدينة غيرها ، وهذ يدل دلالة واضحة على قدم وجود الناس في هذه المنطقة منذ عصور مغرقة في القدم.

والروايات التي بين أيدينا تشير إلى أن الذين تعاقبوا على هذه المدينة العرب من العماليق ، فاليهود ، فالعرب من اليمن ، ثم المسلمون حيث خلصت منذ فجر الإسلام لتصبح عاصمة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم .

السكان القدماء «العماليق» :

كان أول من نزل بيثرب هم العماليق ، فأقامت فيها قبائل منهم بنو هف ، وسعد بن هفان ، وبنو مطرويل(١) ثم سكنها بعدهم اليهود ، وبعد السيل العرم وانهيار سد مأرب قدمت إلى يثرب قبائل الأوس والخزرج فانتشرت في جنوبها وشمالها في جبل أحد(٢)

يرى بعض الباحثين أن كلمة يثرب محرفة من الكلمة المصرية «أتربيس» وعلى هذا الأساس يرجحون أن الذين بنوها إنما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، وإن كلمة «طيبة» أحد أسماء المدينة «بكسر الطاء» كانت مستعملة قبل الإسلام مأخوذة عن المصرية ، وعليه أيضا فعمران المدينة يبتدئ من سنة ١٦٠٠ ق . م .

ولكن هذا الرأي لا يبدو مقبولا تجاه الآراء الأخرى التي تدل على أن يثرب

---

(١) تاريخ العرب ـ الجميلي ص١٨٨

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص٢٨٠ ،٢٨١ ، تاريخ العرب : السيد عبد العزيز ص٣٣٩

كانت موجودة قبل موسى ﷺ عند الحديث عن نزول اليهود فيها

نقل ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٥/ ٤٣ ـ وعمدة الأخبار للعباسي ص٣٣ عن أبي القاسم الزجاجي أن من أسماء المدينة «يثرب» وقال : إنها سميت بذلك لأن أول من سكنها هو «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوض بن أرم ابن سام بن نوح ﷺ» [1]

فالذي يوحي مما سبق أن أول من نزل يثرب هو «يثرب» وهو من بنى عبيل إخوة عاد من العرب البائدة ، كما سكنها بعدهم أيضا العماليق وهم «بنو عملاق» بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ومنهم بنو هفان ، وبنو مطرويل ، وكان لهم ملك عظيم يدعى الأرقم بن أبي الأرقم الذي عرف بالقوة وشدة البطش والسلطان .

ويرى بعض الباحثين[2] أن كلمة عماليق مؤلفة من مقطعين هما (عم) بمعنى شعب أو أمة باللسان العبراني،و(ماليق) وهو اسم قبيلة عربية كانت مواطنها الأولى بجهات العقبة وشمالها ، وعلى وجه الخصوص ، ورد اسمها في كتابات البابليين . ونطق العرب بذلك الاسم بطريقتين ، عماليق وعمالقة .

وقد كان العمالقة قوما طوال الأجسام ، طوال الأعمار ، ويبلغ عمر الواحد منهم مئات السنين وهو أمر لا يؤمن به أولئك الذين يفصلون بين التاريخ والنبوات ، ولا يستطيعون أن يتصوروا إنسانا يعيش مثل هذا العمر ، أو حتى قريبا منه مهما كانت الظروف والأحوال ، أما أنا كما يقول المؤلف ـ فإنه لا شيء يمنعني من تصديقه بعد أن أقرأ قوله تعالى عن نوح ﷺ وقومه ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] وأقول كذب المؤرخون والباحثون ، وصدق الله ورسوله ولا يهمني بعد ذلك ما عسى أن يصفني به بعضهم من الغفلة والمسارعة إلى التصديق[3]

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص٢١ ـ ٢٣

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص٥١

(٣) المدينة ـ الخطراوي ص٢٦

=

إذا نرى أن بنى عبيل أول من سكن المدينة وسميت «يثرب» باسم بانيها الأول الذي ينتسب إلى قوم بادوا بعذاب الله تعالى ، وحل محل بني عبيد العماليق ، فقصدوا أرض الجحفة ـ ناحية رابغ اليوم ـ فجاءهم سيل أجحفهم فيه فهي لهذا سميت جحفة ورثاهم رجل منهم فقال :

عين جودي على عبيل وهل	يرجه من فات بيضها بالسخام
عمروا يثربا وليس بها شفر	ولا صارخ ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين	ثم حفوا النخيل بالآجام[1]

ويرى العياشي في كتابه المدينه بين الماضي والحاضر[2] من أن العماليق كانوا أسبق إلى المدينة من بني عبيل ، وعليهم نزل اليهود ، وكذا يرى ياقوت الحموي ، وأنهم أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل ، وعمر بها الدور والآطام واتخذ بها الضياع .

وكان العماليق فيما يبدو طبقتين ، طبقة سابقة هي التي عانها العياشى ، وفيها الملوك الطغاة الذين منهم الأرقم بن أبي الأرقم ، وطبقة لاحقة لها صلة بنسب الأولى ، ومنها قبيلتا صعل وفالح وهي التي أجلت بنى عبيل عن المدينة .

= لا أعلم ما الذى جعل الكاتب يتخذ هذا الموقف من تكذيب الباحثين والمؤرخين ويقرنها بصدق الله ورسوله . نعم صدق الله ورسوله ، وكذب الأفاكون والمتأولون والدجالون .

إن الباحثين المنصفين لا يعترضون إطلاقا على أن تلك الأقوام قد عاشت أعواما وسنين طويلة لا يعلمها إلا الله تعالى ، كما لا ينكرون من تسمى بالعماليق بأنهم كانوا طوال الأجسام ، طوال الأعمار والباحثون المنصفون يرفضون تلك المبالغات غير المعقولة أصلا منها مثلا : إن الأعوج بن عناق وقد عاصر سيدنا نوح عليه السلام كان يقف فى البحر الذى يغمره إلى ركبته فقط ، ويخرج الحيتان من البحر ويشويها فى الشمس ويأكلها ومثل هذه المبالغات كثيرة فى التوراة خاصة عندما تتحدث عن العماليق ، ويصورون بنى إسرائيل بأجساد عادية تمكنت رغم قصر قامتها وأعمارها من القضاء على هؤلاء العماليق الكبار كبار الأجسام طوال الأعمار وكان الأولى للمؤلف الذى قدم للمكتبة العربية بحثا طريفا عن المدينة أن يتحرى الحقيقة حتى يكون لكلامه الوقع الحسن فى نفوس القراء .. وقد أورد نفس الخاطرة أعلاه فى كتابه شرع الحرب فى الجاهلية عند الأوس والخزرج ص٢٢

(١) السخام : اللين من كل شيء ، أو الأسود شفر أحد . لينها : نخلها . ولعل المقصود بالآجام : الآطام ويروى آسحام ، وهو شجر

(٢) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٦ – ٢٧ بتصرف .

ويمكن بهذا نظريا الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب ، وإن كان الأمر من وجهة النظر العلمية لا يزال محتاجا إلى التدعيم بالوثائق ، والإثبات بالأدلة المقنعة

إن التوسع فى ذكر أول من سكن يثرب يساعد كثيرا على تفسير بعض الظواهر التى قد تعترضنا عند تناولنا لأساسيات البحث ، إذ إنه على افتراض انقراض العماليق ، وبنى عبيل مثلا وانتهائهم من المدينة بالكلية ، فليس من المعقول أن تمحى آثار وجودهم بسهولة ، بل العكس هو المعقول تماما ، فلا بد من بقاء بعض بصمات حياتهم وعيشهم فوق هذه الأرض ، حملها من خلفوهم من اليهود أو من الأوس والخزرج .

(عبيل)   وعبيل مثل أميم لا نعرف من أمرهم غير نتف ذكرها الإخباريون الذين زعموا أنهم إخوان عاد بن عوص ، أو إخوان عوص بن ارم ، وأنهم لحقوا بموضع اسمه (يثرب) حيث اختطوا يثرب ، وكان الذى اختطها منهم رجل يقال له " يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عبيل "

وقد ورد فى التوراة اسم ولد من أولاد (يقطان) هو (**Obal**) (عوبال) أو (**EBA**) [1] وهذا الاسم قريب من عبيل ولذلك رأى بعض علماء التوراة أن من الممكن أن يكون (عبيل) هو (عوبال) .

ونجد فى جغرافية بطليموس اسم موضع يُقال له : (**Avalitae**) على خليج يدعي بهذا الاسم (**AVALITES SINUS**) وعليه مدينة تسمى (**AVVLITES EMPORTION**) وسكانها يعرفون باسم(**AVALITES**) وقد ورد هذا الاسم عند بلينيوس على صورة (**ABLATIES**)   ويرى (فوستر) أنه من المحتمل أنه يكون هؤلاء هم(عوبال) وقد يكون أبناء عوبال هم عبيل .

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٦ – ٢٧ بتصرف .

وذكر أن في اليمن مكانا يقال له عبيل ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ (عبال) وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل[(١)]

أما بالنسبة للعماليق الذين أخرجوا عبيل من يثرب فيقول الإخباريون (وعمليق) جد العمالقة هو شقيق (طسم) ، ويذكرون أنهم كانوا أمما كثيرة تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان ، أهل الحجاز ، وأهل الشام ، وأهل مصر ويعرف أهل عمان والبحرين باسم جاسم ، وجاسم هو من نسل عمليق على زعم أهل الأخبار .

وكان من العمالقة أهل المدينة ومنهم (بنو هف) و (سعد بن هزان) و(بنو مطر) و(بنو الأزرق) وكذلك سكان نجد ومنهم بديل وراحل وغفار وكذلك أهل تيماء .

وكان ملكهم (الأرقم) وهو من العمالقة ، وهو من معاصرى موسى عليه السلام على رواية الهمداني ، وقد أرسل موسى عليه السلام جندا لمقاتلته ففتك بأتباعه أهل تيماء وببقية عمالقة الحجاز .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن (العماليق) لحقت بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها (عبيلا) ، وسكنوا ديارهم ، وذهبت عبيل إلى موضع الجحفة فأقبل السيل فأجحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة)

وذكروا أن موسى أرسل جيشا لحرب عماليق يثرب[(٢)] ولم نجد في التوراة ذكر لمثل هذا الجيش أو الحرب .

والعمالقة الذين نتحدث عنهم عرب صرحاء من أقدم العرب زمانا لسانهم اللسان المضرى الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل الأخبار ، بل زعم أن بعضهم أن عمليقا هو أبو العمالقة أول من تكلم بالعربية حين طعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم « العرب العاربة »[(٣)] . ويظهر من فحص هذا المروى

---

(١) جواد علي - تاريخ ١/ ٣٤٤ .

(٢) الطبري - تاريخ ١/ ٢٠

(٣) جواد علي - تاريخ ١/ ٣٤٦.

في كتب الإخباريين عن العمالقة ونقده أنه مأخوذ من منابع يهودية ، فقد ذكر العمالقة في التوراة ، وقد كانوا أول شعب صدم العبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين إلى فلسطين ، وظلوا يحاربونهم ، ويكبدونهم خسائر فادحة وأوقعوا الرعب في نفوسهم ، ولهذا ثار الحقد بينهم على العماليق ، ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي صموئيل لشاؤول أول ملك ظهر على العبرانيين قالها لها باسم«إسرائيل» «إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل ، والآن فاسمع صوت كلاب الر ب . هكذا يقول رب الجنود ، إني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر ، فالآن إذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلا وامرأة ، طفلا ورضيعا ، بقرا وغنما ، جملا وحمارا»

وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين وقد كانت منازل العماليق (العمالقة) من حدود مصر فطور سيناء ففلسطين وعدم ذكر العبرانيين لهم في جملة قبائل العرب ، لا يدل على أنهم لم يكونوا عربا ، فقد ذكرت أن العبرانيين لم يطلقوا لفظة (عرب) إلا على الأعراب أهل البادية ولا سيما بادية الشام ثم أن العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها العبرانيون وحملوا حقدا عليها وهم عندهم وفي نظرهم أقدم من القحطانيين والإسماعيليين(١)

ويقال : إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادى على إثر الإضطهاد الرومانى لهم(٢)

وقد زعم أهل الأخبار أن العمالقة كانوا أصحاب عز وبغي شديد ، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى، وكان منهم بنو هف ، وبنو

---

(١) جواد علي ١/ ٣٤٦ـ٣٤٧

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص٥٣

سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق ، وملكهم إذ ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم) ومثلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم وأقاموا في مواطنهم في الحجاز[١]

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشا إلى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالى الحجاز من سفر (صموئيل الأول) من التوراة .

فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى[٢]

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩/ ٩٤ . ابن هشام ـ السيرة ٢/ ١٧

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٧

القسم الثاني

اليهود وقدومهم إلى يثرب

عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي ، ولا بد من وقوف الجاهلية على أحوالهم ؛ لأنهم كانوا يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب .

كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة ، وفي العروض ، وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للإتجار وإقراض المال بربا فاحش للمحتاجين إليه ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية ، والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له فيما دعاهم الرسول إلى الدخول فيه ، فنزل فيهم الوحي «وأشير إليهم في الحديث» .

وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب[(١)]

ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية، ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيرا عن عصر النبوة، ولا يبتعد عنه، ولكني لا أستبعد احتمال تغير الحال

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١١ ـ ٥١٢

لا أعلم لماذا وقف المؤلف عند هذا السبب الوحيد لذكر اليهود في القرآن والتراث الإسلامي عامة وهو أي العداوة والحرب فقط والتي أعلنوها علي الإسلام هي سبب ذكرهم ، مع أن المؤلف مؤرخ ومحقق عدل يشهد له الجميع لما في كتابه المشار إليه من قيمة ، ومعنى هذا الكلام أن الإسلام لو لم يصطدم باليهود لما ذكروا بهذا القدر في القرآن والحديث ، ونتساءل : لماذا ذكر النصارى والصابئة وغيرهم مع أنهم لم يحاربوا الإسلام في أول نشأته علي الأقل ..؟ وكأن هذا الحديث يشير إلى أن ذكر اليهود في المصادر الإسلامية ما هو إلا ردود فعل فقط لهذا العداء ، وماذا يمكننا القول بالعدد الكبير من الآيات القرآنية التي نزلت ببني إسرائيل واليهود وموسى وهارون وهي كثيرة جدا لأنهم عادوا الإسلام فقط ؟ قد يكون ما ورد سببا ولكنه ليس كل الأسباب ولا مجال للخوض في تفاصيل أكثر لهذا الورود ؟

إذا ما عثر المنقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضرة في باطن التربة يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب ، أما إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد وردت لفظة «يهود» في القرآن الكريم أى على هذا الشكل (اليهود) وردت في مواضع من سورة البقرة (الآية ١١٣ ـ ١٢٠) ، ومن سورة المائدة (الآيات ١٨ ـ ٥١) (٦٤ ـ ٨٢) ومن سورة التوبة (الآية ٣٠) وكلها سور مدنية،ولم ترد في سورة من السور المكية ، كما وردت لفظة (يهوديا) في سورة آل عمران ، ووردت في شرح ديانة (إبراهيم) ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران: ٦٧] وهي من السور المدنية كذلك ، وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ [البقرة:٦٢] النساء (٤٦ ـ ١٦٠) ، المائدة (٤١ ؛ ٤٤ ، ٦٩) ، الأنعام (١٤) ، النحل (١٨٨) ، الحج (١٧) ، الجمعة (٩) . وبـ ﴿مَن كَانَ هُودًا ﴾ [البقرة:١١١]،﴿كُونُوا هُودًا ﴾ [البقرة:١٣٥] ، ﴿كَانُوا هُودًا ﴾ [البقرة:١٤٠] ،وسورتي الأنعام والنحل من السور المكية . وبناء على ذلك تكون جملة الذين هادوا قد نزلت قبل نزول لفظة اليهود في القرآن الكريم .

وقد عبر عن العبرانيين عامة ببني إسرائيل في القرآن الكريم ، عبر عنهم في سور مكية وفي سور مدنية ويلاحظ أن ورود هذا التعبير في القرآن الكريم هو أكثر بكثير من ورود لفظة اليهودية[1]

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٢ .

وردت كلمة بني إسرائيل في سورة البقرة (الآيات ٤٠ ، ٤٧ ، ٨٣ ، ١٢٢ ، ٢١١ ، ٢٤٦) ، وفي (آل عمران ٤٩ ، ٩٣) ، وفي (المائدة ١٢ ، ٣٢ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١١٠) ، وفي سورة الأعراف (الآيات ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨) ، وفي سورة يونس (الآيات ٩٠ ـ ٩٣) ، وفي سورة الإسراء (الآيات ٢ ، ٤ ، ١٠١ ، ١٠٤) ، وفي سورة طه (الآيات ٤٧ ، ٨٠ ، ٩٤) ، وفي سورة الشعراء (الآيات ١٧ ، ٢٢ ، ٥٩ ، ١٩٧) ، وفي سورة النمل (آية ٧٦) ، وفي سورة السجدة (آية ٢٣) . وفي سورة غافر (آية ٥٣) . وفي سورة الزخرف (آية ٥٩) . وفي سورة الدخان (آية ٣٠ وفي سورة =

إن التعابير الخاصة ببنى إسرائيل كثيرة وأولها :

العبرانيون :

كلمة عبر باللغة تعني «مات»[(١)] على وزن نصر وعبر النهر «اجتازه» والمعبر بوزن المبضع : ما يعبر عليه من قنطرة أو سفينة ، وقال أبو عبيد : هو المركب الذي يعبر فيه ، ورجل (عابر) سبيل ، أى مار الطريق ، والعبري بوزن المصري «العبراني» وهي لغة اليهود وتطلق على أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام وهم الذين عبر بهم نهر الأردن إلى فلسطين، وعرفت لغتهم بالعبرانية وهي إحدى اللغات السامية ، وبقيت هذه التسمية عالقة بهم إلى أن رحل يعقوب من بقية آل إبراهيم إلى مصر ، كما يقال أيضا عن أتباع يعقوب وأبنائه :«عبرانيون» لعبروهم صحراء سيناء إلى مصر

إسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وأبناؤه الذين يعرفون أيضا بالأبساط وهم : (روبيل ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، إيساخر ، زابلون) من زوجته ليا ومن جاريته بلهي (دان ، ونيفتالي) ، ومن الجارية الثانية زلفى (جاد ، وأشير) (ويوسف وأخيه بنيامين) من راحيل . وبذلك أصبح عددهم اثنى عشر ولدا عدا البنات من زوجته ليا ، وراحيل ابنتي خاله ، ومن أمتيهما بلهى وزلفى[(٢)]

ومعروف أن بني إسرائيل قد انتقلوا إلى مصر من فلسطين على إثر تعرفهم على أخيهم يوسف[(٣)] الذي أصبح عزيزا لمصر . وأقاموا فيها وتكاثروا ، وذلك بحماية (العماليق الهكسوس) الذين كانوا يحكمون مصر . وعندما تمكن المصريون من طرد

= الجاثية (آية ١٦). وفي سورة الأحقاف (آية ١٠) . وفي سورة الصف (آية ٦، ١٤) .
المعجم المفهرس ـ القرآن الكريم ص ٣٣ أما كلمة عبري ، أو عبرانيون فلم ترد في القرآن الكريم ولكن وردت كلمة «تعبرون» بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف] وتعني هنا «تعلمون» ولا علاقة لها بالعبرانيين من قريب أو بعيد .

(١) مختار الصحاح ـ الرازي ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٢) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٢٠٥

(٣) سورة يوسف (رقم السورة ١٢) تفسير النسفي ، في ظلال القرآن ، تفسير الخازن .

الهكسوس ، وعاد الحكم للفراعنة واستعبدوا بنى إسرائيل وأذلوهم ، إلى أن بعث الله تعالى كليمه موسى وأخاه هارون[١] إلى فرعون لتخليص بني إسرائيل ، وعرفت رسالة موسى ﷺ باليهودية[٢] مع أنه ليس من سبط يهوذا ابن يعقوب ونسبه ﷺ هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[٣]

وأطلق على ديانته اسم «اليهودية» نسبة إلى «يهوذا» باعتبار أن أكثر بنى إسرائيل عند ظهور موسى كانوا من سبط يهوذا .

وبعد أن ضعفت دولة النبي سليمان ﷺ ـ وهي الدولة التي أقامها بنو إسرائيل بعد دخولهم إلى فلسطين في زمن النبي داود ﷺ ـ بعد وفاته انقسمت دولته إلى قسمين عرفا باسم «دولة إسرائيل ودولة يهوذا» واستمر الاسم على اليهودية التي عنت ديانة موسى ﷺ .

ولم يطلق على لغة التوراة اللغة اليهودية ، بل استمرت العبرية تطلق على اللغة التي نزل بها التوراة ، والعبرية إحدى اللغات السامية .

فبنو إسرائيل : هم أبناء يعقوب ﷺ وأحفاده ومن جاء من ذريته .

واليهود : هم جميع الذين اعتنقوا ديانة موسى بمن فيهم بنو إسرائيل فقد كان أول المؤمنين بهذه الديانة السحرة الذين أبطل سحرهم موسى فقالوا آمنا برب موسى ومن الطبيعي أن يعتنق اليهودية بنو إسرائيل ولكنهم بعد ذلك تركوها وحرفوها ، وأخبارهم في القرآن الكريم والأخبار السابقة كثيرة والمتعلقة بهذا

---

(١) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٢٦٤ ـ ٣٨٢ قصة موسى ﷺ .

(٢) هود ـ (هاد) : تاب ورجع إلى الحق ، وبابه قال : فهو هائد . وقوم (هود) قال أبو عبيدة : (التهود) التوبة والعمل الصالح ويقال أيضا هاد ، و(تهود) أي صار (يهوديا) و (الهود) بوزن العود (اليهود) . والتهويد المشي الرويد مثل الدبيب وفي الحديث (أسرعوا المشي في الجنازة ولا تهودوا كما (تهود) اليهود والنصارى) والتهويد: يصير الإنسان يهوديا (مختار الصحاح ـ الرازي ص ٧٠١) .

(٣) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ٢٦٤ . قصص الأنبياء النيسابورى أورد نسبه : موسى بن عمران بن يصهر بن فاهب بن لاوي بن يعقوب ﷺ ص١٦٦

الانحراف،كما اعتنقها بعض عرب اليمن وبعض العرب الأخرين كما سيرد لاحقا .

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم ، وقد أمنوا على أنفسهم بالإنفاق في رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم وكان من شأنهم أيضا التفريق بين الرؤساء ، وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفوا الأحوال فيما بينهم وتلتئم ، ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطرا يهدد اليهود [(١)]

إن دخول اليهود إلى يثرب فيه الكثير من الخبر غير الموثق ، ولقد ورد ذكر هذه الأخبار في أمهات الكتب التاريخية العربية ، واستقاها الإخباريون عن اليهود الذين كانوا في هذه المنطقة أو ممن أسلم منهم لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب في الأرضين قديم وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء بإسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين[(٢)]

١ـ وقصة اليهود طبقا لرواية الإخباريين ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين أمرها عجب ، إذ تذهب رواياتهم إلى موسى عليه السلام ، بعد أن أظهره الله على فرعون ، وطئ الشام ، وأهلك من بها من الكنعانيين ، أو أنه بعث إليهم بعثا أهلك من بها ، ثم بعث بعثا آخر إلى الحجاز للعماليق الذين كانوا يسكنون المدينة قبل بنى إسرائيل ، وكانوا أهل بغي وغزو ملكوا على أنفسهم رجلا يقال له «الأرقم» ويقال (الأرقم بن أبي الأرقم) .

وتذهب الرواية إلى أن موسى عليه السلام كان قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى فضلا عن جيش من بني إسرائيل كان قد بعثه إلى العماليق ، وأمره أن يقتل القوم جميعا لا يستبقي منهم أحدا ، وأن هذا الجيش قد كتب له نجح بعيد المدى في

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٦

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٧.

مهمته هذه ، فقتل العماليق جميعا ولم يبق على أحد منهم إلا ولدا للأرقم كان وضيئا فأشفقوا على شبابه ، ومن ثم فقد حملوه إلى موسى ليرى رأيه فيه ، غير أن موسى كان قد انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل عودة الجيش بولد الأرقم[١]

وقد اعتبر الإسرائيليون أن إبقاء الجيش على حياة ولد الأرقم خروج على تعليمات موسى ومن ثم فقد رفضوا أن يسمحوا للعائدين بدخول الشام ، مما اضطر هذا الجيش إلى العودة إلى المدينة والإقامة فيها ، ومن ثم فقد كانوا أول من سكن المدينة من يهود[٢] والقصة على هذا النحو توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق مظنات الشبهات . هذا إذا لم تكن هي شبهة وذلك لأسباب كثيرة منها :

أن هذا الرأي الذي ذهب إلى أن موسى عليه السلام قد وطئ الشام وأهلك الكنعانيين لا يتعارض مع الحقائق التاريخية فحسب ، وإنما يتعارض كذلك مع آيات القرآن الكريم فضلا عن نصوص التوراة .

وفي سورة المائدة يقول الله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٣٧ ، جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٧ .

(٢) النص من دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٣٧ نقلا عن الأغاني ـ الأصفهاني ٣/ ١١٦ ، و١٩/ ٩٤ ، وفتوح البلدان ـ ياقوت ٥/ ٨٤ ، وأبو الفداء ١/ ١٢٣ ، وابن خلدون ـ تاريخ ٢/ ٨٧ ـ ٨٨ ، ابن هشام ـ السيرة ٢/ ١٧ ـ الإغلاق ص٦٠ ـ ٦١ ، والدرة الثمينة ص٣٢٤ ، المدينة بين الماضي والحاضر ص١٤-١٥ . وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١١١ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ـ ١٥٧ عبد الفتاح شحادة (المرجع السابق) ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، إسرائيل ولفنسون ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦ ، الروض الآنف ٢/ ١٦ ، وأيضا تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٧٩ ، وتاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص١٨٨ ، وتاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص٥٣ ، جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٢٩

وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة] (١)

والأمر كذلك بالنسبة للتوراة التي تحدثت عن كل صغيرة وكبيرة في حياة موسى عليه السلام ، وهكذا فإن النصوص المقدسة ـ آيات القرآن الكريم ، واصحاحات التوراة تشير إلى أن الإسرائيليين الذين صحبوا موسى في رحلة الخروج من مصر ، لم يكتب لواحد منهم بما في ذلك موسى ﷺ وهارون أن يدخل الأرض المقدسة (فلسطين والشام) إذا استثنينا يوشع بن نون وكالب بن يفنه .

٢ـ إن القرآن الكريم وقبله التوراة يكذبان إرسال جيش إسرائيلى إلى الحجاز ، فالقوم الذين جبنوا عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ويصفون أنفسهم بأنهم كالجراد في أعين الجبابرة من بنى عناق من سكان كنعان هؤلاء القوم ليسوا هم الذين يجتازون صحراوات بلاد العرب حتى يصلوا إلى يثرب ثم يقوموا بها بمجزرة بشرية تنتهي بإفناء بلد بأسره إلا ولد الأرقم ملكها ثم أليسوا هم أنفسهم الذين حاول الكليم عليه السلام أن يحرضهم على القتال حتى يصعدوا بأمر الله ، ويدخلوا الأرض التي كتب لهم ، إلا أنهم كانوا ـ مع كثرتهم ـ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى كانوا يخافون الحرب ، ويهابون القتال بعد أن تمكنت منهم المذلة والصغار ، ثم فقد صاحوا بموسى ـ كما تروي توراتهم ـ ليتنا متنا في أرض مصر ، أو ليتنا متنا في هذا القفر،ولماذا أتى بنا الرب لنسقط بالسيف ..؟ وليت الأمر اقتصر على هذا ، فإن التمرد سرعان ما يمتد إلى حد الثورة على موسى شخصيا والمناداة بخلع رياسته ، وقيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر ، فقال بعضهم : نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر (عدد ١٤ ـ ٣ ـ ٤) .

---

(١) صفوة البيان ـ تفسير مخلوف ص ١٤٧ ، روح المعاني ـ تفسير ٦/ ١٠٦٧ ـ ١١١١ ، في ظلال القرآن ـ سيد قطب ٢/ ٨٦٩ ـ ٨٧١ ، مجمع البيان ـ تفسير ٣/ ١٨٠ ـ ١٨١ وغير هذه التفاسير .

هذه هي النصوص القرآنية والتوراتية ، وكلها تتحدث عن جبن الإسرائيليين وتقاعسهم عن القتال أفليس من الغريب بعد ذلك أن يأتى بعض المؤرخين ـ ويا للعجب منهم من المسلمين فيزعم لليهود أمجادا عسكرية ما كانت لهم أبدا ..؟

والحق يقال : ما زعموها لأنفسهم أبدا [١]

٣ ـ إن التوراة تحدثنا عن معارك دارت رحاها بين اليهود والعماليق ، ولكن ليس في المدينة المنورة كما يزعم بعض المؤرخين المسلمين القدامى ، ومن تابعهم من المحدثين ـ وإنما في سيناء حيث كان يقيم فريق من العماليق في منطقة تدعى (رفيديم). وإن العماليق استمروا يضايقون الإسرائيليين حتى أيام شاؤول (١٠٢٠ ـ ١٠٠٠) ق.م أول ملوك إسرائيل ، كما يروي سفر صموئيل ١٥ ـ ١ ـ ٣٥

٤ـ إن الرواية التي تقدم لنا موسى ﵇ في صورة لا تتفق ومكانة الكليم ﵇ ، فليس من شيم الأنبياء أن يرسلوا الجيوش لتقتل الناس جميعا ، كنت أفهم أن يدعو الكليم ﵇ العماليق إلى عبادة الله الواحد القهار ، فإذا ما رفضوا كانت الحرب ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج:٤٠] أما أن يرسل النبي الكريم ـ فيما يزعم الرواة ـ جيشا إلى المدينة ليقوم بها بمجزرة بشرية مروعة تنتهي بإفناء القوم جميعا ، إلا طفل ضنوا عليه من الموت لوضاءته ، فالأمر لا يمكن أن يقبل على علاته من عامة الناس فضلا عن أن يكون ذلك من كليم الله ﵇ . وحتى هذا فما شأن موسى

---

(١) يتصور الكاتب يهود موسى ﵇ هو اليهود حاليا ، وما بينهم وبين المسلمين والعرب من عداء والمؤرخون المسلمون الذين أوردوا هذه النصوص لم يكن في ذهنهم ما سيحل بأسلافهم ـ نحن ـ من الهوان والذل علي أيدى اليهود ، وما كانوا يعتقدون يوما أن يصل الهوان بالأحفاد إلى هذه الدرجة . إن إيراد النص سواء أكان بسند أو غير سند ، إنما كان ينطلق موردوه من فرحة النصر للأنبياء وأتباعهم المؤمنين علي الكفار ، وإيراد خبر الأنبياء وانتصاراتهم فيه شيء من حسن الخبر ليس إلا ، ألم يعير العرب المسلمين بانهزام الروم النصارى أمام الفرس (المجوس)؟ فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم] .

بالعماليق في وسط بلاد العرب ..؟ أنسى أصحاب هذه الرواية أن موسى قد أرسل إلى بنى إسرائيل خاصة ، وليس العماليق بالتأكيد من بنى إسرائيل ، كما أنهم هنا في المدينة المنورة ـ بعيدا عن مصر وفلسطين ، فضلا عن صحراء التيه ـ لم يعترضوا دعوته ، وربما لم يسمعوا بها أبدا . حتى ولو كانوا قوما جبارين ـ كما تذهب الرواية ـ أفكان موسى مكلفا بالقضاء على الجبارين في الأرض ؟ وإذا كان ذلك كذلك فلماذا القضاء على العماليق بالذات ؟ وليسوا هم وحدهم الجبارين في الأرض ، ثم ما هو الموقف بالنسبة إلى العماليق في غير يثرب؟

٥ ـ إن بعض المؤرخين المسلمين أنفسهم يشكون في صحة الرواية هذه[١]

٦ـ إن هناك رواية إخبارية أخرى كذلك تقدم سببا مختلفا لإقامة اليهود في المدينة، ذلك أن موسى عليه السلام ـ طبقا لهذه الرواية ـ قد حج إلى بيت الله الحرام ومعه أناس من بني إسرائيل[٢] وعند العودة رأوا في موضع المدينة صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين ، ثم فقد أقاموا في سوق بنى قينقاع ، ثم تآلفت إليهم ناس من العرب فرجعوا عن دينهم ، فكانوا أول من سكن المدينة .

---

(١) الروض الأنف ـ السهيلي ـ ٢/ ١٩ قارن بن خلدون ٢/ ٨٨ ، دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص٤٣٨

(٢) ورد تلبية موسى وحجه في الأحاديث التالية :

قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : «أي واد هذا ؟»قالوا : وادي الأزرق ، قال :« كأني أنظر إلى موسى وهو هابط الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل التلبية» ، حتى أتى علي ثنية هرشاء ، فقال : «أي ثنية هذه ؟» قالوا : ثنية هرشاء . قال : «كأني أنظر إلى يونس بن متى علي ناقة حمراء عليه حلية من صوف ، خطام ناقته خليه..» ـ قال هشيم : يعني ليفا ـ وهو يلبي ، رواه مسلم في صحيحه (١/ ٧٤ / ٣٦٨) ، ورواه أحمد في مسنده (١/ ٢١٥ – ٢١٦) ، ورواه ابن ماجه في سننه (٢٥/ ٤ / ٢٨٩١) .

روى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا أن موسى حج علي ثور أحمر ـ وهذا غريب جدا قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد ، قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال : فقال : إنه مكتوب علي يمينه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال: يقولون مكتوب بين يمينه (ك ف ر) فقال ابن عباس : لم أسمعه ؟ قال ذلك ولكن قال : أما إبراهيم أنظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأنى أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي ، قال هشيم (الخلبة ـ الليف) رواه البخاري (٦٠/ ٨ / ٣٣٥٥ فتح) . المرجع : (قصص الأنبياء ـ ابن كثير ٣٣٧) .

وهكذا يبدو التضارب واضحا في روايات الإخباريين ، بل إن البعض منهم قد ذهب إلى أن هارون عليه السلام قد دفن بالمدينة كذلك ، وهنا تتجه الروايات اتجاها غريبا حيث تذهب إلى أن موسى وهارون قد خرجا حاجين أو معتمرين ، حتى إذا قدما المدينة خافا من يهود ، فنزل أحاد ، وهارون مريض ، فحفر له موسى قبرا بأحد وقال : أرض فيه فإنك تموت ، فقام هارون فدخل لحده ، فقبض فحثى عليه موسى التراب[١]

وقد زعم أهل الأخبار ، أن العمالقة كانوا أصحاب عز وبغى شديد ، وكانوا ينزلون في الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى ، وكان منهم بنو هف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق ، وملكهم إذ ذاك (الأرقم) ينزل ما بين تيماء وفدك.

وكان سكان يثرب من العمالقة وكذلك سكان بقية القرى ، فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم ، وأقاموا في مواطنهم في الحجاز .

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه من دخول اليهود إلى يثرب من أيام موسى ، وما ذكروه عدا إرساله جيشا إلى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز من سفر (صموئيل الأول ـ من التوراة)[٢]

وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء ، ومن سكان أعالي الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة، وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى وقد أخذ الإخباريون رواياتهم هذه من اليهود ومن دخل منهم في الإسلام[٣]

---

(١) (وفا الوفاء ١/ ١١٠) ، (خلاصة الوفا ص ١٥٥ – ١٥٦) (الدرة الثمينة ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥) ، فصول في تاريخ المدينة ـ علي حافظ ص١٣ ـ ١٤

(٢) صموئيل الأول ـ الإصحاح الخامس عشر آية ٥ وما بعد . الأغاني ـ الأصبهاني ١٩/ ٩٤ ابن هشام ـ السيرة ٢/ ١٧

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٧

هذه هي الرواية الأولى التي وردت عن دخول اليهود إلى يثرب ، ومع ما ورد من نقاش حول هذه القضية ، والردود التي رد بها المؤرخون على أصحاب هذه الرواية من المسلمين الذين تبنوها. باعتبارها فتحا لنبي على قوم من الكفار والبغاة ، فإن هذه الرواية ساقطة من وجوه عدة ذكروا منها الكثير،ونضيف بأن بني إسرائيل عندما دخلوا التية أو قبل ذلك بقليل قد اعتراهم الكثير من الوهن والضعف والخوف ، وذهبت منهم حمية الإيمان التي خرجوا بها من مصر ، وبدأت تعتريهم الشكوك ، وأفانين الشرك ، وتراود أنفسهم قضايا العودة إلى مصر ، وممارسة الحياة التي تعودوها هناك ـ كما ورد في السابق ـ وهذا يعني أن موسى عليه السلام قد انشغل بأمر بني إسرائيل عن كل شاغل وبأعدائهم الذين سيقابلونهم والعماليق والكنعانيين ، ولذا فقد توجه بكل جهده إلى محاولة ضبط هؤلاء الناس الذين تخلوا بسرعة عن عقيدتهم وقضى عليه السلام بقية حياته وهو يحاول جاهدا المحافظة على ما بقى فيهم من إيمان . عبدوا العجل، وأضلهم السماري ، وحصلت الكثير من المعجزات ، ولكنهم لم يتقدموا للحرب مع أعدائهم الذين امامهم ، فالأولى أن لا يفكر موسى عليه السلام بجيش عظيم يرسله إلى (الأرقم) .

وكما سلف فإن رسالة موسى عليه السلام ليست عامة ، ولكنها خاصة ببنى إسرائيل ، وهذا يعنى عدم التكليف .

أما قضية الحج والعمرة إلى مكة فورود الأحاديث الصحيحة بالتلبية لموسى في البخاري ومسلم وسواهما من كتب الصحاح ، يعنى تماما قضية الطواف بالبيت بعيدا عن فكرة إرسال جيوش أو سواها ، وربما يكون الحج والعمرة بدافع شخصى بحت تنفيذا لأمر الله تعالى بذلك وبعدد قليل من الناس .

وهكذا فلا مجال للتصديق بأن اليهود قد جاؤوا يثرب بزمن موسى عليه السلام ، أو استمرؤوا الحياة الناعمة فيها بعيدا عن خذلان بنى إسرائيل في التية ، والمسافة قريبة لحاج أو معتمر ولكنها مستحيلة بالنسبة لجيش يأتي ويحارب ويعود بهذا الظفر المبين ثم يعود ثانية للاستيطان ؟ إن سكن اليهود في يثرب ـ طبقا لهذه الرواية ـ بعيد جدا بخاصة إذا ما تذكرنا أن موسى عليه السلام قد خرج ببني إسرائيل عن مصر حوالي ١٢١٤

ق . م ، ولا أقول ١٤٧ ق . م كما ترجع بعض الآراء[(١)]

بل إن هناك من يذهب إلى أن الخروج إنما كان في حوالى عام ١٥٧٥ ق . م طبقا للآراء التي تربط بين اليهود والهكسوس[(٢)]

٢- الخبر الثانى عن وجود اليهود في يثرب يذهب به الإخباريون إلى زمن النبي داود عليه السلام ١٠٠٠ ـ ٩٦٠ ق. م[(٣)] ذلك أن الإسرائيليين فيما يروى البعض ، قد خلعوا طاعة داود وانضموا إلى ابنه «إبشالوم» وأن النبي كريم قد لجأ إلى أطراف الشام ثم لحق بخيبر وما إليها من بلاد الحجاز ، ثم أعد العدة لاستعادة ملكه ، فحارب ولده وانتصر عليه ، ثم انتهى الأمر بقتل(إبشالوم) على يد (يؤاب) قائد جيش داود ، فضلا عن قتل عشرين ألفا من بني إسرائيل[(٤)]

ولعل المؤرخ دوزي يذهب نفس الاتجاه . وإن رأى أن الأمر كان ممثلا في هجرة سبط شمعون قبيل أيام داود ، ومن ثم فإن الهجرة لا علاقة لها بداود.

وعلى أي حال فإن رواية الإخباريين الآنفة الذكر لا تعدو أن تكون تحريفا لأحداث جاءت في التوراة ، حيث تروى أن أخريات أيام داود قد تميزت بعدة ثورات امتدت حتى أهل بيته ومنها ثورة ابنه إبشالوم الذي نجح في أن يضم إليه قبائل إسرائيل الثائرة على أبيه ـ دون سبب ندريه على وجه اليقين ـ ثم تمكن (إبشالوم) من خلع أبيه وتنصيب نفسه ملكا على إسرائيل في مكانه مما اضطر داود إلى أن يذهب إلى (محانيم) في شرق الأردن حتى لا يفاجأ بـ (إبشالوم) فأتباعه في (أورشليم) إلا أن تصرفات (إبشالوم) المخزية مكنت داود من استعادة ولاء

---

(١) قصة الحضارة ـ ويل ديورانت ٢/ ٣٢٦ المجلد الأول .

(٢) دراسات في تاريخ العرب القديم ـ مهران ص٤٤٢ . تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص٣٣٩

(٣) هناك اتجاهات مختلفة لفترة حكم داود عليه السلام وهي (١٠١٠ ـ ٩٥٥ ق . م ٥٥ سنة) و (١٠٠٤ ـ ٩٦٣ ق . م ، ٤١ سنة) و (١٠٠٠ ـ ٩٦٠ ق . م ، ٤٠ سنة) و (٩٧٥ ـ ٩٦٣ ق .م ، ١٢ سنة) و (١٠١٢ ـ ٩٧٢ ق . م ، ٤٠ سنة) كذا في كثير من الروايات .

(٤) ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٩٧، وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ١١٠ ـ ١١٢، خلاصة الوفاء ص ١٥٧

بعض القبائل الإسرائيلية القوية ، والانتصار على (إبشالوم) وقتله كذلك على الرغم من أن أوامر داود الصريحة لجنده بعدم قتله ، مما أدى إلى حزن داود المرير على ولده .

وهكذا يبدو واضحا أن الإخباريين لم يفعلوا أكثر من نقل القصة التى أوردتها التوراة وغيروا فيها بما يجعل اليهود يصلون إلى بلاد العرب على أيام داود عليه السلام : بل إن هناك من يذهب به الخيال إلى أن يرى داود عليه السلام قد غزا يثرب ، وكان يسكنها (صلع وفالج) ، وأنه أخذ من سكانها مائة ألف عذراء ، وأن الله قد سلط الدود على أهل يثرب فأهلكهم بعد ذلك ، ثم دفنوا فى السهل والجبل من ناحية الجوف[١]

غير أن هذه الروايات لم تذكر ماذا فعل النبي داود عليه السلام بهذه المائة ألف عذراء من عذارى يثرب ، فضلا عن السبب فى سبيهم ، ثم وهل صحيح أن يثرب كان بها فى تلك الآونة من القرن العاشر قبل الميلاد مائة ألف من العذارى ؟ ثم وهل صحيح كذلك أن الله قد أهلك أهل يثرب بالدود جميعا ؟ وماذا فعلوا حتى ينالوا هذا العقاب؟وأخيرا ماذا فعل هؤلاء الناس ليصب عليهم داود نقمته إلى هذا الحد؟[٢] إلا أن قصة داود فى بعض المراجع لا تعدو كونها هجرة ، ربما بسبب ثورة ابنه عليه ، وعودته بعد ذلك وتقول الرواية أن داود عليه السلام مع سبط يهوذا قد هاجر إلى خيبر ، وتملك هناك ثم عودته إلى إسرائيل ، وأمثال هذه القصص ما هى إلا قصص من هذا النوع الذى ألفنا قراءته فى كتب أهل الأخبار ، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم ، لإثبات أنهم ذوو نسب و حسب فى هذه الأرضين قديم ، وأنهم كانوا ذوى بأس شديد ، وأن تاريخهم فى هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين[٣]

---

(١) وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ١١٠ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة ص ٣٢٣ ، جواد على ـ تاريخ ٤ / ١٢٩

(٢) دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ مهران ص٤٤٤ ـ ٤٤٦

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٧

٣ ـ لم يشر أي مصدر ، سواء من الروايات الإخبارية المشتقة من الإسرائيليات في المصادر الإسلامية ، وحتى في كتب بني إسرائيل إلى أية علاقة بين اليهود في عهد النبي سليمان ومدينة يثرب ، فإذا كان للروايات السابقة جيش سيدنا موسى ، أو غزو سيدنا داود للمدينة من تقارب نحو الوقوع ؟ فأكثر ما يمكن أن يكون في عهد سليمان عليه السلام ففي هذا العهد يمكن أن يكون هناك شيء من الواقع ، لو تحدثت المصادر عن جيش ، أو قوة ، أو أي شيء كان بين اليهود ويثرب . ففي عهد سليمان امتد ملكه إلى اليمن،واستقرت بزمنه مملكة إسرائيل، وانتهت تقريبا الفتن الداخلية، وأمد الله تعالى نبيه سليمان بقوة الجان والرياح ، وآتاه ملكا لا ينبغى لغيره ، وسخر له الجان للبناء وللإنتاج الكثير وأصبح بإمكان سليمان لا أن يتحدى يثرب فقط ، أو أية مدينة أخرى ، فإنه تحدى بلقيس في اليمن من حيث القوة والبعد ، واحتضنها لسلطانه ، ومع هذا فلم تشر تلك المصادر إلى أي وجود لبني إسرائيل ، أو أية جيوش ذهبت باتجاه يثرب خاصة إذ أخذنا الروايات السابقة من سكنى اليهود في يثرب وكيف لمثل النبي سليمان لا يقوى صلته بتلك المناطق ، وباتباع ديانة موسى إن كانوا متواجدين فعلا في يثرب ، أو تيماء أو خيبر أو فدك ؟ ربما تكون اليهودية قد وصلت إلى اليمن هذا مقطوع بصحته ـ لكن في يثرب فلم يرد بها خبر .

والموضوع الثاني الذي عششت فيه اليهودية وباضت هو اليمن ، ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر اليهود فيها ظهورا واضحا ، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية أما كيفية مجيئها ، وانتشارها هناك ؟ ومتى كان ذلك ؟ فليس لدينا علم واضح ودقيق عن ذلك .

ويزعم أهل الأخبار أن تبعا وهو التبع (تبان أسعد أبو كرب) اهتدى إلى هذه الديانة عند اجتيازه يثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران ، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه ، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة رسمية للبلاد[1] وتجعل بعض روايات الإخباريين اسم هذا التبع (تبع حسان) أو (حسان) وهو تبع

---

(١) الطبري ـ تاريخ ٢ / ١٠٥ وما بعدها .

الأصغر أو (أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري) وغير ذلك ، وتزعم أن حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم هما اللذان هديا التبع إلى اليهودية ، وأبعداه عن عبادة الأوثان[١]

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة ، غير أني أرى أن دخول اليهودية إلى اليمن مرده أيضا إلى اتصال اليمن في عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام وفي قصة سليمان عليه السلام وملكته سبأ إشارة إلى تلك الصلات ، وإلى هجرة جماعة من اليهود إلى هذا القطر عن طريق الحجاز[٢]

وتبان (أسعد أبو كرب) هو الذي قدم المدينة وساق الحبرين من يهود إلى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل ملك (ربيعة بن نصر) وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزو بلاد المشرق على المدينة ، وكان قد مر بها في بدأته فلم يهيج أهلها وخلف بين أظهرهم ابنا له فقتل غيلة ، فقدمها وهو مجمع لإخراجها واستئصال أهلها وقطع نخلها فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم (عمرو بن طلحة) الأصل طلحة وهو خطأ ، أخو بني النجار ثم أحد عمرو بن مبذول ، واسم مبذول عامر بن مالك ابن النجار ، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو ابن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بني عدى بن النجار يقال له : (أحمر) عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عفرقا له فضربه به بمنجله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبره ، فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم فاقتتلوا فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام . وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تبعا كان حنقه على اليهود وأنهم منعوهم منه [٣] وهذه

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني ١ / ١٠٩ وما بعدها ، ١٣ / ١٠ وما بعدها .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨

(٣) السيرة النبوية ـ ابن كثير ١/ ١٨ ـ ١٩ ، السيرة النبوية ـ ابن هشام ١/ ١٩ـ ٢١ ، الروض الآنف ١/ ٣٥

الرواية تشير إلى سبق اليهود إلى يثرب من قدوم تبع إليها ، كما تشير إلى وجود الأوس والخزرج ، والمهم في هذه الرواية تأثر تبع بالحبرين اليهوديين الذين أسديا له عدة نصائح أهمها :

١ـ قال ابن إسحاق فبينا تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة،عالمان،راسخان،حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالوا له : أيها الملك ، لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ماتريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة . فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هي مهاجرة نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان ، تكون داره وقراره ، فتناهى عن ذلك ، ورأى أن لهما علما وأعجبه ما سمع منهما،فانصرف عن المدينة ، واتبعهما على دينهما [١]

٢ ـ لما أوغر الهذليون صدره لهدم الكعبة استنصح الحبرين فقالا له ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتا لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن ، وليهلكن من معك جميعا .قال فماذا تأمرانني أن أصنع إذا قدمت عليه ؟ قالا تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتدلل له حتى تخرج من عنده .

قال فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهرقون عنده ، وهم نجس أهل الشرك أو كما قالا له فعرف نصحهما وصدق حديثهما وقرب بالنفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ـ ينحر للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل[٢] وكسى البيت كأحسن ما يكون ، فكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت ، وأوصى به ولاته من جرهم ،

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير ١/ ١٩ ـ ٢٠ ، الروض الأنف والسيرة النبوية ١ / ٣٣

(٢) السيرة النبوية ـ ابن كثير ١/ ١٩ ـ ٢٠

وأمرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دما ولا ميتة ولا مقلاة (وهي الحائض) وجعل له بابا ومفتاحا[١]. ومع كل ما تذكره وتؤكده الروايات عن صلات يثرب مع اليمن، نجد أن هذه الصلات جد مبتورة حتى ذلك التاريخ على الأقل.

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثرا مكتوبا يتحدث عن ماضيهم فيها، وكل ما عثر عليه منهم نصوص معدودة وجدت في اليمن، لا تفصح بشيء ذي بال عن اليهود واليهودية، كذلك لم يصل إلينا أن أحدا من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئا عن يهود الجاهلية، وليس لنا من تاريخ اليهود في جزيرة العرب إلا ما جاء في القرآن الكريم، وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير، فمادتنا عن تاريخ اليهودية في الجزيرة العربية لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الإسلام[٢]

٤ـ ونعود إلى الحديث عن دخول اليهود إلى يثرب، ولعل أول النكبات التي حلت باليهود في فلسطين هو بدء الهجرة إلى يثرب،فيه شيء من الصحة والموضوعية وقد تم ذلك بمراحل كثيرة:

أ ـ هنالك فريق يذهب إلى أن اليهود إنما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد، بعد سقوط السامرة عاصمة إسرائيل ـ في أيدي الآشوريين عام ٧٢٢ ق. م وليس من شك في أن هذا الاتجاه قد تأثر إلى حد كبير بسقوط السامرة في يوم ما من شهر ديسمبر (كانون الثاني) عام ٧٢٢، وأن العاهل الآشوري (سرجون الثاني ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق م) قد هاجر أكثر عناصر السكان أهمية، وربما النبلاء والأغنياء، غير أن التهجير إنما كان طبقا لرواية التوراة[٣] إلى حلج وخابور ومدن مادي.

وحين تكررت العملية في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق م فإن العاهل الآشورى قد

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ١/ ٢٠ـ٢١، الروض الأنف ـ السهيلى ١/ ٣٤ـ٣٧

(٢) جواد علي – تاريخ ٦/ ٥١٣

(٣) ملوك ثان – الكتاب المقدس ١٧ : ٦

جاء بقوم من بابل وكوت وحماة ومدسوسة وعيلام فضلا عن قبائل ثمود (ثامودة ومرسيمانو وحبايا) والعرب الذين يعيشون بعيدا عن الصحراء ، وأسكنهم في السامرة ، وذلك رغبة من العاهل الآشوري في كسر التحالفات القديمة في سورية وفلسطين بإدخال أجانب إلى البلاد[١]

وهكذا يبدوا واضحا أنه ليست هناك أية إشارة في التوراة أو في النصوص الآشورية إلى تهجير يهود السامرة إلى يثرب . أو إلى غيرها من بلاد العرب ، ومن ثم فإن المؤرخين يرفضون هذا الاتجاه[٢]

ولما كانت فلسطين امتدادا طبيعيا للحجاز ، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز واتصال سكان الحجاز بفلسطين ، وذهاب جاليات يهودية إلى العربية الغربية للإبحار وللإقامة هناك خاصة بعد فتوح الدول الكبرى (سكان بلاد الرافدين ، فراعنة مصر ، الإمبراطوريات القديمة) لفلسطين واستيلائها عليها ، وهجرة اليهود إلى الخارج فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود إليها ، وإقامتهم فيها ، ولا سيما عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة العامرة غير أننا لا نستطيع ـ كما قلت ـ التحدث عن هجرة اليهود هذه إلى هذه الأنحاء حديثا علميا معززا بالكتابات والتواريخ[٣]

وهناك فريق يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط اليهودية ، وتدمير الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد على يد (نبوخذ نصر) في عام ٥٨٦ ق . م أو أغسطس (آب) عام ٥٨٧ ق م وإبعاد كثير من اليهود إلى بابل ، وهو ما عرف بالتاريخ بالسبي البابلي ، وعندما قتل اليهود (جداليا) نائب نبوخذ نصر في أورشليم أدركوا مدى الكارثة التي حلت بهم ، وخوفا من انتقام العاهل البابلى فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم فقام جميع الشعب من

---

(١) الكتاب المقدس ـ ملوك ثان ١٧ ١ ـ ٢٦ ، وعزرا ٤ : ٢ ، ٩

(٢) دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ مهران ص٤٤٦

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٣

الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاؤوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين[١]

ومرة أخرى ليس في هذه إشارة إلى هروب يهود إلى يثرب كما تذهب الروايات العربية[٢] لكن بعض المؤرخين المحدثين يؤكدون هذه الرواية ولكن ليس نتيجة تهديم الهيكل ، ولكن كما يقول هؤلاء المؤرخون إن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش (بنونيد) يوم جاء إلى تيماء فأقاموا فيها وبمواضع أخرى من الحجاز بلغت (يثرب) . وأن هؤلاء اليهود أقاموا منذ ذلك الحين في تلك الأماكن واستوطنوا في وادي القرى ، وأماكن أخرى إلى مجيء الإسلام.

غير أن (بنونيد) لم يشر في أخباره المدونة إلى وجود اليهود في جيشه ، وإلى إسكانه لهم في هذه الأرضين ، كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد ، أو عن العهد الذي سبقه ، أو الذي جاء من بعده ؛ لذلك فإننا لا نستطيع أن نعزز هذا الكلام بنصوص وكتابات ، وإن كنا لا نريد نفي احتمال مجيء اليهود إلى هذه الديار في عهد (بنونيد) أو في عهد (بخت نصر) أو قبل العهدين[٣]

ولعل الذهاب إلى تيماء وإلى وادي القرى ومجاورتهما ربما كان أقرب للصواب من الذهاب بعيدا إلى يثرب ؛ ذلك لأن الطريق إلى الحجاز لم يكن مقفلا أمام يهود في تلك الفترة بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذي يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلي . والحجاز أقرب المناطق إلى فلسطين ، كما أن وجود بعض من اليهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد في العصر الروماني قد يدعم الرأي القائل بوجود هجرة يهودية إلى بلاد العرب منذ تلك الفترة[٤] غير أن حملات البابليين المتكررة بعد ذلك

---

(١) الكتاب المقدس (التوراة) ملوك ثان ٢٥ / ٢٦

(٢) دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ مهران ص ٤٧٧ ، حواشى وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ١١٣ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١٠٧

(٣)جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٣

(٤)إسرائيل ولفنسون ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص٦

على شمال بلاد العرب فضلا عن استقرار (بنونيد) في تيماء ولمدة قد تقرب من سنوات عشر ـ كما أشرنا من قبل ـ قد يضعف هذا الاتجاه[١]

ويرى بعض الإخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ، ونزولهم وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان في أيام (بخت نصر) فلما جاء (بخت نصر) إلى فلسطين هرب قسم منهم إلى هذه المواضع ، واستقروا بها إلى مجيء الإسلام[٢]

فليس في هذا الخبر ما يحملنا على استبعاده ، فهروب اليهود إلى أعالى الحجاز أمر سهل يسير ، فالأرض واحدة ، وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة ، ولا يوجد أي مانع يمنع اليهود ، أوغير اليهود من دخول الحجاز ، لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين ، فارين بأنفسهم من الرعب ، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ إليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم وأقرب مكان مأمون إليهم هو الحجاز[٣]

وفي مرحلة تالية عثرعلى عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط ، وردت فيها أسماء عبرانية تشير إلى أن أصحابها من يهود ، ويعود بعضها إلى القرن الأول للميلاد ، ويعود بعض آخر إلى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها إلى سنة ٣٠٧ للميلاد ، وصاحبها رجل اسمه (يحيى بن شمعون) غير أن هذه الكتابات شخصية وغير ذي بال عن عقيدة أصحابها ، ولا عن تاريخهم في هذين الأرضين[٤]

٥ ـ إن الأدلة التاريخية تؤيد الرأي القائل : بأن وجود اليهود في يثرب إنما يرجع إلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التي كانت يهود تمر بها في تلك الفترة بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سوريا ومصر في القرن الأول قبل الميلاد ، وعلى اليهودية ودولة الأنباط في القرن

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ مهران ٤٤٧

(٢) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٤ . ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٥٩٤

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٨

(٤) جواد علي ٦ / ٥١٣ ـ ٥١٤

الثاني بعد الميلاد قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من اليهود إلى شبه الجزيرة العربية التي كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية ، فضلا عن أن بلاد العرب إنما كانت ما تزال في بداوة تشبه ما كان عليه اليهود إلى حد ما . هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل ، وبما أنهم ـ أي اليهود ـ من ولد إسحاق فهم جميعا إذن من نسل إبراهيم الخليل ، فهم من ذوي رحمهم ، ولهم بهم صلة قربى ، هذا فضلا عن أن أمر هروب اليهود إلى أعالي الحجاز ، ودخولهم إليه أمر سهل ميسور فالأرض واحدة ، وهي متصلة ، والطرق مفتوحة ومطروقة ، ولا يوجد مانع يمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز ، ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين ، فارين بأنفسهم من فتك الرومان ، وأقرب مكان مأمون لهم هو الحجاز[(١)]

والرواية السابقة ، وما شابهها من روايات اليهود تبدو أقرب للحقيقة ، فذكر بنو قريظة أن الروم ظهروا على الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقا كثيرا ، فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل (بنو قينقاع الذين سبقوا إلى يثرب) ليسكنوا معهم .

فلما فصلوا عن الشام وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم فأعجزوا رسله وفاتوهم . وهكذا كان ظهور الروم في بلاد الشام ومهاجمتهم فلسطين قد أدى إلى تقويض أركان الدولة اليهودية فبسط الروم نفوذهم على البلاد ، إذ إن اليهود قاموا بعدة ثورات فعمد الروم إلى استعمال القوة في إخماد تلك الثورات ، فاضطر اليهود إلى النزوح إلى الجزيرة العربية ، والتي كانت أحب إليهم من غيرها نظرا لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظرا لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة ، وتمنع توغلها[(٢)]

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ٤٤٧

(٢)تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص ١٨٨ حاشية (إسرائيل ولفنسون ـ تاريخ اليهود في الجاهلية) ص٩

وبزعم بنو قريظة أن الروم ظهروا على الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقا كثيرا ، فخرج بنو قريظة والنضير وهديل هاربين من الشام يريدون الحجاز والذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم فلما فصلوا من الشام ، وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم ، فأعجزوا رسله وفاتوهم . وذكر بعض الرواة والإخباريين أن علماء اليهود كانوا يجدون في التوراة صفة النبي ﷺ وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة حرصا منهم على اتباعه ، فلما رأوا تيماء ، وقيل المدينة ، وفيها النخل عرفوا صفته ، وقالوا : هذا البلد الذي نريده ، فنزلوا[١]

ويقال: إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثانى الميلادى ، على إثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة « مدينتا » وهو اسم آرامي ، وظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هدى للإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية في حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية ، وقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم في العربية مثل كعب بن الأشرف[٢]

٦ ـ أدت الثورات التي قام بها اليهود في أورشليم على الرومان إلى قيام هؤلاء بتشتيتهم وطردهم من فلسطين ، وتهديم معبدهم على يد الإمبراطور الروماني (طيطس) سنة ٧٠م وفرت جموع كثيرة من اليهود على أثر ذلك إلى جزيرة العرب فاستوطن بعضهم أخصب بقاع الحجاز في يثرب ، وفدك ، وخيبر ، ووادي القرى ، وتيماء كما نزل بعضهم اليمن وتمكنوا من تهويد جماعة من أهلها ، وكان يعيش في يثرب عند هجرة اليهود إليها جماعات يهودية قديمة ، كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة ، وتغلبت عليها من أصحابها العماليق[٣]

---

(١) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص ٣٣٩

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص ٥٣ ، الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٧ ، ١٠٦

(٣) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤١ ، تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ، ص ١٨٩

أما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين ، وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن محاولات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح[١] ، فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين[٢]

ومنذ القرن الأول للميلاد جاء إلى بلاد العرب جماعات من اليهود والنصارى ثار اليهود على الرومان فقضى الرومان على ثوراتهم، وأبادوا جموعا منهم عام ٧٠م ، ثم حرموا عليهم الدخول إلى القدس ، وتفرق أكثر الباقين من اليهود في الأرض فجاء جماعة منهم إلى بلاد العرب لاجئين إلى عدد من المدن ذات الزراعة والتجارة وقد كثروا خاصة في منطقة تمتد من يثرب إلى خيبر إلى تيماء ، ولما جعل قسطنطين الأول النصرانية دينا للدولة الرومانية عام ٣١٢م أصبحت الدولة متنازعة بين أصحاب المذاهب المختلفة فكان إذا استولى أهل مذهب على الحكم أسرعوا إلى اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى وكانت تلك السياسة الدينية تحمل في كل فترة جماعة من المضطهدين على مغادرة بلادهم .

ولقد كانت شبه جزيرة العرب مكانا صالحا للجوء أولئك المضطهدين ، لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم ، بخلاف العراق والشام وآسيا الصغرى ومصر وسائر بلاد العالم القديم[٣]

تجددت ثورة اليهود ثانية على الرومان في أيام الإمبراطور (هادريان) فيما بين عامي ١٣٢ ـ ١٣٥ ق م ، وانتهت الثورة إلى القضاء تماما على اليهود كليا في فلسطين وتغير اسم المدينة المقدسة (القدس) إلى (إيليا كابتيولينا) ، وتحول المعبد

---

(١) ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٥٩٤ .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٨ .

(٣) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ٤٨

اليهودي إلى معبد لإله الرومان (جوبيتر) ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء ، وضاع اليهود في غياهب التاريخ .

وسرعان ما فر من أسعده الحظ فنجا إلى مكان يحتمي به من غضبة الرومان القاسية، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصلوا إلى يثرب ، وكان هؤلاء إلى جانب من وصلوا بعد تدمير القدس على يد (تيتوس) هم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز ، وفي يثرب بصورة خاصة[١]، وزاد عددهم بمرور الزمن حتى إذا ما ظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى إلى يثرب من اليهود[٢]

وتؤيد المصادر العربية هذا الاتجاه ، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعا بالشام فوطؤوهم ، ونكحوا نساءهم ، وخرج بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو هدل (يهدل) هاربين إلى من بالحجاز من يهود ، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الرومان فأعجزوهم وهلك جند الروم في المغاور والصحاري الخالية من الماء ، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم ، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها[٣]

ومن هؤلاء المهاجرين ـ على رأي الإخباريين ـ بنو قريظة وبنو النضير وبنو يهدل ساروا إلى الجنوب باتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه وبية فكرهوا الإقامة فيه ، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا ، وأرضا عذبة حتى إذا بلغ العالية وهي بطحان ومهزوز (واديان من حرة على تلاع أرض عذبة) بها مياه عيون غزيرة ، رجع إليهم بأمرها ، وأخبرهم بما رآه منها فقرر هو رأيهم على الإقامة فيها ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة ويهدل ومن معهم على مهزوز ، فكانت لهم تلاعة وما سقى من بعاث وسموات[٤]

---

(١) تاريخ العرب القديم ـ فيليب حتى ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧

(٢) دراسات في تاريخ العرب القديم ـ مهران ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

(٣) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٤ حاشية : ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٢٨٧

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩ ، الأغاني ١٩ / ٩٥

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم ، وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع أتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم ، وكان من شأنهم أيضا التفريق بين الرؤساء ، وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفوا الأحوال فيما بينهم وتلتئم ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطرا يتهدد اليهود .

ولما جاءت الجاليات اليهودية إلى الحجاز اختارت يثرب وجوارها ، ثم كثر اليهود في تلك المنطقة حتى كادوا يغلبون عليها جنسيا وسياسيا ، وكذلك اختار اليهود منذ نزلوا يثرب أن يكون لهم أحياء يسكنون بها خاصة بهم جريا على عادتهم في كل مكان وزمان ولقد كثروا في يثرب في غربها وجنوبها ، كما سيطروا فيها على المرافق الزراعية والصناعية والتجارية ، وفي الرواية أنه عبر زمن كان الحكم في يثرب لليهود وفي ذلك الحين كان حول يثرب قرى كثيرة،كما كان فيها أسواق رائجة كثيرة ضمن القبائل اليهودية التي كانت في ذلك الحين فيها بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وبنوماسة وزرعوا وغيرهم،وكانوا قد ابتنوا حصونا يجتمعون فيها إذا خافوا.

وكذلك كان في يثرب في ذلك الحين جاليات مختلفة إلى جانب أهلها من عرب الشمال ، على هذا المزيج المتنافر من السكان نزل الأوس والخزرج[1]

هذا مجمل الروايات التي تحدثت عن وصول اليهود إلى يثرب وإقامتهم فيها ، وإننا إذ نؤكد نفي الروايات السابقة التي تعود بهم إلى عهد موسى وداود عليهما السلام كان الأولى أن تعود هذه الروايات إلى عهد سليمان عليه السلام ألا أننا لا ننفي وصولهم تباعا إلى يثرب وسواها من مدن شمال الحجاز على أثر النكبات المتلاحقة التي لحقت بهم سواء على يد البابليين والآشوريين أو الرومان الذين فتكوا بهم بشكل كبير خاصة في القرن الأول قبل الميلاد والقرنين الأول والثاني بعد الميلاد على أثر

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ١١٦

الثورات التي قاموا بها ، وتواجدهم في شمال الجزيرة حصل بأوقات متفاوتة وهو أمر طبيعى ونستطيع أن نؤكد أن بني قينقاع قد سبقوا بني قريظة والنضير إلى الإقامة في المدينة وما جاورها. وهناك فكرة أخرى تقول: إن بعض القبائل اليهودية تعود إلى أصل عربي وتهودت وهذه الفكرة مستبعدة أيضا ويأتي تفصيل لها في بحث اليهود والعرب .

يرى (اوليري) أن بني قينقاع إما عرب متهودون أو من بني أروم[١] ولكن من المؤكد أن القبائل الكبيرة من يهود المقيمة في يثرب ـ والتي هي موضوع بحثنا ـ من أصول غير عربية ، وذلك لأن العرب اعتنوا بأنسابهم بشكل كبير ، ولا تخلو قبيلة عربية من ذكر نسبها سواء في الجاهلية أو في الإسلام إلا أن اليهود لم يرد لهم أنساب كأنساب العرب وهذا ما ينفي كونهم عربا وتهودوا .

فمجتمع يثرب ٧٠م كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على عماليق يثرب ، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم ، واختاروا من جزيرة العرب أخصب مواضعها مثل وادى القرى ، وهو واد خصيب غزير المياه كان محطة من محطات الطريق التجارى القديم الذي يصل الشام واليمن ، ومثل واحة خيبر ، وهي حرة خصبة ذات مياه وفيرة .

وفي يثرب أقام اليهود آطاما وهي حصون يلجؤون إليها في أوقات الغارات ويتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتال ، كما حصل عند حصار الرسول ﷺ ليهود بني النضير في العام الرابع للهجرة فتحصنوا منه في الحصون[٢] وقد أشار القرآن الكريم إلى ما أصاب الله اليهود من نقمته في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي

(١) حاشية ـ دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ مهران ص ٤٥٠

(٢) ابن هشام ـ السيرة ٣ / ٢٠٠

قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

كان يهود يثرب يتجمعون في قرى أعدوا فيها هذه الحصون والآطام، وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى هذه القرى في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]. وكان ليهود يثرب بيت يعرف باسم (بيت المدراس)[1] كان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم وربانيوهم يتدارسون التوراة، ويفصلون فيما شجر بينهم، وقد دخل الرسول ﷺ أحد بيوت المدراس هذه ودعاهم إلى الله فقال النعمان بن عمر، والحارث بن زيد «على أي دين أنت يا محمد؟» قال: «على ملة إبراهيم»، قالا فإن إبراهيم كان يهوديا فقال لهما ﷺ «فهلم إلى التوراة فهي بيننا وبينكم»، فأبيا عليه..؟ فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران][2]

وكان اليهود عندما نزل بينهم وحولهم الأوس والخزرج يزيدون على عشرين قبيلة، وذكر ابن النجار أن آطامهم كانت تسعا وخمسين أطما، وللعرب النازلين عليهم مثل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما، حيث ذكر ابن النجار أيضا أنه نزل المدينة قبل الأوس والخزرج أحياء من العرب من بني أنيف من بلى،ومن بني مربد، وبني معاوية بن الحارث بن بهقة بن قيس عيلان، وبني الجزماحى من اليمن[3]

وكان ممن بقى من يهود يثرب عند نزول الأوس والخزرج بنو قريظة، وبنو

---

(١) ابن هشام ـ السيرة ٢ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ٢١٣

(٢) ابن هشام ـ السيرة ٢ / ٢٠١

(٣) حاشية ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤٢

النضير ، وبنو محجم ، وبنو زعورا ، وبنو قينقاع ، وبنو ثعلبة ، وأهل زهرة ، وأهل زبالة ، وأهل يثرب ، وبنو القصيص ، وبنو فاعصة ، وبنو ماسكة ، وبنو القمعة ، وبنو زيد اللات وهم رهط عبد الله ، وبنو عكرمة ، وبنو حرافة[١]

اليهود في يثرب :

وكان مجتمع اليهود ينزلون مجتمع السيول: سيل بطحان ، والعقيق ، وسيل قناة ، وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وعمرو فنزلوا بالعالية على وادى مزينيب ومهزوز ، فنزل بنو النضير على مزينيب ، ونزل بنو قريظة وهذل على مهزوز .

وكانوا أول من احتفر فيها الآبار ، واغترس الأشجار وابتنوا الآطام والمنازل .

ومن أولاد هذل أو هدل ثعلبة ، وأسد ابنا ستية ، وأسد بن عبيد ، ورفاعة ابن سمؤال وكنيت وفيه ابنا هذل .

وكان بنو قينقاع يسكنون عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية ، وتزل بنو حجر عند المشربة التي عند الجسر ، ونزل بنو زعورا عند مشربة أم إبراهيم ، ونزل بنو زيد اللات قريبا من بني غضينة[٢]

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادى القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم وكان يقيم في (تفنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنبة) ، وقد كتب إليهم الرسول ﷺ وإلى أهل (تفنا) يدعوهم إلى الإسلام أو إلى دفع الجزية[٣] وكتب إلى قوم يهود اسمهم (بنو عادياة) وإلى قوم آخرين اسمهم (بنو عريض)[٤]

---

(١) الدرة الثمينة ص ٢٢٦ ، وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ١٢٢

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤٢ عن «المسعودي» ، ص ١١٤ ـ ١١٦

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ١ / ٢٧٦

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٦ ـ ٥١٨ ، والطبقات الكبرى ـ ابن سعد ١ / ٢٧٩

وسكن اليهود يثرب ، سكنها بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا وبنو قينقاع ، وبنو زيد ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، وبنو ماسلة سكن هؤلاء المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غير بني إسرائيل بطون العرب منهم : بنو الحرمان حى من اليمن ، وبنو مرثد حى من بلى ، وبنو نيف وهم من بلى أيضا ، ، وبنو معاوية حى من بني سليم ، ثم من بني الحرث بن بهته ، وبنو الشطية حي من غسان[١]

وكانت يثرب تضم مع اليهود قبل أن يسكنها الأوس والخزرج قبائل بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة،وبنو محر، وبنو زعورا، وبنو قينقاع، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، وفي يثرب أقام هؤلاء اليهود الحصون (الآطام) على قمم الجبال ليتحصنوا بها في أوقات الحروب ، ويلجأ إليها النساء والشيوخ والأطفال ، وكثيرا ما كان اليهود يتعرضون لغزو الطامعين في أموالهم وحاصلاتهم الزراعية من الأعراب ، والبطون اليهودية الأخرى . ومن أشهر تلك الحصون الأبلق للمسوأل ، وحصن القمومى لبني أبي الحقيق وحصون السلالم والوطح ونلم وسعد بن معاذ [٢]

مما تقدم يظهر أن اليهود لم يصلوا إلى يثرب فى وقت محدد ، ولم يصلوها جملة واحدة ومع إسقاط الروايات التى تحدثت عن وجودهم هناك ، فإن المحقق أنهم وردوها جميعا بعد الميلاد أو قبله بقليل على أصح الأقوال ، وكان وصولهم إليها بفترات متقطعة تزداد عندما يصاب اليهود فى فلسطين بنكبات توجب هجرتهم ورحيلهم ، فيغدون إلى يثرب باعتبار أنها مأمن قريب سهل.وبها أيضا بعض منهم ، والملاحظة المهمة في هذا المقام هو أن اليهود لم يفكروا بأن يقيموا حكما لهم في المدينة ، على الرغم من أن أوقاتا كثيرة كانوا بها هم الغالبون من حيث العدد والكثرة ، لكن تفرقهم واختلاف قبائلهم جعلهم بعيدين جدا عن إقامة حكومة في المنفى ، بل العكس

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٩

(٢) تاريخ العرب ـ الجميلي ص ١٨٩ – ١٩٠ عن (ولفنسون) ـ تاريخ اليهود ص ٢٠

فإنهم كثيرا ما اندمجوا في حياة العرب والوثنيين وتعلموا لغتهم العربية لكنها غير خالصة ، مشوبة بالرطانة العبرية ؛ لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاما ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراستهم ، فكان من الضروري أن يدخل في عربيتهم بعض كلماتها[١]

وأكبر هذه القبائل اليهودية ثلاث:بنو قريظة،وبنو النضير ، وبنو قينقاع عاشت في معازلها من يثرب وبجوارهم أقامت بطون يهودية صغيرة، وتأثر اليهود بجيرانهم العرب فانقسموا إلى قبائل وبطون واتخذوا أسماء عربية، وكانوا يتخاطبون بالعربية، ولكنها كانت عربية تتداخل فيها رطانة عبرية ، ولكنهم ظلوا في ذلك يؤلفون طبقة متحاجزة عن العرب فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التي قدموا منها ، كما أنهم وضعوا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية ، فوادي بطحان يعني بالعبرية (الاعتماد)،ووادي مهزوز معناه مجرى الماء،وبئر أريس لا ينسب إلى شخص بهذا الاسم ، ولكن أريس تعني باللغة العبرية الفلاح الحارث[٢]

وكان اليهود يخشون على أنفسهم من جيرانهم العرب ، ولعلهم أدركوا أن قراهم الخصبة ومزارعهم الغنية بالأشجار وبالثمار، ووديانهم التي تفيض بالمياه ، وآبارهم وعيونهم العديدة ، سوف توجه إليهم أنظار عرب الصحراء ، ولذلك عمدوا إلى

---

(١) تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلي ص ١٩٠ عن ولفنسون ـ تاريخ اليهود ، ص ٢٠

(٢) مكة والمدينة ـ أحمد الشريف ص ٢٩٨

لا يعني بأي حال ورود بعض المسميات ذات الأصول العبرية لبعض المواقع في يثرب بأنها من تأثيرات اليهود أو من تسميتهم ، فإن اتصال العربية بالسامية واتصال العبرية بها أوجدت هذه العلاقة للعديد من الكلمات المتداخلة باللفظ والمعنى باللغتين وإذا كانت هذه الأسماء تدل على أصول عبرية ، فلماذا لم يبق اليهود أى أثر مكتوب لهم فى يثرب أو يشيدوا لهم أى معبد أو يقيموا لهم أي رمز أو مركز أو مكان يبقى من بعدهم أثرا لهم ..؟ الواقع أن اليهود لم يأتوا يثرب مقيمين ، بل عاشوا القرون كلها على أمل العودة إلى فلسطين فلم يقيموا سوى الآطام التي تحميهم فى غارات الأعراب ، ولم يتركوا بها ولا على جدرانها ، ولا في مخابئها أي أثر مكتوب ، ولذلك لما أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة لم يجدوا غضاضة بالارتحال رغم أن غيرهم من قبائل العرب كانت حتى ذلك الوقت على وثنيتها وهذا يدل على عدم ارتباط هؤلاء بيثرب أو بغيرها بأى حال من الأحوال .

الإكثار من بناء الآطام والحصون ، وزادت هذه الحصون كثرة بعد نزول الأوس والخزرج وتطلعهم إلى السيادة الفعلية على المدينة [(١)]

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب والطرق المؤدية إلى الشام ، وإن تركزت قبائل اليهود الكبرى في يثرب بالذات ، حيث كان فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهي قينقاع والنضير وقريظة ، إلى جانب بطون وعشائر يهودية أخرى ذهب الإخباريون أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا[(٢)]

غير أنهم لم يكونوا أعرابا أي (بدوا) ينتقلون من مكان إلى مكان ، بل كانوا حضرا استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهن أهل المدن ، كل جماعة مستقلة تحمل اسما من الأسماء التي ذكرها الإخباريون ، وتروي الأخبار أن أحدا من يهود قد ملك بيثرب وهو (الفيطون) أو (الفطيون) [(٣)]

ويرجع الإخباريون مجيء الأوس والخزرج إلى المدينة إلى حادث سيل العرم ـ كما سيرد لاحقًا ـ ويقولون إنهم لما جاؤوا إلى يثرب وجدوا اليهود وقد تمكنوا فيها فنزلوا في ضنك وشدة ودخلوا في حكم ملوك يهود إلى أيام ملكهم المسمى (الفيطوان) ، أو (الفيطون) أو (الفطيون) وكان رجلا شديدا فظا يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله رجل منهم اسمه مالك ابن العجلان وفر إلى الشام إلى ملك من ملوك الغساسنة اسمه (أبو جبيلة) وفي رواية أنه فر إلى تبع الأصفر بن حسان ، وتذكر الرواية أن أبا جبلة سار إلى المدينة ونزل بذي حرض ثم كتب إلى اليهود يتودد إليهم ، فلما جاؤوا قتلهم ، فتغلبت منذ ذلك اليوم الأوس والخزرج[(٤)] وما زال هؤلاء اليهود يسيطرون على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤٣

(٢) دراسات في تاريخ العرب القديم ـ مهران ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ . وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ١١٢ ـ ١١٦ ، ابن هشام ـ السيرة ٢ / ١٦٠ ، جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٢

(٣) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٢٢ . في ذكر هذه الحادثة أن اليهود قد تملكوا وأقاموا مملكة ربما تكون أول تأثيرات سياسية على الأوس والخزرج بالاتجاه إلى الملكية في يثرب باعتبار السامية عند اليهود .

(٤) جواد علي ٤ / ١٣٣ ـ ١٣٥

لأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا عربية الشمالية لسانا لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب ، ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة(١)

غير أن اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ، ويعترضونهم ويتناوبونهم ، فعمد مالك بن العجلان إلى الحيلة ، فتظاهر أنه يريد الصلح معهم ، وأنه عزم على تسوية العداوات ، وطمس الحزازات ، وأنه لذلك يدعو رؤساءهم إلى طعام ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح فلما حضر سائر يهود فتك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته وفر أحدهم ليخبر قومه بما حدث ، وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد فلما قتل مالك من يهود ما قتل ، ذلوا ، وقل امتناعهم،وخافوا خوفا شديدا،وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه ، لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين هم بين أظهرهم ، فيقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود لجؤوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم ، ومنذ ذلك الزمن لم يبق لليهود على هذين الأرضين سلطان(٢)

ورد في رواية أخرى : أن مالك بن العجلان كان من الخزرج ، وكان سيد قومه يومئذ وكان على اليهود منهم رجلا اسمه (الفطيون) ملك عليهم ، واستبد بأمر الناس ، وكان يهوديا ومن بنى ثعلبة ، وكان امرأ سوء فاجرا ، قرر ألا تدخل امرأة على زوجها إلا بعد دخوله عليها . فاغتاظ مالك من فعل الفطيون ، ومن استذلاله للعرب ، ولما كان زفاف اخته لزوجها ، وكان لا بد من إدخالها على الفطيون أولا ليستمتع بها كبر ذلك عليه ، فدخل معها في زي امرأة ، فلما أراد الفطيون الخلو بها

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٧ ـ جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٠ .

وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله وخلص قومه منه ، وفر عندئذ إلى جبيلة ملك غسان[١]

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان ، بل كان من الخزرج ، وكان عظيما ذا منزلة كبيرة في الناس ، حتى صار ملكا على الغساسنة ، ويرجح رواتها أنه لم يكن ملكا على آل غسان ، بل كان مقربا من ملكهم ، عظيم الحظوة لديه ، ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الغساسنة بوجود ملك عليهم اسمه (عبيد بن سالم بن مالك ابن سالم) وهو اسم (أبي جبيلة) المذكور ، ويذكرون أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه وتذكر رواية أن «الفطيون» اسم عبراني ، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة) وكان تملك يثرب فلما قتل خرج مالك بن العجلان حتى قدم على (أبيجبيلة)[٢] وهو يومئذ ملك غسان،فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم (وكان اليهود قد ملكوا الزرع والضرع والأوس والخزرج يتعاملون مع الأرض الجرداء ، ومع الماء الملوث ، ومع الجبال اليابسة) فقال له أبو جبيلة:والله ما نزل قوما منا بلدا إلا غلبوا أهله عليه .. فما بالكم؟[٣] ثم أمره بالمضي على قومه وقال له أعلمهم أنى سائر إليهم فرجع مالك بن العجلان ، فأخبرهم بأمر أبي جبيلة ، ثم قال لليهود إن الملك يريد زيارتكم فأعدوا نزلا فأعدوه ، وأقبل أبو جبيلة سائرا من الشام في جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذي حوض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج فذكر لهم الذي قدم له ، وأجمع بمكر اليهود حتى يقتل رؤوسهم وأشرافهم ، وخشى إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا بآطامهم فيمتنعوا عنه حتى يطول حصاره إياهم فأمر ببناء حائر واسع فبنى ، ثم أرسل إلى اليهود أن

---

(١) الكامل ـ ابن الأثير ١ / ٤٠١

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢١

(٣) تدل هذه المقالة على أن القبائل التي خرجت من اليمن على أثر تهديم سد مأرب ومنها الغساسنة والأوس والخزرج ـ كما سيرد ـ كانت ذات منعة وقوة وأنفه ، وقد ملكت في ذلك الوقت جنوب الشام وشمال الجزيرة ، ويقال أيضا جنوب العراق ، ولذلك فقد تمكن الأوس والخزرج من فرض سلطانهم على يثرب ، والدخول بعدها في متاهات البداوة من حيث الحروب والثأر والاقتتال وسواها .

أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من وجوه القوم إلا أتاه ، وجعل الرجل يأتى معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالا من جنده أن يدخلوا (الحائر) الذي بنى ثم يقتلوا كل من دخل عليهم من اليهود ، ثم أمر أصحابه أن يأذنوا لهم في الحائر ويدخلوهم رجلا رجلا ، فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ، وتقتلهم الجند الذين في الحائر ، حتى أتوا على آخرهم فقالت سارة القرظية ترثى من قتل منهم أبو جبيلة تقول:

بنفسي أمة لم تغن شيئا بذي حرض تعفيها الرياح

كهول من قريظة أتلفتها سيوف الخزرجية والرياح

رزئنا والرزية ذات ثقل يمر لأهلها الماء القراح

ولو أربوا بأمرهم لجالت هنالك دونهم جاؤوا رداح

وعليه لم تدم سيطرة اليهود الأخيرة عن عامين اثنين فقط ، وذلك على عهد أميرهم الفطيون وإنما كنا نميل إلى تقديرها بحدود سنة ٥٠٠م(١) . وهي السنة التي تولى فيها أول ملك غسانى قوى معروف ، وبذلك تكون مدة تسلط اليهود الجديد حوالى عشر سنين ، وهي مدة كافية لتنمر اليهود ، والذي يدفع الخزرج أمام اليهود ، وحققت لهم النصر عليهم :

أ ـ صاحب الأغاني ١٩ / ٩٦ يرى أن مالك بن العجلان وفد إلى جبيلة الغساني وهو ـ ملك غسان يومئذ ـ فسأله جبيلة عن قومه ، وعن منزله فأخبره بسوء حالهم وضيق معيشتهم ، وتعرضهم للظلم ، والمهانة من اليهود ، فاستاء أبو جبيلة من ذلك وقال له والله ما نزل قوم منا بلدا قط إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضي إلى قومه وقال له : أعلمهم بمقدمي ، فإني سائر إليهم لاستنقاذهم .

ب ـ الدكتور محمد حسين هيكل (حياة محمد ص ١٩٩) يرى أن المسيحيين

(١) يقدرها سيديو بكتابه تاريخ العرب ـ ترجمة عادل زعيتر صفحة ٤٥ بعام ٤٩٢م .

العرب الذين كانوا يعيشون في الشام ، ويقيمون دولة عربية تابعة للدولة الرومانية الشرقية وهم (الغساسنة) كانوا بحكم نصرانيتهم يمقتون اليهود أشد المقت، وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم واستعملوا موضوع غيرتهم على الأوس والخزرج وسيلة للاستشفاء من اليهود وكسر شوكتهم والقضاء على هيمنتهم .

جـ ـ ويذكر ابن الأثير (الكامل ١/ ٤٠٠ ووفاء الوفا ١/ ١٧٧) أن أبا جبيلة جاء إلى يثرب يطلب من الأوس والخزرج الذين طفح عندهم الكيل ، ولم يبق في مكنتهم تحمل الضيم أكثر مما تحملوا،وبخاصة عندما بدأ الفطيون يتعرض لنسائهم، والعرب جميعا يغارون على نسائهم ويموتون من أجل الشرف[١]

وقال أبو جبيلة للأوس والخزرج إن لم تغلبوا على هذه البلاد بعد أن من قتلت من أشراف أهلها لا خير فيكم ، ثم رحل إلى الشام .

وقال الصامت بن أصرم القوفلي يذكر قتل أبي جبيلة اليهود :

سائر قريظة من يقسم سبيها يوم العريض ومن أفاء المغنما

جاءتهم الملحاء تخفق ظلها وكتيبة خشناء تدعو سلما

عي الذي جلب الهمام لقومه حتى أحل على اليهود الصيلما[٢]

أما مالك بن العجلان فقد صوروه شيطانا ملعونا،وصوروه في بيعهم وكنائسهم ليلعنوه كلما دخلوا ورأوه ، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[٣]

قال مالك بن العجلان في ذلك قوله :

نحاني اليهود بتلعانها نحاني الحمير بأبوالها

(١) المدينة ـ الخطراوي ٣/ ٧٨ـ ٧٩

(٢) الصليم : الأمر الشديد والداهية ، والسيف (القاموس المحيط ٤ / ١٤١) ، الأغاني ١٩ / ٩٦ – ٩٧

(٣)جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢١ ، والأغاني ١٩ / ٩٧

فـــماذا عـــلى بـــأن يلعنـــوا وتـــأتي المنايـــا بأذلالهـــا[١]

وقد بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول ﷺ إلى يثرب فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة ، وذكر ابن دريد أن بعضا من بني الفطيون الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب قد شهد بدرا ، واستشهد بعضهم يوم اليمامة ، وذكر أن نسب الفطيون في غسان وهو (عامر ابن عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الحارث المحرق بن عمرو مزيقيا) فهو بذلك من العرب على رأي البعض ومن اليمن ، وليس من أصل عبراني[٢]

وقد فسر أهل الأخبار (الفطيون) بـ (مالك) وقالوا أنها تقابل(النجاشي) عند الحبشة (وخاقان) عند الترك ، وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بـ (الفطيون) [٣] وأبو جبيلة ، عند بعض الأخباريين هو (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم) أحد بني غضب بن جشم بن الخزرج ، فهو على هذه الرواية رجل من الخزرج ، ذهب إلى ديار الشام ، فملك غسان .

وذهب بعض آخر من الأخباريين إلى أنه لم يكن ملكا ، وإنما كان عظيما ومقربا من ملك غسان[٤]

ونسبه بعض أهل الأخبار إلى (بني زريق) بطن من بطون الخزرج ونعته (أبي جبيلة الملك الغساني) [٥]

ونحن إذا أخذنا بهذه الرواية وجب علينا القول : إن أخذ الأوس والخزرج أمر المدينة بيدهم ، وزحزحة اليهود عنها يجب أن يكون قد وقع في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي زمن لا يبعد كثيرا عن الإسلام ، لأننا نجد أن أحد

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٧

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ١٣٤

(٣) المصدر السابق ٤ / ١٣٤ و ٦ / ٥٢٢ .

(٤) الكامل ـ ابن الأثير ١ / ٢٧٦ ، تاريخ ٢ / ٢٨٦ وما بعدها .

(٥) الاشتقاق ، ص ٢٧٢

أولاده وهو (عثمان بن مالك بن العجلان) في جملة من دخل الإسلام وشهد بدرا ، كما نجد جملة من بنى العجلان من أبناء أخوة مالك وقد شهدوا بدرا ومشاهد أخرى وهذا ما يجعل ذلك (مالك) لا يمكن أن يكون بعيدا عن الإسلام[١]

ويظهر من دراسة هذه الأخبار المروية عن اليهود وملكهم (الفطيون) وعن الأوس والخزرج وما فعلوه باليهود أن عناصر الخيال قد لعب دورا في هذا المروى من كتب أهل الأخبار عن الموضوع .

ونجد في القصص المروى عن ملوك اليمن وعن ولعهم بالنساء ، وعملهم المنكر بهن ما يشبه هذا القصص الذي نسب إلى (الفطيون) ونجد للعلاقات الجنسية مكانة في هذا القصص الجاهلى الذي يرويه أهل الأخبار عن ملوك الجاهلية ، وما قصة (الفطيون) إلا قصة واحدة من هذه القصص الذي نجد للغرائز الجنسية مكانة بارزة فيها[٢]

إذا كانت الروايات قد صورت اليهود وملكهم (الفطيون) بهذا الشكل المرزى فمما لا شك فيه أن تملك اليهود ليثرب قد جر على العرب الكثير من الويلات ، سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ، وهذا حدا بمالك ابن العجلان على الإقدام على قتل الملك وطلب النجدة من الغساسنة ، وذلك لأن اليهود إذا حكموا غيرهم من الناس فإنهم يعتبرونهم نوعا من السوام والدواب وليسوا من البشر وإنما خلقوا لخدمتهم ، وعذابهم وسرقتهم وقتلهم وحتى الزنا بهم لا يعتبر جرما محرما كما لو كان بين اليهود أنفسهم ؛ لأنهم ليسوا من مرتبة البشر ، وإنما

---

(١) لم أقف على اسم (عثمان بن مالك بن العجلان) في الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، ولم أقف لهذا الاسم أيضا فى سيرة ابن هشام ممن شهد بدرا من الأنصار وإنما وقفت على اسم (رافع ابن مالك بن العجلان) أحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا الرسول ﷺ فى العقبة الثانية وكذلك على أسماء ولديه (رفاعة بن رافع ابن مالك بن العجلان وأخوه خلاد بن رافع بن مالك بن العجلان) وعبيد بن زيد بن عامر بن العجلان وشهد بدرا أيضا،وهؤلاء من بني العجلان (سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٨ والسيرة النبوية ابن كثير ٢ / ٤٩٥ و ٥٠١) .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ١٣٤ ـ ١٣٥

خلقوا كالحيوانات لخدمة الإنسان ، والناس من غير اليهود خلقوا كالعبيد لخدمة بني إسرائيل .

قد يكون هنالك مبالغات في هذا الذي رويناه كما ورد سابقا ، لكن هذا يؤكد سوء المعاملة التي عامل بها اليهود العرب عند حكمهم لهم ، وكما تشير الروايات إلى أن (الفطيون) ليس شخصا واحدا بذاته ، بل هو لقب على كل ملك من الملوك الذين حكموا يثرب حتى أن بعض الإخباريين قد ذكروا أن (الفطيون) الذي قتله مالك بن العجلان يعود نسبه إلى الأزد ، بل إلى منبت قريب من الأوس والخزرج ، فهو ـ كما يقول الإخباريون ـ يعود إلى جدهم مزيقيا ، ويدل هذا ـ إن صح الخبر ـ على أنه لم يكن من يهود ، وإنما كان من العرب ، تهود ، وساد قومه بنسبه وساد اليهود بدينه الذي يوافقهم .

وتفرد ياقوت الحموي[1] في انتصار الأوس والخزرج على اليهود برأي ينقض كثيرا مما أوردناه ، ويسم الموقف بكثير من المنطق ، حيث ينسب ذلك الانتصار إلى قوة الأوس والخزرج أنفسهم فيقول متحدثا عن ثعلبة العنقاء جد الأوس والخزرج

فلما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، وبها ناس كثير من بنى إسرائيل متفرقون في نواحيها ، فاستوطنوها وأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادى القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة ، إلى أن وجد عزة وقوة فأجلى اليهود عن المدينة واستخلصها لنفسه وولده ، فتفرق من كان بها من يهود وانضموا إلى إخوانهم الذين كانوا بخيبر وفدك وتلك النواحى ، وأقام ثعلبة وولده بيثرب فبنوا فيها الآطام ، وغرسوا فيها النخل فهم الأنصار .

وقد ينسجم رأيه مع ما أوردناه سابقا إذا حملنا قوله على الانتصار الأولى على عقب مقدمهم إلى يثرب ، حيث سمح لهم سكانها من العرب وأفخاذ من اليهود بمجاورتهم ، فكلامه يعنى أنهم فرضوا وجودهم فرضا ، وسكنوها اغتصابا ،

---

(١) معجم البلدان ـ الحموي ٤ / ٢٨٥

ولكنه مع ذلك بالغ في تشريد اليهود فإن الأوس والخزرج في تلك الآونة لم يكونوا من الحول والطول بحيث يفعلون ذلك ، هذا بالإضافة إلى أن بطون اليهود ظلت في يثرب حتى أجلاهم الرسول ﷺ منها[١]

ومن المؤكد أن الغلبة التي حصل عليها العرب (الأوس والخزرج) بعد مقتل ملك اليهود وذبح أشرافهم قد استمر إلى فترة ظهور الإسلام ، وفكرة الحكم الملكى قائمة في أذهان اليثربيين على شرط أن يكون الملك هذه المرة منهم ـ ومن الخزرج

ويمكن لنا أن نلخص العلاقة بين العرب واليهود بأنه كان يسكن مع اليهود عدة بطون عربية قبل هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب ، ومن هذه البطون (بنو الحرمان حي من اليمن) ، و (بنو مرتد حى من بلى) ، و (بنو نيف حي من بلى أيضا)، و(بنو معاوية وهم حى من بني سليم)، ثم (بنو الحارث بن بهتة)، و (بنو الشطية حي من غسان) .

وقد بقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ، ولم تعتنق اليهود ، فعدت من موالى اليهود ، ثم نزحت قبائل الأوس والخزرج من اليمن على أثر انكسار سد مأرب (السيل العرم) فنزلوا بيثرب وأقاموا فيها مع اليهود ، فسكن الأوس جنوب شرق يثرب ، أما الخزرج فسكنوا في شمالها الغربى وجاوروا يهود بني قينقاع .

ووجد الأوس والخزرج أن السيادة في يثرب لليهود،والأموال والآطام بأيديهم، والعدة والقوة معهم فرغبوا في مسالمتهم ، وسألوهم أن يعقدوا معهم حلفا وجوارا يأمن به بعضهم من بعض فأجابهم اليهود إلى ذلك رغبة منهم في ضمان سيادتهم على يثرب من جهة ، وليستخدموا حلفاءهم في الدفاع عنها من جهة أخرى ، بالإضافة إلى الاستفادة من خبرات هؤلاء العرب في المجال الزراعي والتجاري[٢]

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ٣ / ٨٦ .

(٢) التاريخ الإسلامي العام ـ علي إبراهيم حسن ، ص ١١٤

وقد أفاد عرب الأوس والخزرج في هذا الحلف وصار لهم مال وعدة،الأمر الذي أثار مخاوف اليهود فسعوا على نقض الحلف الذي بينهما ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود ، فظهر بين الأوس والخزرج رجل أنف أن يظل قومه تحت رحمة اليهود فعزم على وضع حد لذلك ، وكان ذلك الرجل هو (مالك بن العجلان) وتذكر الروايات العربية على أن مالك وثب على زعيم يهودي يقال له : (الفطيون) وقتله ، ثم خرج إلى بلاد الشام ، ملتمسا النصرة من أبي جبيلة الغساني (ولعله الحارث بن جبيلة الغساني) أحد ملوك الغساسنة على يهود يثرب حيث نصره، وقتل عددًا كبيرًا من اليهود ، وعادت السيادة للأوس والخزرج[1] على مدينة يثرب .

أحوال اليهود الاجتماعية والأدبية :

لقد سبق القول بأن اليهود قد تأثروا كثيرا بحياة العرب فسموا بأسمائهم ، وعاشوا مثلهم قبائل وأحلاف ، ولكنهم بقوا محصورين ضمن ما وصلهم من النوراة المحرفة في معتقداتهم الدينية ، والتي كانت تربط حياتهم ، ويؤثرونها على الناس فلا يطلعون عليها أحدًا

وكل ما عرفه العرب عنهم أنهم جاؤوا إلى مدينة مهاجر نبي سينقذهم من طغيان العرب وجيرانهم وسيرفع من شأنهم ، وسيحاربون العرب بقيادته ، ويقتلونهم قتل عاد وأرم ، وقليل جدا من العرب الذين عرفوا أكثر من هذه النبوءة عن يهود .

لم يخف اليهود هذه النبوءة عن (تبان أسعد كرب) الذي تحاشى حتى تهديم الكعبة بناء على نصيحتهم ، لكن اليهود قد مارسوا أعمالاً كان يأنف منها العرب وهي الصناعة ، وبعض التجارة في أسواق ثابتة ، في الوقت الذي لم يكن للعرب هذه الأسواق حيث أن أسواق العرب موسمية ومتنقلة ، فمن سوق عكاظ إلى ذي الحليفة إلى منى إلى رحلتي الشام واليمن (الصيف والشتاء) . أما اليهود على العموم

(١) تاريخ العرب فى الجاهلية ـ الجميلي ص ١٩٠ ـ ١٩١

فقد استقروا في أسواقهم خاصة في يثرب . فسوق بنى قينقاع كان من جملة الأسواق الكبيرة يتاجرون به بمختلف البضائع وخاصة الذهب ، أما الصناعات فقد كانت السلاح على رأسها ، ولقد أفادتهم هذه المهنة بتحديد الأسلحة إلى المتحاربين العرب في أيامهم التي أعجزت المؤرخين عدها وحصرها ، ولا ينتهي يوم إلا ويتلوه يوم أخر أشد وأقسى وهذه الصناعة جعلت لهم قوة ذاتية ، ربما حمتهم في بعض الأحيان من جيرانهم لم يتزوجوا من الوثنيين ولم يزوجونهم ، وما كان من فسق ملكهم ـ إن صحت الرواية وهي بعيدة عن الصواب ـ فإن هذا شأن خاص ، أما هم فقد آثروا الاعتزال ضمن حدودهم وآطامهم وحصونهم .

وسبق القول : بأنهم تعاملوا بالعربية ذات لكنة أعجمية ، لكنهم تكلموا بها ولم يسجلوا بها تراثا كبيرا ، والعبرية كانت خاصة عندهم ، وقليل جدا من غيرهم من كان يعرفها . وقد عقد جواد على فصلا خاصا عن شعرائهم[١] ومما قاله

لا نعرف نصا جاهليا جاء فيه خبر عن شعر يهودي ، أو عن شاعر يهودي عاش في بلاد العرب وكل ما ورد إلينا من شعر يهود مستقى من الموارد الإسلامية فحسب .

كذلك لا نعرف مصدرا عبرانيا ، أو غير عبراني تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب ، ولهذا في الحديث عن شعر يهود في أيام الجاهلية مستمد من الموارد الإسلامية .

ومن يلق نظرة إلى أشعار اليهود لا يجد فيها أي أثر لليهودية،ولا أية مصطلحات تشعر أن صاحبها يهودي ، فلا نجد فيها شيئا من قصص التوراة أو التلمود أو المنشاة أو الكهارة أو أي شيء له صلة بعقائد اليهود[٢] مع أننا قد وجدنا شيئا من قصص العهد القديم في شعر (أمية بن أبي الصلت) وهو غير يهودي . فهل يعني

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٦٨ فما بعد .

(٢) التوراة ، التلمود ، المنشاة ، الكهارة ، أسماء الكتب المقدسة التي كتبها اليهود عن تاريخهم وعقيدتهم ، وحرفوا التوراة أولها عن أصولها .

ذلك أن شعراء اليهود لم يكن لهم ميل إلى التحدث في أمور الدين؟ والنظر في أحكام الشريعة ؟ وفي التفكير في خلق السموات والأرض والإنسان ، وفي الموت والفناء ؟ أو أنهم كانوا في جهل بها؟ وكان أمرها عندهم إلى رجال دينهم هم يبحثون معينها ، ولهذا لم يحملوا أنفسهم مشقة التعرض لها والبحث فيها ، وأنهم كانوا تطرقوا فعلا إلى هذه الأمور، وجاؤوا في شعرهم بأشياء مما يختص بدينهم، ويميزهم عن غيرهم، وتطرقوا إلى عاداتهم وأشادوا بذكر أنبيائهم ، غير أن الرواة المسلمين لم يحفلوا بشعرهم لأنه شعر يهودي ، فضاع كما ضاع شعر الوثنيين إذ لم يروى منه إلا القليل .

لقد ذهب (ولفنسون) إلى أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم ، إنما يرجع إلى ضعف إقبال اليهود على اعتناق الإسلام ، والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ، ومن تناسل منهم تخليدا لما كان لأجدادهم من مجد أثيل ، وشرف عظيم ، ولو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموأل لكان من الجائز عدم وصول أي شيء من شعره إلينا

وذهب الدكتور طه حسين إلى أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر في الدين وهجاء العرب ، وأنهم انتحلوا وصنفوا شعرا لإثبات وجود لهم في الشعر ، فنسبوه إلى شعراء يهود لكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع .

وقد أدخل (كارلو نالينو) في كتابه (تاريخ الآداب العربية) ص ٧١ فما بعد الشعراء اليهود مع الشعراء الوثنيين ، وجعلهم في الصنف الأول من أصناف طبقات الشعراء على حسب تصنيفه لهم إلى أربع طبقات وقال لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده في الوثنيين والنصارى من أهل الحضر ، لأنكم إذا اطلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل الإسلام ما ألفيتم فيها شيئا أو عبارة يميزها من سائر أهل البادية فمن طالع مثلا أبيات السموأل بن عاديا و (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة التزوير منسوبة إليه لم

تعرف ولم تطبع إلا حديثا) لما توهم أن صاحبها تابع لدين اليهود ، والأمر كذلك أيضا في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شعبة ابن غريض ، والربيع بن أبي الحقيق، وغيرهما التي اغتنى بجمعها (فولدكه) و (فرانز ولتر) ليس من المستحيل أن ما فقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة إلى ما حفظ) فقد حوى أشياء مما يختص بدينهم ، وليس من المحال أيضا أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الوجود ، المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين ، لا لغة ولا أسلوبا ولا مأخذا ، كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة (١)

ولكني ـ كما يقول المؤلف ـ أجد من مطالعتي لشعرهم نفسا يختلف عن النفس الذي نجده في شعراء الجاهلية (البادية) ، ذلك هو ميل هذا الشعر إلى التحديث عن المُثل الأخلاقية كالإنصاف والحكم بالعدل،والحكم والصداقة، واحترام حق الصديق،والاتعاظ بالموت وبحوادث الدهر،وبوجوب الوفاء. خذ الأبيات المنسوبة إلى (الربيع بن أبى الحقيق):

سائل بنا جابرا كمائننا ... والعلم قد يلقي لدى السائل

لسنا إذا جارت دواعي الهوى ... واستمع المنصت للقائل

واعتلج القوم بألبابهم ... بقائل الجود ولا الفاعل

إنا إذا نحكم في ديننا ... نرضى بحكم العادل الفاصل

لا نجعل الباطل حقا ولا ... نلط دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنخمل الدهر مع الخامل

ففيها دين يأمر بالعدل والإنصاف وعدم مزج الحق بالباطل ، ينهي عن الظلم ، ويأمر بالحق ـ وفيها إذا صح بالطبع أنها من شعرهم ـ منطق واستماع إلى حديث

(١) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ٧٦٨ ـ ٧٦٩

متظلم، يعمد إلى رفع شكواه إلى المنصفين لإنصافه، فينصف، فأخذ الحق هنا هو بحكم الدين وقواعد العدالة لا بالسيف وبحكم العصبية والأخذ بالثأر[١]

وقد ذكر ابن سلام أسماء فحول شعراء يهود فجعلهم : السموأل بن الفريض بن عاديا، والربيع بن أبي الحقيق، وأبو الزبال، ودرهم بن زيد، وأضاف غيرهم إليهم أوس بن أوفي وسماك، والفريض بن السموأل، وسلام ابن مشكم، وكنانة بن أبي الحقيق[٢]

ومن شعراء يهود (أبو أتايه) القرظي، و (أبو ياسر) النضيري، و (أبو القرفع) اليهودى و (عمرو بن أبى صخر بن أبى جرثوم) اليهودى، و (أبو حمضة) وله شعر في الحيران و (كعب بن أسد بن سعيد) القرظى اليهودى من بنى قريظة، جاهلى له مع قيس بن الخطيم في يوم (بعاث) مناقضات، و(مالك بن عمر النضيري) وهو جاهلي[٣] وذكر المعري اسم شاعر يهودي اسمه بسمير بن أركن (سمير بن أركن) من أهل خيبر قال شعرا لما أمر عمر ﷺ بإجلاء أهل الكتاب من جزيرة العرب هو:

يصول أبو حفص علينا بدرة	رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تبتع حمولة ما قط	لتشبع، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقا ما ظهرتم	علينا، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى اليمن فاعرفوا	لنا رتبة البادى هو أكذب[٤]
مشيتم على آثارنا في طريقنا	وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا[٥]

(١) جواد على ـ تاريخ ٩ / ٧٧٠

(٢) المرجع السابق ٩ / ٧٧٠ ـ ٧٧١

(٣) المرزباني ـ معجم ص (٥٩) و ٢٦١ ـ ٢٣٢ ـ ٥٠٧ ـ ٥١٣ ـ ٥١٥

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٨٩ ـ ٧٩٠

(٥) رسالة الغفران ـ المعري ص ٤٤١ وما بعدها .

وأورد أبو الفرج الأصبهانى أبيات شعر نسبها إلى شاعرة يهودية اسمها (سارة) القرظية ، ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جبيلة) أشراف اليهود[1] وذكر الجاحظ بيتين نسبهما لشاعرة يهودية قالتها في نفث الرقية والصفار وهما :

وليس لوالدة نفسها ولا قولها لابنها دعدع

تداري غثراء أحواله وربك أعلم بالمصرع[2]

قبائل اليهود :

كما سبق القول فإن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطونا منهم :

١ـ **بنو أنيف** : سبق أن أشرنا إلى أنهم حى من قبيلة بلى العربية ، وكانوا يسكنون قباء ولهم آطام عند بئر (غدق) قال شاعرهم :

ولو نطقت يوما قباء لخبرت بأنا نزلنا قبل عاد وتبع

وآطامنا عادية مشمخرة تلوح فتنكي من تعادي وتمنع

٢ـ **بنو القصيص** : وكانوا أيضا بقباء مع بنى أنيف .

٣ـ **بنو قريظة** : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

٤ـ **بنو هدل** : وكانوا يسكنون مع بنى قريظة .

٥ـ **بنو عمرو** : وكانوا يسكنون مع بنى قريظة .

٦ـ **بنو النضير** : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

٧ـ **بنو مريد** : ولهم أطم معروف باسمهم .

٨ـ **بنو محمم** : وكانت لهم أرض تسمى خنافة مشهورة بكثرة الحراث .

(١) رسالة الغفران : المعري ص ٦٠

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٩١ـ٦ / ٥٦٩ فما بعدها .

١٠، ١١، ١٢ـ بنو معاوية ، بنو زعورا ، بنو زيد اللات .

١٣ـ بنو قينقاع : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

١٤، ١٥ـ بنو حجر ، بنو ثعلبة : كلاهما كان يسكن زهرة وهم: (الفطيون) ، وكان لهم آطام كثيرة ، وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة ، باد أهلها بالدود كما يقول الاخباريون وقد يكون ذلك وباءا عاما حل بهم وأفناهم ، وكانت زهرة هذه في منطقة الجرف إلى جهة البركة ، ولا يزال بستان يحمل هذا الاسم حتى الآن.

١٦ـ يهود الجوانية : وهو موضع بيثرب قرب أحد شمالى المدينة ، ولهما أطمان هما صرار والريان ، وقد صارا بعد ذلك لبني حارثة ، وفيهما يقول (نهيك بن سياف) :

لعـــل صرارا أن تعـــيش بنـــاره وتـــسمح بالريـــان تبنـــي مـــشاربه

١٧، ١٨ـ بنو عكرمة ، بنو مراية ولهم أطم الشبعان .

١٩ـ يهود رابخ : ولهم أطم يحمل هذا الاسم . قال قيس بن الخطيم :

ألا إن بـــين الـــشرعبي ورابـــخ خرابـــا كتخـــذيم الـــسيال المعـــضد

٢٠ـ يهود يثرب : وقد بادوا ولم يبق منهم أحد .

٢١ـ يهود ناعضة : وأصلهم من اليمن ، سكنوا شعب بني حرام(١)

غير أنهم لم يكونوا أعرابا ، أي بدوا يتنقلون من مكان إلى مكان ، بل كانوا حضرا استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهن أهل المدن ، كل جماعة تحمل اسما من تلك الأسماء التي ذكرها الإخباريون(٢)

وذهب الإخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا ، وربما بلغ عدد رجال هذه القبائل البالغين أكثر من ألفين(٣)

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ٣ / ٧٤ – ٧٥ ، والأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٥

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٢

(٣) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥١ . جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٤

وعرف في التاريخ الإسلامي من هذه القبائل ثلاث ، كانت ذات بأس وقوة ، وعدد كبير ، وصاحبة أملاك وهم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، ويأتي هذا الترتيب حسب زمن اصتدامهم بالمسلمين ولقد ارتأينا الوقوف عليهم دون غيرهم نظرا لاحتكاكهم بالأنصار قبل الإسلام وبعده ، وموقفهم من المسلمين بعد ذلك ، وبأنه كان لتأثيرهم في حياة العرب في المدينة أكثر من غيرهم ، ويضاف إلى هذه القبائل الثلاث العرب المتهودون باعتبار أنهم لعبوا دورا كبيرا في حياة المدينة أيضا :

أولا : بنو قينقاع :

يرى (أوليري) أن بني قينقاع إما عرب متهودون أو من بني أرم وهذا الرأي لا يقف عند هذه القبيلة فقط فإن فريقا من المؤرخين إنما يذهب إلى أن يهود بلاد العرب ـ جميعهم ـ إنما هم عرب تهودوا .

لقد ادعى اليعقوبي[١] عروبة جميع القبائل اليهودية التي تسكن شمال الجزيرة العربية في يثرب وغيرها ، فبنو النضير مثلا عنده فخذ من جذام نزلوا بجبل اسمه (النضير) فعرفوا به ، وبنو قريظة فهم فخذ من جذام أيضا تسموا بجبل يحمل هذا الاسم وهكذا وكذلك أثرت عروبتهم على ياقوت الحموي ـ وهو رأي لا يثبت للنقاش،وليس له سند من منطق أو تاريخ دقيق،فإن ظاهرة تسمى اليهود بالأماكن التي ينزلون بها كما يقول (ولفنسون) [٢] لا يمكن أن يتخذ دليلا على عروبتهم [٣]

ولم يكن اليهود ـ العرب ـ هؤلاء مزودين بمعلومات كافية في التوحيد ، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله حتى أن بعضا من يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أنكروا عليهم يهوديتهم ، وإن كانوا مع ذلك شديدى التمسك بدينهم[٤] ويكاد يجمع المؤرخون أن يهود بلاد العرب إنما هو من يهود

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٤٩ ـ ٥٠

(٢) تاريخ اليهود ـ ولفنسون ص ١٥

(٣) المدينة ـ الخطراوي ٣ / ٧٢

(٤) تاريخ اليهود ـ ولفنسون ، ص ١٣ ، ٧٣

فلسطين ، وأنهم قد تركوها فيما بين عامي ٣٠ ـ ١٣٥م .

على أن الاستدلال ببحث لغوي على جنسية يهود بلاد العرب طبقا لما تشير إليه الأسماء التي يحملها اليهود ـ قبائل وأفرادا ـ لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عربية محضة،ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس ، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود والتي هاجرت إلى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأماكن التي نزلت بها أسماء لها بل إن الواقع إنما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الانتساب إلى قبائلهم وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التي جاؤوا منها فكما يقال فلان الأورشليمي أو فلان الحبروني وهكذا

ومن ثم فالطريقة المثلى فيما يرى ولفنسون[1] إنما هي النظر في الأخلاق والتقاليد واتجاه الأعمال والأفكار ، وهنا سوف نجد أن يهود بلاد العرب يهود أكثر منهم عربا هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب إنما أتى اليهود بها من فلسطين ، حيث تكثر هناك الحصون المبنية في الجبال . أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير بني إسرائيل ، ونص عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده ، وكان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وعذر ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وذلك بصدد التنديد بموقفهم من النبي ﷺ وفي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة حيث يوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل ، أو اليهود بصيغة المخاطب القريب ، فينتقض ما كان من الأقدمين ، وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك وربط ما بدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء ، كأن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ – ١٦

الجميع يصدرون عن جبلة واحدة ، وأخلاق متوارثة .

وإذا فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يثرب «بني إسرائيل» يسوغ الترجيح بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز بصفة عامة هم نازحون ، وأنهم إسرائيليون وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت ، وإن كان هناك عرب تهودوا ، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة وليسوا إلا أفرادا (١)

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبني النضير . وقد اشتركوا في يوم بعاث ، ووقعت بينهم وبين بني النضير معارك فتك بها بنو قينقاع وأصيبوا بخسائر كبيرة ، واضطرتهم على ما يظهر إلى الالتجاء إلى يثرب والإقامة فيها في حي واحد في المدينة(٢)

وكان بنو قينقاع عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية ، ويحدد العياشي نهاية هذا الجسر بالمراكثية والمشرفية المعروفتين اليوم ، وفيه كانت سوقهم ومن هؤلاء كان الصاحبي الجليل عبد الله بن سلام وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام .

ومن خلال ما تقدم نجد أن بني قينقاع هم من القبائل القديمة التي نزلت يثرب ، جاؤوها وسكنوها قبل بني النضير وبني قريظة الذين وصلوا متأخرين إلى يثرب ونزلوا على من سبقهم من يهود ، وكما وقعت بينهم حروب طاحنة ذكر الإخباريون مشاركة هذه الأحياء من يهود في يوم بعاث بين الأوس والخزرج ، وقد تحالف بنو قينقاع مع الخزرج .

وكان بنو قينقاع أولو قوة وشجاعة ، مارسوا الحرب وخبروها من خلال مشاركتهم في حروب العرب كحلفاء لهم ، ومن خلال حروبهم مع أبناء جلدتهم

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥٤ ، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ـ عبد الفتاح شحاتة ٢ / ٢٧٩ – ٢٨٠ ، وجواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٤ ـ ٥٢٥

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٤

بني النضير وبني قريظة ، ويظهر اعتدادهم بأنفسهم موقفهم من الرسول ﷺ عندما جاءهم ناصحا .

في رواية ابن إسحاق قال: وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ جمعهم في سوقهم وكان ذلك بعد غزوة بدر وانهزام قريش ـ قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد إنك ترى أن قومك؟ [١] ألا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن إنا نحن الناس .. قال ابن اسحاق : عن ابن عباس قال : ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ [آل عمران:١٢] يعني أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ وقريش ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد[٢]

وقد أدى التنافس بين سادات يهود إلى نشوب معارك بينهم في الجاهلية ، وقد أشار إليها القرآن الكريم ، وأنبهم على ذلك ، واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك ، وبضغط بني النضير وبني قريظة إلى الالتجاء إلى أحياء يثرب وإلى محالفة الخزرج ، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس فصاروا فرقتين ، فرقة مع الخزرج وفرقة مع الأوس .

---

(١) أي على شاكلة قومك .

وفي تأنيب يهود لتخاصمهم وتنابذهم وإخراجهم بعضهم بعضا من ديارهم وأسر بعضهم بعضا وافتداء الأسرى ، كالذي وقع بين بنى قينقاع وبنى النضير نزل الوحي ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

وكان يهود بنو قينقاع قد تحالفوا مع الأوس والخزرج ـ تحالفوا مع عبد الله ابن أبي بن سلول ـ كما تحالفوا مع عبادة بن الصامت . وكانوا صاغة ، ولهم سوق عرف بـ (سوق بني قينقاع) وكانوا أشجع يهود فلما كانت وقعة بدر أظهروا ميلا لقريش فحاصرهم الرسول ﷺ ، ثم غلبهم فأجلاهم عن ديارهم ولحقوا بأذرعات[(١)]

وهذا يدل على مبلغ قوة بني قينقاع وشدتهم وبأسهم في الجاهلية ، كما كانوا أصحاب تجارة ناشطة ، ولهم سوقهم الخاص ـ كما سيرد في غزوة بني قينقاع ـ حيث جاءهم الرسول ﷺ كما سبق ـ في سوقهم ، وفيه كان السبب المباشر لحربهم وإخراجهم من المدينة .

ثانيا وثالثا : بنو النضير وبنو قريظة :

١ ـ بنو قريظة حي من يهود ، وهم والنضير قبيلتان من يهود خيبر ، وقد دخلوا في العرب على نسبهم إلى هارون أخي موسى عليه السلام منهم محمد ابن كعب القرظي .

وبنو قريظة أخوة النضير وهما حيان من اليهود الذين كانوا في المدينة فأما قريظة فإنهم أبيدوا لنقدهم العهد ومظاهرتهم المشركين على رسول الله ﷺ أمر بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستفادة أموالهم .

(١) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ٢٦٤ ، ونهاية الأدب ص ٦٧ – ٦٨ في ذكر غزوة بني قينقاع .

وأما بنو النضير فإنهم أجلوا إلى الشام وفيهم نزلت سورة الحشرة[١]

والنضير والنضار والأنضر اسم الذهب والفضة وقد غلب على الذهب . وهي النضر عن ابن جنى وقال الأعشى :

إذا جـردت يومـا حـسبت خميـصة عليهـا وجربـال النـضير الدلامـصا

وجمعه نضار وأنضر قال أبو كبير الهذلي :

وبيــاض وجــه لم تحــل أسراره مثــل الوذيلـة أو كـشنف الأنـضر

وبنو النضير حي من يهود خيبر من آل هارون أو موسى عليه السلام وقد دخلوا العرب والنضرة والنضيرة : اسم امرأة

قال حسان :

حــي النــضيرة ربــة الخــدر أسرت إليــك ولم تكــن تـبسري[٢]

٢ـ نضر الشجر والنبات ونضر ونضر نضرة ونضارة وهو ناضر ونضر ونضر وأنضر العود . قال الكميت :

درت بــك عيــدان المكــارم كلهــا وأورق عــودي في ثــراك وأنــضرا

ولها سوار من نضر وهو الذهب ، وقيل : كل خالص نضار من ذهب وغيره وقدح من نضار وهو أقل ورسى اللون بخور الحجاز .

ومن المجاز نضر الله وجهه : حسن وغض ، وجارية غضة .

وفي الحديث : «نضر الله من سمع مقالتي فوعاها» [٣]

وقرظ : دمغ الأديم بالقرظ وهو ورق السلم وأديم مقروظ وقرظته وأقرظه ورجل قارظ يجمع القرظ ، ومنه (حتى يؤوب القارظ) وخرج يقرظ .

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ٣ / ٦٥

(٢) لسان العرب ـ ابن منظور ٣ / ٦٥٧ ، ترتيب القاموس المحيط ٤ / ٣٨٧ مادة نضر

(٣) أساس البلاغة ـ الزمخشري ص ٦٣٨

وحدثت عن محمد بن كعب القرظي : منسوب إلى بني قريظة .

ومن المجاز : قرظته تقريظا مدحته ، وهما يتقارظان ، يتمادحان لأن القرظ يحسن ويزين صاحبه كما يحسن القرظ الأديم[١]

٣ ـ **النضرة** : النعمة والعيش والغنى والحسن كالنضور والنضارة والنضر محركة نضير الشجر والوجه واللون .

وكرم ومزح فهو ناضر ونضير وأنضر الله ، ونضره وأنضره فأنضر والناضر الشديد النضرة ، ويبالغ به في كل لون أخضر ناضر ، وأحمر ناضر ، وأصفر ناضر ، والنضر والنضير والنضار والأنضر: الذهب أو الفضة والنضر بين كنانة أبو قريش ، وكزبير أخو النضر ، وأبو نضرة المنذر بن مالك ، وام نضرة : تابعيان ، وعبيد بن نضار ككتاب محدث ونضر الرجل بالكسر امرأته ، والنضير كأمير حي من يهود خيبر والنسبة نضرى محركة منهم بكر بن عبد الله شيخ الواقدي وأبو النضير ابن القيهان صحابي شهد أحدا . ونضير كسفينة جارية أم سلمة[٢]

القرظ : محركة ورق السلم أو تمر السنط ، ويعتصر منه الأفافيا والقارظ مجتنيه . وكسد أدبائعة وأديم مقروظ دبغ فأصبغ به .

وكبش قرظي كعربي وجهني يمني لأنها منابتة ... وقرظان محركة: حصن بزبيد . وكجهينة قبيلة من يهود خيبر ، والتقريظ : مدح الإنسان وهو حى بحق أو باطل وهما يتقارظان المدح[٣]

٤- وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير باسم (الكاهنين) نسبوا إلى جدهم الذي يقال له الكاهن ، و (الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٣ .

(٢) القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي ٢ / ١٤٩ و ٤١٢ . ترتيب القاموس المحيط مادة قرظ ٣ / ٥٩٦ ، ونضر ٤ / ٣٨٧

(٣) جواد علي ـ ٦ / ٥٢٣

أهل الأخبار[١] فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود ، ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين . ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهان في الأصل هاجروا من فلسطين على إثر الحوادث التي وقعت فيها فسكنوا هذه الديار ، وهناك جملة عشائر وأسر يهودية يفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي .

كذلك يرجع (أوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير إلى اليهود ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاؤوا إلى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد ، وتنكيل (هدربان) باليهود في عام ١٣٢م .

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم إلى الكاهنين وإلى الأسباط العشرة كذلك فيدلون أنهم من تلك الأسباط المفقودة وأنهم من نسل قدماء اليهود[٢]

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول ﷺ في وادي بطحان ، وبموضع البويرة ووادي بطحان وهو أحد أودية يثرب الثلاثة وهي العقيق ، وبطحان ، وقناة وهو واد فيه مياه غزيرة وعيون ، اتخذ به اليهود الحدائق والآطام . وقد كان موضع البويرة أمرا كذلك ، وهو من تيماء ، فيه نخل وزرع وأشجار ، وقد غزاهم الرسول ﷺ بعد ستة أشهر من غزوة أحد ، فأحرق نخلهم ، وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين ، ومن ساداتهم (حيى ابن أخطب وأخوه ياسر ابن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وهو أبو راهب الأعور ، والربيع ابن أبي الحقيق ، وعمرو بن جحاش) .

ومن بنى النضير كعب بن الأشرف ، وكان معاصرا للرسول ﷺ ، وكان صاحب لسان ونفوذ . أبوه من طيىء على رواية،ومن بني النضير على رواية أخرى،

---

(١) الأغاني - الأصبهاني ١٩ / ٩٥ وتاج العروس ٥ / ٢٥٩

(٢) جواد علي - تاريخ ٦ / ٥٢٣ .

أما أمه فهي من بنى النضير بإجماع الرواة . فنشأ فيهم وقال الشعر عندهم وساد ، ولما جاء الرسول ﷺ إلى يثرب كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلا وقولا ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه ، حتى جنى عليه لسانه فأهدر النبي ﷺ دمه ، فذهب إليه نفر من المسلمين فاقتحموا داره وقتلوه ، وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج ، وكان كعب قد ذهب إلى مكة فحرّض قريشًا على الرسول ﷺ ، ولما عاد إلى موضعه ألب المشركين من أهل يثرب عليه ورثى قتلى القليب فقتله المسلمون كما سبق(١)

وكان لبنى قريظة حصون يتحصنون بها وقت الخطر ولهم آبار ، ومنهم محمد ابن كعب القرظي والزبير بن باطان بن وهب ، وعزال بن شمويل ، وكعب بن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبيل بن عمرو بن سكينة(٢)

وكانت أكبر تلك القبائل اليهودية في يثرب ثلاث ـ بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، وأقامت بجوارهم بطون يهودية صغيرة ، فكان بنو قريظة ينزلون على وادي مهزوز مع إخوانهم بنو هذل وعمرو، وأما بنو النضير فقد نزلوا على مزينيب (٣)

وتأثير اليهود بجيرانهم العرب فانقسموا إلى قبائل وبطون،واتخذوا أسماء عربية، وكانوا يتخاطبون بالعربية ، ولكنها كانت عربية تتداخل فيها رطانة عبرية(٤)

وهناك من يرجع نسب بني النضير وبنى قريظة إلى طبقة الكهان ـ سلالة هارون عليه السلام ، وأما بقية يهود بلاد العرب فبعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان وبعضهم

---

(١) المرجع السابق ٦ / ٥٢٣ ، حواشى الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ١٠٦ ، الكامل ـ ابن الأثير ٢ / ٩٩ . الطبراني ـ تاريخ ٢ / ١٧٧ . ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٧٥٧ . ابن هشام ـ السيرة ٢ / ٥٤٨ . ابن كثير ـ تاريخ البداية ٤ / ٧٤

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٤ .

(٣) تاريخ العرب ـ الجميلي ص ١٩٠

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤٢

الآخر إنما ينتمى إلى نسل الأسباط العشرة والذي كانت تتكون منهم دولة إسرائيل التي قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ ق . م إلى إسرائيل وعاصمتها السامرة ، ويهوذا وعاصمتها أورشليم ـ إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الاحتلال الآشورى للسامرة في عام ٧٢٢ ق . م ثم قيام سرجون الثاني بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية ، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب لتحل محل الإسرائيليين المسبيين ، ثم أسكنهم في السامرة وما جاورها . ومن هذا الخليط الجديد ظهر في التاريخ ما سمى بالسومريين[١]

وهكذا وضع سرجون نهاية لكيانهم كأمة،وأنهى وجود الأسباط العشرة كدولة ، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التي أخذوها غيلة واغتصابا من أصحابها ، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين في المناطق التي أجبروا على الإقامة فيها، وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق . وإن ذكرت نصوص العهد الآشورى إن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب ـ كما أشرنا من قبل ـ فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة في مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب ؟ هذا ما سكتت عنه النصوص تماما ، ومن ثم فإننا نستطيع القول بأن بعضا من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة[٢]

هذا ، ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية تهودوا وسموا بأسماء المكان الذي نزلوا فيه[٣] ، وطبقا لرواية الإخباريين فإن (جبل بن جوال) من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان قد تهود هو وقومه ، وعاش مع بني قريظة حتى ظهور الإسلام ، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم[٤]

---

(١) تاريخ العرب القديم ـ فيليب حتى ص ٢١٤

(٢) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٦ – ٣٧

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٥ ، الإصابة ـ العسقلاني ١ / ٣٢٣ وما بعد .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب إنما هم من يهود فلسطين ، وأنهم تركوها فيما بين عامي ٧٠ ـ ١٣٥ ، ويذهبون إلى أن يهود بني النضير وبني قريظة من نسل هارون وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بني إسرائيل الأخرى ، وأن يهود خيبر من نسل (يهود أداب بن ركاب) وأنهم قد هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل عام ٥٨٦ ق . م ، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ (١٣ ـ ٢٣هـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) وأن كلمة خيبر كلمة عبرانية بمعنى الطائفة ، أو الجماعة، وبمعنى الحصن أو المعسكر. وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه الأخباريون ، وإن نسبوها إلى رجل دعوه (خيبر بن قانية بن مهلائيل) رأي فيه البعض (شفطيا ابن مهلائيل) من بني فارض ، علما أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات ، وإن رأي اللفظة عبرية[1]

اليهود والعرب :

أعاد اليعقوبي ـ كما سبق ـ أصل كل يهود إلى قبائل عربية ، ولعله استند في رأيه على كثير من المقومات يمكن أن نستخلصها من خلال الدراسة السابقة وهي :

١ ـ اتخاذ اليهود أسماء عربية ، وتكلمهم العربية ، وظهور بعض الشعراء الذين نظموا قصائدهم بالعربية ، وعدم وجود مؤلفات لهم بالعبرية ، سواء في مجال الأدب أو الشعر والمقالة ، أو غير ذلك من فنون الأدب .

٢ ـ اعتماد اليهود على الأنساب على طريقة العرب ، ومحاولتهم أن يعودوا بأنسابهم إلى الأنبياء خاصة ـ بني قريظة والنضير ـ الذين يعيدون نسبهم إلى نبي الله هارون وموسى عليهما السلام وتفاخرهم بهذه الأنساب هو رغبتهم في ظهور النبي الخاتم بينهم .

٣ ـ تميزوا عن العرب باتخاذهم الصناعة والزراعة حرفة لهم ، وكانوا يرغبون بالاستقرار بعد المطاردات المستمرة التي لحقت بهم ، وكان من أهم الصناعات التي

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ٤٥٢ ـ ٤٥٣ ، تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ، ص ٥٤ ، جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٥ .

زاولوها صناعة الأسلحة والذهب والفضة ، وأقاموا لهم مزارع كبيرة جدا في المدينة وفدك وتيماء وخيبر ، وكان جل اعتماد اليهود عند ظهور الإسلام على التجارة [(١)] ومعاطاة الربا والزرع ، وبعض أنواع الصناعة كالصياغة وتربية الماشية والدجاج وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر،وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام،وكانوا يبيعون بالرهن، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه وقد ورد أن الرسول ﷺ رهن درعا له عند يهودي من أهل يثرب مقابل شعير كان بحاجة شديدة إليه[(٢)]

٤ ـ يختلف اليهود عن النصارى العرب بأن جل نصارى العرب من أصل عربي أو من أصول قريبة من العرب ، ولم يكن هناك أي زحف أو هجرة من نصارى الجزيرة العربية إلى داخلها إلاّ ما كان من نصارى الحبشة الذين بقوا طبقة متميزة لم تدخل في حياة السكان في اليمن أو تتوغل إلى الحجاز أو الخليج أو أي نقطة أخرى ـ إلّا ما كان من أصحاب الفيل الذين أبيدوا بمحاولتهم الوصول إلى مكة ودخولها ـ أما الروم الذين تنصروا فقد استمروا طبقة حاكمة مميزة أيضا حتى أن عقيدتهم تنافرت مع أفكار العرب والأقباط عن السيد المسيح وعن الديانة المسيحية .

٥ ـ عقد جواد علي ـ المفصل تاريخ العرب قبل الإسلام بحثا طريفا عن اليهود العرب نثبت بعضا منه عن حال هؤلاء .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الإخباريون قبائل يهودية معا

---

(١) التجارة عند اليهود كانت مستقرة ، فلم يخرجوا بتجارتهم خارج المدينة ، وإنما كان القرشيون وسواهم يقومون بجلب البضائع وتبادلها مع الشام واليمن .

(٢) حدثنا قتادة عن أنس ﷺ قال ولقد رهن النبي ﷺ درعه بشعير ، ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز وشعير وأهاله سنخة ، ولقد سمعته يقول : «ما أصبح لآل محمد إلا صاع ولا أمس وأنهم لتسعة»
حدثنا مسدد حدثنا عبد الواحد حدّثنا الأعمش قال : تذاكرنا عند إبراهيم الرهن والقبيل فى السلف فقال إبراهيم : حدّثنا الأسود عن عائشة ﵂ النبي ﷺ اشترى من يهودي طعاما إلى أجل ورهنه درعه ، صحيح البخاري ـ ٢ / ٧٨ ، جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٣٥ .

أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في أيام القيصر (تيتوس **Titus**) أو (هدريان **Hadrian**) أو قبل أيامهما أو بعدها ، ولكن بعضا آخر منها لم يكن من أصل يهودي ، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود ولا سيما المسماة بأسماء عربية أصيلة ولبعض هذه الأسماء صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود[١] والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بدياناتها ، وقد ذكر البكرى أن بني (حشنة بن عكارمة) وهم من بلى قتلوا نفرا من بني الربعة ، ثم لحقوا بتيماء ، فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة ، فكانوا معهم زمانا ثم خرج نفر إلى المدينة فأظهر الله الإسلام وبقية من أولادهم فيها [٢]

وقد ذهب بعض المستشرقين استنادا إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقا بل كانوا عربا متهودين تهودوا بتأثير الدعاة اليهود ، ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم ، فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل الإسلام تسموا بأسماء عربية ، وبعضها أسماء عربية خالصة ، وتسمياتهم هذه لا تعني أن من تسمى بها كان عربي الأصل ، ثم إن كثيرا من اليهود في الغرب وفي أمريكا وفي البلاد العربية والإسلامية سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية ، ولكنهم كانوا ومازالوا على دين يهود ، فالأسماء وحدها لا تكفي في إعطاء رأي علمى في يقين الأصول والأجناس ، ولا سيما في المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات ، وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط[٣]

---

(١) Margolioth p. 60 NOLDEKE, Beitrioje B .52 wistanfaid . oes,chiehie on meding 8. 28

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٢٥ حاشية (البكري ١/ ٢٩) و isiamic Cuiture lll Voi Z . P. 177

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٣٠ ـ ٥٣١

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى ، فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص هي أسماء عربية ، والشعر المنسوب إلى شعراء منهم يحمل الطابع العربي والفكر العربي ، وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية لم يكونوا يختلفون اختلافا كبيرا عن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب إلا فيما سوى الدين ، ولعل سبب تأثيرهم وهم ذوو أكثرية في اليهود الأصليين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم فأثروا فيهم وطبعوهم بطابعهم العربي .

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتصاهروا معهم ، فتزوج اليهود عربيات ، وتزوج العرب يهوديات ، ولعل كون بعض يهود من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين العرب واليهود عند ظهور الإسلام هو الاختلاف في الدين وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد(١)

وللمستشرق (ونكلر) رأي في هذا الموضوع خلاصته : أن أولئك اليهود لو كانوا يهودا حقا هاجروا من فلسطين إلى هذه المواضع لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعى على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود ، كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها ، إذ لا يعقل ـ على رأيه ـ وصول جماعة إلى ذلك المستوى الاجتماعي على خلاف ما كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من هو دونهم كثيرا في شؤون الحياة ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب ، فهم على رأيه عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون (٢)

---

(١) جواد علي ٦ / ٥٣٢ حاشية . gratz lll p58 f60
(٢). Winkier, Mett . Asai Vl p222

غير أن هنالك من يؤاخذ (ونكلر) على هذا الرأي ؛ لأن رأيه لا يمكن أن ينطبق على من ترك دياره وهاجر ، واستقر في موطن جديد لأمد طويل ، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين ، ولا سيما إذا كانوا جماعات صغيرة ، أو جماعات ليست ذات بأس شديد فتجعلها تنصاع للمحيط الذي نزلت فيه بعض الانصياع ، فتفقد بعض خصائصها لتكتسب خصائص المجتمع الجديد ، ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم ، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ، ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل ، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال ولا يميلون إلى الغزو والحروب ، ولم يشتركوا إلا اضطرارا وإلا بإلحاح المصالح الضرورية فيها ، وهم يختلفون في هذه الناحية عن الأعراب [(١)]

ويتبين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس Josephos Flavius) أن اليهودية كانت قد وجدت سبيلا بين العرب وأنَ بعض ملوك مملكة (حدياب) كانوا قد دخلوا فيها . ويذكر المؤرخ (سوزويمن Souzomenos) واليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد الغربي Limas Arabicus على أنهم من نسل إسماعيل ، وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، فهم من ذوى رحمهم ، ولهم بهم صلة قربى ، وكانوا لذلك دخولهم فى دينهم واعتناقهم دين إبراهيم جد اليهود والعرب ، وقد عملوا على تهويد أولئك العرب

.(Sozomeinos 638 10-13 - 299 Die Araber11 p71)

ويظهر من مواضع فى التلمود أن نفرا من العرب دخلوا فى اليهودية ، وأنهم جاؤوا إلى الأحبار فتهودوا أمامهم وفى هذه الروايات التلمودية تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر أن اليهودية كانت حميرًا وبنى كنانة ، وبني الحارث بن كعب وكندة[(٢)]

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٣١ .

(٢) حواشي من جواد علي، المعارف ٦٢١، الأعلاق النفسية ص ٢١٧ البدء والتاريخ ـ غسان ٤/ ٣١.

وذكر اليعقوبي أن ممن تهود من العرب اليمن بأسرها كان تبع حمل حبرين من أحبار يهود إلى اليمن ، فأبطل الأوثان وتهود من باليمن (وهم يهود اليمن الذين قتلوا نصارى نجران بحادثة الأخدود المشهورة سورة البروج : ٨٥) .

وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير وتهود قوم من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان ، وقوم من جذام[١]

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية الكريمة : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[البقرة:٢٥٦][٢] أنها نزلت في الأنصار كانت المرأة المقلاة في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده فتهود قوم منهم ، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام ، أو أنهم لما بقوا على يهوديتهم ، وأمر اليهود وفيهم من هم شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود فقالوا يا رسول الله: أبناؤنا وإخواننا فيهم فسكت عنهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ذكره ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]ف قال رسول الله ﷺ «قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم».

وذكر العلماء أيضًا أن ناسًا في الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود فتهودوا. فإن من الأنصار من رأي في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان ، فهودوا أولادهم ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه فنزل الوحي بالآية المذكورة[٣]

---

(١) اليعقوبي ١/ ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبري ـ تفسير ٣/ ١٠ وما بعدها . القرطبي ـ تفسير ٣/ ٢٨٠ وما بعدها . ابن كثير ـ تفسير ١/ ٣١٨ . مجمع البيان ـ تفسير ١/ ٣٦٤ ، في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ١/ ٢٩٠ ، دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص٤٥٤

على أنه يجب ألا يفهم من هذا أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودي فهناك الكثير من العرب المتهودين ولا سيما القبائل المسمّاة بأسماء عربية أصيلة لها صلة بالوثنية ، مما يدل على أنها كانت وثنية قبل أن تتهود وهناك الكثير من البطولة العربية التي تهودت ، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ، تهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان ، وقوم من جذام ، وقوم من بلى[(١)] ويرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة ، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهودًا لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ، ولم يخضعوا لأحكام التلمود ، ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين[(٢)]

أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية فقد يكون بين اليهود بعض الاختلاف ، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين ، فلا يستبعد إذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهات نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا إلى التخفيف عن التمسك بشعائر دينهم ، ولا سيما وأنه من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون ، وكانوا بالأصل من أروم ومن النبط ومن العرب ، دخلوا في اليهودية لعوامل متعددة ، فلم يكونوا لذلك على سنة اليهود الأصليين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة[(٣)]

والتاريخ الذي وجد عن اليهود في جزيرة العرب ـ خاصة في الحجاز ، وكان التأثير قويا على اليهود دون العرب لم يتطرق هذا التأثير إلى عمق عقائدهم فيعيدهم قرنين ، ولكن على الأقل غير كثيرا من معتقداتهم واتجاهاتهم واجتهاداتهم في اليهودية .

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٢٥ . اليعقوبي ١/ ٢٥٧

(٢) المرجع السابق ٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥ .

(٣) المرجع السابق ٦ / ٥٦١ . دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ، ص ٤٥٤

لقد ظهر بعض المتعمقين في اليهودية ، إذ يرى بعض المستشرقين أن (شمعون التيماني) Simon & Temantte المذكور في التلمود والمدارس هو من أهل (تيماء) ولا يستبعد أن يكون من أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم فإن مركز (تيماء) وموقعها يجعلها من السهل على سكانها الوصول إلى فلسطين وبقية بلاد الشام وأخذ العلم من علماء تلك البلاد(١)

أما تأثر العرب باليهود فقد يكون محدودا نظرا لانغلاق اليهود على أنفسهم ، وعدم اندفاعهم لنشر دينهم ولقد أخذ اليهود عن العرب كثيرا من العادات والتقاليد واللباس والطعام وبناء الآطام والتجارة والزراعة والتفاخر بالأنساب ، ولكن العرب قليلا منهم من دخل اليهودية إما وفاء لنذر ، أو لأمر لا يعدُ كونه إيماناً بهذه الديانة .

ذكر أهل الأخبار أن (جبل من جوان بن صفوان) الثعلبي من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان كان يهوديا فأسلم ، فهو عربي يظهر أنه وأهله قبله قد تهودوا فكان على دين يهود ، وعاش مع بني قريظة حتى اعتنق الإسلام(٢)

وانغلاق اليهود على أنفسهم وماديتهم جعلت العرب ينظرون إليهم على أنهم لا يتحلون بالصفات المطلوبة لدى العرب ، وقصة السموأل بالوفاء لا تعدو أن تكون إحدى الشواذ في التاريخ اليهودى وتاريخ يهود جزيرة العرب على الأخص .

ومع أن المدينة تحوى أكبر تجمع لليهود إلا أن الحجاز قد توزع بها اليهود بشكل متباعد في مناطقة المختلفة .

مواقع اليهود في الحجاز ـ عدا المدينة :

١ـ خيبر : وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم ، وخيبر

---

(١) جواد على ـ تاريخ ٦/ ٥٢٨

(٢) الإصابة ١/ ٢٢٣ وما بعدها رقم ١٠٧١ وذكر أسماء آخرين كانوا من متهودة الجاهلية جواد على ـ تاريخ ٦/ ٥١٥

موضع غزير المياه كثيرها ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل ، وعند إجلاء اليهود عن خيبر تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق ، وبعض آخر إلى الشام ، وبعض منهم إلى مصر . وقد بقوا في هذه المناطق متعصبين لوطنهم القديم خيبر ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الإسلام وهو (يا آل يثرب) .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة[١] وأن يوناداب جندب ابنه تبدي مع أتباعه وأبنائه ، وعاش عيشة تقشف وزهد وخشونة ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلاعا وحصونا تحميهم من غارات الأعراب عليهم، وذكر بعض الإخباريين أنها ولاية من سبعة حصون منها : حصن ناعم ، والقنوص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها ، وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم ، وحصن وجدة ، وحصن الوطيح وحصن الكتيبة (الكثيبة) ، وقد أخرجوا منهم وأجلوا عنها زمن الخليفة عمر بن الخطاب[٢]

٢ـ وتيماء : من المواضع القديمة وقد سبق القول بأن الملك (بنونيد) قد أقام زمانا فيها حيث اتخذها عاصمة له ، وهي في موقع حسن ، وملتقى طرق مهمة يسلكها التجار ، وقد استبد بها اليهود فأقاموا بها وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز. استغلوا أرضها فزرعوها ، واستنبطوا الماء من الآبار ، بالإضافة إلى واحتها ذات المياه العذبة الغزيرة التي كانت ذات فضل في تكوين هذا الموقع وإعماره ، وقد ذكرت في شعر (امرئ القيس) وفيها حصن السموأل بن عاديا المذكور في قصص امرئ القيس الشاعر .

وبعد أن فتح رسول الله ﷺ حصن خيبر ، وبلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في

---

(١) الملوك الثاني ، الإصحاح الحادي عشر الآية ١٥ ـ ٢٨ . جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٢٨

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٢٦ وما بعدها .

خيبر ووادي القرى وفدك قبلوا الجزية وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة فضمن لهم بذلك حرية بقائهم في دينهم .

وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق) ، وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود[١]

وتوجد اليوم بقية للأبلق الفرد الذي افتخر السموأل به ، وكذلك يهود تيماء ، وليس بمستبعد أن يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (بنونيد) ، أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان ، وقد يكون بناءً أقامه السموأل ، وبناه بحجر تلك الأبنية القديمة ، وقد أكسب قصر السموأل هذا الموضع شهرة ، وأكسبه خبر وفاء السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار[٢]

٣ ـ وفدك موضع آخر من المواضع التي غلب عليها اليهود ، وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون ، عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وببعض الحرف التي تخصص بها اليهود مثل الصباغة والحدادة والنجارة ، والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها إلى ما قبل الإسلام وقد ذكره الملك بنونيد في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز ، وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول إلى يثرب (يوشع بن نون)[٣]

٤ ـ وادى القرى : وهو من المواضع التي غصت باليهود ، فكان أكثر أهله منهم ، وقد كان يهوده من المزارعين ، وقد حفروا به الآبار ، وتحالفوا مع الأعراب ، عاشوا معهم متحالفين يعملون بالزرع ، وقد غزاهم الرسول ﷺ سنة سبع للهجرة على أثر إصابة (مدعم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله وهو مولى مولد من

---

(١) معجم البلدان ـ الحموي ٢/ ٤٤٢. فتوح البلدان ـ البلاذري ١/ ٢٩،جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٢٨ .
(٢) جواد علي ٦/ ٥٢٩ .
(٣) جواد علي ٦/ ٥٢٩ .

(حسمي) كان أهداه (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي)[١]

٥ ـ وكان بين أهل مقنا وأيلة في أيام الرسول ﷺ قوم من اليهود كذلك وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر الأحمر ، وقد صالحوا الرسول على الجزية ، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء ومن هؤلاء اليهود (بنو جنبه) وهم يهود من (مقنا)، (وبنو غاديا) ، (وبنو عريض)[٢]

٦ ـ وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فجاؤوا إليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد فأقاموا بها للتجارة ، فلما صالح أهل الطائف الرسول ﷺ على أن يسلموا ويقرهم على ما هم في أيديهم من أموالهم وركائزهم ، واشترط عليهم ألا يرابوا ، ولا يشربوا الخمر ، وكانوا أصحاب (ربا) ، وضعت الجزية على يهودها وبقوا فيها ومن بعضهم ابتاع أمواله بالطائف .

٧ ـ ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن لعدم إشارة أهل الأخبار لهم ، وإن كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانىء البحر الأحمر ، وموانىء سواحل العربية الجنوبية ، غير أن وجودهم في هذه المواضع لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار[٣]

بعض من خصائص حياة يهود :

١ـ الحكم ومع ما كان لليهود من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشؤوا مستوطناتهم بها ، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل يؤدون إليهم الأتاوة في كل عام مقابل

---

(١) جواد علي ٦/ ٥٢٩ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ٥٤ . مكة ـ أبو الفضل ، ص ٩٠
(٣) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ٥٤ . مكة ـ أبو الفضل ص ٩٠

حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدى عليهم ، وقد لجؤوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وكان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه كل سنة ، وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض ولمن يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها ، وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل ، وعرفت قطعة الأرض المزروعة نخلا عندهم بالصورين (لصور) [١] الصور أصل النخل ، والصور النخلة [٢]

ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة كانت خارج الآطام والحصون ، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها ، وأما في أيام الغزو والحروب فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين ، وهذا ما كان يعرض أعظم غلة لليهود للخطر ، ولهذا شق عليهم كثيرا ، وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل ةتحريقه ، وأخذوا يلتمسون وقف ذلك .

ويتولى الأحبار اليهود الأمور الدينية ، وتنفيذ الأحكام ، والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات ، يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم ، ويعلمونهم في بيوت (المدراس) [٣]. وفي المعارك والخصومات التي تقع بين اليهود كانوا يؤدون (الدية) ، وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة وغير متكافئة ، فكان يهود بني النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قريظة فكانوا يؤدون نصف الدية وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم ، التجؤوا إلى رسول الله للحكم بينهم فذكروا له هذا الاختلاف فحكم بالدية متساوية وفي هذا الحكم نزلت الآية

---

(١) الروض الأنف ـ السهيلي ٢/ ١٩٤ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢/ ١٩٥

(٢) تاج العروس ٣/ ٣٤٣

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٣٣ .

الكريمة ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [المائدة:٤٢] .

ذكر علماء التفسير عن ابن عباس أنه قال : كانت قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قُتِلَ به ، وإن قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودي به مائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله ﷺ فنزلت:(وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) [المائدة: ٤٢] و(النفس بالنفس ..) [المائدة:٤٥] ونزلت : (أفحكم الجاهلية) [المائدة : ٥٠] .

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة ، أن أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس ، وكانوا يحاربون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ، ويأكلون السحت (الرشا) جزاء حكمهم بالباطل ، وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام الشريعة مع الشريف لشرفه ويتشددون مع الدنيء لدناءته وفقر حالته ، لا يراعون التساوي في أخذ الديات ، كان الشريف إذ زني بالدنيئة رجموها وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير ، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير وإذا زني الدنيء بالشريفة رجموه ، وكان هذا شأنهم .

وذكر أن حُيى بن أخطب كان قد تكلم أن للنضرى ديتين وللقرظي دية لأنه كان من النضير[١] وذكر أهل الأخبار أنه كان لليهود حكام يحكمون بينهم ، ويقيمون حدودهم عليهم ، فلما جاء الرسول إلى يثرب صار اليهود يعترضون على عدالة حكم بعضهم ، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم . فكان الحكام أو هم يذهبون إلى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم[٢]

فقد كانوا يتحاكمون إليه ويأخذون برأيه ، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج ، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون إليه[٣]

(١) الطبري ـ تاريخ ٦/ ١٥٧
(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥ . القرطبي ـ تفسير ٦/ ١٨٧
(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٤٧

وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود اختلاف بين بني إسرائيل في فهم (كتاب الله) وتفسيره، وأنهم انقسموا لذلك شيعا وأحزابا ، ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملا ليهود الحجاز أيضا كأن يكون أحبارهم ساروا في اتجاهات مختلفة من التفاسير ، وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون على نمط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم ، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل أو تفكير [١]

العلاقات الداخلية والخارجية مع العرب :

عمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية فأثاروها[٢] وهذا ما كانوا عليه قبل الإسلام ـ إذ إنهم كانوا يذكون نار العداوة والبغضاء ، ويحالفون القوم ويأخذون من الحروب الغنائم ونادرا ما كانوا يدخلون في تلك الحروب .

وقد كانت اليهود قانعة بما أوتيت وبما كسبته من مواطن وتجارة ، إن وجدت سبيلا إلى إقناع سادات القبائل والأمراء والملوك بالتهود والدخول في دعوتها فذلك خير وتوفيق وإن لم تجد في هؤلاء ميلا إلى اليهودية رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم ، والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء وهو ما يصبو إليه كل يهودي .

لذلك نستطيع القول بأن اليهودية عند ظهور الإسلام كانت من ناحية التبشير جامدة خامدة لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة ، وعلى المركز الذي توصلت إليه ، وعلى تجارتها التي تعود عليهم بمال غزير ، فكانت لهذا لا تهتم إلا بحركة تجد فيها فائدة لها ومنفعة ترتجى منها ، ولا تحارب رأياً إلاً إذا وجدت أنه سيكون خطراً عليها ، فحاربت النصرانية في اليمن لما وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود ، وأن النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدمها ويحميها الروم ، فامتداد أي فرع منها إلى اليمن

---

(١)المرجع السابق ٦/ ٥٥٦

(٢)المرجع السابق ٦/ ٥٤٩

كفيل بإلحاق الأذى الذي لاقاه إخوانهم من البيزنطيين بهم ، وحاربت الإسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة لما تبين لها أنه يدعو إلى رب العالمين ، وأنه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة من أنه سيخضع لها أو سيميل إليها ، فتستفيد منه على الأقل ، فلما وجدت الأمر على غير ما ظنت عندئذ خاصمته وانضمت إلى المشركين في محاربة الإسلام .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهودا وفدوا إليها وأحبارا سكنوا بينها لإقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين اليهود ، نعم لم يفعل هذا اليهود كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الإسلام عند هذه المواضع الخصبة ، وطرق المواصلات ، والتجارة البرية والبحرية في جزيرة العرب ، وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة ، وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها، وهي أمور جعلت لهم نفوذا عند سادات القبائل والأمراء والملوك[١]

الحياة الاقتصادية عند اليهود :

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها في أيدي أصحابها الأوس والخزرج لهم السيطرة والسلطان ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى ، وفي أعالي الحجاز عدا عن يثرب يتاجرون ، ويزرعون ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للاتجار .

وكان جل اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الإسلام على التجارة ومعاطاة الربا والزرع وبعض أنواع الصناعة،ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود النسيج، وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع ، والحدادة ، وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة[٢]

---

(١) جواد علي - تاريخ ٦/ ٥٤٩

(٢) المرجع السابق ٦/ ٥٣٢

الحياة الدينية والفكرية عند اليهود :

تعرض ابن خلدون لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم فقال « إذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ ، بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا أبقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل: أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك» (١)

فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية هم في مستوى يعد دون مستوى يهود البلاد الأخرى بسبب تبديهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود .

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم ، وكان لهم أحبار وحاخامات علموهم أمور دينهم ، ويتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية ، وأخبار الرسل والأنبياء وما جاء في التوراة والمنشا وغير ذلك وعرفت بين الجاهليين بـ «المدراس» و«بيت المدراس» و«المدراس» ، وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبد اليهود فيه (الكنيس) و (كنيسة اليهود) تميزا لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى(٢)

قال ابن عباس ﷺ دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : «على ملة إبراهيم ودينه» ، فقالوا : فإن إبراهيم كان يهوديا فقال لهم رسول الله ﷺ : «فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» ، فأبوا عليه . وقد وقع جدل

---

(١) ابن خلدون ـ تاريخ ١/ ٤٣٩ ، جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٥٧

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٥٠ .

بين المسلمين وبين سادات يهود أثار نزاعا بين الطرفين[(١)]

دخل أبو بكر «بيت المدراس» فوجد من يهود ناسا كثيرا قد اجتمع إلى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأحبارهم ، ومعهم حبر يُقال له (أشيع) فقال أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا عنا ما أعطنا الربا ؟ فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك . فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران][(٢)] . ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى[(٣)]

وعرفت مساجد اليهود أي المواضع التي كانوا يصلون فيها (بالمحاريب) جمع محراب أما في النصرانية فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس ، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الإسلام .

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم (بالأحبار) مع (الحبر) وبـ (الربانيين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم[(٤)] وتبين من القرآن الكريم أنه كان للأحبار والربانيين نفوذ عظيم على اليهود،فكانوا يطيعون أوامرهم، ويفعلون ما يأمرونهم ، وأن غالبيتهم لم تكن تفقه شيئا ، ولا تعرف من أحكام دينها إلا ما يقوله لهم أولئك الأحبار ، وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في المواطن التي

---

(١) المرجع السابق ـ تاريخ ٦ / ٥٥١ حاشية الطبري ٧/ ١٤٥

(٢) تفسير الطبرى ١/ ٥٤٨

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٤٨ .

(٤) المائدة ٤٤ ، ٦٣ ، سورة التوبة ٣١ ، ٣٤ ، جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٥١ .

أقامت فيها يهود . وبعض منهم كان يأتي إلى يهود العرب من فلسطين ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب بيت المقدس (أورشليم) حيث استقر بها (السنهدريم) ، وغدت مركزاً عظيماً للعلوم عند اليهود وفيها جمعت (المشنة) (المشنا meshna) (والماسورة) الكتاب الذي يبين كيفية تحريف كلمات التوراة [١]

وذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يكتبون بالعبرانية أو السريانية ، وذلك لاختلاف في أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة وعدم تمكنهم من التمييز بينها

وفي كتب الأخبار والتواريخ إشارات إلى اتصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود،والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء الماضين،وعن بعض الأحكام، وفيها قصص إسرائيلي وجَدَ لَهُ سبيلاً إلى العربية ، يرويه القصاصون على الرسل والأنبياء ، وأساطير لا يشك في كونها إسرائيلية الأصل كما نجد ألفاظاً عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلًا إلى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم واستعمالهم إياها

وقد تأثر بهم الجاهليون ، وأخذوها منهم واستعملوها أيضا فصارت من المعربات . وينسب إلى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو

سطور يهود بين في مهرقتيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين [٢]

وإذا صحت نسبة هذا البيت إليه يكون قد تعرف على يهوديين اثنين ، وجدهما يجيدان الكتابة وقد كتب عن المهارق ، ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنهما ، فلم يدر إذا كانا من أهل تيماء أو من أهل مدين .

ذكر القلقشندي إن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب :

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٥٢

(٢) المرجع السابق ـ تاريخ ٦/ ٥٥٨ .

الأول : (الرئيس) وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى .

الثاني : (الحزان) وهو فيهم بمثابة الخطيب ، يصعد المنبر ويعظهم .

الثالث : (الشيلحصبور) وهم الإمام الذي يصلي بهم[(١)]

وأطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود أي كتبهم المقدسة (التوراة) وعرفت بهذه التسمية في الحديث الشريف، وفي كتب التفسير، وصارت علما لها في الإسلام .

كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد يهود ، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتًا ينسب إلى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سماك)[(٢)]. والتوراة الآن توسعت لتشمل كل أسفارهم ، ونبوءات أنبيائهم وتقع تحت اسم (العهد القديم) أو (العهد العتيق) من الكتاب المقدس المتداول الآن والذي تقوم المدارس التبشيرية والكنيسة النصرانية والحكومات المسيحية بتبنيه ، أما العهد الجديد من نفس هذا الكتاب فيشمل أربعة أناجيل معترف بها ورسائل بولس ، وهذه جمعت كلها في الكتاب المقدس عند الكنائس النصرانية[(٣)]

ونحن لا نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة والقراءة ، ثم بأحوال دينهم وأموره ، وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته ، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربانيوه ، فكل ما كانوا يقولونه كانوا يرونه حقًا وعلمًا .

قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة][(٤)] مع أن من بين أولئك كان دجالا ليس على درجة من دراية وعلم ، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب لينال بذلك مكسباً ومالاً أنه كان لهؤلاء على

---

(١) صبح الأعشى ـ القلقشندي ٥/ ٤٧٤

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٥٣ .

(٣) الكتاب المقدس (طبع دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط) .

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٩٦ وما بعد .

أتباعهم وقلوبهم سلطان عظيم[١] ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق أو فلسطين أو مصر ، وإلا لاشتهر أمره ، وذاع خبره ، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر ، ولا يمكن أن تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافيًا في تقليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء[٢]

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه، وبعلمهم بالتعاويذ . فكان المشركون يلجؤون إليهم إذا احتاجوا إلى السحر إذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعويذ عليها . وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي ﷺ ، عمله رجل اسمه (لبيد بن أعصم) أو بناته وهو من يهود يثرب[٣]

وقد أشير إلى سحر اليهود في الحديث الشريف[٤]

وقد لجأ العرب إلى اليهود يأخذون منهم الرقي والتعاويذ ، فقد ورد في الأخبار أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها.. فقال أبو بكر ارقيها بكتاب الله يعني بالتوراة والإنجيل[٥]

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال : «إن الرقي والتمائم والقولة شرك»، فقالت امرأته زينب كيف هذا ؟ والله لقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى فيرقيها فتسكن ، قال «ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولى ما كان النبي يقول اذهب البأس رب الناس. اشف أنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا» (رواه أبو داود ابن ماجه)

---

(١) جواد على ـ تاريخ ٦/ ٥٥٧ .

(٢) المصدر السابق ٦ / ٥٥٩

(٣) الطبري ـ تفسير ٣١ / ٢٢٦ . الطبرى ـ تفسير ٥ / ٥٦٨

(٤)صحيح البخاري ـ باب السحر .

(٥) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٦٠

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات ، كما اختلفوا عنهم في عبادتهم وفي اعتقادهم بوجود إله واحد هو (إله إسرائيل) وفي أمور عقائدية أخرى ، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية ، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم ، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم .

وقد ظهر بين اليهود شعراء نظموا الشعر بالعربية ، وعلى طريقة العرب في نظم الشعر منهم السموأل المشهور ، وكعب بن الأشرف ، وسماك اليهودي(١)

وبعد هذا فإننا نستطيع أن نقف على الملاحظات التالية حول يهود يثرب خاصة ويهود جزيرة العرب عامة :

١ـ وفد اليهود إلى جزيرة العرب نتيجة الاضطهاد الذي لحق بهم إبّان تاريخهم الطويل والذي كانوا هم سبباً له مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء:٤](٢)

٢ـ وصل اليهود إلى بلاد العرب وكان يسكنها العماليق ، وجاوروهم فترة طويلة ثم تمكنوا منهم وحكموا في عدة مناطق أهمها ـ يثرب ـ موضوع بحثنا ـ ومناطق أخرى

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٦١ ، ٥٦٩ و ٩/ ٧٦٨ ـ ٧٩١

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ٣/ ٢٢١٢ ـ ٢٢١٣ . تفسير النسفي ٣/ ٢٣٦ ، مجمع البيان ـ الطبرى ٦/ ٣٩٧ ، ابن كثير ـ تفسير ٣/ ٢٧ ـ ٢٨

من جزيرة العرب خاصة في الحجاز واليمن ، فطغوا وبغوا ، وعادوا إلى فحشهم وطغيانهم ، واستأثر ملكهم (الفطيون) بالكثير من عادات الجبابرة والطغاة كما اتخذوا لهم مواقع وموانع يتقون بها شر هجمات الأعراب والغزاة .

٣ ـ تمكنت قبيلتا الأوس والخزرج من السيطرة على المدينة بالاستعانة بأبناء عمومتهم الغساسنة وأصبحت يثرب خالصة لهم ، وليس ليهود إلا القيام ببعض الخدمات كالزراعة والتجارة وشيء من الصناعة ، ولكنهم كانوا يستغلون فترات التناحر والعصبية بين القبيلتين فيثيرون القوم ويوقعونهم في حروب دائمة .

٤ ـ انكمش اليهود بعدها في حصونهم وآطامهم ، يعيشون حياتهم غير عابئين بانتشار دينهم أو انحساره مكتفين بما عندهم والمحافظة على حياتهم ، ولقد تأثروا بالعرب كثيرا في المأكل والمشرب والملبس والمسميات ، واختلفت بهم بعض المظاهر عن العرب مثل اللباس والشعر وغير ذلك .

٥ ـ تميزت فترات وجودهم بين الأوس والخزرج بالكثير من الدسائس ، وكان مبرر بقائهم في المدينة على هذا الحال بأن المدينة ستكون مهاجر نبي آخر الزمان يحاربون معه ويسودون ثانية وتعود لهم العزة والمنعة ، وهذا ما أعدوا أنفسهم له خلال الفترة التي سبقت بعثة الرسول ﷺ .

٦ـ عملوا بالمهن المختلفة وخاصة ما يأنفه العرب من حرف كالحدادة والصياغة والحياكة وغير ذلك ، وعملوا بالزراعة والتجارة ، وكانت لهم أسواقهم ومعاملاتهم التجارية المختلفة ، وأكدوا على قضية الربا والتي تمكنوا بواسطتها من إخضاع الكثير من السادة والمتنفذين ، وكانت عاداتهم الدينية تطغى على حياتهم ، مثل الختان ، والذبح ، ومعاقبة الزناة والسارقين وغير ذلك من أوامر التوراة ، إلاّ أن قوة تمسكهم بالدين اليهودى لم تصل إلى مرتبة أقرانهم في فلسطين ومصر واليمن .

٧ ـ تميزت حياتهم بأنها قريبة من الحياة البدوية ، وتأثروا بحياة البدو بشكل كبير، ولذلك فقد انتشرت الأمية بينهم ، ولم تعرف اللغة العبرية عند الجميع ولا

العربية أيضا ، وهذا جعلهم متساوين مع العرب بالثقافة وفنون المعرفة ، ولم يظهر منهم علماء أو فقهاء في الدين اليهودي .

٨ ـ وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المهادن في مراحلها الأولى ، إلى أن شعروا بخطر هذه الدعوة عليهم بعد هجرة الرسول ﷺ ،فأخذوا يكيدون للإسلام واستمروا في عداوته وتحالفوا مع العديد من القبائل ضد المسلمين ، فحاربهم الرسول ﷺ وأجلاهم في البداية عن المدينة وقضى على بني قريظة أحد فروعهم ، وتابع عمر بن الخطاب فأجلاهم عن الجزيرة نهائيا

٩ ـ قالوا الشعر وتحدثوا بالعربية، وكتبوا بها، وجل أدبهم مسجل بها ومناظراتهم ومحادثاتهم وردودهم ، وأسئلتهم وأجوبتهم التي كانوا يحاولون تعجيز الرسول ﷺ بها للتشكيك في نبوته كلها كانت بالعربية ، ولم يسجل لهم أدب أو فقه أو اجتهاد بالعبرية أو لغة أرم .

١٠ـ وعلى العموم فقد بقى اليهود غرباء عن المجتمع الذي عاشوا فيه على رغم انقضاء فترات طويلة على وجودهم في الحجاز ، فلم تكن تلك المناطق ذات قدسية خاصة يرتبطون بها ، ويرغبون بالاستمرار بجانبها ولم تتعدى قوى اليهود أكثر مما ذكر في كتب الإخباريين والسير عدا أصحاب خيبر الذين كانوا أصحاب قوة ونفوذ ، وذلك لعدم وجود منافس لهم في محيطهم .

القسم الثالث

العرب

العَرَبُ:بالضم وبالتحريك خلافُ العجم مؤنث، وهم سكان الأمصار أو عامٌّ .

والأعْرَابُ : منهم سكان البادية ولا واحدة لها . ويجمع على أَعَاريب .

وعَرَبٌ عاربةٌ وعَرْبًا وعَرِبَةٌ : صُرحَاء .

ومُتَعَرّبةٌ ومُسْتَعْرِبَةٌ : دخلاء .

وعَرَبيٌّ : بَـيّنُ العُرُبَةِ والعُرُوبِيَّةِ .

والعَرَبيُّ : بَيِّنُ العُرُوبَةِ .

والعَرَبيُّ : شعير أبيض ، وسنبلة حرفان .

والإِعْرَابُ : الإِبَانَةِ والإِفصاحِ (عن الشيء) [1] [2]

عَرَبَ ـ (العَرَبُ) جيل من الناس ، والنسبة إليهم عَرَبِيٌّ ، وهم أهل الأمصار والأَعْرَابُ : فهم سكان البادية خاصة ، والنسبة إليهم أعْرَابي .

وليس الأَعْرابُ جمعاً لِعَرَبْ ، بل هو اسم جنس .

والعَرَبُ العاربة : الخُلَّص منهم ، أكّدِ من لفظه (كَلَيْلٍ لاَئِلٍ) وربما قالوا (العْرَبُ العُرَبَاءُ) .

وتَعَرَّبَ : تَشّبَّه بالعَرَب .

---

(١)

(2) القاموس المحيط ـ الفيروز آبادى ١/ ١٠٦ مادة ((عرب)) .

والعرَبُ المُسْتَعْرِبة : بكسر الراء ، الذين ليسوا بخُلَّص ، وكذا المُستَعَرّبة : بكسر الرَّاء وتشديدها

والعَرَبيَّةُ : هي هذه اللغة .

والعَرَبُ والعُرْبُ : واحد كالعَجَمِ والعُجْمِ .

أعْرَبَ بحُجَّتهِ : أفصح بها ولم يتق أحداً ، وفي الحديث : االثيب تُعْرِبُ عن نفسها (أي تفصح)[1]

وجاء الإسلام ، ونزل القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة في مكة والمدينة ، فلم يرد فيه من الجزر (ع ـ ر ـ ب) إلاّ ثلاث صيغ

١ـ عُرُباً : جمع عَرْبِ (بفتح العين) نعتاً للمرأة المتحببة إلى زوجها ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة] .

٢ـ أعْرابُ : وردت عشر مرات في سور مدنية فقط ، منها ست مرات في سورة التوبة وحدها ، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد على أن كلمة (الأعْراب) تدل في القرآن وفي غير القرآن على البدو .

٣ ـ أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن : فهي كلمة «عَربَي» التي وردت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة في سور مدنية وسور مكية أيضا ، غير أن هذه الكلمة وردت عشر مرات نصا للغة التي نزل بها القرآن الكريم ، بأنها لغة واضحة بينة من مثل قوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[يوسف] أي تفهمون . ويبدو أنَّ هنالك مكانًا واحدًا استعملت فيه الكلمة (عربي) لتنعت شخص الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فُصِّلَت:٤٤] أي أكتاب أعجمي اللغة ونبي عربي .. ؟

(١) مختار الصحاح ـ الرازي ص٤٢٢ ، تهذيب الصحاح ـ الزنجاني ١/ ٧٥

إن استعمال كلمة (عربي) في القرآن الكريم دلت الشعراء على التعبير الذي عجز عن النطق به أو تحديده السابقون أمثال (عنترة) ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعب بن مالك يذكر رسول الله ﷺ :

بـــدا لنـــا فاتبعنـــاه نـــصدقه وكـــذبوه ، فكنـــا أســـعد العـــرب

وقال حسان بن ثابت يقرع بني هذيل عندما اشترطوا على الرسول أن يحل لهم الزنا عند دخولهم الإسلام :

ســألت هــذيل رســول الله فاحــشة ضــلت هــذيل بــما قالــت ولم تــصب

ســألوا رســولهم مــا لــيس معطــيهم حتــى المــات وكــانوا سـبة العـرب [١]

إن أصل كلمة (عرب) غير معروف بالتحديد ، رغم التفاسير المختلفة التي يقدمها علماء اللغة (والفيلولوجيون) ويقول بعضهم ، إن الكلمة مشتقة من أصل سامى معناه (الغرب) وأن سكان ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الأقوام التي تسكن (غرب) منطقة وادى الفرات ، على أن هذا القول صعب الإثبات ، وتقدم حجج كثيرة ضده ، أهمها الاعتراض الذي قد يثار من أنه ليس معقولا أن يسمى شعب نفسه باسم مشتق من موقعه بالنسبة لشعب آخر ، ولعل محاولات ربط أصل الكلمة بقضية حياة البداوة التي هي من صفات هذا الشعب في تاريخه السحيق أجدى وأقرب إلى الواقعية .

وإن كلمة «عرب» في رأي فريق من العلماء ذات صلة بكلمة Arabha «عرابا» العبرية التي تعني «الأرض المظلمة» أو«السهوب» أو بكلمة Erebh «عريب» التي يحياها السكان الحضريون ، هذه الحياة التي يرفضها البدو ويحتقرونها ، أو من كلمة Abhar «عابر» وتعني بالعبرية «تحرك» أو «عبر» ومنها اشتق اسم اللغة العبرية .

---

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ٤٢

إن الربط بين كلمة (عرب) وحياة البداوة والتنقل أمر ليس بالبعيد الاحتمال لأن العرب أنفسهم ـ بما في ذلك القرآن الكريم ـ قد استعملوا كلمة أعراب للدلالة على البدو الذين تعتمد حياتهم على النجعة والانتقال وبعكس سكان المدن في الجزيرة الذين كانوا مستقرين ويمارسون الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضر

ومن هنا جاء التفريق بين عرب وأعراب ، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[التوبة:٩٧] والأعراب هنا تستعمل بمعنى البدو حسبما جاؤوا في كل التعابير [(١)]

مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام :

الكتب العربية : أقدم المصادر العربية المعروفة المدونة من تاريخ العرب وأصحها القرآن الكريم . فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود ، وبعض أخبار ملوك اليمن كسيل العرم وغيره . وإذا قرأت تلك الأخبار فيه لا تجد فيها شيئًا من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ بل تجد ما ذكره القرآن الكريم صحيحًا تؤيده الاكتشافات الحديثة ، والبحوث العلمية الدقيقة ويدلك ذلك على أن تلك المبالغات أو الخرافات أدخلها أهل الأغراض أو الطامعون ممن دخل الإسلام من اليهود والمجوس أو غيرهم ؛ لأن العرب كانوا يستفتونهم في تفسير ما أغمض عليهم فيفتونهم بما تعودوه في كتبهم من المبالغة في فخامة الأجسام وطول الأعمار ، فلما ذكر القرآن الكريم عاداً يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] . فأدخل المفسرون في شرحها وتفسيرها مبالغات رواها بعض من هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً وبقوا على عقائدهم في السر [(٢)]

وقلد المؤرخون العرب اليهود وغيرهم في كثير من طرق التدوين ، فاقتبسوا

(١) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٤٧

(٢) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص ١٧ عن تاريخ التمدن الإسلامي ج٣

منهم رد كل أمة إلى أب من آباء التوراة حتى المغول والترك والفرس فردوا لأب الفرس مثلاً إلى فارس بن تاسور بن سام ، وقالوا عن أهل الصين: إنهم من ولد عابور بن يتوبل بن يافث بن نوح [(١)]

وقس على ذلك بقليل من أسماء البلاد وردها إلى أسماء مؤسسيها، فمثلًا «مصر» ابناها «مصرايم» و«آشور» بناها «آشور» ، وقد ينسبون بناء البلد إلى حادثة أو ظرف فعندهم مثلًا أن «دمشق» سميت كذلك لأنه «دمشقوا» بناءها ، ويثرب من قولهم «لا تثريب» ، و«الحيرة» من «تحير» والعراق من عرق القرية وهكذا والواقع أن الأندلس محرفة من «وندلوسا» نسبة إلى «الوندال» قوم سكنوا الأندلس قبل الإسلام ويثرب محرفة من «أتربيس» اسم بعض بلاد مصر ، والحيرة «حيرتا» في السريانية أي «المعسكر»)) و «يعرب» لمن تكلم العربية .. وهكذا [(٢)]

مصادر أخبار العرب :

أ ـ أشعار العرب وأمثالهم وأقوال كانت شائعة بين العرب في صدر الإسلام يتناقلونها نظمًا أو نثرًا ، ويدخل فيها أخبار البدو وأيام العرب ، وحروبهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم فدونوها في جملة ما دنوه نقلاً عن الرواة كالأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما وقد ضاع أكثر ما دونوه .

ب ـ الآثار الحميرية : لأنهم كانوا في صدر الإسلام يقرؤون الخط المسند ، وكان في اليمن جملة من العلماء عندهم العلم والحكمة ، وأخذوا عنهم ، وعن الآثار تاريخ اليمن وأخبار السد وغيرهم ، وأقدم من دوّن ذلك محمد بن إسحاق في السيرة النبوية .

جـ ـ أخبار اليهود في الحجاز واليمن وغيرهما .

د ـ كنائس النصارى في العراق ، فقد كان في الحيرة لما ظهر الإسلام كتب في السريانية والفارسية واليونانية اقتبس المسلمون منها كثيرًا .

---

(١) سفر التكوين الإصحاح التاسع ص١٠٤ أبناء نوح عليه السلام ـ المسعودي ١/ ٥٥

(٢) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص ١٨

تم نقل هذه الأخبار دون تمحيص في بداية التدوين ، ثم لما اكتمل للعرب نضج تمدنهم قام غير واحد من المؤرخين النقاد كابن الأثير و «ياقوت» ، وابن خلدون وغيرهم فانتقدوا كثيراً مما ورد عن تاريخ العرب [(١)]

يضاف إلى ذلك ما ورد عن أخبار العرب في التوراة والمؤرخين الرومان واليونان من (هيرودوتس) ٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق . م وحتى (إستيفانوس) البيزنيطي ٥٦٧م أي ما يقارب الألف عام ، ثم المصادر المنقوشة على الآثار في بلاد الغرب مثل الخط المسماري والإسفيني والخط النبطي ويعتقد المؤرخون بأن حضارة العرب لا تقل بحال عن حضارة مصر وبابل ، ولكن الرمال طمرتها ودثرتها وإذا هيىء لمن يكتشفها فإنها ستغير كثيرًا من المفاهيم التي سادت عن تاريخ هؤلاء العرب وكذلك آثار اليمن وحضرموت والحجاز والحيرة وغير ذلك مما تمكن كشفه والاطلاع عليه ودراسته وخاصة الأنباط ، وفترة حكم اليونان والرومان من بعدهم . ومن المصادر المنقوشة خارج جزيرة العرب في العراق ومصر وفنيقية ، وقد ظهر بها الكثير من الحديث عن آثار العرب ، وفترة حكم العمالقة على مصر وهم من العرب واكتساح المصريين والآشوريين لبلاد العرب [(٢)]

إذا قلنا (العرب اليوم أفردنا سكان جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب) أما قبل الإسلام فكان يراد بالعرب سكان جزيرة العرب فقط ـ [(٣)] باعتبار أن العرب الذين سكنوا العراق والشام قد خالطهم شعوب أخرى مثل السريان والكلدان والأنباط واليهود ، وهم من الشعوب السامية إضافة إلى الأقباط والبربر واليونان والرومان والوندال من الشعوب الآرية وسكان النوبة من الشعوب الإفريقية .

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص١٩ وما بعدها .

(٢) العرب قبل الإسلام ص٢٥ فما بعد : وقد أورد المؤلف سردًا للكتب العربية والأجنبية التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه المذكور (العرب قبل الإسلام) وكذلك التاريخ العربى ومصادره ـ أمين المغربي ٢ / ١٣٣ ـ ١١٦

(٣) المرجع السابق ص٤١

فلما ظهر الإسلام بين العرب الخلص في الحجاز توطنوا هذه البلاد وغيرها ، وغلب لسانهم ودينهم على ألسنة أهلها فسموا عربًا .

في التاريخ القديم ـ على عهد الفراعنة والآشوريين والفنيقيين ـ فكانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب ، وشرقي وادي النيل ، وفي البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب (هيرودوتس ١١٢) ، يدخل فيها بداية الشام والعراق وشبه جزيرة سيناء،وما يتصل بها من شرق الدلتا، والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر

وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعى بين ليبيا في الغرب وبلاد العرب في الشرق وكان المصريون يسمون الجبل الشرقي الذي يحد النيل في الشرق جبل العرب ، أو بلاد العرب ويسمون الجبل الغربي جبل ليبيا

ولفظ «عرب» » في التاريخ القديم كان يرادف لفظ (بدو) أو (بادية) في هذه الأيام وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية ، والأعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد لها على أن العرب كانوا يسمون جزيرتهم (عربة)[١]

ولما تحضر بعض قبائل العرب قديما وأقاموا في مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصورًا في (ا لبدو) فتنوع معناه كما تنوع مسماه ، فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالتين فاستعملوا لفظ (الحضر) لأهل المدن و (البدو) لأهل البادية ولم يبق للفظ العرب من معنى البداوة الآن إلّا في مثل قولهم (أعرابي).

وكان السبأيون (دولة سبأ) إلى تاريخ الميلاد إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا: «القبيلة الفلانية وأعرابها» . وكان أولئك العرب أو البدو سكان تلك البادية في شمال جزيرة العرب يقسمون إلى قبائل وبطون وعشائر ، كما كان حالهم قبل الإسلام وبعده[٢]

---

(١) معجم البلدان ـ الحموي ٣/ ٦٣٣

(٢) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص ٤١ ، ٤٢ . العرب ـ إدوارد عطية ١ ـ ٣ ، تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٣٣

تاريخ العرب :

اصطلح مؤرخو العرب على أن يقسموا تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين : العرب البائدة والعرب الباقية ويريدون بالبائدة القبائل القديمة التي بادت قبل الإسلام . والباقية عندهم قسمان :

١ـ العرب القحطانية : من حمير ونحوها من أهل اليمن وفروعها .

٢ ـ العرب العدنانية في الحجاز وما يليها ، واختلفت أقطار الباحثين في ذلك اختلافاً كثيراً .

وقد تبين لنا بدرس أحوال العرب وتاريخهم من أقدم أزمانهم إلى ظهور الإسلام أنهم سروا بثلاثة أدوار كبرى ، كانت السيادة في الدور الأول أو القديم لقبائل القسم الشمالي من جزيرة العرب ، وأكثر من العرب البائدة .

وفي الدور الثاني أو المتوسط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي وأكثرهم من القحطانيين،والدور الثالث أو الأخير عادت السيادة فيه إلى الشمال، وينتهي بظهور الإسلام وأكثر قبائله من العدنانية . فنقسم هذا التاريخ إلى ثلاث طبقات :

١ـ العرب البائدة أو عرب الشمال ومنها عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم .

٢ـ القحطانية أو دول الجنوب ومنها سبأ وحمير ومن تفرع عنهم بعد خراب سد مأرب [١]

٣ ـ العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني وهم قريش وحلفاؤها ، وقبلهم الأنباط وغيرهم جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان وقحطان ، وقضاعة ، فعدنان من ولد إسماعيل بلا شك في ذلك إلّا أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جهلت جملة وتكلم في ذلك قوم بما لا يصح ـ فلا نتعرض لذكر ما لا يقين فيه ـ وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غيروا ودثروا ، ولا يعرف

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص ٤٨ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ عاقل ص ٣٧ فما بعد .

أحد منهم على آديم الأرض أصلاً ـ حاشا ما ذكرنا من أن من بني عدنان من ولده فقط [(١)]

روى عن النبي ﷺ أنه إذا انتسب إلى معد بن عدنان أمسك ، ثم يقول : كذب النسابون . وقرأ ﷺ : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان] .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : إني لأنتسب إلى معد بن عدنان ، وما بعد لا أدرى ما هو ؟ [(٢)]

وروى عن ابن مسعود أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بلغ النسب إلى معد بن عدنان ويعرب بن قحطان كف عمّا فوق ذلك ولم ينسب .

وروى عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب مثله .

وعن سليمان بن أبي خيثمة قال : ما وجدنا في علم عالم ، ولا شعر شاعر أحدًا يعرف معد بن عدنان ، ويعرب بن قحطان .

وعن أبي لهيعة عن عائشة ﵂ قالت : كذب النسابون ، ما وجدنا أحدًا يعرب ما وراء معد بن عدنان ويعرب بن قحطان إلا تخرص .

وكان ابن مسعود إذا قرأ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر:٣١] قال : كذب النسابون . قال : ولقى الحسن بن على (رعفل) النسابة فقال له : أنت الذي تنسب الناس إلى آدم فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان] ؟[(٣)]

وأما قحطان فمختلف فيه من ولد من هو ؟ فقوم قالوا : هو من ولد إسماعيل ﵇ وهذا باطل ولا شك . إذ لو كان من ولد إسماعيل لما خص رسول الله ﷺ بني

---

(١) جمهرة الأنساب ـ ابن حزم ص ٧

(٢) الروض الأنف ـ السهيلي ١/ ١١

(٣) الأنساب ـ الصحاري ١/ ١٣٠ ـ ١٣١

العنبر بن عمرو بن تميم بن مر بن طانجة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بأن تعتق منه عائشة ، وإذا كان عليها نذر عتق رقبة من بني إسماعيل ، فآباؤه بلا شك من ولد إسماعيل فلم يبق إلا قحطان وقضاعة .

وقد قيل : إن قحطان من ولد سام بن نوح ، والله أعلم ، وقيل : من ولد هود عليه السلام وهذا باطل أيضا بيقين قول الله تعالى : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥] . وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة] . وهود عليه السلام من عاد ولا ترى باقية لعاد .

والذي في التوراة [١] من أنه قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام [٢] فقد بينا في كتابنا الموسوم بـ (المفصل) يقين فساد نقل التوراة عند ذكرنا ما فيها من الكذب الظاهر الذي لا مخرج منه وأنها مصنوعة مولدة ليست التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام .

أما قضاعة فمختلف فيه فقوم يقولون هو قضاعة بن معد بن عدنان ، وقوم يقولون : هو قضاعة بن مالك بن حمير والله أعلم .

ووجدنا في كتب بطليموس ، وفي كتب العجم القديمة ذكر القضاعيين ، ونبذة من أخبارهم وحروبهم فالله أعلم هل هم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم ، أم هم غيرهم .

وبلاد قضاعة متصلة بالشام ، وببلاد اليونان والأمم التي بادت ممالكها فغلبت الروم عليها وبلاد بني عدنان ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً

---

(١) سفر التكوين الإصحاح العاشر ص ١٦ ـ ١٧

(٢) أصل العرب القحطانية ، وأبو بطون حمير وكهلان ، والتبابعة (ملوك اليمن) واللخميين (ملوك الحيرة) والغساسنة (ملوك الشام) في الجاهلية ، وكذلك الأوس والخزرج سكان المدينة من العرب . ويعده أهل الأنساب أول رجال الجيل الثاني من أجيال العرب الثلاثة العاربة والمتعربة والمستعربة .

إلا أن الذي يقطع به ويثبت ويحقق ويوقن ، فهو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يصل نسبه بصلة قاطعة ، ونَقْل ثَابِت إلى إسماعيل ، ولا إلى إسحاق عليه السلام ، نعني ابني إبراهيم ـ عليه السلام .. فكيف إلى آدم .. ؟ عليه السلام هذا لا مرية فيه [(١)]

وأما الذين يسمونهم العرب والنسابون «العرب العاربة» كجرهم ، وقطورا ، وجم،وجديس، وعاد، وثمود، وأميم (بن لاوزين بن سام بن نوح) وأرم وغيرهم فقد بادوا ، فليس على أديم الأرض أحد يصح أنه منهم إلّا أن يدعى قوم ما لا يثبت وكذلك سائر ولد إبراهيم ﷺ كمدين بن إبراهيم وسائر إخوته ، وكذلك بني عمون ، ابني ابنة لوط الصغرى واسم ذلك الولد (بن عمي) [(٢)] المنسوبون إلى لوط عليه السلام [(٣)]

واختلف النسابون في النسب بين عدنان وإسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، فأما نسب إبراهيم إلى آدم صلوات الله عليهما مذكور فيها نسبهم ، ومبلغ أعمارهم في الانتهاء في النسب إلى عدنان وقحطان ، وما وراء ذلك فأسماء أخذت ، وقال بعض العلماء بالأنساب من طلب إلى ما فوق قحطان وعدنان طلب غاية قصوى [(٤)]

وفي حديث عن الحضارة العربية قبل الإسلام يقول المؤلف :

إن بلاد العرب قطر صحراوي فسيح تبلغ مساحته حوالى ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، وهي شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من آسيا يحدها الخليج العربي وبحر عُمان من الشرق والمحيط الهندي من الجنوب والبحر الأحمر من الغرب ، وبادية الشام وبلاد الرافدين من الشمال ، وهي بهذا الموقع تحتل مركزًا غاية في الأهمية بالنسبة للمواصلات والمبادلات التجارية بين عالم حوض البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ١/ ٨ .
(٢) سفر التكوين ١٩ : ٢٨
(٣) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ١/ ٨ .
(٤) الأنساب ـ مسلمة الصحاري ١/ ١٣١

ويعتبر العرب هم الممثلون الرئيسيون لما دعاه علماء الأجناس «الجنس الشرقي» إنسان الشرق القديم المرفوع القامة، والهزيل البنية، الأسمر البشرة والأسود الشعر. وقد توزع أبناء الجنس الشرقي هذا في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية ، وأصابوا درجة معينة من التقدم الحضاري ، وتكاثروا ، ولم تعد واردات الجزيرة العربية المحدودة كافية لإعالة أعدادهم المتزايدة ، وعلى الأثر أخذت جماعات منهم تنزح على شكل موجات بشرية متلاحقة إلى الأقاليم المجاورة حيث تيسرت موارد العيش في الأحواض النهرية وعند السواحل البحرية ، من هذه الموجات كان الأكاديون والبابليون،والكلدانيون والآراميون والكنعانيون،كما نزحت فئات منهم إلى وادي النيل ، وتشكل من امتزاجها مع العناصر الإفريقية الشعب المصري [(١)]

من هذه الدراسة السريعة نكون قد وجهنا النظر تقريبا إلى العرب الذين سبقوا ظهور الإسلام والفترة التي مر بها العرب والمعنية بدراستنا وهي «فترة الجاهلية» التي أصبحت هذه التسمية السمة الغالبة عليها وهي المصطلح الذي سبق ظهور الإسلام بحوالي ثلاثة قرون تقريبا.وللمؤرخين في دراسة هذا العنصر آراء ومذاهب واتجاهات كثيرة حول هذه التسمية ، وحول الصفات الغالبة على السكان ، سواء في معاشهم أو حياتهم أو حروبهم أو تجمعاتهم .

وبعض المؤرخين لا يتعدون كثيرًا لتحديد ما عرف بالعصر الجاهلي عن مائة وخمسين عامًا قبل ظهور الإسلام ، وما سبق ذلك يطلقون عليه اسم الجاهلية الأولى ، وهي الفترة التي سادت جزيرة العرب قاطبة وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه[(٢)]

---

(١) الحضارة العربية ـ لبيب عبد الساتر ص ٢٢٦

لقد خلط المؤلف بين العرب كقوم منفصلين من سلالتي عدنان وقحطان وبين الشعوب السامية التي تنحدر من سلالة سام بن نوح والتي هاجرت من الجزيرة العربية ، إذ إن العديد من علماء التاريخ يعتبرون الجزيرة العربية مهد هذه الشعوب السامية والعرب من هذه الشعوب وقد جمع العرب صفاتها والباقي منها ، وكذلك اللغة العربية واللغات السامية وهي التي حافظت على خصائص تلك اللغات وهي اللغة الحية الباقية منها حيث نزل بها القرآن الكريم فحفظها ودعمها وخلدها .

(٢) مادة جهل القاموس المحيط ـ الفيروزابادي٣/ ٣٦٤

وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، وهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله ـ ﷻ ، وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم .

ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]. وقال : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[البقرة] . وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]. وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر وقد عيَّر رجلاً بأمه : «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وفي معلقة عمرو بن كلثوم التعلبي :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وواضح من النصوص جميعًا أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق ، وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات [١]

القبائل العربية البدوية :

١ـ بقات القبائل :

هذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على إطلاق لفظ القبيلة على الحضر (سكان المدن والواحات) إضافة إلى البدو (سكان الخيام والمترحلون) . مع أن الحضر استقروا وأقاموا ، فقريش عندهم قبيلة والأوس والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة [٢]

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص ٣٩

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٣١٣

ولكل قبيلة جد تنتمي إليه ، وتفاخر وتتباهى به ، وقد يكون هذا الجد حقيقيا أي إنسانًا ، عاش ومات وساد القبيلة وترك أثرًا كبيرًا فى قبيلته حتى نسبت إليه ، وقد يكون الجد اسم حلف تكون وتألف من قبائل عديدة حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه جد وإنسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل الأخبار فقد رووا أن (تنوخ) قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت فى مواضعها وقد يكون اسم موضع ، أقامت قبيلة به فنسب إليه ، كما يذكر أهل الأخبار عن اسم «غسان» . وقد يكون اسم إله عُبدَ فنُسِبَ إليه عُبَّاده مثل بني (سعد العشيرة) و (تالب ريام) جد قبيلة همدان وقد يكون اسم نبات أو حيوان أو ما شابه ذلك[(١)]

٢ـ مراتب القبائل :

رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب هي: شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة .

فالشعب : النسب الأبعد مثل عدنان ، قحطان .

والقبيلة : مثل ربيعة ومضر .

والعمارة : مثل قريش وكنانة .

والبطن: مثل عبد مناف ، وبنى مخزوم ، وبنى هاشم ، وبنى أمية .

والفصيلة : مثل بني أبي طالب ، وبني العباس[(٢)]

وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيلة وهي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل[(٣)]

---

(١) جواد علي ٤/ ٣٤٠

(٢) بلوغ الأرب ٣/ ١٨٧ فما بعد ، لسان العرب ١٤ / ٧٥ ـ البطن دون القبيلة ، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة ، اللسان ١٦ / ١٩٩ ، الإكليل ١/ ٢٢

(٣) العقد الفريد ٣/ ٢٨٣ فما بعد .

وبني النويري طبقات القبائل على عشر طبقات وهي:الجذم، والجماهير، الشعوب، القبائل ، العمائر ، البطون ، الأفخاذ ، العشائر، الفصائل ، الأرهاط[١]

ملاحظة : الأرقام تدل على الطبقة في المحور العامودي ، والحروف الأبجدية في المحور الأفقي تدل على العمود في شجرة الأنساب العدنانية نقلًا عن كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة الملحقة في آخر الكتاب لجامعها الدكتور محمد حميد الله».

ملاحظة : الأرقام تدل على الطبقة في المحور العامودي ، والحروف الأبجدية في المحور الأفقي تدل على العمود في شجرة الأنساب القحطانية نقلًا عن كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة الملحقة في آخر الكتاب لجامعها الدكتور محمد حميد الله»

ورتب (نشوان بن سعيد الحميرى) القبائل على هذا النحو

الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الجيل ، ثم الفصيلة . وجعل مضرًا مثالًا للشعب ، و«كنانة» مثال القبيلة ، و «قريشًا» مثال العمارة ، و«فهرًا» مثال البطن ، و«قصيا» مثال الفخذ ، و«هاشمًا» للجيل ، و«آل العباس» للفصيلة[٢]

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة ، والظاهر أن الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حتى ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير إلى هذا المعنى، قبل إطلاقهم العرب على العرب جميعًا اصطلاحًا، وحيث أخذ الحمى القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة «الغرباء» كالذي حدث في معارك اليمن مع الجيش «الأحباش» وفي معارك عرب العراق مع «الفرس».

---

(١) نهاية الأرب ٢/ ٢٦٢ فما بعد .

(٢) المنتخبات ص ٥٥ حاشية جواد علي ـ تاريخ ١ / ٥٠٩ فما بعد .

وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣] .

فالشعوب هنا فوق القبائل ، وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه . وزاد بعض العلماء (الجذم) بأن وضعوها قبل الشعب ، ووضعوا الفصيلة « بعد العشيرة » ومنهم من زاد بعد العشيرة «الأسرة» ثم «العترة» ورتبها آخرون على هذه الصورة :

الجذم ، ثم الجمهور، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، ثم الرهط، ثم الأسرة، ثم العترة ، ثم الذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثًا هي: «البيت ، الحي ، والجماع»

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب هو في الترتيب أي من حيث التقدير والتفاخر وفي إضافة بعض المصطلحات ، أو في نقصها . أما من حيث العموم فإننا نجدهم يتفقون في الغالب ، ولا يختلفون أبدًا في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين والإسلام أما بالنسبة للجاهليين البعيدين عنه فلن يكون حكمنا عليهم علميًا ـ إلّا إذا أخذنا بمصطلحاتهم من كتاباتهم .

والقبيلة الجماعة التي تنتمي إلى نسب واحد ، ويرجع ذلك النسب إلى جد أعلى أو إلى جدة ، وهو في الأقل ، ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين .

والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية فليس فوقها مجتمع آخر[1] هذه بالنسبة للأحرار من العرب أو المجتمعين بتجمع واحد ينتسبون إلى جد واحد يحفظون أنسابهم ويتفاخرون به،ويعرفون ارتباطهم بسواهم وهم «العرب الصرحاء»

---

(١)جواد علي : تاريخ ١/ ٥٠٩ فما بعد .

إلا أن المجتمع العربى لم يكن خالصًا من الصرحاء فقط بل كان به بعض التداخل من موالٍ وعبيد ولقطاء إلخ ما هنالك .

والموالى : جمع مولى (والولى) القرب ، والدنو ، والمطر بعد المطر ، وُليتُ الأرض بالضم ولى الاسم منه والمحب والصديق والنصير ، وولى الشيء وعليه ولاية ووَلاية وهي المصدر وبالكسر الخطة والإمارة والسلطان ، وأوليته الأمر : وليته إياه والولاء الملك ، والمولى المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه والجار والحليف، والابن،والعم، والنزيل، والشريك، وابن الأخت، والولى والرب والناصر ، والمنعم ، والمنعم على . والمحب ، والتابع ، والصمد .

وفيه مولوية: أي يشبه المولى ، وهو متيمولى يتشبه بالسادة ، وتولاه اتخذْ وليًا[١] ، وأما مولى العقد ويقال له : مولى الحلف ومولى اصطناع فيكون بانتماء رجل إلى رجل آخر بعقد أو قبيلة إلى قبيلة أخرى بحلف ، وذلك أن يتعاقد ضعيف مع قوى،على أن يساعده ويعاضده ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده أي مولاه الذي قبل ولاءه .

من هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، لجأ كل بطن إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم ، وصاروا موالى لهم ، إذا وقع عليهم ضيم لجؤوا إلى من ائتمنوا إليه بالولاء للدفاع عنهم ، ولما ظهر الإسلام كان منهم من دخل في ولاء عبد الله بن أُبي ، ومنهم من دخل في ولاء سعد بن معاذ ، ومنهم من كان في ولاء عبادة بن الصامت . وكان في مقابل ذلك عليهم العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم والدفاع عنهم ، وأن يكونوا بمثابة العون لهم[٢]

والعبيد: جمع عبد ومؤنثه أمة .

والعبد: ضد الحر وجمعه عبيد ، مثل كلب وكليب وهو جمع عزيز .

---

(١) القاموس المحيط ٤/ ٤٠٤ مادة ((الولى)) مختار الصحاح ٧٣٦ مادة و ل ى .

(٢) جواد علي : تاريخ ٤/ ٣٦٦_٣٦٧

والعبودية: الخضوع والذل ، والتعبيد : الاستعباد ، وهو اتخاذ الشخص عبدًا [١] وكان العبيد لا يملكون من حق الحياة قبل الإسلام إلا الطعام والشراب وكانوا يباعون ويشترون ويورثون ، ويوهبون ويقتلون ، ويجرى التصرف بهم كما يجرى التصرف بالبهائم وكان الاستعباد من الأسر والسلب والشراء والولادة ، وكان في المجتمع العربي الكثير من العبيد الذين كانوا يقومون على خدمة ساداتهم، ويمتهنون مهن الخدمة المنزلية أو الرعي ، أو أية مهنة يتأفف ويأنف منها الأحرار. وقد برز العديد من العبيد في الجاهلية ، ولعل عنترة بن شداد مثال من هؤلاء الذين برزوا بشكل واضح ، ومن العبيد بلال بن رباح الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه وكان له دوره المعروف في الإسلام .

ويقسم النسابون القبائل العربية بين قبائل العرب الشمالية جميعها قسمين كبيرين: قسم عدناني مضري وهو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر. وقسم قحطانى : ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور في التوراة) [٢] وقد هاجر هذا القسم من الجنوب من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين. ومن يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية كما يجد العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك في الدم وفي أب واحد وأم واحدة . لقد اختلف النسابون في أصل بعض القبائل هل هي عدنانية أو قحطانية ..؟ مثل خزاعة وقضاعة وخشعم ، ولكنه اختلاف محدود ، والرأي الصريح أن هذه القبائل قحطانية ، ومن الثابت الذي لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينيون على ما يظهر يضعون حاميات في طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية دولة سبأ وذي ريدان وحضر موت

---

(١) مختار الصحاح ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، وتهذيب الصحاح ١/ ٢٢٨ مادة (عبد) . والقاموس المحيط ٣/ ٣٢٢ مادة ((العبد)) .

(٢) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح العاشر ص ١٧

واليمنيات ، هاجر كثير من الجنوبيين إلى الشمال وخاصة بعد سيل العرم الذي ضرب سد مأرب ، ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعًا وشعبًا مختلفة في الجزيرة العربية .

فكندة التي هاجرت إلى الشمال، وأسست لها مملكة أو إمارة في شمال نجد لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت عندما ظهر الإسلام ، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية ، مثل شرحبيل بن الحارث ، ومعد يكرب أخيه ، وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل في شمال نجران بينما يممت عشائر منها حوض الفرات .

أما (الأزد) فقد توزعت قبائلها وعشائرها بين شمال اليمن وعمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمال الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان «كما سيرد تفصيلًا بعد ذلك» وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعتريها الشك ، وهاجرت تنوخ[١] إلى البحرين ، ثم استقرت في جنوب العراق حيث أسست أهم عشائرها وهي «لخم» دولة المناذرة في الحيرة ، ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيئ إلى الشمال واستقرت في جبلى (أجأ وسلمى) وهاجرت قبائل أخرى إلى شمال الحجاز ، وانتشرت في بداية الشام وأهمها (قضاعة) و (بهراء) و (جهينة) و (تلى) التي نزلت مساكن ثمود وجذام ، وكلب وعاملة اللائى نزلن حدود فلسطين ، وعذرة التي نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى .

ومن هاجر إلى الجنوب أيضًا (خزاعة) وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة و (بجيلة) وكانت تنزل جنوب الطائف . ويقابل هذا القسم القحطانى اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله (قريش) في مكة و (ثقيف) في الطائف ، و (عبد القيس) في البحرين ، و (بنو حنيفة) في اليمامة و (تميم وجفنة) في صحراء

---

(١) تجمعات تنوخ تفصيلاً الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير ١ / ١٩٦ فما بعد ، الطبرى ـ تاريخ ١ / ٦١٠ فما بعد .

الدهناء ، و (بكر وعشائرها) الكثيرة التي تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون (بني حنيفة) ، و (بني يحجل) و (شيبان وذهل) ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمال الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها (بنو التمر) بينما كانت تنزل (أسد) في شمال نجد ، وتنتشر عشائرها إلى تيماء ، ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً (كنانة) و (هذيل) بالقرب من مكة و (قيس وعيلان) في نجد وأهم قبائلها (هوازن) و (سليم) و (عامر وعشائرها كلاب وعقيل وقشير ومزينة وبنو سعد) و (غطفان وفرعاها الكبيران عبس وذبيان) ومن المفضليات قصيدة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثيرة من هذه القبائل (القصيدة رقم ٤١) في المفضليات[١]

الحياة السياسية للقبائل العربية :

هذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة ويثرب وسواهم كانت تتحد في نظمها السياسية وهي نظم قبلية تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل المراعي ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعرف تتمسك بها تمسكًا شديدًا ، وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهي عصبية قبلية ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه القبائل من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون. ومن الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويظن أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل ، إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها .

(١) تاريخ الأدب الجاهلي ـ ضيف ص ٥٥ فما بعد (بتصرف) .

يقول البكري: فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، تنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم (تجمع تنوخ في البحرين) وهي التي تمثل ذلك خير تمثل في العراق فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ، ويردون كيدهم عنها في نحورهم ، وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها،ومن ثم كنا نجد دائمًا أحلافًا تضعف، وتحل محلها أحلاف أخرى وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ولذلك سميت (حجرات العرب) لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحرب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك في المعارك . أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب الخشونة فيها [1]. والكلمة من حلف يحلف حلفًا ويكسر حلفًا . ويقال : لا ومحلوفائه بالمد ، ومحلوفه بالله أي أحلف : أقسم والأحلوفة من الحلف والحلف بالكسر : العهد بين القوم والصداقة والصديق يحلف لصاحبه ألا يغدر به . جمع أحلاف والأحلاف في قول زهير : أسد وغطفان لأنهم تحالفوا على التناصر . والأحلاف قوم ثقيف وفي قريش ست قبائل عبد الدار وكعب وجمح وسهم ومخزوم وعدي ؛ لأنهم لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا على أن يتحالفوا ، فأخرجت عبد مناف حفنة مملوءة طيبًا فوضعتها لأحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فقسموا أيديهم فيها وتعاقدوا وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤهم حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف .. إلخ [2]. وكانوا يقولون عند عقد أحلافهم : الدم الدم الهدم الهدم ، لا

---

(١) تاريخ الأدب ـ ضيف ص ٥٧ .

(٢) القاموس المحيط ٣/ ١٣٣ مادة حلف .

يزيد العهد طلوع الشمس إلاّ شدا ، وطول الليالى إلا مدا . مابل بحر صوفه ، وأقام رضوى في مكانه ، إن كان جبله (رضوى) وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال ، وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ويقال : إن قبائل مرة بن عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ، ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمى حلفهم «المحاشي»

وأكرم الأحلاف حلف الفضول ، وفيه تحالفت قبائل قريش على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه فقاموا معه حتى ترد عنه مظلمته[١] ، ومن أسوأ أحلافهم حلف قريش ضد الرسول ﷺ وبني هاشم ، عندما تحالفوا بينهم ألا يكلموا أحداً منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يطعمونهم ، ولا يأكلون منهم ، وكتبوا كتاباً وضعوه في جوف الكعبة ، وأكلته (الأرضة) ولم يبق منه إلا كلمة «باسمك اللهم»[٢] . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف (الرباب) وهي خمس قبائل «خبة وثور وعكل وتيم وعدي» وحلف (عبس وعامر) ضد ذبيان وأحلافها من تيم وأسد وحلف (الحمر) بين (قريش وخزاعة وكنانة) وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها وهو ندوتهم التي ينظرون فيها شؤون قبيلتهم ، وكان كل فرد يستطيع أن يحضره ، وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد محدد معين ، وفي العادة يجتمعون مساء ، وكلما حَزَب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم . وفي أثناء ذلك ذلك يدلى سادتهم بحكمهم وتجاربهم في الحياة .

وغالبًا ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها له حنكة وحكمة وسداد في الرأي،وسعة في الثروة،وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ، ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ، ويقسم الضيافات .

---

(١) تاريخ الأدب ـ ضيف ص ٥٨ .

(٢) السيرة النبوية ـ ابن كثير ٢ / ٤٣ . سيرة ابن هشام ٢/ ١٤ ، الكامل ـ ابن الأثير ٢ / ٥٨ ، الطبري ـ تاريخ ٢/ ٣٣٥

فالسيد في القبيلة إما هو الشخص الألمعى الذي حنكته التجارب ، وغالبًا ما يرث سيادته عن آبائه حتى يتم له الحسب الرفيع،وليس له أي حقوق سوى توقيره، أما واجباته فكثيرة فلا بد له من الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة ، وما تدفعه من ديات ولا بد أن يكون حليمًا متسامحًا

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها وعلى رأسها حق أخذ الثأر ، وكل فرد يضحي لها بنفسه كما يضحي بماله ، فالقبيلة حياته وكيانه .

وكانت القبيلة تعطي من جانبها لأبنائها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل ظالمين ومظلومين ، وكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر . فكانت الشجاعة مثلها الأعلى والشجعان هم قادتها وروادها ، والذين يدفعون عنها عند الشدة ، ومن هنا جاءت أيام العرب الكثيرة التي سيرد الحديث عنها عن أيام الأوس والخزرج[1]

---

(١) تاريخ الأدب ـ شوقي ضيف ٦١ ـ ٦٣ بتصرف .

الفصل الثاني

الأوس والخزرج

القسم الأول: أصل الأوس والخزرج ونسبهم .

القسم الثانى : علاقة الأوس والخزرج بالمحيط الخارجى.

القسم الثالث: الحياة الاقتصادية في يثرب

وارتباطها بالحياة السياسية.

القسم الرابع: الحياة الفكرية .

الفصل الثاني

الأوس والخزرج

القسم الأول

أصل الأوس والخزرج ونسبهم

أصل الأوس والخزرج :

يتصل الأوس والخزرج وهما أخوان بنسبهما إلى فرع عرب قحطان من عرب الجنوب الذين رحلوا إلى الشام ، وأقاموا في الشمال دولًا وتجمعات وقوى مختلفة على مر الدهور ، وبرز من أجداد الأوس والخزرج ثلاثة كان لهم في التاريخ شأن كبير وهم ـ من الأدنى للأعلى ـ عمرو مزيقيا ، والأزد ، وقحطان. ونسب الأوس والخزرج : هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن (عمرو مزيقيا) بن عامر بن ماء السماء[1] ابن حارثة القطريف بن امرئ بن ثعلبة بن (الأزد) بن الغوث بن نبت بن مالك ابن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن (قحطان وورد أنه (يقطان بن عابر ابن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام)

وفي رواية التوراة أن يقطان ولد له ألوداد ، وشالف ، وحضرموت ، ويارح ، وهدورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وأبياميل ، وشبا ، وأوفير ، وحويلة ، ويوباب جميع هؤلاء بنو يقطان وكان مسكنهم من ميسا حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق[2]

وإن أهل يثرب من الأوس والخزرج وهم من قحطان في عرف النسابين كانوا قد انتسبوا إليه قبل الإسلام ، أخذوا ذلك من اليهود والنازلين بينهم الذين كانو

---

(١) عامر ماء السماء لبث الأخير علي الأول وليسا شخصين منفصلين .

(٢) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح العاشر ١٦ ـ ١٧

يحاولون التقرب إلى أهل يثرب للعيش معهم عيشة طيبة ، فأشاعوا ـ أي اليهود ـ بين الناس أن «عابرًا» وهو جد العبرانيين ، والد لولدين هما (فانع) و (يقطان) [١] وأن علاقتهم لذلك بهم هي علاقة أبناء عم بأبناء عم.

ولما نزل الوحي بخبر « هود ﷺ » وتفاخر المكيون على أهل يثرب بالإسلام استعار أهل يثرب هوداً وصيروه قحطانياً أو ابناً له ، وانتسبوا إليه ليظهروا بذلك أنهم كانوا أيضا من نسل نبي ، وأن نبوءة قديمة كانت فيهم .

وقد كان حسان بن ثابت من المتعصبين للأزد قوم أهل يثرب والأزد من قحطان ، وكان من المتباهين بيمن وقحطان[٢] وقد عرف الأوس والخزرج بابني قيلة[٣] وذكر أنهم لم يؤدوا أتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك[٤] وهذا دليل أنهم تربوا على النزوع إلى الحرية ، وعدم الخضوع لأية سلطة ، وطال بهم الأمر على ذلك وكتب تبع يدعوهم إلى طاعته فغزاهم.«تبع أبو كرب» فكانوا يقاتلونه نهارًا ويخرجون إليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ، ورأي كرمهم رحل عنهم[٥] وقد زعم أنه نزح معهم من اليمن قومهم من الأزد ، فنزل المدينة رهط ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ومنهم الأوس والخزرج .

ونزل مكة رهط حارثة بن عمرو بن عامر وهم خزاعة .ونزل جفنة بن عمرو ابن عامر بالشام وهم الغساسنة .ونزل لخم في العراق ومنهم المناذرة أو آل مضر[٦] فوصل بذلك تاريخ خزاعة وآل لخم بآل غسان ، وجعلوا ابتداء ظهورهم في أماكنهم منذ وقوع حادث سيل العرم .

---

(١) ورد فى التوراة ولعابر ولد ابنان اسم الواحد (فالج) لأن فى أيامه قسمت الأرض ، واسم أخيه (يقطان) . الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح العاشر ١٦ ـ ١٧

(٢) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٣١٤

(٣) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ١/ ١٩٢

(٤) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٣٧٤

(٥) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ١/ ١٩٢ وما بعدها

(٦) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٣٧٤

وقد روى الإخباريون في ذلك شعرًا لنفر من الأنصار ورد فيه انتساب أهل يثرب إلى عمرو بن عامر ، واتصال نسبهم بنسب غسان ، ومن ذلك شعر للشاعر الأنصاري المعروف حسان بن ثابت يقول :

ألم ترنــا أولاد عمــرو بــن عــامر لنــا شرف يعلــو عــلى كــل مرتــضى

ومن ذلك شعر زعم أن قائله أحد الأنصار وهو :

أنــا ابــن مزيقيــا عمــرو وجــدى أبــــو عــــامر مــــاء الــــسماء[1]

فالأنصار أهل يثرب وهم الأوس والخزرج من الدوحة التي أخرجت الغساسنة وقد ظهر تاريخهم في يثرب بعد سيل العرم على نحو ما سبق .

وافتخار أهل يثرب بآل جفنة يزيد كثيراً على افتخارهم بآل لخم ، مع أنهم على حد قولهم من أصل واحد ، وقد افترقوا جميعاً في وقت واحد وهم في درجة واحدة من القرابة ، ونجد لحسان شعراً في الغساسنة هو أضعاف ما قاله بالمناذرة ، ويظهر أن لقرب الغساسنة من يثرب وللمصالح الإقتصادية للهبات والعطايا التي كان ينالها حسان وأمثاله من الغساسنة بيسر وسهولة لقربهم منهم أثر كبير في هذا المدح والتعصب لغسان من آل لخم[2]

وهكذا فإن هجرة الأوس والخزرج ـ طبقا لرواية الإخباريين ـ إلى يثرب إنما كانت بسبب سيل العرم الأمر الذي لا يمكن تحديد زمنه بسهولة ؛ وذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع قبل الميلاد وربما الثامن قبل الميلاد (جواد علي ٢ / ٢٨١) وبين آخر مرة أصلح فيها السد عام ٥٤٣م أيام أبرهة الحبشي ـ طبقا لما جاء في نص (جلازر ٦١٨ ، CIH 541) - إذ إن هناك عدة إشارات إلى تهدم السد وإصلاحه ، منها ما

---

(١) شرح ديوان حسان ـ البرقوقى ص ٢٨٦

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٣/ ٣٩٠ ـ ٣٩١

حدث أيام (تاران يهنعم) عندما تهدم السد عند موضع (حبابض) و (رجتف) وأن القوم كتب لهم نجح كبير في إصلاحه(١)

وأما الروايات العربية ، فإن بعضا منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما حدث قبل الإسلام بأربعة قرون ، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادي وعلى أيام تبان بن أسعد(٢) على أن هناك فريقًا ثالثًا إنما يقترح أخريات القرن الرابع للميلاد ، معتمدًا في ذلك على نسب سعد ابن عبادة الخزرجي ، وجعله مقياسًا للزمن الذي ربما تكون الهجرة تمت به ، فنسب سعد بن عبادة الخزرجي ، وجعله مقياسا للزمن الذي ربما تكون الهجرة تمت به ، فنسب ـ سعد طبقًا لرواية النسابين ـ إنما هو سعد بن عبادة بن دليم ابن حارثة بن أبي خزيمة ابن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة ابن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة .. فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلًا ، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرون عامًا كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة عام ٦٢٢م وبين الخزرج الأكبر حوالى مائتين وخمس وسبعين سنة ؛ أي أن هجرة الأوس والخزرج ربما كانت في أخريات القرن الرابع .

ولعل أهم هذه الأسباب إنما هو ضعف الحكومة،ثم تحول الطرق التجارية ، فضعف الحكومة في اليمن أدى إلى تزعم سادة القبائل ، وانشقاق الزعامة في البلاد ، فضلا عن المشاحنات الدينية بين أتباع اليهودية باليمن ، وزاد الطين بلة أن صاحب تلك القلاقل الداخلية تدخل الحبشة ثم الفرس في شؤون اليمن الداخلية ، وكانت نتيجة ذلك اضطراب الأمن في البلاد ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كما تدلنا على ذلك نقوش النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، فألهي ذلك الحكومة عن القيام بواجباتها مما أدى إلى إهمال السد ، ومن ثم فقد تصدعت جوانبه ، وكان السيل قد أغرق مناطق واسعة من الأرض الخصبة التي كان القوم يعتمدون عليها

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥٥ ـ ٤٥

(٢) تاريخ العرب ـ زيدان ص ١٥٥

في حياتهم الاقتصادية[١] فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن اليمن لم تصبح في تلك الفترة صاحبة السيادة على الطرق التجارية كما أنها لم تعد الوسيط الوحيد في نقل التجارة إلى المناطق الشمالية، بل ربما لم يعد دور اليمن بعد سيطرة الرومان على البحر الأحمر، ونقل تجارة الهند عن طريق هذا البحر فضلا عن ظهور القرشيين وقيامهم برحلتي الشتاء والصيف المشهورتين إلا دورا ثانويا .

وهكذا تجمعت العوامل السياسية والاقتصادية معا على إهمال الزراعة وكساد التجارة مما دفع بقبائل عربية غير قليلة إلى الهجرة إلى بلاد العرب الشمالية . وكان من بين المهاجرين الأوس والخزرج .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن قبائل الأزد هاجرت دفعة واحدة أمر غير مقبول ذلك لأن خزاعة ـ وهي بطن من الأزد ـ كانت ما تزال تحكم مكة حوالى ٤٥٠م وكانت قد استمرت مدة طويلة تلى هذا الأمر ، رأي البعض أنها حوالى ثلاثة قرون ، ورأى آخرون أنها خمسة قرون ، وهذا يعني أنها هاجرت من اليمن حوالي منتصف القرن الثاني للميلاد وربما منذ بداية القرن التالي في عام ٢٠٧م .

وأيا ما كان الأمر فإن الإخباريين يذهبون إلى أن الأوس والخزرج أخوان فهما أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطيرف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[٢] الذي ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان . ولكن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى أمهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ؛ ولهذا كانوا يدعون «ابنا قيلة» مما يدل على أن هذه المرأة إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة دفعتهم إلى الانتساب إليها [٣]

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٢٤٦

(٢) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٨٥ ، ابن الأثير ـ تاريخ ١/ ٤٠٠ ، وفاء الوفا ـ السمهودى ١/ ١٢٤ ، تاج العروس ٤/ ١٠٣ ، العقد الفريد ٣/ ١٦ ، ١٥٩ ، ابن هشام ـ السيرة ٣/ ٣٤٧ دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٥٠، جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢ الأنساب ـ الصحارى ٢/ ٥١

(٣) تاريخ العرب ـ سيد عبد العزيز ص ٣٤٠

وكانت مساكن «الأزد» بمأرب من اليمن إلى أن أخبر الكهان عمرو بن عامر مزيقيا ، أن سيل العرم يخرب بلادهم ، ويفرق أكثر أهلها عقوبة لهم بتكذيبهم رسل الله تعالى[١] إليهم فلما علم ذلك عمرو باع ماله من مال وعقار وسار عن مأرب هو ومن تبعه ، ثم تفرقوا في البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروها فسكنت خزاعة الحجاز،وسكنت غسان الشام،ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر في من معه اجتازوا بالمدينة وكانت تسمى يثرب فتخلف فيها الأوس والخزرج بن حارثة فيمن معهما وكان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم ، منهم قريظة والنضير وبنو قينقاع وبنو ماسلة وزعورا وغيرهم،وقد بنوا لهم حصونا يجتمعون بها إذا خافوا فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون ، إلا أن الغلبة والحكم لليهود إلى أن كان من الفطيون ومالك بن العجلان ، فعادت الغلبة للأوس والخزرج ، ولم يزالوا على حال اتفاق واجتماع إلى أن حدثت بينهم حرب سمير[٢]

وقد نزلت (بارق) في أرض تسمى (بارقًا) ، فنسبت إليها ، وقيل وجاء في نسبها أنها من نسل سعد بن عدى بن حارثة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وهم أخوة الأوس والخزرج وليسوا من غسان . ولابن الكلبى أخبار عن بارق ، وعن القبيلة التي نزلت بها ، وقد نزل مع سعد بن عدى ابنا أخيه عمرو بن عدى بن حارثة وهما مالك وشبيب فسموا بارقا كذلك[٣]

فلما كان سيل العرم نزل يثرب قبائل من الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة ابن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وأمهم قيل بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة وقيل : قيلة بنت هالك بن عذرة بن قضاعة ابن سعد بن

---

(١) لم يرد اسم أو خبر هؤلاء الرسل أو صفاتهم أو زمانهم ...... ؟

(٢) الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٠١

(٣) معجم البلدان ـ الحموي ٢/ ٣٢

زيد ؛ ولذلك سمي الأوس والخزرج بنو قيلة[(١)]

نزل الأوس والخزرج في يثرب ، وأقاموا فيها وكانت الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، وكانت الغلبة والمنعة لهم أيضا ، فسألهم الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفا وجوارا يأمن به بعضهم من بعض، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا ، أما الأوس فقد سكنوا جنوب وشرق يثرب ، وأما الخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب ، وجاوروا قبيلة بنى قينقاع اليهودية .

٣ـ من أجداد الأوس والخزرج :

لقد برز من أجداد الأوس والخزرج عدد من الجدود أهمهم ثلاثة هم : قحطان ابن هود ، والأزد ، وعمرو مزيقيا ، ومن المستحسن أن نلقى نظرة سريعة عليهم . نظرا لارتباط تاريخ الأوس والخزرج بهم .

١ـ قحطان بن هود [(٢)] : وقد اتخذ القحطانيون هودًا جدًا من أجدادهم،وألحقوا نسبهم به (وهو النبي هود عليه السلام ، المرسل إلى عاد ، المذكور في القرآن الكريم ، وهو أبو قحطان بن هود) قال حسان بن ثابت :

أبونا نبي الله هود بن عابر

وهو : هود بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح[(٣)]

فعلوا ذلك بدافع العصبية والمفاخرة على العدنانيين الذين كانوا يقولون إن فيهم الأنبياء كما أوجدوا لهم نسبا احتكر لهم العروبة وجعلهم الأصل، والعدنانيون من الطارئين عليهم . وإذا صح الشعر المنسوب إلى حسان بن ثابت والذي افتخر

---

(١) تاريخ العرب ـ سيد عبد العزيز ص ٣٤٠ ، ٣٤٤

(٢) وردت كلمة «هود» و«هودا» في القرآن الكريم للدلالة على نبي الله «هود» عليه السلام وما حدث له مع قومه في سورة هود الآيات ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ ، وهي السورة رقم (١١) وفي سورة البقرة الآيات ١١١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، وفي سورة الشعراء آية ١٢٤ وفي سورة الأعراف آية ٦٥ (المعجم المفهرس ص ٧٣٩ وقصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٩٣ فما بعد قصة النبي هود .

(٣) الحواشي : من المصدر ابن خلدون ـ تاريخ ٢ / ٢٩ نهاية الأرب ـ ١٣ / ١٥ ديوان النابغة مع شرحه (للبطليموس) ص ٦٣ فما بعد . التنبيه والإشراف ص ٧١ طبعة الصاوي .

فيه بانتسابه إلى «هود بن عابر» وبأن قومه وهم من قحطان منهم وهو لهذا الشاعر حقا يكون لدينا أول دليل يثبت أن هذا الانتساب كان معروفا عند ظهور الإسلام .

أما الطبقة الثانية من طبقات العرب البائدة فهي (العرب العاربة) على أقوال النسابين وهم من أبناء قحطان ، وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين الذين هم من العرب المستعربة في عرف النسابين .

وقيل: إن قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل عليه السلام . ويدل له تبويب البخارى بأن نسبة اليمن إلى إسماعيل ، وأسلم هو ابن قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس صاحب النسب المقدم فدل على أن اليمن بني قحطان من بني إسماعيل وهو ظاهر قول أبي هريرة في الصحيحين في قصة هاجر «فتلك أمكم يا بنى ماء السماء» يخاطب الأنصار لأن جدهم عامرا والد عمرو كان يلقب بذلك كما تقدم ، أو أراد أبو هريرة ﷺ العرب كلهم لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر . وهذا متمسك لمن ذهب إلى أن جميع العرب من ولد إسماعيل .

قال ابن حبّان في صحيحه كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء السماء» لأن إسماعيل ولد هاجر وقد ربي بماء زمزم وهي من ماء السماء ويرجع عياض أن مراد أبي هريرة الأنصار خاصة، ونسبتهم إلى جدهم المعروف بماء السماء، ودلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل .

قال الحافظ ابن حجر: وهو الذي يترجح في نقدى ، وقد ذكر ابن عبد البر عن طريق القعقاع بن أبي حدود أن النبي ﷺ مر بناس من أسلم وخزاعة وهم يتناصلون فقال: «ارموا بنى إسماعيل» ، وأسلم وخزاعة يدل نسبتهما في قبائل اليمن التي جماع نسبتها قحطان .

ومما يؤيد ذلك قول المنذر بن عمرو جد حسان بن ثابت الأنصاري :

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر وحارثة الغطريف مجدًا مؤثلا

مـآثر مـن آل ابـن نبـت بـن مالـك ونبـت بـن إسـماعيل مـا أن تحـولا [١]

وقال ابن دريد في الوشاح : أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل ، ونقل ابن هشام عن الشرقي أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم ، وكله جار على خلاف ما قد قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل والله أعلم[٢] وقحطان الذي يرد اسمه في سفر التكوين[٣] هو قحطان بن عامر بن شامخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح في رأى النسابين[٤] ونرى من ذلك مطابقة تامة بين النسب الوارد في الكتب العربية والنسب الوارد في «التوراة» ومما يدل دلالة واضحة على أن الإخباريين أخذوا علمهم بنسبه من روايات أهل الكتاب ، وهم يؤيدون ذلك ولا ينكرونه[٥] . وقد سرد بعض الإخباريين نسب قحطان على شكل آخر مثل «قحطان بن هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام ابن نوح» على أن هودا هو عابر أو قحطان بن هود بن عبد الله بن الخلوذ بن عاد بن عوض بن أرم بن سام ابن نوح أو «قحطان بن يمن بن قدار» أو «قحطان بن الهميسع بن يتمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم»

فنرى أن بعض شجرات النسب قد أدخلت أسماء عربية بين الأسماء المأخوذة من التوراة وقد ألح بعض نسابي اليمن على جعل «هود» عابرا ، وعلى جعله والد قحطان، وأصروا على ورود ذلك في الشعر . ولم يكن من العسير عليهم بالطبع إيجاد ذلك الشعر ووضعه، فكانوا إذا نوقشوا في ذلك احتجوا بقول الشاعر «أبو قحطان» هود ذو القحف ، واحتجوا بأمثال ذلك من كلام منظوم أو منثور ، وجاؤوا بأكثر

---

(١) وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٤ فما بعد .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٥

(٣) الكتاب المقدس سفر التكوين ـ الإصحاح العاشر

(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام ، وقحطان أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . قال ابن إسحاق جرهم بن يقطن بن عبيد بن شالخ و (يقطعن) قحطان بن عبيد بن شالخ ... إلخ . الطبري ـ تاريخ ١/ ٢٠٥

(٥) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ١/ ٤٣

من ذلك لإفحام خصومهم[١]

ونحن لا نعرف من أمر قحطان شيئا غير هذا النسب الذي يردده الإخباريون ، وليس لدى العبرانيين من أمره غير ما ورد من أنه أحد أولاد «عابر» وآخرهم ، وأنه جد قبائل عديدة قديمة وسكوت أهل الأخبار عنه ، واكتفاؤهم بسرد نسبه دليل على أخذهم له من التوراة[٢]

ويقال: إن قحطان هو أول من ملك باليمن وبعض النسابين يعودون بصلته بإسماعيل كما سبق إلا أن جميع الروايات اتفقت تقريباً على استقلالية قحطان عن إسماعيل ، ولصقه بهود عليه السلام هو من قبيل التبرك بالنبوة التي كانت في ولد عدنان أجداد الرسول ﷺ ونبي الله إسماعيل قبل عدنان وكل الروايات تقريبا تورد هذا النسب القريب جدًا مما ورد في التوراة .

أولاد قحطان: أما أولاده فلم يبخل عليه أهل الأخبار بالأولاد ، فوهب بعضهم له امرأة سموها «حتى بنت روق بن فزارة بن سعد بن سويد بن عوض بن أرم بن سام بن نوح» [٣] ووهبوا له من الولد ما تراوح عدده من عشرة ذكور إلى واحد وثلاثين على حسب كرم الراوى أو بخله على قحطان من بينهم يعرب وحضرموت وعمان وجرهم ...[٤]

وقد ذكر الهمداني أولاد قحطان على هذا النحو:يعرب بن قحطان ودعاه «المزدغف» ومعنى المزدغف: المحتوى للأشياء، وجرهم بن قحطان، ولؤى وخابر،والمتملس، والعاض «العاصي» «القاضى» وغاشم ، والمعتصم ، وغاصب ومعوو ، ومتبع ، والقطامي، وظالم ، و«الحارث» و«الحرث»، وبنانه ، وقاحط ، وقحيط ، ويعفر « جد المعافر»، والمود ، والمورد والسلف ، والسالف ، ويكلأ ، وغوث ، والمرثاء، وطسم ،

---

(١) جواد على ـ تاريخ ١/ ٣٥٤ فما بعد .
(٢) المرجع السابق ١/ ٣٥٨
(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ١/ ٢٧٧
(٤) ابن خلدون ـ تاريخ ١/ ٤٧ .

وجديس، وحضر موت ، وسماك، وخيار، والمتمنع ، وذو هوزن ، ويأمن، ويغوث ، وهذرم .

وقد أخذت هذه الأسماء من روايات أشار إلى أسماء رواتها «الإكليل ١/ ١١٦ وما بعدها» وذكر الهمداني في موضع آخر أنه قرأ في السجل الأول : أولاد قحطان ابن هود أربعة وعشرون رجلا

أما الذي تولى الحكم بعد قحطان ـ على رأي الإخباريين ـ فكان يعرب ، وكان ملكه باليمن وقد غلب بقايا عاد ، ووزع إخوته في الأقطار ، فأقر أخاه حضر موت على الأراضين التي عرفت باسمه ، وعين عمان ، وولى جرهما على الحجاز (صبح الأعشى (٥/ ١٩٥) و (ابن خلدون ٢/ ٤٧) [١]

وقيل في شالح: إنه شالخ بن أرفخشذ من ولد القيتان، وولد لشالخ عابر ، وولد لعابر ابنان أحدهما فالغ ومعناه بالعربية قاسم ؛ وإنما سمي بذلك؛ لأن الأرض قسمت والألسن تبلبلت في أيامه ؛ وسمي الآخر بـ (قحطان) أول من ملك اليمن وأول من سلم عليه بـ (أبيت اللعن) كما كان يقال للملوك[٢]

قال : وكان يقال لعاد في عهدهم عاد إرم ، فلما هلكت عاد قيل لثمود : إرم فلما هلكت ثمود قيل لسائر بنى إرم : أرمان ، فهم النبط ، فكل هؤلاء كان على الإسلام وهم ببابل ، حتى ملكهم نمرود بن كوش بن نعمان بن حام بن نوح ، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا ، فأمسوا وكلامهم السريانية ، ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فصار لبني سام ثمانية عشر لسانا ، ولبني يافث ستة وثلاثون لسانًا ففهم الله العربية عادًا وعبيلا وثمود وحديسا وعمليقا وطسما وأميما وبني يقطن بن عامر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح [٣]

---

(١) جواد على ـ تاريخ ١/ ٣٥٨ فما بعد ، الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٥

(٢) الطبري ـ تاريخ ١/ ٢٠٥

(٣) الطبري ـ تاريخ ١/ ٢٠٨ . الأنساب ـ الصحاري ١/ ١٢٢

فلما أهلك الله قوم هود عليه السلام وهم قوم عاد ، أقام هود بحضرموت مع أصحابه في خصب وخفض عيش ، وتوفي بحضرموت ، وقال البعض : لحق هود ومن آمن معه بمكة ، ولم يزالوا بها حتى ماتوا والله أعلم .

وكان قحطان بن هود ممن آمن بأبيه عليه السلام ، وهو أبو اليمن كلها ، وهو أول من نزل بأرض اليمن بولده ، وملكها بعض قوم عاد فسموا ولده اليمن حتى تيامنوا إليها ونزلوها ، وكان قحطان من المؤمنين ، وقال في ذلك (تبع الأسعد وهو كرب الحميري) :

جدنـــا قحطـــان الـهـــدى وأبـــو قحطـــان هـــود ذو القحـــف

ثمـــت المهـــدى نـــوح جدنـــا نـــسبة معـروفـــة لا تختلـــف

وكان هود رجلا آدم كثير الشعر حسن الوجه ، وكان عمره مائة وخمسين سنة[١] وكان هود عليه السلام نبياً عربياً حرَّاثا[٢]

٢ ـ الأزد الأزد بن الغوث وبالسين أفصح أبو حي باليمن ، ومن أولاده الأنصار كلهم (ويقال : أزد نوأة وعمان والسراة) [٣]

وقد ولد لأزد عدة أولاد منهم ؛ مازن ، ونضر ، وعمرو ، وعبد الله ، وقران والأهبوب[٤]

ويقال في الأسد : الأزد بالسين والزاى واسمه : الازدراء بن الغوث ، قال فيه وقيمة بن موسى بن الفرات، وقال غيره: أسمى أسدًا لكثرة ما أسدى من الأيادي ، ورفع النسب إلى كهلان بن سبأ ، وكهلان كان ملكا بعد حمير وعاش ـ فيما ذكروا ـ ثلاثمائة سنة [٥]

---

(١) الأنساب ـ الصحاري ١/ ٨٧ .
(٢) الأنساب ـ الصحاري ١/ ١٠٦ من حديث عن حذيفة بن اليمان عن الرسول ﷺ .
(٣) القاموس المحيط ١/ ٢٨٤ . تهذيب الصحاح ١/ ٢٠٨ . الروض الأنف ١/ ٢١
(٤) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ٤٣٥
(٥) الروض الأنف ـ السهيلي ١/ ٢١

واعلم أن الأزد من أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا،وأمدها فرعا،قسمها الجوهري إلى ثلاثة أقسام أزد شنوءة : وهم بنو النضير بن أزد ، وأزد السراة ، وأزد عمان[1]

والأزد قبيلة عربية قديمة تنسب إلى الأزد بن الغوث ، وكان موطنها اليمن ، فلما تصدع سد مأرب تفرقت بين أنحاء الجزيرة،فمنهم من نزل عُمان في الشرق، وغسان في بادية الشام ، ومنهم من استوطن بعض أنحاء اليمن مثل سراة .

«الأزد» قبيلة عربية ، وتكتب أحيانا «الأسد» ويجب ألا يدعونا هذا إلى الخلط بين هذا الاسم وبين «أسد» من غير أداة التعريف، ويقال : إن اسمه الأصلي «درَّاء» ونسب هذه القبيلة هو الأزد بن الغوث بن قرن بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وقد تفرع عن هذه القبيلة المتشعبة أربع بطون هي :

١ـ أزد عمان : وتنكر قريش انتساب أزد عمان خاصة إلى العرب ، ويعيش هؤلاء في الغالب من صيد الأسماك ، وكانت العرب تسخر منهم لهذا في كثير من الأحيان ، كما يظهر أنهم لقبوا «بمزون» لهذا السبب أيضا

٢ ـ أزد السراة : في الجبال المعروفة بهذا الاسم في اليمن ، وقد اشتهروا بالنسيج وكان يسخر منهم لذلك .

٣ ـ أزد شنوءة : (كعب) ونادرا أن تكتب شنوة ، والنسبة إليها شنائي ونسبهم هو كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد ، وهم أيضا يعيشون في السراة وشنوءة اسم ناحية باليمن ويظهر أن هؤلاء هم في الحقيقة السراة .

٤ ـ أزد غسان مازن في شمال جزيرة العرب وفي بلاد الشام وكان الأوس والخزرج في المدينة وخزاعة في مكة وما جاورها يعدون من الأزد أيضا وكان المهلب بن أبى صفرة من بنى العتيك وهي عشيرة عبد الله بن الأزد ، كما ينسب أبو هريرة إلى عشيرة دوس .

(١) نهاية الأرب ـ القلقشندي ص ٩١ . الإيناس ـ ابن الغربي ص ١٣ . مختلف القبائل ص ٢٣

ومواطن الأزد هي: أبيدة في السراة ، بارق وهو جبل في السراة أيضا ، حديد وهو جبل حاليا في اليمن ، ومكنونة في اليمن ، ومرآة في اليمن كذلك ، ومأرب في اليمن والقفس في كرمان[١] والقنة وريسوت وهي مكان حصين على الشاطئ ، والسرد وتثنيت في السراة ، وتندقة في السراة أيضا ، وتؤام في اليمامة ، ويسكن الأزد جزءًا منها فقط ، والعُداف وهو جبل في السراة[٢]

الواقع الذي يرمز إليه التاريخ بخط عريض هو أن أزد (بفتح أوله وسكون ثانيه) من أعظم قبائل العرب وأكثرها سؤددا في الجاهلية والإسلام ، وأكثرهم انتشارًا في شتى الأقاليم فمنهم «أزد عمان» الذين ملكوا ظفارًا وكل عمان فترة طويلة من الزمن وظلوا فيها ذوي شأن عظيم حتى جاء الله بالإسلام ، ومنهم أزد السراة (غامد وزهران وكل سكان جبال السراة) ، و (أزد الأوس والخزرج الذين ملكوا يثرب بعد أن قهروا اليهود فيها) ، ومنهم (أزد لخم وجذاب الذين ملكوا الحيرة والعراق) ، ومنهم (أزد غسان الذين ملكوا الشام) ، ومنهم (أزد خزاعة بمكة وحواليها) ، وكان للأزد شأن عظيم في تثبيت دعائم الإسلام ، ويكفي أن الأنصار (من الأوس والخزرج) هم من الأزد ، ومن الأزد المحارب الشهير والسياسي الذائع الصيت المهلب بن أبي صفرة[٣]

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن قبائل الأزد هاجرت دفعة واحدة أمر غير مقبول ، وذلك لأن خزاعة ـ وهي بطن من الأزد ـ كانت ما تزال تحكم مكة حوالى عام ٤٥٠م ، وكانت قد استمرت مدة طويلة تلى هذا الأمر ، رأى البعض أنها حوالى ثلاثة قرون ، ورأى آخرون أنها خمسة قرون ، وهذا يعنى أنها هاجرت من اليمن حوالى منتصف القرن الثاني ، وربما منذ بداية القرن الثالث في

(١) بلوجستان ـ معن شناع ص ٩٣ فما بعد .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ خورشيد ٣/ ١٦٨ أو ٢/ ٣٨ طبعة دار المعرفة .
(٣) العرب فى الشام ـ باشميل حاشية ص ١٧٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٧٠ ـ ١٧٣ أو ٢/ ٣٨ـ ٣٩ طبعة دار المعارف .

عام ٢٠٧ هـ[(١)] والأزد كانوا ملوكا على بادية كهلان باليمن مع حمير ، وكانت بلادهم مأرب حيث بنى السد المشهور ، واستفحل لهم الملك من بعدهم وكانت أرض سبأ باليمن لذلك العهد من أرفه البلاد وأخصبها ، وكانت مدافع للسيول المنحدرة بين جبلين هناك .

وكانت أزد شنوءة وغيرهم من الأزد يعبدون مناة ، ثم عبدته منهم خزاعة أتى به عمرو بن لحي الأزدي ، وكانت الأزد تعبد السعيدة (وهو بيت كانوا يحجونه) وكان سدنتها بنو عجلان ، وكان لأزد السراة صنم يقال له : عائم ، وآخر يقال له : ذو الخلصة ، هدمه جرير بن عبد الله البجلي بأمر الرسول ﷺ سنة ١٠ هـ وأدرك الأزد الإسلام وأسلموا ، ولأعقابهم أخبار كثيرة .

وقد تفرعت من الأزد قبائل كثيرة فكانت لهم دول بالشام والعراق ويثرب وعمان وغيرها التي اتصلوا بها[(٢)]

ويظهر من فحص روايات الإخباريين عن الأزد أنها كانت مجمعة ضخمة من القبائل ، ودليل ذلك عند النسابين بأنها جرثومة من جراثيم قحطان ، وذكروا أنها كانت سبعا وعشرين قبيلة (الأنباه ١٠٦) منها الأوس والخزرج وهم من نسل حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف[(٣)]

وقد جعل بعض علماء الأنساب الأزد ستا وعشرين قبيلة يجمعها جميعها الأزد وهي جفنة وغسان والأوس والخزرج ، وخزاعة ومازن وبارق وإلمع والحجر ، وعتيك (العتيق) ، وراسب ، وغامد ، ووالبة ، وثمالة ، ولهب ، وزهران ، ودهمان ، والحيان ، وشكر ، وعك ، ودوس ، وفهم ، والجهاضم ، والأشاقر ، والقسامل ، والفراهيد[(٤)]

---

(١) تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥٩ .

(٢) دائرة المعارف ـ البستاني ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩ . جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٤٤٢

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٤٣٦ .

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ٤٤١ ـ ٤٤٢ وابن خلدون ـ تاريخ ٢/ ٢٥٣ ، أبو الفداء : تاريخ ١/ ١٠٢

وعندما علت راية الإسلام على كل راية عام تسعة للهجرة قدم وفد من تبقى على الشرك من الأزد على رسول الله ﷺ على ما هم عليه من هيئة وسمت وذوق رفيع وأدب عال .... فقال لهم : من انتم ... ؟ قالوا : مؤمنون فتبسم ﷺ ثم قال : إن لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قالوا : خمس عشرة خصلة خمس منها أمرتنا رسلك ان نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئا

فقال النبي ﷺ : ما الخمس التي أمرتكم رسلى بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت .

قال : وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ... ؟ قالوا : أمرتنا أن نقول : لا إله إلا الله ونقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا

قال: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ قالوا الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء والرضا عند القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقال النبي ﷺ معجبًا بهم : حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ثم قال ﷺ «وأنا أزيدكم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا مالا تأكلون، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما أنتم فيه تقدمون ، وفيه تخلدون» فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﷺ وعملوا بها[1]

وعن زيد بن أبي الزرقا بإسناد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « «نعم القوم الأزد طيبة أفواههم ، فخرة أبدانهم ، تقية قلوبهم».

---

(١) العرب في الشام ـ باشميل حاشية ص ١٧٧ ـ ١٧٨

وبإسناد عن أبى قلابة قال : قال ﷺ : «الأزد لا يخيبون ولا يعلون هم منى وأنا منهم ، من لم يكن له أصل بالعرب فليلحق بالأزد فإنهم أصل العرب» .

وعن وكيع بن مسعود التيمي قال:حضرت معاوية بن أبي سفيان فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ : «الأمانة في الأزد وحضرموت فاستعينوا بهم».

وعن أنس بن مالك أنه حضره رجال من التغالبة ورجلان من الأزد ، فقال التميمي : يا أبا حمزة من ذانك الرجلان ؟ فقال من الأزد ، فقال التميمي نعم الحي الأزد ، إلا أنه لا سابقة لهم فقال أنس بن مالك وأي سابقة أفضل من الأنصار منهم ، ثم قال ادفعا عن قومكما أما والله لو كان ها هنا عبد الحميد بن محمود المعولي ، أو عبد الله بن فضايلة الزهري لدفعا عن قومهما .

وعن عبد الله بن إدريس عن يحيى بن صالح الليثي قال قدم على عثمان ابن عفان ، عفاف بن عرابة العبسي من مدحج وصريج ، وهما حيان باليمن مع جماعة في قومه ، ففرض لهم عثمان بن عفان العطاء وألحقهم بالشام ، وقال: مرحبا بكم سمعت رسول الله ﷺ يقول «الإيمان يمان ألا رحى الإيمان دائرة في قحطان ، والجفا والقسوة في ولد عدنان» ـ انتهى ـ أهل اليمن دعائم الإسلام وعمود الدين ومادة المسلمين . حمير رأس العرب ونابها ، وكندة لسانها وسنامها ، ومذحج هامتها وغلصمتها [١] والأزد جمجمتها وكاهلها وهمدان ذروتها وغاربها ، وكان يقال مازن أرباب الملوك ، وحمير أرباب العرب ، وكندة كندة الملوك ومذحج مذحج الطعان، وهمدان أحلاس الخيل، والأزد أسد البأس، وتسمى أيضا أسد الله وتسمى السنية [٢]

٢ ـ عمرو مزيقيا لقد غلب على الأزد توزع قبائلها وحملها هذا الاسم مع انتسابها لجد واحد ولعل شهرة الأزد جاءت بتفرقها بعد عمرو مزيقيا الجد ذي

---

(١)الغلصمة : رأس الحلقوم وهو الموضع الثاني من الحلق .

(٢)الأنساب ـ الصحاري ٢/ ٤٣ ـ ٤٤

الشهرة الكبيرة في أجداد الأوس والخزرج ، وبزمن عمرو مزيقيا هذا توزعت الأزد وابتعدت وأخذت لها مواطن غير موطنها الأصلى ، وبقى اسم «الأزد» يغلب على هذه القبائل قبل عمرو وبعده .

فلما كانت دولة عمرو مزيقيا منهم ـ من الأزد ـ ضرب بين الجبلين سدا بالصخر والقار يحبس سيول العيون والأمطار حتى يعرفوه من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم ، ومكث كذلك ما شاء الله أيام حمير ، فلما تقلص ملكهم وانحل نظام دولتهم ، وتغلبت بادية كهلان على أرض سبأ ، وانطلقت عليها الأيدي بالعبث والفساد ، وذهبت الحفظة القائمون بأمر السد أنذروا بخرابه .... وكان الذي أنذر به عمرو مزيقيا ملكهم لما رأى من اختلال أحواله ، وذلك أنه رأى جزءاً تحفر في السد ... فعلم أن لا بقاء للسد مع ذلك ، فأجمع النقلة من اليمن ، وكاد قومه بأن أمر أصغر بنيه أن يلطمه إذا أغلظ له ففعل ... فقال : لا أقيم في بلد يلطمنى فيه أصغر ولدى ، وعرض أمواله فقال أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا أمواله وانتقل مع ولده وولد ولده فقال الأزد ، لا نخلف عن عمرو ، ثم أجمعوا على الرحلة ، وباعوا أموالهم وخرجوا معه .

وكان رؤساءهم حينئذ بنو عمرو مزيقيا ومن إليهم من بنى مازن بن أزد ، وبنو عمرو قبيلة من بني مازن لأن عمرًا هو ابن عامر ويلقب بماء السماء ، ابن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس البهلول بن ثعلبة بن مازن بن الأزد [(١)]

وعمرو مزيقيا بنوه بطن من الأزد ، وكان ملك اليمن، وإنما سمي«مزيقيا» لما ذكر في القاموس من أنه كان كل يوم يلبس حلتين ويمزقهما بالعشى ، يكره العودة فيهما ويأنف أن يلبسهما غيره [(٢)]

---

(١) كتاب دائرة المعارف ـ البستاني ٣/ ٢٩٨ . العرب في الشام ـ باشميل ص ١٧٧

(٢) سبائك الذهب ـ القلقشندي ص ٦٤ . الروض الأنف ـ السهيلي ١/ ٢١ . جواد علي ـ تاريخ حاشية ٤٣٦ ، وتاج العروس ٧/ ٦٩

وينسب عمرو مزيقيا إلى عامر ماء السماء الذى خلف عمران الكاهن ولم يعقب ، وعمرو مزيقيا فولد عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف .

ذهل بن عمرو : وهو وائل وقع فى نجران ومنهم «الياء» أسقف نجران ووداعة ابن عمرو وحارثة بن عمرو ، وقيل من ولده خزاعة وبارق .

وجفنة بن عمرو : من ولده آل جفنة والحارث المحرق .

وثعلبة العنقاء بن عمرو : من ولده الأوس والخزرج .

وأبو حارثة بن عمرو ، ومالك بن عمرو ، وكعب بن عمرو ، وشربوا كلهم من ماء غسان فكل ولد عمرو بن عامر يدعون غسان أبا حارثة ، وثعلبة العنقاء ووداعة وذهل فليسوا غسان ، ولم يشربوا من ذلك الماء .

فغسان : هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بنو عمرو مزيقياء فقط(١)

وذكر المسعودي أن الملك عمرو مزيقيا لم يزل مقيما على ماء غسان إلى أن أدركه الموت وكان عمره ثمانمائة سنة ، أربعمائة سوقة (أي عامة الناس) وأربعمائة (ملكا) والذين سموا (غسان) من بني أبي الملوك (مزيقيا عمرو ابن عامر) هم : الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا ، والحارث وعوف وكعب ومالك بنو عمرو مزيقيا والقوم وعدي ابنا حارثة بن ثعلبة(٢)

وقال محمد بن سائب الكلبي أن عمرو مزيقيا سمي كذلك حين مزقهم الله ـ ﷻ ـ وهو قوله تعالى : ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:١٩] (٣)

وقد فرق الله أبناء عمرو مزيقيا ـ فرقهم سيل العرم ـ الذى ذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه،وخرجوا من خبتي مأرب يسيرون فى الأرض وكافة قوم الأزد،وكان كل فرقة

---

(١) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ١/ ٣٣١

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ٢/ ١٩١ . العرب فى الشام ـ باشميل ص ١٧٩

(٣) الأنساب ـ الصحاري ٢ / ٥٣ .

منهم دخلت أرضًا وبلادًا ملكها أولاد جفنة ملوك الشام، وهم رهط الملوك، وآل العنقاء وآل محرق وفيهم يقول حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

تسود ذرى المال القليل إذا بدت ... مروءة من فينا وإن كان معدما

وإنا لنقري الضيف إن جاء طارقا ... من المال ما أمسى صحيحا مسلما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق ... فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا عما[1]

وفى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)﴾ [سبأ][2]

ويورد صاحب الأنساب[3] في مجال هذه الآيات قصة سيل العرم كاملة ابتداء من بناء السد حتى انهياره، وتفرق الأزد في أنحاء الجزيرة، وبطل هذه القصة كلها عمرو مزيقيا وقد تدرج فى الحديث من سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان بن هود الذى عرفت سبأ باسمه، وانتشار ولده وكثرتهم، وسبب تسميته بسبأ هو؛ لأنه أول من سبأ الأمم وهو سبأ الأكبر بن يعرب بن قحطان وتفرق أولاده وقبائلهم في اليمن.

---

(١) الأنساب ـ الصحاري ٢/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) صفوة البيان ـ مخلوف ص ٥٤٣. تفسير النسفي ٣/ ٩٢ فما بعد. الظلال ـ سيد قطب ٥/ ٢٩٠٠ مجمع البيان ٣٨٦. تفسير القرآن الكريم ـ ابن كثير ٣/ ٥٣٨

(٣) الأنساب ـ الصحاري ٢/ ١٨١ ـ ٢٠٦ الروض الأنف ـ السهيلي ١/ ٢٥

وينتقل الحديث من سبأ إلى مأرب حيث أقيم السد المشهور في تاريخ العرب والذي ما زالت آثاره قائمة وقد جدد حديثا في نهاية عام ١٩٨٦م على نفقة رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ، ويذكر المؤلف المواد التي بنى بها السد ، والنعيم الذي أصاب القوم بإيمانهم والرخاء والجنان التي حفت أرضهم ، كما يصف الله ـ تعالى ـ حال هذه القرى والأماكن إضافة إلى الأمان والسلام والنعيم الذي أصاب هؤلاء القوم .

وأرسل الله ـ تعالى ـ لهم رسلًا يدعونهم إلى الشكر والمغفرة لما بين أيديهم من نعيم فكفروا بأنعم الله ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . وكان إعراضهم عن توحيد الله تعالى سببا ونذيرا لهم ، وخراب جناتهم وسدهم وكان قد أنذرهم عمران بن عامر من الأزد من قحطان ، وكان كاهنا عنده علم ، وقد رأي في كهانته خراب بلده إن لم يرجع أهلها إلى التوحيد ، فلما حضرته الوفاة دعا أخاه عمرًا وهو مزيقيا بن عامر ماء السماء وأخبره بهلاك القوم وأوصاه أن يتزوج بنت سعد ، وكانت امرأة من أهل رومان من حمير ، وكان عندها علم من كهانتهم وعلم هلكتهم مثل ما عنده ، وتبدأ قصة عمرو مزيقيا مع الكاهنة طريفة بقصة يغلب عليها الخيال والأحلام وخاصة ورود عدد من الأحلام التي تنبيء بخراب السد . ثم الوصول إلى فكرة الهجرة من حول السد إلى مناطق أخرى ، والبحث عن سبب يجعل القارئ يقتنع بهذا الرأي ، وهو تآمر عمرو مزيقيا مع أولاده على أن يضربه أحدهم ، أو أحد ربائبه وكان هو على القوم وملك بني حمير من الأزد وذلك في يوم عيد وفرحة ، ولا يتقدم أحد لأخذ شرف ملكهم .

فيبدأ ببيع أملاكه وتوزيع أمواله ، والاستعداد للرحيل مع أهله وأولاده . وكانوا كثيراً كما ذكرنا ، فرحل معهم ورافقه في رحلته مالك بن فهم الأزدي ، ولم يلبث القوم إلا قليلا بعد مسيرهم حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله ، وجاء سيل العرم

الذي يصفه المؤلف قريبا من طوفان نوح عليه السلام إلا أن سيل العرم كان يحمل ماء محمرا وحجارة هائلة وجرفًا كبيرا

ومضى عمرو مزيقيا في رحلته ما ناسة وأغنامه وإبله وخيله وسلاحه وسوامه ، ولا ينزلون بلدا إلا وطنوه وغلبوا أهله عليه وقحطوه وأجدبوه ، واستباحوا بلاد عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن الغوث وملك عك يومئذ «سلقمة».

ومات عمرو مزيقيا في بلاد عك ، وتولى الأمر بعده ابنه ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء .

وذهب روادهم في البلاد يجوبونها ويأتون بخبرها ، وخاضوا حروبًا في رحلتهم لم تنته والغالب أن كل هذه الحروب كانت لصالحهم ، وكان يتخلف منهم بعد كل معركة فخذ من أفخاذهم ويرحل الباقون ، وإنهم خرجوا لاستعمار الأرض وطرد أهلها أو غلبتهم ، وتأمين قسم منهم في تلك الأرضين إلى أن وصلت جحافلهم إلى مكة المكرمة ، وكانت مع جرهم غلبوا عليها العمالبق ، وحازوا ولاية البيت على بني إسماعيل وغيرهم ، ويورد المؤلف المراسلات التي جرت بينهم وبين خزاعة ، إلا أن الأمر انتهي بدخول أبناء عمرو مزيقيا إلى مكة وقهر جرهم .

وكان ثعلبة بن عمرو ينتظر رسله الذين أرسلوا في طول الجزيرة وعرضها ليعلم في أي موضع سيؤول الأمر بهذا الزحف الكبير .

وأقام أبناء عمرو في مكة فأصابتهم الحمى ، وما كانوا يعرفونها ، واستشاروا كاهنتهم طريفة ، فأخبرتهم بأنه أصابهم ما أصابهم ، وأنهم لابد متفرقون ووزعوا على النحو التالي .

قالت طريفة من كان فيكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ، وزاد عتيد ، فليلحق بقصر عُمان المشيد أزد عُمان ، وكان أول من قدمها منهم مالك بن نهم وولده ومن كان منكم ذا هم متقاصر ، وحمل نافر ، فليلحق بالشعب من كاود وذات الجماعة وكادو من أرض همدان ، فخرج وداعة بن عمرو بن عامر فلحق بهمدان فانتشر هو

ومن لحق بهم ثم قالت ومن كان منكم ذا هم مدمن ، وحمل مدعن فليلحق بالثني من سن وهو موضع بالسراة وكانت أزد السراة.ومن كان منكم ذا جلد قسر، على أزمات الدهر فعليه بالأراك من بطن مرو وكانت خزاعة . ثم قالت : من كان يريد منكم بريد الدسيات في الوصل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل وكان الأوس والخزرج .

ومن كان منكم يرد الخمر والخمير ، والملك والتأمير ، ويلبس الديباج والحرير فليلحق ببصري وغوير ، وهما من أرض الشام ، وكان الذي سكنها آل جفنة من غسان .

ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، والكنوز والأوراق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق ، وكان الذي سكنوها جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة من آل غسان ، وآل محرق ، فمكثوا حتى جاءهم مرادهم فافترقوا في مكة فرقتين ، فرقة توجهت إلى عمان وهم أزد عمان ، وسار ثعلبة نحو الشام ونزلت الأوس والخزرج ابنا حارثة بن عمرو مزيقيا بن عامر وهم الأنصار بالمدينة وانخزعت خزاعة عن قومهم بمكة ولذلك سموا خزاعة .

وأقام بها حارثة وهو خزاعة بن عمرو فولى أمر مكة وحجابة الكعبة ، وولد له ربيعة وهو الملقب «لحي» وأقصي ، وكعب ، وعدي ، ثم ولى من بعده ، أمر مكة وسدانة البيت ابن ربيعة لحي وابن لحي عمرو «عمرو بن لحي» وهو الذي جلب الأصنام إلى الكعبة من الشام .

واصطدمت غسان على مشارف الشام مع ضجعم وقومه فهزموهم ، ووقعت هدنة مع الروم ما لبثت أن انتهت ، واقتتل الغساسنة والروم ، وثبت الغساسنة وولوا ملكا عليهم «جفنة بن عمرو بن عامر» وبنى أحد عشر أطما وبقوا ملوكا حتى ظهر الإسلام وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم،قال حسان ابن ثابت يذكر انخزاع خزاعة بمكة ومسير الأوس والخزرج إلى المدينة وغسان إلى الشام :

فلما هبطنا بطن مرو تخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر

حموا كل واد من تهامة واحتموا بضم القنا والمرهفات البواتر

فكان لها المرباغ في كل غارة تشن بنجد والعجاج الغواير

خزاعتنا أهل اجتهاد وهجرة وأنصارنا جند النبي المهاجر

وسرنا فلما هبطنا بيثرب بلا وهن منا ولا بتشاجر

وجدنا بها رزقاً غدا أمر تفينت من النار غاد بالهلال الظواهر

فحلت بها الأنصار ثم تبوأت بيثربها الأعلى وخير طائر

بنو الخزرج الأخيار والأوس أنهم حموها بفتيان صباح مساعر

نفوا من طغى في الدهر منها ودينوا يهودا بأطراف الرياح الخواطر

سارت لنا سيارة ذات قوة بكوم المطايا والخيول الجماهر

يسعون نحو الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر

يصبون فصل القول في كل خطبة إذا أصلوا إيمانهم بالمحاصر

لولاك بنو ماء السماء توارثوا دمشقا بملك كابر بعد كابر

وهكذا انتهت الأزد أبناء عمرو مزيقيا من التوزع والتمزق في كل صقع من الجزيرة العربية حتى أن القلقشندى أوصل «الكرد» بالكرد بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء «والكرد بالضم جبل معروف» الجمع أكراد وكرد هذا ابن عمرو مزيقيا (قاله في القاموس)[١]

ويتابع مؤلف الأنساب[٢] ذكر مواطن أبناء عمرو ورحيلهم ومما يهم في هذا المقام

(١) سبائك الذهب ـ القلقشندي ص ٦٤

(٢) الأنساب ـ الصحاري ٢/ ٢٠٢ فما بعد.

قوله ثم ظعنت عنهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو بن عامر فنزلوا يثرب ، فلما أكرمهم الله ـ تعالى ـ بنصر نبيهم محمد ﷺ سماهم الله أنصارًا فصار اسما ونسبا .

وأقام مع الأوس والخزرج ابنا حارثة آل المحرق ، وهم رهط الفطيون عامر ابن عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو الحارث المحرق بن عمرو بن عامر فنزلوا معهم يثرب ، وأقام أيضًا مع الأوس والخزرج ابنا حارثة بن الأصم بن ثعلبة بن جفنة وهو الحارث بن عامر ، ومضى الباقون إلى الشام فنزلوا أذرعات وقرن الثنية من أرض دمشق منهم غسان ، وغسان نحو الشام .

٤ـ الأوس والخزرج :

الأوس والخزرج: اسما طائر من سباع الطير شبها بهما لبأسهما ونجدتهما

والأوس والخزرج : ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن زاد الركب وهو غسان أبو الملوك ابن الأزد ، وعنها تفرعت بطون الأنصار والخزرج وبطون الأوس ورجالها [١]

وهما هذان الحيان اللذان يعرفان بالأنصار ، أمهما قيلة بنت الأرقم ابن سلمة بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ، وعن ابن السكيت في روايته أنها قبلة بنت الأرقم بن سلمة بن عمرو بن جفنة بن عوف بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا ، وأختها (مارية) ذات القرطين ، وقال بعضهم : إن مارية أخت ظالم بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث الأصغر ابن معاوية الأكبر بن كندة .

وأختها (هند الهنود) امرأة حجر آكل المرار ملك كندة ، وقال بعضهم من أهل النسب إن أم الأوس والخزرج هي قبلة بنت كاهل بن عمرو بن سود بن أسلم بن

---

(١) الأنساب ـ الصحارى ٢/ ٦١ . الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٠ . أيام العرب فى الجاهلية ـ جاد المولى ص ٦٢ . السيرة الحلبية ـ على الحلبى ٢/ ٦ وص ١٠ و ١٨ من هذا الكتاب .

الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير[(١)] وفي اللسان[(٢)]

أوس: العَطِيَّة . أُسْتُ القوم . أؤوسهم أوسا إذا أعطيتهم وكذلك إذا عوضتهم من شيء .

والأوس : العوض أسته ، أؤوسه أوسا أعوضه عوضًا . وقال الجعدي :

لبست أناسا فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإلهُ هو المستاسا

أي المستعاض. وفي حديث قيلة ، رب أسنى لما أمضيت : أي عوضني .

والأوس : العوضُ والعطية[(٣)]

والخزرج : الخزرج من نعت الريح ـ ابن سيدة .

الخزرج : ريح الجنوب ، وقيل : هي الريح الباردة . قال أبو ذئب :

غدون عُجالي وانتحتهن خزرج مقفية آثارهن هدوج

وقيل : وهي الشديدة ، قال الفراء : خزرج : هي الجنوب غير مجراة .

والخزرج : اسم رجل .

والخزرج : قبيلة الأنصار . وقال غيره : قبيلة الأنصار هي الأوس والخزرج ابنا قيلة وهي أمهما نسبا إليها ، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن .

قال ابن الأعرابي: الخزرج : ريح الجنوب ، وبه سميت قبيلة الخزرج وهي أنفع من الشمال[(٤)]

---

(١) الأنساب ـ الصحاري ٢ / ٦١ . وردت «قيلة» في جميع المراجع، إلا فى الأنساب فقد وردت «قبلة»
(٢) لسان العرب ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠ . أساس البلاغة ـ الزمخشرى ص ٢٤ كلمة «أوس»
(٣) ترتيب القاموس ـ ١/ ١٩٦ . تهذيب الصحاح ١/ ٣٦٦ مادة (أوس) .
(٤) لسان العرب : ابن منظور ١/ ٨٢٤ تحقيق عبد الله العلايلي .

خ زرج : الخزرج: ريح ، أو الجنوب ، والأسد ، وقبيلة من الأنصار ، وخزرجت الشاة ، جمعت[١] . وعن الأوس .

ويروى: رب أثبني: من الثواب ، واستآسني فأسته : طلب إلى العوض واستآسه أي استعاضه ، والإياس : العوض .

والأوس : الذئبُ ، وبه سمي الرجل ((ابن سيدة)) وأوس الذئب معرفة قال :

ما لقينا بالفلاة أوسا اسهما لم أدع إلا وقوسا وما عدمت جرأة وكيسا

أصبت فيهم نجدة وأنسا ولو دعوت عامرا وعبسا

أبو عبيد : يقال للذئب : هذه أوس عاديا وأنشد :

كما خامرت في حضنها أم عامر لدى الحبل حتى غال أوس عيالها

يعني أكل جزاءها ، ومنها أويس اسم الذئب ، جاء مصغراً مثل الكميت واللجين .

قال الهذلي :

يا ليت شعري عنك والأمر أمم ما فعل اليوم أويسُ في الغنم

وأويس تصغير أوس وهو الذئب .

وأوس قبيلة من اليمن ، واشتقاقه من «آس» يؤوس أوسا ، والاسم الإياس وهو من العوض وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج ، منهما الأنصار وقيلة أمهما[٢]

ابن سيدة وأوس من أنصار النبي ﷺ كما يقال لأبيهم : «الأوس» فكأنك إذا قلت الأوس وأنت تعني تلك القبيلة إنما تريد الأوسيين ، وأوس اللات ، رجل منهم أعقب ، فله عداد يقال لهم : أوس الله محوّل عن اللآت .

---

(١) ترتيب القاموس ٢/ ٤٨

(٢) أساس البلاغة ـ الزمخشري ص ٢٤ كلمة أوس .

قال ثعلب : إنما قل عدد الأوس في بدر وأحد ، وكثرتهم الخزرج لتخلف أوس الله عن الإسلام: قال وجدت سليمان بن سالم الأنصاري قال : تخلف عن الإسلام أوس الله ، فجاءت الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا في أصحابنا هؤلاء الذين تخلفوا عن الإسلام ، فقالت الأوس لأوس الله : إن الخزرج تريد أن تثأر منكم يوم بعاث وقد استأذنوا فيكم رسول الله ﷺ فأسلموا وهم أمية ، وخطمة ، ووائل .

أما تسميتهم الرجل أوسا فإنه يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون مصدر« أُسْتُه» أي أعْطَيْتُهُ ، كما سموه عطاء وعطية ، والآخر أن يكون سمي به كما سموه ذئبا وكنوه (أبو ذؤيب) .

والأوس بنو الأوس بطن مزيقيا والأزد وهم أحد قبيلتي الأنصار الأوس والخزرج . وكان للأوس من الولد مالك ومنه جميع عقبه وهو أخو الخزرج ، وكان لهم ملك يثرب ، نزلوها عند خروجهم من اليمن ، وجاء الإسلام وهم بها فكانوا أنصار النبي ﷺ ، وأعقابهم كثيرة متفرقون في المشرق وفي المغرب[١]

والخزرج : فبنو الخزرج بطن من بني مزيقيا بن الأزد ، غلب عليهم الاسم اسم أبيهم فقيل لهم الخزرج وهم المراد بالخزرج عند الإطلاق ، وهم إحدى قبيلتي الأنصار أخوة الأوس ، ويقال لبني الأوس والخزرج بنو أبيرق بطن من الأنصار ذكرهم ابن عبد البر في الاستيعاب ولم يبين هل هم من الأوس أو من الخزرج[٢]

وأيا ما كان الأمر فإن الإخباريين يذهبون إلى أن الأوس[٣] والخزرج أخوان فهما أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا الذي ينتهي نسبه إلى يعرب ابن قحطان ، ولكن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى أمهم «قيلة بنت الأرقم» ولهذا كانوا يدعون أبناء

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠ بتصرف .

(٢) سبائك الذهب ـ القلقشندي ص ٦٩

(٣) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لجملة «أوس» مناة وهو صنم جاهلي . جواد علي ٤/ ١٣٥

قيلة مما يدل على أن هذه المرأة إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة دفعتهم إلى الانتساب إليها[١]

يقول قائل:

بها ليل من أولاد قيلة لم يجد   عليهم خليط من مخالطة عتبا

مطاعيم في القرى مطاعين في الوغي   يرون عليهم فعل آبائهم نحبا[٢]

وذكر رزين عن الشرقى عقب ما تقدم من أن الأنصار أصلهم الأوس والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو فقال فولد لثعلبة بن عمرو بن حارثة الأوس والخزرج ، وأمهما قيلة فولد الأوس مالكا ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم «أوس الله» وهم الجعادرة وذلك لقصر فيهم[٣]

خزرج وأوس أخوان أبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء .... إلخ وكان منهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب تذكران غالبا معا فيقال:الأوس والخزرج، لكن غلب اسم الخزرج وسميا أيضا الأنصار ؛ لأنهم أول من قام بنصرة النبي ﷺ وساعدوه في حروبه وألجؤوه إلى أرضهم وأما أولية أمرهم فقد ذكر أهل السير أنه لما خرج مزيقيا من اليمن بعد غرق أهل سبأ بسيل العرم ملك غسان بالشام ثم هلك ، وملك ابنه ثعلبة العنقاء ولما هلك ملك بعد عمرو ابن أخيه جفنة ، فقام ابنه حارثة وأجمع الرحلة على يثرب ، ونزل إلى يهود خيبر وسألهم الحلف والجوار على الأمان فأعطوه من ذلك ما سأل ، وقيل : لما سار ثعلبة بن عامر فيمن معه اجتازوا يثرب فتخلف بها الأوس والخزرج ابنا حارثة فيمن معهما ، فنزل بعضهم بضرار ، وبعضهم بالقرى مع أهلها[٤]

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٨٥ ـ مع الحاشية بنفس الصفحة ، دائرة المعارف ـ بطرس البستانى ٤/ ٦٤٧ مادة «أوس».

(٢) نحبا : والنحب بالفتح النذر . أراد أنهم يرون الاقتداء بآبائهم نذرا يجب الوفاء به .

(٣) وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٦ . دائرة المعارف ـ بطرس البستاني ٤/ ٦٤٧ مادة أوس .

(٤) دائرة المعارف ـ البستاني ٧/ ٣٧٤

الأوس بطن عظيم من العرب القحطانية، وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو[(١)] وهم أهل عز ومنعة فيهم عدة أفخاذ، منهم عوف بن مالك بن الأوس، وبنو ضبيعة وبنو عمرو بن عوف بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

كانت منازلهم بيثرب «المدينة» وتاريخهم كان الموطن الأصلي للأوس بلاد اليمن فهاجروا إلى يثرب وعاشوا مع الخزرج والقبائل اليهودية دامت عشرين سنة .

٥ ـ دياناتهم :

كانوا يعبدون في الجاهلية «مناة» أكبر آلهتهم ، وقد حدث قبيل الهجرة تجديد في الديانة الوثنية أدخله أبو عامر الراهب ، وقد يكون هذا التجديد ناشئا عن تأثير التوحد اليهودي خلال سنين كثيرة ، وقد قوى شأنه في الأوس وفي عمرو بن عوف ولكنه لم يستطع الثبات أمام قوة الإسلام[(٢)] وشهدت أوس الله أبا عامر حانقًا ، ثابتا في معاداته لمحمد ﷺ[(٣)]

الخزرج بن حارثة بطن من الأزد من القحطانية وهم بنو الخزرج بن حارثة ، كانوا يقطنون المدينة مع الأوس[(٤)]

«الأوس» قبيلة بالمدينة ، وهذا الاسم مختصر لأنه حذف منه اسم «إله» مضاف

---

(١) قال ابن الكلبي بالأصنام ص ١٤ وفى معجم البلدان ٤/ ٦٥٣ كانت العرب جميعا فى الجاهلية يسمون الأوس والخزرج . وصبح الأعشي ـ للقلقشندي ، وفى دائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٢٢٣ طبعة دار الشعب ، وقال الجوهري في الصحاح ١/ ٤٤٣ : أوس ابن قيلة أخو الخزرج .

(٢) معجم قبائل العرب ـ كحالة ١/ ٥٠ ـ ٥١ «حاشية» تاريخ أبي الفداء ١/ ١٠٧ ، الاشتقاق لابن دريد ص ٢٦٠ ، الأصنام ـ للكلبي ص١٤ . نهاية الأرب للقلقشندي ـ مخطوطة ت ٤٣ ـ ٢ . صبح الأعشي ـ القلقشندي ـ ٣١٩ ، شرح الحماسة للخطيب التبريزي ـ لسان العرب ـ ابن منظور ٢/ ٢٩٣ صفة جزيرة العرب ـ للهمذاني ٣١١ تاج العروس ـ للزبيدي ١/ ٦٠٤ خلاصة الوفا ـ السمهودي ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤. الصحاح ـ الجوهري ١/ ١٢٩، القاموس المحيط ـ الفيروزابادي. مجمع الأمثال ـ للميداني ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠ معجم البلدان ـ الحموي ١/ ٦٧٢ ، ٢/ ٢٢٦ ، معجم ما استعجم للبكري. الأغاني طبعة دار الكتب ٣/ ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٢ . وطبعة الساسي ج ٣/ ١١٦ ، ١٥ / ١٥٤ ـ ١٥٧ ج / ١٦/ ٩١٦ ٩٥ ـ ٩٦ . تاريخ اليهود فى بلاد العرب ـ ولفنسون .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٢٢٥

(٤) معجم قبائل العرب ـ كحالة ١/ ٣٤٢ ـ والحاشية رقم (١) أعلاه .

إليه الراجح أنه «مناة» فإن من الأوس بطنا تسمى «أوس مناة» ثم سميت بعد الإسلام «أوس الله» أما نسب القبيلة فهو أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر إلى الأزد إلخ ، ويقول العرب إن الأوس لم يسموا أنفسهم بني الحارث ، وإنما سموا أنفسهم بني «قيلة» نسبة إلى أمهم ، ولهذا القول ما يؤيده من الواقع ، ويقال أيضا : إن اسم الخزرج وهي بينها وبين الأوس صلة نسب قد يطلق في كثير من الأحيان فيشمل الأوس في مدلوله .

وكانت الأوس في الزمان القديم تنقسم إلى أفخاذ هم عمرو بن عوف،والنبيت، وجشم ، ومرة ، وامرئ القيس . ومن بقايا الأفخاذ الثلاث الأخيرة تكونت عشيرة جديدة أطلق عليها اسم القبيلة الكبرى (أوس الله) إلى أربع بطون «الخطمة» وهي: أقوى البطون ، وهم جشم الأولون وأمية ووائل ، وكانوا يسمون قبل ذلك مرة .

و«واقف» وهم في الحقيقة امرؤ القيس من قبل ، وفي فخذ النبيت بطن هو ظفر ، وكان يسمى أيضا كعب بن الخزرج[١] ، ومن ثم كان بعض الخزرج في الأوس وكانت الأوس يسكنون بلاداً واسعة تحيط بالخزرج من الشرق ومن الجنوب .

وكان الموطن الأصلي للأوس والخزرج بلاد اليمن[٢]

ويلاحظ أن الأوس والخزرج لا يدعون أنفسهم بأبناء (حارثة) ، وإنما يدعون أنفسهم بـ«بني قيلة»)) و«ابني قيلة» . ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة) أو (قيلة بنت هالك بن عذرة من قضاعة) أو (قيلة بنت كامل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف ابن قضاعة) .

ولابد أن يكون لهذه المرأة التي ينتسبون إليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الانتساب إليها وقد ورد أن (قيلة) اسم أم الأوس والخزرج وهي قديمة (اللسان ١١ / ٥٨٠ مادة قيلة طبعة دار صادر)[٣]

---

(١) معجم قبائل العرب ـ كحالة ١/ ٣٤٢

(٢) دائرة المعارف ٥ / ٢٢٣ ـ ٧٢٢٤ دار الشعب . القاموس الإسلامي ١/ ٢١٧

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ١٣٣

ويظهر من روايات الإخباريين أنه كان لقبيلة عذرة صلة بقريش فزعموا أن أم قصي بن كلاب تزوجت رجلا من بنى عذرة ، وأن أخاه من أمه (رازح) ابن ربيعة ابن حرام اشترك مع قريش في الدفاع عن الكعبة وفي طرد خزاعة منها وورد أيضا أنه كان لها صلة بالأوس والخزرج كذلك لأن أم القبيلتين وهي (قيلة بنت كاهل (كامل) كانت من هذه القبيلة[١]

الأوس: إحدى قبيلتين (الثانية الخزرج) كان يتألف منهما أهل المدينة (يثرب عند قيام الدعوة الإسلامية فعرفوا (بالأنصار) ينسب الأوس إلى جد جاهلى يدعى أوس بن حارثة كان يسكن بنوه في اليمن ، ثم تحولوا إلى المدينة ، وكان صنم الأوس في الجاهلية «مناة» [٢] . والخزرج : قبيلة عربية من أصل يمني ، هاجرت إلى المدينة واستقرت بها منذ القرن الخامس الميلادى ، والخزرج إحدى قبيلتين كانتا تسكنان المدينة (يثرب) عند ظهور الدعوة الإسلامية والثانية هي الأوس[٣]

الأوس في الأنصار ، الأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا ، وفي خزاعة: الأوس بن حارثة ، الخزرج في يشكر : الخزرج ، وفي الأنصار الخزرج ، وفي ثعلب الخزرج[٤] بنو الأوس بطن من مزيقياء ، من الأوس من القحطانية ، وهم بنو مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن مزيقياء . وكان للأوس من الولد (مالك) ومنه جميع عقبه وهم إحدى قبيلتى الأنصار والأوس هذا هو أخو الخزرج المقدم ذكره في الألف واللام مع الخاء المعجمة ، وكان لهم ملك يثرب أنزلوها عند خروجهم من اليمن ، وجاء الإسلام وهم بها وكانوا أنصار النبي ﷺ وأعقابهم كثيرون متفرقون في المشرق والمغرب ، منهم أبو لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصاري[٥]

(١) جواد علي ـ تاريخ ٣/ ٢٤٧ و ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣

(٢) القاموس الإسلامي ١/ ٢١٧ ـ ٢١٨

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٣٤

(٤) الإيناس ـ الصحاري ١/ ١٦ مادة أوس ومادة خزرج .

(٥) نهاية الأرب ـ القلقشندي .

و (بنو الخزرج) بطن من مزيقيا من الأزد ، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم : الخزرج وهم بنو الخزرج الأكبر بن حارثة بن ثعلبة بن مزيقياء .

والخزرج هؤلاء هم المراد بالخزرج عند الإطلاق ، وهم : إحدى قبيلتي الأنصار إخوة الأوس الآتي ذكرهم ، ويقال لكليهما (بني قيلة) [١] وكان للخزرج من الولد عمرو وعوف وجشم وكعب والحارث وكان لهم ملك يثرب قبل الإسلام مع إخوتها الأوس ، نزلوها عند خروج الأزد من اليمن (بنو الخزرج) أيضا بنو النبيت من الأوس من الأزد من القحطانية ، وهم بنو الخزرج بن عمرو ونسبهم متدرج مع الأوس [٢]

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن الأوس والخزرج ابنا قيلة لم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك ، وكتب إليهم تبع يدعوهم إلى طاعته ، فغزاهم تبع أبو كرب فكانوا يقاتلونه نهارا ويخرجون إليه العشاء ليلا ، فلما طال مكوثه ورأي كرمهم رحل عنهم .

ويرجع الإخباريون مجيء الأوس والخزرج إلى المدينة إلى حادث سيل العرم ، ويقولون: إنهم لما جاؤوا إلى يثرب وجدوا اليهود وقد تمكنوا منها فنزلوا في ضنك وشدة ودخلوا في حكم ملوك يهود إلى أيام ملكهم المسمى (الفطيون) [٣] الذي أقدموا على قتله بمساعدة إخوتهم الغساسنة كما سبق .

وينقسم الأوس إلى بطون منهم عوف والنبيت وجشم ومرة وامرؤ القيس ، وقد عرف بنو (مرة) بالجعادرة كذلك ، واتفقت جشم ومرة وامرؤ القيس وكونت حلفا بـ (أوس اللات) وبـ (أوس) كذلك وانقسمت هذه الكتلة إلى أربعة أقسام وهي فتحة وهي جشم في الأصل وأمية ووائل وهي مرة ، وواقف وهي امرؤ

---

(١) صبح الأعشي ـ القلقشندي ١/ ٣١٩ . نهاية الأرب ـ النويري ٢/ ٣١١ ، جمهرة أنساب العرب ابن حزم ٣١١ ـ ٣١٢ ـ نهاية الأرب ص ٥٢ .

(٢) نهاية الأرب ـ القلقشندي ص ٤٠٤

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٣

القيس وانقسمت هذه البطون إلى أفخاذ عديدة حصلت بينها منازعات وحروب ، ويرجع أهل الأخبار نسب أهل قباء إلى (عوف) ونسب النبيت إلى (عمرو) ونسب الجعادرة إلى (مرة) وقيل : إنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم: جعدر حيث شئت فأنت آمن . أي اذهب حيث شئت . ومنهم بنو كلفة ، وبنو حنش وبنو ضبيعة .

ومن الأوس (أحيحة بن الجلاح بن الحريس بن جحجبا) سيد الأوس في الجاهلية ، شاعر ، وكانت عنده (سلمى بنت عمرو البخارية) وأولاده منها اخوة عبد المطلب وهو من بني جحجبا،ومن ولده المنذر بن عقبة ابن أحيحة ابن الجلاح، شهد بدرا وقتل يوم بئر معونة ، وله أشعار ذكرها الرواة منها أبيات في رثاء ابن له .

وأما الخزرج فإنهم إخوة الأوس في عرف النسابين ، فالخزرج وهو جدهم هو شقيق الأوس ، يذكر نسبه في الأزد وقد جاء نسله كما جاء نسل الأوس من اليمن بعد حادث سيل العرم ، وسكنوا يثرب ، وإلى الشمال منها حتى خيبر وتيماء ، وتاريخهم مثل تاريخ الأوس في رأي الإخباريين يبدأ بالاتصال باليهود وبالعيش معهم وبينهم إلى أن تمكنوا منهم بعد الحادث الذي مر ذكره ، وبعد مجيء أبي جبيلة لنصرتهم .

والخزرج أيضا بطون أشهرها بنو النجار وينتسبون إلى (تيم الله بن ثعلبة) والحارث وجشم وعوف وكعب ، ويلاحظ أن جشما وعوفا هما بطنان من بطون الأوس[1]

ويذكر الإخباريون أنه كان للخزرج رئيس منهم هو « عمرو بن أطنابة » وقد ملك الحجاز ، وكان ملكه على رأيهم في أيام (النعمان بن المنذر) قتله الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر بن كلاب ، وكانت بينه وبين عمرو خصومة ، وذكر أن

---

(١) جواد علي- تاريخ ٤/ ١٣٥ فما بعد بتصرف . تاريخ العرب قبل الإسلام - سيد عبد العزيز ٣٤٤ - ٣٤٥ ، سبائك الذهب ص ٧١ الأوس جمهرة أنساب العرب ٤٧٠ - ٤٧٢ و ٣٤٦ فما بعد الأنساب - الصحاري ص ٦١ فما بعد.

عمرًا قال شعراً يهزأ فيه بالحارث جاء فيه:

أبلـغ الحـارث بـن ظـالم الـمُوعدَ والنـــاذر النـــذور علَيَّـــا
إنمــا تقتـــل النيـــام ولا تقتـــل يقظـــان ذا ســـلاح كميـــا[١]

والأنصار هم الأوس والخزرج الأوس الذئب والعطية أيضا ، والخزرج الرياح الباردة ولا أحسب الأوس في اللغة إلا العطية خاصة وهي مصدر (أسته) ، وما أوس الذي هو الذئب نعلم كاسم الرجل، وهو كقولك: أسامة في اسم الأسد، وليس أوس إذا أردت الذئب . كقولك : ذئب أسد ولو كان كذلك لجمع وعرف ، قال : كما يفعل بأسماء الأجناس ولقيل في الأنثى: «أوسة» كما يقال : ذئبة .

قال حسان بن ثابت الأنصاري :

أمــا سألــت فإنــا معــشرٌ نُجُــب الأُزد نَبْتَتـــنَا والمـــاء غـــســان
يــا أخــت آل فــراس إننــي رجــل مــن معــشر لهــم في المَجــد ثنيــان[٢]

ومن سادات الأوس عند ظهور الإسلام (سعد بن معاذ) الذي قتل يوم الخندق ، وأخوه عمرو بن معاذ وقتل يوم أحد وسماك بن عتيك فارسهم في الجاهلية ، وحضير الكتائب ، وكان سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث ، وابنه أسيد بن حضير شهد بدرًا، ومنهم (أبو الهيثم بن التيهان) وكان نقيبا شهد العقبة وبدرًا ، وقيس بن الخطيم بن عدى الشاعر ، وسعد بن خيثمة وكان نقيبا وقتل يوم بدر ، وأبو قيس بن الأسلت الشاعر ، وشاس بن قيس بن عبادة وكان من أشراف الأوس في الجاهلية .

ومن الخزرج ، أبو أيوب خالد بن زيد نزل عليه النبي ﷺ أيام قدم المدينة ، ونعيمان بن عمرو وكان النبي ﷺ يستخف (نعيمان) ، لم يلقه قط إلا ضحك إليه ، وأسعد الخير بن زرارة بن عدس شهد العقبة وكان نقيبا ، وأبو أنس بن صرمة

الشاعر وهو جاهلي وثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ ، وعمر بن الأطابنة الشاعر ، جاهلي وهو أحد فرسان الخزرج وسعد بن عبادة بن دليم وابنه قيس بن سعد بن عبادة وكان نقيباً سيداً جواداً وابنه قيس أجود أهل دهره في أيام معاوية ، ومنهم مالك بن العجلان قاتل (الفطيون) وابنه عثمان بن مالك بن العجلان شهد بدرًا ، وخالد بن قيس بن العجلان شهد بدرًا ، وعمرو بن النعمان بن كلدة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة رأس الخزرج يوم بعاث ، ورافع بن مالك بن العجلان وهو أول من أسلم من الأنصار والنعمان بن العجلان ومرداس بن مروان شهد يوم الحديبية وبايع تحت الشجرة ، وكان أمين النبي على سهمان خيبر ، وخشرم بن الحباب وكان حارس النبي ، والبراء بن معرور وهو عقبي[1] وكان نقيبا ، وهو أول من أوصى بثلث ماله ، وأول من استقبل القبلة وأول من دفن عليها وأبو قتادة فارس النبي ﷺ[2]

٦ـ علاقة الأوس والخزرج :

حكم علاقة الأوس والخزرج الكثير من العوامل الحياتية والقبلية والسياسية والخارجية واختلفت العلاقة بينهما حسب طغيان هذه الظروف وقوتها ، ومع أن هذه العلاقة لم تكن ثابتة بحال من الأحوال وانتهت كلها بصهر الأوس والخزرج بالإسلام ، وحملهم اسم الأنصار .

بدأت العلاقة باعتبارهم أحد بطون الأزد الذين ارتحلوا من اليمن ليستقروا في يثرب ، وبين هاتين الفترتين الارتحال والدخول في الإسلام تخلل العلاقة بينهما الكثير من التناقضات التي يحسن الوقوف عليها :

المرحلة الأولى ـ مرحلة التوحد :

مما سبق تبين أن الأوس والخزرج الذين اتجهوا إلى يثرب بعد خروجهم من اليمن وتوقفهم فترة في مكة كانا متحدين لتأمين مستقر لهما ولحياتيهما ، خاصة أنهم نزلوا

---

(١) نسبة إلى العقبة حيث بايع الأنصار رسول الله ﷺ .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٣٧ ـ ١٣٨ . دائرة المعارف ـ البستاني ٧/ ٢٧٥

قرب أناس مستقرين قبلهم في يثرب ، وقد اتخذوا الآطام والقلاع وأقاموا الحصون وعمروا الأرض ، واتخذوا شكلاً من الحكم يمنعهم من عدوهم هذا الحال جعل الوافدين الجدد الأوس والخزرج على وفاق وتحالف وقوة ، فهم ما زالوا قريبين مما يجمعهم في مثل هذا المجال إخوة وأبناء عمومة يتزاوجون من بعضهم ويختلفون ، ولم يكن هناك بعد أي انفصام بين انتسابهما لشدة تداخلهما والتحامهما.

وظل اليهود أصحاب يثرب وساداتها حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود فتغلبوا عليهم وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق يومئذ لليهود عليها سلطان[1]

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج إلى يثرب كان بعد سيل العرم جاؤوا إليها لفقر حالهم ، والتماسا لوطن صالح جديد ، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات ومن رزق شحيح ، أما المال والثروة والملك والجاه فلليهود بقوا على ذلك أمدا حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان وهو منهم إلى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئذ ونزل عنده شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك ، فوعده أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم يعلن أنه بناه لاستقبال الأمير فيه وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقباله والتشرف بزيارته في ذلك الحائر ، فإن فعلوه ، فتك بهم وأبادهم ، فلما تم البناء ، ووصل الأمير في الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم ، وتمت الغلبة يومئذ للأوس والخزرج وعاد أبو جبيلة إلى مقر مملكته[2]

ويظهر من هذه الرواية ومن الروايات المتكررة عن هذا الحادث أن الأوس

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٤ . الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٠١

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٩ . الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٠١

والخزرج قد قضوا فترة طويلة جدا في هوان وبداوة ، إذ إن قدومهم يثرب وذهاب الغساسنة إلى الشام كان في وقت واحد (القرن الثاني أو الثالث الميلادي) على الأرجح، وتمكن الغساسنة من إقامة ملك، والتغلب على أعدائهم وتشكيل الجيوش التي قادها أبو جبيلة الغساني لنجدة أبناء عمه، في الوقت الذي بقى الأوس والخزرج ضعفاء وتحت تصرف اليهود.يفعلون بهم ما يريدون.حتى تمكن مالك بن العجلان أن يحول الأمر للخزرج والأوس على اليهود ، ولما توزعت الأزد أبناء عمرو مزيقيا قيل ومن كان يريد الراسخات في الوجل المطعمات فيالمحل فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكان الذين نزلوها الأوس والخزرج ، فلما توجهوا إلى المدينة وردوها ، نزلوا في صرار ثم تفرقوا ، وكان منهم من لجأ إلى عفاء من أرض لا ساكن فيه فنزلوا به ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها فكانوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ، وليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ، لأن المدينة ليست بلاد نعم ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع وليس للرجل منهم إلا الاغداق اليسيرة المزروعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبثت الأوس والخزرج حتى وفد مالك بن العجلان إلى أبي جبيلة الغساني في الشام وكان من الأمر ما ذكر[١]

وقال أبو جبيلة للأوس والخزرج إن لم تغلبوا هذه البلاد بعد من قتلت من أشارف أهلها فلا خير فيكم ، ثم رحل إلى الشام .

فلما قتل مالك من يهود ما قتل ذلوا وقل امتناعهم ، وخافوا خوفا شديدا ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمض بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود لجؤوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم[٢] ولما كان سيل العرم خرجت الأزد من

---

(١) الأغاني - الأصبهاني .

(٢) الأغاني الأصبهاني ١٩ / ٩٧ . الكامل - ابن الأثير ١/ ٤٠٢

اليمن مع رؤسائهم إلى تهامة ، ثم هاجر إلى النواحي الشمالية منها ونزل الأوس والخزرج بضواحي المدينة ، ولم يكونوا حين نزلوا أهل نعم وشاء وخيل وأموال ، وإنما كان ذلك كله لليهود ، فعاشوا بين اليهود بالضواحي والقرى في شظف من العيش وهوان وإذلال من اليهود إذ حكموهم وتحكموا بهم وألزموهم أداء الخراج (١) وظلوا على هذا الحال مدة حتى وفد عليهم وافد منهم هو مالك بن العجلان الخزرجي إلى الغساسنة بالشام ونزل على أحد أشرافهم واسمه جبيلة ، واستجاره على اليهود فأجاره وجاء إلى المدينة وقتل عظماء اليهود ثم عاد إلى الشام بعد أن مكن للأوس والخزرج بالمدينة ، وظل الحيان على وفاق ووئام فترة طويلة من الزمن (٢)

وقد وردت بعض الأخبار على أن الأوس والخزرج قد جاوروا اليهود فسكن الأوس جنوب وشرق يثرب ، أما الخزرج فسكنوا في شمالها الغربي ، وجاوروا يهود بني قينقاع ووجد الأوس والخزرج أن السيادة في يثرب لليهود والأموال والآطام بأيديهم والعدة والقوة معهم فرغبوا في مسالمتهم وسألوهم أن يعقدوا معهم حلفا وقد أفاد عرب الأوس والخزرج من هذا الحلف وصار لهم مال وعدة (٣)

وعلى أي حال فلقد أقام الأوس والخزرج في المدينة، وربما لم يكونوا في أول الأمر يملكون من القوة وكثرة العدد بحيث يخشى اليهود بأسهم ، هذا ويبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التي اكتسبوها منذ فترة طويلة في مجال الزراعة والتجارة في مواطنهم القديمة في اليمن ومن ثم فقد كان الواحد منهم إما أن يعمل في مزارع اليهود ، وإما أن يستغل خبرته السابقة بالزراعة فيعمل في أرض لا تنتج الكثير من الغلات ؛ لأنها في غالب الأحايين إنما كانت أرضاً مواتاً تركها اليهود وفي كلا الحالين فقد كان القوم غير ميسر لهم في الرزق.

---

(١) هذا الرأي يتنافى والمرجح بأن الأوس والخزرج لم تؤد أتاوة لأحد .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية ـ جاد المولى ص ٦٣ ، وقد انفرد السهيلي (الروض الأنف ١/ ٣٥) بأن تبع جاء المدينة لإنصاف الأوس والخزرج بدلًا من أبي جبيلة ، ثم يعود لذكر أبي جبيلة الغساني ـ تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص ٥٣ ـ ٥٤ . دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٢٢٤

(٣) تاريخ العرب في الجاهلية ص ١٩١

وما أن يمضي حين من الدهر حتى استطاع أصحابنا الأوس والخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد حتى أن يهود بني النضير وقريظة أحسوا أنهم لو تركوهم على حالهم هذا فقد يشكلون في وقت قريب خطرا قد يهدد مصالح اليهود في المدينة ، وربما قد يهدد القوم أنفسهم ، ومن ثم فقد تنمروا لهم حتى قطعوا الحلف بينهم ، وأقامت الأوس والخزرج في ديارهم خائفين أن تجليهم يهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان من بني سالم بن عوف بن الخزرج فكان سببا في أن يسود الحيان الأوس والخزرج(١)

وورد في شعر ينسب إلى درهم بن زيد الأوسى ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج ، ووردت هذه الصحف ـ صحف اليهود والمواثيق ـ في شعر ينسب إلى قيس بن الخطيم(٢) وغالبا هذه العهود والصحف جاءت بعد الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها ، وهي بداية وجود الأوس والخزرج كقوة لها كيانها في يثرب وهي الفترة التي عملا بها متحدين حتى تغلبا على اليهود .

وقال ياقوت : إنهم لما ساروا من اليمن ، عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا نحو الحجاز وأقام ما بين الثعلبية إلى «ذي قار» وباسمه سميت الثعلبية فنزلها بأهله وولده ومن تبعه فأقام هناك يتبع مواقع القطر ، فلما كثر ولده ، وقوى ركنه سار بهم نحو المدينة وبها يهود فاستوطنوها ، فأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادي القرى ونزل أكثرهم بالمدينة(٣)

وروى الخرائطي أنه لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو الوفاة اجتمع به قومه فقالوا : قد حضر من أمر الله ما ترى ، وقد كنا نأمرك في شبابك أن تتزوج فتاة ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير (مالك) فقال :

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ٤٦٠ ـ ٤٦١

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٣٨٣

(٣) وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٢

لن يهلك هالك ترك مثل مالك ، إن الذي يخرج النار من الرنية ، قادر على أن يجعل لمالك نسلًا ، ورجالًا بسلا ، وكل إلى موت ، ثم أقبل على مالك فقال : أي بنى المنية ولا الدنية ، وذكر حكما سجع بها .... قال : ثم أنشأ يقول :

شهدت السبايا يوم آل محرق ... وأدرك عمري صيحة الله في الحجر

فلم أر ذا ملك من الناس واحد ... ولا شوقة إلا إلى الموت والقبر

فعل الذي أروى ثمودا وجرهما ... سيعقب لي نسلا على آخر الدهر

تغر بهم من آل عمرو بن عامر ... عيون لدي الراعي إلى طلب الوتر

فإن لم تكن الأيام أبلين جدتيي ... وشيبن رأسي والمشيب مع العمر

فإن لنا ربا علا فوق عرشه ... عليما بما يأتي من الخير والشر

ألم يأت قومي أن لله دعوة ... يفوز بها أهل السعادة والبر

إذا بعث المبعوث من آل غالب ... بمكة فيما بين زمزم والحجر

هنالك فابغوا نصرة ببلادكم ... بني عامرا إن السعادة في النصر

ثم قضى من ساعته .....

وقال ابن حزم : إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان: لم يكن منهم بالمدينة أحد ، فليسوا من الأنصار .

قال الشرقي وولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضا خمسة بنين ، وتفرقوا بطونا كثيرة . وهم : عمرو ، وعوف ، وجشم ، وكعب ، والحارث .

وقال ابن حزم إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج الأكبر وذكر أيضا أن بعض بني جفنة بن عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة في عداد الأنصار والله أعلم .

قال الشرقي: لما قدمت الأوس والخزرج المدينة تفرقوا في عاليتها وسافلتها

ومنهم من نزل مع قوم من بني إسرائيل في قراهم ، ومنهم من نزل وحده مع بني إسرائيل ، وكانوا نيفا على عشرين قبيلة ولهم قرى أعدوا الآطام ، فنزلت الأوس والخزرج بينهم وحواليهم[١]

مما تقدم تبين لنا أن علاقة الأوس والخزرج في بداية قدومهم إلى المدينة كانت على أحسن الوجوه وأقواها متحدين ، متعاونين في وجه التحديات التي تقف أمامهم منها قحط الأرض،وشظف العيش الذي جعلهم يتحولون إلى نوع من حياة البداوة والتنقل بعد أن كانوا أبناء ملوك متحضرين في اليمن ، حتى وأثناء رحلتهم الطويلة التي ساروا بها حتى استقروا بيثرب .

والشيء الثاني الذي جعلهم في هذا الوفاق والألفة عدوهم من اليهود الذين كانوا يملكون الآطام والحصون ، والأرض الزراعية والنخل ، فلم يشر الإخباريون والمؤرخون إلى قضايا ربما تؤثر في هذه العلاقة ، ومع وثنيتهم التي كانوا عليها كبقية العرب إلا أنهم قطعوا فترة زمنية طويلة نسبيا في هذه الحياة التي ألفوها ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى حياة أخرى يجدون فيها النعيم والرخاء والاستقرار ، وهذا لابد من تضافر كل الجهود إلى تحقيقه .

ومع أنهم قضوا فترة من الذل والهوان أمام اليهود حتى أن قصة (الفطيون) اليهودي التي تتكرر في كل مرحلة من مراحل الأخبار ، والتي نقضها صاحب كتاب دراسات في تاريخ العرب القديم وناقشها بإفاضة[٢] مبينا حجج المؤيدين لتلك الرواية والمعارضين لها . وقد ورد ذكرها فيما سبق ، كما أن العامل الإقتصادى قد لعب دورا مهماً فيما آلت إليه الأمور فيما بعد ، وتقدم لنا المصادر العربية ما يشير إلى أن العربِ في المدينة قد قبلوا الحياة القاسية في أول الأمر لأنهم ما كانوا بقادرين على مجابهة اليهود ، فلما اشتد ساعدهم ، وقويت شوكتهم سرعان ما تطلعوا إلى

(١) وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٨

(٢) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٦١ فما بعد .

وضع اقتصادي أفضل عن طريق مشاركة اليهود في تلك الأرض الخصبة أو مخالصتهم عليها .

وهناك رواية تذهب إلى أن عمران بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة إن أباكم أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل أو قتل رهنهم[1]

وهذا يدل على أن رغبة الأوس والخزرج كانت دائمة التطلع إلى ما تحت أيدي اليهود من الخير والأرض ، فجعل العلاقة بينهم علاقة تعارف وتناصر ، وعمل جماعي إلى أن تم لهم النصرة على اليهود كما سيرد تفصيله تحت خبره .

وملكوا يثرب وحكموها ، وحولوا اليهود إلى درجة ثانية من الحياة ، مع أنهم لم يخرجوهم أو يطردوهم بل استمروا في حياتهم كالمعتاد إلا أن شيئا قد حصل بين الأوس والخزرج حولهم إلى حياة العصبية والقبلية ، والحروب التي لم تنته حتى جاء الإسلام .

المرحلة الثانية ـ مرحلة الخلاف والحروب :

ولما استقر الأوس والخزرج في يثرب استطاعوا أن ينتزعوا من يهودها عددا من الحصون ، ثم ابتنوا حصونا أخرى وعبر زمن كثر الأوس والخزرج في أثنائه فجعلوا يقاومون النفوذ اليهودي ، وقد جمعت العصبية بينهم وبين أهل يثرب من عرب الشمال عندئذ أخذ النفوذ اليهودي يتقلص عن الحياة السياسية والحياة الاجتماعية في يثرب وأخذ نفوذ الأوس والخزرج يقوى ، حتى أصبحت يثرب وكأنها بلد الأوس والخزرج لا يذكر سائر سكانها معهم إلا مجازا.

ولكن في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد بدأ النزاع بين الأوس والخزرج أنفسهم في سبيل التفرد بالنفوذ السياسي في يثرب ، وبدأت بين القوم أيام

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ص ٤٧٥

كأيام العرب كانت تعرف باسم أيام الأوس والخزرج(١)

بعد أن آلت السيادة إلى الأوس والخزرج في يثرب وعزوا بها ، لم يلبث أن دب بينهم الخلاف والشقاق للاستئثار بهذه السيادة ، وكان الخزرج أطول باعا من الأوس بحكم عددهم وكان من أبرزهم بنو سالم قوم الشاعر مالك بن العجلان ، وبنو النجار قوم الشاعر حسان بن ثابت ، وبنو الحارث قوم الشاعر عمرو بن امرئ القيس ، وبنو ثعلبة قوم الشاعر عبد الله بن رواحة كما كان من أبرزهم بنو سلمة وبنو بياضة .

وكان من أبرز الأوس بنو جحجبي قوم الشاعر أحيحة بن الجلاح ، وبنو ظفر قوم الشاعر قيس بن الخطيم ، وبنو عمرو بن عوف قوم الشاعر درهم بن زيد ، وبنو وائل قوم الشاعر أبي قيس بن الأسلت كما كان من أبرزهم بنو عبد الأشهل وبنو خطمة(٢)

إلا أن عاملين حديا بهذا الوفاق أن يهتز ، بل وينقض وهما :

١ـ مكائد اليهود الذين لم يتركوا الأمر دون أن يتأثروا لما أصابهم على يد مالك بن العجلان وحلفائه .

٢ـ العصبية القبلية التي استطاع اليهود أن يجدوا منها منفذا سهلا للوقيعة بين الأوس والخزرج ، مما حولهم من أخوة وأبناء عمومة وعشيرة متحدة إلى أعداء أخوين يقتتلون في الصباح ويتصالحون في المساء ، وعندما جاء الإسلام أمحى هذه العصبية وهذه العداوة إلى الأبد فقد أصبحوا الأنصار .

٧ـ أيام الأوس والخزرج :

عرفت الحروب التي خاضتها الأوس والخزرج من أيام العرب بأيام الأوس والخزرج ، نقف على المهم منها ، وقبل الخوض في التفاصيل نشير إشارة سريعة إلى

---

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ١١٧

(٢) المدينة ـ الخطراوي ص ٦٧

معنى هذه الأيام ولماذا سميت بذلك ... ؟ وعرفت في التاريخ بأيام العرب .

يقول ابن السكيت : العرب تقول : الأيام في معنى الوقائع ، يقال : هو عالم بأيام العرب «يريد وقائعها» وأنشد :

وقـــائع في مـــضر تـــسعة   وفي وائـــل كانـــت العـــاشرة

فقال : تسعة ، وكان ينبغى أن يقول: تسع ، لأن الوقيعة مؤنث ، ولأنه ذهب إلى الأيام .

وقال شمر: جاءت الأيام بمعنى الوقائع والنعم .

وقال: إنما خصوا الأيام دون الليالى في الوقائع ؛ لأن حروبهم كانت نهاراوإذا كانت ليلًا ذكروها كقوله :

ليلـــة العرقـــوب حتـــى غـــامرت   جعفـر يـدعى ورهـط ابـن شـكل[(١)]

وتسمى هذه الأيام والحروب غالبا بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم (عين أباغ) وكان بين المناذرة والغساسنة ، ومثل يوم (ذي قار) وكان بين بكر وفارس ويوم : (شعب جبلة) أو أسماء الذين كانوا سببًا باندلاعها[(٢)]

ولعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء والقتال ، حتى إنها أصبحت سنة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك فقد كان أكبر قانون عندهم والذي يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة . وهي شريعة تصطبغ بما يشبه الصبغة الوثنية ، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم أشهي ملذاتهم من الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم ولم يكن لأي من أفراد القبيلة الحق في نقض هذه الشريعة ولا الوقوف ضدها أو الخروج عليها فما هي إلا

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ١٢/ ٦٥١ مادة : يوم .

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ٦٥

أن يقتل أحد منهم ، فإذا سيوف العشيرة مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته تؤازرها في الأخذ بثأرها.

ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة العادية وتتوارث الثارات حتى يتداخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات ، والغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر ، إلا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعتبرونها سبة وعارا .

تبدأ هذه الحروب صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن فتصبح لها عدوى كعدوى الحرب لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون بنارها، بل يترامون فيها ترامي الفراش في النار، فهي أمنيتهم، ومبتغاهم، يقول زهير بن أبي سلمى:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم   طِوال الرماح لا ضعاف ولا عزل

فإن يقتلوا يشتفي بدمائهم   وكانوا قديما في مناياهم القتل

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياما ؛ لأنهم كانوا يتحاربون نهارا فإذا جهم الليل أوقفوا القتال حتى يخرج الصباح ، وأيامهم وحروبهم كثيرة وهي تدور في كتب التاريخ والأدب، ويقال: إن أبا عبيدة المتوفي سنة (٢١١) للهجرة صنف ـ في ألف يوم ومائتين منها ـ كتابًا اعتمد عليه من جاؤوا بعده ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وفيه طائفة كبيرة منها وألف فيها بعده كثيرون ، أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول من كتابه: (الفهرست) وفي كتاب (الأغاني للأصبهاني) و (شرح حماسة أبي تمام) للتبريزي منشورات كثيرة منها ، وعقد لها ابن عبد ربه في : (العقد الفريد) ، وابن الأثير في كتابه (الكامل:الجزء الأول) والنويري في (نهاية الأرب) فصولا طويلة،وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين في كتابه:(مجمع الأمثال)،

إذا تناول مائة واثنين وثلاثين يوما ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت فيها [1]

وأكثر أسباب هذه الأيام هو عسف حكام القبائل القوية في القبائل الضعيفة الخاضعة لهم بسبب الإتاوة التي كانوا يلحون في جبايتها غير مفكرين في الظرف والأوقات أو بسبب نزاع على ماء ومرعى، أو أخذ بثأر، أو محاولة للتخلص من حكم القبائل على القبيلة بظهور شخصية قوية فيها، وأمثال هذه من أسباب قد يكون بينها سبب تافه سخيف، يؤدي إلى إزعاج المتخاصمين بسبب النزاعات العاطفية التي تتغلب على القبائل في غالب الأحيان ـ على العقول [2]

وكان لقيام تلك الأيام بين القبائل العربية أسباب منها المعقول ومنها المرذول ومن ذلك الطمع والرغبة في السلب والنهب، ومنها الغضب للكرامة والشرف، ومنها ما يكون راجعا إلى الوشايات والوقيعة التي يقابلها الطرفان بالتسرع وعدم التأكد من صحتها، وربما كان السبب كثرة المفاخرات والملاحاة التي توغر الصدور وتثير الحفائظ، كما كان الثأر وحب الانتقام ورفع الضيم والتشبث بالحرية وحماية الجار من أبرز أسبابها الناجمة عما ذكرنا من أسباب [3]

هذه أيام من أيام عديدة أخرى ترد أسماؤها في كتب الأخبار والتاريخ، نرى أن أسبابها طبيعة البداوة، وفقر البادية، وحاجة الناس إلى الماء والمرعى، والاعتبارات الاجتماعية، وما شاكل ذلك من أسباب أدت إلى وقوع تلك الأيام، وقد علقت ذكراها بأذهان الرواة لأنها وقعت في عهد لم يكن بعيداً جداً عن الإسلام، وقد وقعت بالطبع مئات من هذه الأيام محيت أخبارها من ذاكرة حفظة الأخبار ورواتها لأنها وقعت بعيدة عن الإسلام، أو في أمكنة بعيدة [4]

(١) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ٦٢ ـ ٦٥ بتصرف . جواد علي ـ تاريخ ٥/ ٣٤٢ . تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص ٧٩ . المدينة ـ الخطراوي ص ١٤٨

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٥/ ٣٤٣

(٣) المدينة ـ الخطراوي ص ١٤٩ ـ ١٥٠

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٥/ ٣٤٣

وأيام العرب أو الأيام : هي الحروب والمناوشات التي وقعت بين القبائل بعضها مع بعض أو بين ملوك اليمن ، أو اليمن ، أو بين الفرس والعرب ، أو بين الملوك العرب والقبائل ، وهذه الأيام تؤلف في الواقع القسط الأكبر من علم الإخباريين بتاريخ الجاهلية ، ومادتها القصص التي تناقلها الناس عمن شاهدوها وحفظوها في صدورهم إلى أن كان التدوين فدون ، وهو مادة محبوبة تناولها الناس في الجاهلية والإسلام بلذة وشوق ، فكانت هي والشعر الجاهلى من أهم المجالس .

قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ : ما كنتم تتحدثون إذا خلوتم إلى مجالسكم؟ قال كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا ، وأهم أخبار الجاهلية هي هذه الأيام .

ومادة هذه الأيام عربية خالصة يتخللها شعر قيل بالمناسبة في تلك الأيام وصيانتها من النسيان لاضطرار الراوي والسامع للاطلاع على المناسبة التي قيلت فيها تلك الأشعار وعلى هذه المادة العربية اعتماد المؤرخ في تدوين تاريخ العرب في الجاهلية ، وتتبع التطورات التي حدثت قبل الإسلام[١]

هذه الحروب والمعارك ، كانت تقع عادة بين قبائل البادية ، وكانت تقع أيضا بين أهل القرى والمدن ، كما اتفق بين أيام الأوس والخزرج سكان يثرب ، وربما وقعت بين عرب الشمال ، وبين عرب الجنوب كما اتفق في يوم خزاري إذ كانت الحرب بين ربيعة ومذحج ، وقد تنشب المعارك بين عرب الشمال أنفسهم كما كانت الحال في حرب البسوس بين بكر وتغلب ، ثم حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وربما كانت بين عرب الجنوب أنفسهم ؛ كأيام الأوس والخزرج ، وربما اجتمعت قبائل من عرب الشمال وعرب الجنوب ، وحاربت قبائل من عرب الشمال معا كما اتفق في يوم مليحة ، وهنالك أيضاً يوم ذى قار الذي نشب بين العرب والفرس ، على أن الأسباب التي كانت باعثة على نشوب أيام العرب لم تكن دائما تافهة ، بل

(١) جواد علي ـ تاريخ ٥/ ٤٨٧

كانت في معظم الأحيان ترجع إلى بواعث اقتصادية كحرب البسوس ، فإن باعثها الصحيح أن كليب بن وائل قد حمى أراضي واسعة واستبعد بمراعيها ومائها ، ومنع عددًا من القبائل أن تستقى منها وترعى فيها

وقد تكون البواعث سياسية كما كان الحال في يثرب بين الأوس والخزرج ، فقد كان كل فريق منهم يرى أن يستأثر بحكم البلد .

وربما كانت البواعث أجنبية كما اتفق في يوم عين أباغ ويوم حليمة ، إذ كان النفوذ الفارسي وراء المناذرة ، وكان النفوذ الرومى وراء الغساسنة[١]

وبصدد التوسع في دراسة أيام الأوس والخزرج لارتباطها مباشرة بصلب دراستنا فإننا نقف أمام الأبيات التالية:

إذا القوم عدوا مجدهم وفعالهم ... وأيامهم عند التقاء المناسك

وجدت لنا فضلا يقر لنا به ... إذا ما فاخرنا كل باقٍ وهالك

هذه الأبيات لحسان بن ثابت يفخر بها بأيام قومه في ثقة واعتزاز ، ويدعى لها الشهرة والذيوع ؛ وأن الجميع يسلمون بها ويعرفونها لهم ، ويقرون بفضلهم فيها عند التقاء مناسكهم واجتماع حشودهم[٢]

وأصل النزاع الذي نشب بين حيي العرب في يثرب يرجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية ، أما الاقتصادية فيدل عليها أن رئيس الخزرج «عمرو بن النعمان البياضي» كان يتطلع إلى إنزال قومه في منازل بنى قريظة والنضير ، وكانت أكثر مياها وأكرم نخلًا من منازل الأوس ، وأما السياسية فمرجعها أن انتصار العرب على اليهود تم على يد مالك بن العجلان الخزرجي ، فالمسألة أصبحت في نظر الأوس أن يتباهي عليهم الخزرج ، ويصبح لهم الذكر والشرف في يثرب[٣]

---

(١) تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ص ٧٧ ـ ٧٨ . المدينة ـ الخطراوي ص ١٤٦ فما بعدها .
(٢) تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ص ٧٧ ـ ٧٨ ، المدينة الخطراوي ص ١٤٦ فما بعدها .
(٣) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص ٣٥٠ ـ ٣٥١

ودامت حروب الأوس والخزرج على ما تذكر بعض الروايات مائة سنة أولها: حرب سُمير وآخرها حرب بعاث[1] قبل هجرة الرسول ﷺ بخمس سنين ، ويحصرها (سيديو) بين سنتى ٤٦٧ ـ ٦١٥م ، ولا نعرف الأساس الذي بنى عليه (سيديو) تقديره ، غير أن أمامنا قول ابن كثير في حرب حاطب: إن بينها وبين حرب سُمير مائة سنة ، وأنها آخر حروبهم إلى يوم بعاث ، فنعلم أن ما ذكرته هذه الرواية من استغراق حروبهم مائة سنة لا يشمل يوم بعاث ، وإذا عرفنا أن قائد حرب سُمير من الأوس هو أحيحة بن الجلاح المولود سنة ٤٦٤ والمتوفي سنة ٥٦١م وأن سنه إذ ذاك لا بد أن يكون حوالى أربعين سنة ؛ لأنه قاد حركة الثورة ضد تبع

---

(١) وردت أخبار هذه الأيام (الحروب) فى أكثر المراجع العربية التى تحدثت عن تاريخ الأوس والخزرج خاصة ، ذكرت منفصلة أو مختصرة ، وأكثر كتب السيرة النبوية قد أكدت على يوم بعاث دون غيره ، مع إشارة إلى الأيام السابقة نورد بعضا من هذه المراجع دون الإشارة إليها أثناء الحديث وهى :

١ ـ الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير ١/ ٤٠٢ وما بعدها .
٢ ـ المدينة فى العصر الجاهلى ـ محمد العيد الخطراوي ص ١٥٤ فما بعدها .
٣ ـ تاريخ العرب فى الجاهلية وعصر الدولة الإسلامية ـ د . رشيد الجميلي ص ١٩٣ فما بعدها .
٤ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز سالم ص ٣٥٠ فما بعدها
٥ ـ دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ د . محمد بيومي مهران ص ٤٨٠ فما بعدها .
٦ ـ تاريخ الأدب العربي ـ د . شوقي ضيف ص ٦٤ فما بعدها .
٧ ـ أيام العرب فى الجاهلية ـ محمد أحمد جاد المولى بك ص ٦٢ فما بعدها .
٨ ـ المفصل فى تاريخ العرب ـ د . جواد علي ٤/ ١٣٨ فما بعدها .
٩ ـ دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٢٢٤ فما بعدها طبعة دار الشعب .
١٠ ـ كتاب دائرة المعارف ـ بطرس البستاني ٧/ ٢٧٥ فما بعدها .
١١ ـ معجم قبائل العرب ـ عمر رضا كحالة ١/ ٣٤٢ فما بعدها .
١٢ ـ وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ٢١٥ فما بعدها .
١٣ ـ تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير الطبري ـ ٢/ ٣٥٣ فما بعدها .
١٤ ـ تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ص ١٢٣ فما بعدها .
١٥ ـ السيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/ ١٧٥ فما بعدها .
١٦ ـ السيرة النبوية ـ هامش على السيرة الحلبية ـ أحمد دحلان ١/ ٣٣٤ و ٢/ ٦ فما بعدها.
١٧ ـ شعر الحرب عند الأوس والخزرج ـ محمد العيد الخطراوي ص ٩١ فما بعدها .
١٨ ـ العرب قبل الإسلام ـ جورجي زيدان ص ٣٣٥ ، ٣٣٦

وغير هذه من المراجع القديمة والحديثة التي تم الاطلاع عليها .

حوالي سنة ٤٩٤م وهو على رأس الثلاثين ، وظهر الأوس والخزرج بمساعدة الغساسنة حوالى سنة ٥٠٠م أي حين كان عمر أحيحة حوالى ثلاثين سنة ، كان معنى هذا أن حرب سمير وقعت سنة ٥٠٤م تقريبًا وكان الزمن التقريبي لحرب حاطب هو سنة ٦٠٤م وبينها وبين حرب بعاث حوالى ثلاث عشر سنة ، فإن حرب بعاث انتهت بالتأكيد قبل هجرة الرسول ﷺ بخمس سنوات أي حوالي ٦١٧م . ذلك أن الهجرة الشريفة تمت سنة ٦٢٢م والترتيب الزمني الذي ذكره ابن الأثير كالآتي حرب حاطب ، ويتبعها يوم الربيع ، يوم البقيع ، حرب القجار الأول ، يوم معبس ، ويوم مضرس ، يوم الفجار الثاني ، يوم بعاث .

وكانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية لأنها اقترنت بذكر جماعة من كبار شعراء الجاهلية والمخضرمين من العرب واليهود ، كقيس بن الخطيم ، وأحيحة ابن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب ابن الأشرف ، والربيع بن أبى الحقيق وغيرهم[(١)]

(١) حرب سُمير :

ظل الأوس والخزرج بعد انتصارهم على اليهود بمساعدة أبى جبيلة الغسانى ورئاسة مالك بن العجلان السالمى الخزرجى على اتفاق ووئام تامين أصبحت لهم الرئاسة في يثرب ، وانخذل اليهود ، وانصرف الحيان للبناء والتعمير ففلحوا الأرض وعمروا البساتين ، واستنبتوا النخل فكثرت عندهم الخيرات ، وعمَّ بلادهم الرخاء ، فلم يحل ذلك لليهود ، ولم يرد ما في نفوسهم من حقد دفين ، فاستعملوا ما في جعبتهم من حيل لإيغار الصدور ، وإثارة البغضاء بين الحيين ، وتعتبر حرب سُمير أول حرب وقعت بين أبناء الأخوين الأوس والخزرج ، فما زال على حال اتفاق واجتماع ، وكان أول خلاف وقع بينهم وحرب كانت يوم سُمير . وسببها المباشر ، أن رجلًا من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، يقال له كعب بن

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ١٥٣ ـ ١٥٤

العجلان، نزل على مالك بن العجلان السالمى فحالفه وأقام معه ، وخرج كعب يوما إلى سوق بني قينقاع فرأي رجلا من غطفان ، معه فرس وهو يقول ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب فقال رجل فلان ، وقال آخر أحيحة بن الجلاح الأوسي ، وقال غيرهما فلان ابن فلان اليهودي أفضل أهلها ، فدفع الغطفانى الفرس إلى مالك بن العجلان فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفي مالكاً أفضلكم ، فغضب من ذلك رجل من الأوس من بنى عمرو ابن عوف يقال له : « سُمير » وشتمه وافترقا وبقى كعب ما شاء الله ثم قصد سوقًا لهم بقباء فقصده سُمير ولازمه حتى خلا السوق فقتله ، وأخبر مالك بن العجلان بقتله ، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله ، فأرسلوا إنا لا ندري من قتله ، وكانت دية الحليف عندهم نصف دية النسيب،فأبي مالك إلا أخذ دية كاملة ، وامتنعوا من ذلك وقالو : نعطي دية الحليف ، ولج الأمر بينهم حتى أدى إلى المحاربة فاجتمعوا ، والتفوا واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل وكان الظفر يومئذ للأوس ، فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي . جد حسان بن ثابت بن المنذر ، فأجابهم إلى ذلك فأتوا المنذر فحكم بينهم المنذر أن يرد كعبا حليف مالك دية الصريع ، ثم يعودون إلى سنتهم القديمة ، فرضوا بذلك وافترقوا وقد شبَّت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم .

(٢) حرب كعب بن عمرو المازني:

أوقعت هذه الحرب بين بنى جحجبا من الأوس وبين بنى مازن بن النجار من الخزرج ، وسببها أن كعب بن عمرو المازني تزوج امرأة من بني سليم فكان يختلف إليها فأمر أحيحة بن الجلاح سيد بني جحجبا جماعة فرصدوه حتى ظفروا به فقتلوه فبلغ ذلك أخاه عاصم فأمر قومه فاستعدوا للقتال وأرسل إلى بني جحجبا يؤذنهم بالحرب ، فالتقوا بالرحابة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم بنو جحجبا ومن معهم ، وانهزم معهم أحيحة فطلبه عاصم بن عمرو فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع السهم في باب الحصن ، فقتل عاصم أخًا لأحيحة .

فمكثوا بعد ذلك ليل فبلغ أحيحة أن عاصمًا يتطلبه ليقتله إن وجد فيه غرة فقال شعرا في ذلك ، وأجابه عاصم كعادة الشعراء ، ثم إن احيحة أجمع أن يبيت بني النجار[١] ، وعنده سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية وهي أم عبد المطلب جد النبي ﷺ ، فما رضيت ، فلما جنها الليل ، وقد سهر معها أحيحة فنام ، فلما نام سارت إلى بني النجار فأعلمتهم ثم رجعت[٢] فحذروا ، وغدا أحيحة بقومه مع الفجر فلقيهم بنو النجار في السلاح،فكان بينهم شيء من القتال، وانحاز أحيحة ، وبلغه أن سلمى أخبرتهم، فضربها حتى كسر يدها، وطلقها ، وقد قال أحيحة في الحادثة كلها شعرا .

(٢) يوم السرارة :

وهي بين بنى عمرو بن عوف من الأوس وبين بني الحارث من الخزرج . ثم إن بني عمرو بن عوف من الأوس وبنى الحارث من الخزرج كان بينهم حرب شديدة ، وكان سببها أن رجلا من بنى عمرو قتلهم رجل من بنى الحارث ، فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة فاستكشف أهله فعلموا كيف قتل فتهيؤوا للقتال ، وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب فالتقوا بالسرارة ، وعلى الأوس خضير بن سماك والد أسيد بن حضير وعلى الخزرج عبد الله بن أبي ابن سلول أبو الحباب الذي كان رأس المنافقين،فاقتتلوا قتالا شديدا صبر بعضهم لبعض أربعة أيام،ثم انصرفت

---

(١) يبيت : يفاجئ القوم ليلا

(٢) كان هاشم بن عبد مناف قدم من المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ويقال : إنه بسبب هذا النسب رحب سيف بن ذي يزن ـ أو ابنه معد كرب بن سيف ملك اليمن ـ بعبد المطلب بن هاشم حين وفد عليه فى ركب من قريش وقال له مرحبا بابن أختنا لأن سلمى من الخزرج وهي من اليمن من سبأ ولأن سيفا من حمير ابن سبأ .

وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح بن الحريش ، قال بن هشام ويقال : (الحريس) ابن جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس) فولدت له عمرو بن أحيحة وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطه لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته . (ابن هشام ١ / ١٤٤ ـ ١٤٥) و (حاشية ص ١٤٥) .

وأورد صاحب الأغاني تفصيل حادثة خروجها ليلا لإخبار قومها ، بأنها شدت ولدها عمرو بن أحيحة حتى آلمته فبقى يبكي ، وهي وأحيحة ساهران عليه معظم الليل ، فأرخت الشد فسكت الصبي ، وادعت وجع الرأس وعصب رأسها ، وفي آخر الليل قالت : إن صحتها تحسنت وقالت : له قم فنام،وعملت ذلك ليثقل رأسه، فلما نام ربطت في الحصن حبلا فتدلت منه فسميت (المدلاة).

الأوس إلى دورها ، ففخرت الخزرج بذلك وقال في ذلك حسان بن ثابت شعرا ، ورد عليه قيس بن الخطيم بأبيات طويلة ، وكذلك عبيد بن ناقد .

(٤) حرب الحصين بن الأسلت :

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد الأوسيين ، وبين بني مازن بن النجار الخزرجيين وكان سببها أن الحصين بن الأسلت الأوسى الوائلى نازع رجلا من بني مازن فقتله الوائلي ثم انصرف إلى أهله ، فتبعه نفر من بني مازن ، فقتلوه ، فبلغ ذلك أخاه قيس بن الأسلت فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يعلمهم بأنهم على حربهم ، فتهيؤوا للقتال ، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحد ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعا ، وقتل أبو قيس بن الأسلت الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس ، فلام وحوح بن الأسلت أخاه أبا قيس وقال : لا تزال منهزما من الخزرج ، فقال أبو قيس لأخيه ويكنى أبا حصن :

أبلغ أبا حصن وبعض القول عندي ذو كباره .

أن ابن أم المرء ليس من الحديد ولا الحجارة .

ماذا عليكم أن يكون لكم بها رحلا عمارة ؟

يحمى ذماركم وبعض القوم لا يحمي ذماره .

يبني لكم خيرا وبنيان الكريم له أثاره .

٥ـ حرب ربيع الظفري :

ثم كانت حرب بين بني ظفر من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج ، وكان سببها أن ربيعا الظفري كان يمر في مال لرجل من بني النجار إلى مكة له ، فمنعه النجاري فتنازعا فقتله ربيع ، فجمع قومهما فاقتتلوا قتالا شديدا كان أشد قتال بينهم ، فانهزمت بنو مالك بن النجار ، وكان بعد ذلك حرب باللسان بين قيس ابن الخطيم الأوسي ، وحسان بن ثابت الخزرجي .

٦- حرب فارع بسبب الغلام القضاعي:

ومن أيامهم يوم فارع ، وسببه أن رجلا من بني النجار أصاب غلاما من قضاعة ثم من بلى ، وكان عم الغلام جارا لمعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والد سعد بن معاذ وأتى الغلام عمه يزوره فقتله النجاري ،فأرسل معاذ إلى بني النجار أن ادفعوا إليّ دية جاري ، أوابعثوا إلى بقاتله أرى فيه رأيي ، فأبو أن يفعلوا ، فقال رجل من بني عبد الأشهل: والله إن لم تفعلوا لا نقتل إلا عمرو بن الإطنابة، وعمرو من أشراف الخزرج ، فبلغ ذلك عمرا فقال من قصيدة طويلة :

ألا مـــن يبلـــغ الأكفـــاء عنـــا ... وقـــد تهـــدى النـــصيحة للنـــصيح

فـــإنكم ومـــا ترجـــون شـــطري ... مـــن القـــول المزجـــي والـــصريح

ســـيندم بعـــضكم عجـــلا عليـــه ... ومـــا أثـــر اللـــسان إلى الجـــريح

كما عارضه الربيع بن أبي الحقيق اليهودي بقوله :

ألا مـــن يبلـــغ الأكفـــاء عنـــي ... فـــلا ظلـــم لـــدي ولا افـــتراء

فلـــست بغـــائظ الأكفـــاء ظلـــما ... وعنـــدي للملـــمات اجتـــزاء

في قصيدة طويلة .

فلما رأي معاذ بن النعمان رفض بني النجار دفع الدية ، أو تسليم القاتل إليه تهيأ للحرب وتجهز هو وقومه واقتتلوا عند فارع ، وهو أطم حسان بن ثابت ، واشتد القتال بينهم ولم تزل الحرب بينهم حتى حمل ديته عمرو بن الإطنابه ، فلما فعل صلح الذي كان بينهم وعادوا إلى أحسن ما كانوا عليه .

في هذه المعركة عاد الوئام والصلح ، ولكن ليس صلحا دائما ، وربما كانت فترة استراحة للمحاربين وغالبا ما كان بين الأوس والخزرج عهود ، وقد ورد في شعر ينسب إلى درهم بن زيد الأوسي ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين

الأوس والخزرج ووردت إشارة إلى الصحف ـ صحف العهود والمواثيق في شعر الشاعر قيس بن الخطيم[١]

٧ـ حرب حاطب :

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب : وهو حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد ابن مالك بن عوف الأوسي ، وبينها وبين حرب سمير حوالى مائة سنة ، كان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور ، وحرب حاطب كانت آخر وقعة بينهم إلى يوم بعاث حتى جاء الله بالإسلام وكان سبب هذه الحرب أن حاطبا كان رجلا شريفا سيدا ، فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه ، ثم إنه غدا يوما إلى سوق بني قينقاع فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم (على وزن قنفذ) وهي أمه وهو من بني الحارث بن الخزرج ، فقال يزيد لرجل يهودي لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي : (أي ضربه برجليه على قفاه) فأخذ اليهودي رداءه وكسعه فجاء إليه فسأله من كسعك فأشار إلى اليهودي فضربه حاطب فأسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله ، فلقى رجلًا من بني معاوية فقتله .

فثارت الحرب بين الأوس والخزرج واحتشدوا واجتمعوا والتقوا على جسر ردم بني الحارث بن الخزرج ، وكان على الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلي ، وقد ذهب ذكر ما وقع بينهم من الحروب فيمن حولهم من العرب فسار إليهم عيينة بن حصن الفزارى ، وخيار بن مالك بن حماد الفزارى ، فقدما المدينة وتحدثا مع الأوس والخزرج في الصلح ، وضمنا أن يتحملا كل ما يدعي بعضهم على بعض فأبوا ووقعت الحرب عند الجسر شهدها عيينة وخيار ، فشاهدا من قتلهم ما أيسا معه من الإصلاح بينهم ، فكان الظفر يومئذ للخزرج وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب . ومنها :

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ٣٨٣

أ ـ يوم الربيع : ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع ، وهو حائط في ناحية السفح فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كاد يفنى بعضهم بعضا ، فانهزمت الأوس ، وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم ، وكانوا قبل ذلك إذا انهزمت إحدى الطائفتين فدخلت دورهم كفت الأخرى عن اتباعهم فلما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس الصلح ، فامتنعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم ، فحصنت الأوس النساء والذرارى في الآطام وهي الحصون حتى كفت عنهم الخزرج .

ب ـ يوم البقيع : ثم التقت الأوس والخزرج ببقيع الغرقد ، فاقتتلوا شديدا فكان الظفر يومئذ للأوس ، فقال عبيد بن ناقد الأوسى شعرا ، ورد عليه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي ، وكان رئيس الأوس يومئذ في حرب حاطب أبا قيس بن الأسلت الوائلي ، فقام في حربهم وهجر الراحة ، فشحب وتغير وجاء يوما إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت له : لقد أنكرتك حتى تكلمت ، ثم إن أبا قيس بن الأسلت جمع الأوس وقال لهم : ما كنت رئيس قوم قط إلا هزموا فرئسوا عليكم من أحببتم فرأسوا عليهم حضير الكتائب بن السماك الأشهلي ، وهو والد أسيد بن حضير لولده صحبة وهو بدري ، فصار حضير يلي أمورهم في حروبهم .

فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له : (الفرس)[1]، فكان الظفر للأوس ، ثم تراسلوا للصلح ، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى فمن كان عليه الفضل أدى الدية ، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر فدفعت الخزرج ثلاثة (غلمة) منهم رهنا بالديات فغدرت الأوس فقتلت الغلمان .

جـ ـ حرب الفجار الأول للأنصار (وليس بفجار كنانة وقيس) ، فلما قتلت الأوس الغلمان جمعت الخزرج وحشدوا والتقوا بالحدائق ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي ابن سلول ، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كاد

---

(١) الفرس: اسم لبئر بالمدينة غسل منها رسول الله ﷺ يوم غسل لدفنه ، وموضع قرب فدك .

بعضهم أن يفني بعضهم بعضًا وسمي ذلك اليوم يوم الفجار لغدرهم بالغلمان وهو الفجار الأول ، وكان قيس بن الخطيم في حائط له فانصرف فوافق قومه (شاهد قومه) قد برزوا للقتال فعجز عن أخذ سلاحه إلا السيف ، ثم خرج معهم فعظم مقامه يومئذ ، وأبلى بلاء حسنًا ، وجرح جراحة شديدة ، فمكث حينا يتداوى منها ، وأمر أن يحتمى عن الماء وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة :

رميناك أيام الفجار فلم تزل حميًا فمن يشرب فلست بشارب

٨- يوم معبس ومضرس[1] :

ثم التقوا عند معبس ومضرس وهما جداران ، فكانت الخزرج وراء مضرس وكانت الأوس وراء معبس ، فأقاموا أياماً يقتتلون قتالاً شديداً ، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام ، وكانت هزيمة قبيحة لم ينهزموا مثلها ، ثم إن بنى عمرو بن عوف ، وبنى أوس مناة من الأوس وادعوا الخزرج ، فامتنع عدد عن الموادعة وبنو ظفرة وغيرهم من الأوس ، وقالوا لا نصلح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج ، فألحت الخزرج عليهم بالأذى والغارة حين وادعهم بنو عمرو بن عوف وأوس مناة ، فعزمت الأوس - إلا من ذكرنا - على الانتقال من المدينة ، فأغارت بنو سلمة على مال لبني عبد الأشهل يقال له : الرعل ، فقاتلوهم عليه فجرح سعد بن معاذ الأشهلي جراحة شديدة ، واحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح فأجاره ، وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار ، فلما كان يوم بعاث جازاه سعد على ما نذكره إن شاء الله،ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشا على الخزرج، وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكانت عاداتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعرض إليه خصمه، ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل ... ففعلوا ذلك وساروا إلى مكة فقدموها وحالفوا قريشا وأبو جهل غائب ، فلما قدم أنكر ذلك وقال لقريش أما سمعتم قول الأول : ويل للأهل من النازل ؟ إنهم لأهل عدد وجلد ، ولقلما نزل

(١) مضرس : كمحدث . الأسد يمضغ فريسة ولا يبتلعها وكمعظم ، نوع من الوشي فيه صور كأنها أضراس ... والأول أنسب هنا وقد سمي هنا وقد سمي به أحد الجدارين .

قوم إلا أخرجوهم من بلادهم ، وغلبوهم عليه ، قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟ قال أنا أكفيكموه ، ثم جاء الأوس فقال : إنكم حالفتم قومى وأنا غائب فجئت لأحالفكم وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم ، إنا قوم تخرج إماؤنا إلى أسواقنا ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها ، فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفناكم ، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا ... فقالوا : لا نقر بهذا ، وكانت الأنصار بأسرها فيهم غيرة شديدة فردوا إليهم حلفهم ، وساروا إلى بلادهم فقال حسان ابن ثابت أبياتًا يفتخر بها وبما أصاب قومه من الأوس .

٩- يوم الفجار الثاني للأنصار :

كانت الأوس قد طلبت من قريظة أن يحالفوهم على الخزرج ، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب . فقالت اليهود : لا نَريد ذلك ، فأخذت الخزرج رهنهم على الوفاء وهم أربعون غلاما من قريظة والنضير ، ثم إن يزيْد بن فسحم شرب يومًا فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه ذلك ، فلما بلغ قوله قريظة والنضير ، غضبوا .وقال كعب بن أسد : نحن كما قال إن لم نفر، فحالف الأوس على الخزرج ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير ، فأطلقوا نفرا منهم سليم بن أسعد القرظي جد محمد بن كعب بن سليم ، واجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، وسمي ذلك الفجار الثاني لقتل الغلمان من اليهود .

وقد قيل في قتل الغلمان غير هذا،وهو:إن عمر بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزل سوء، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل النضير وقريظة ، أو أقتل رهنهم وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع .

فأرسل إلى قريظة والنضير : إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم ، وإما أن نقتل الرهن فهموا أن يخرجوا من ديارهم فقال كعب بن أسيد القرظي يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان ، ما هي إلا ليلة حتى يصيب أحدكم امرأة حتى يولد

مثل أحدكم فأرسلوا إليهم : إنا لا ننتقل من ديارنا فانظروا في رهننا (ادفعوهم لنا) فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم فقتلهم .

وخالفه عبد الله بن أبي ابن سلول فقال هذا بغي وإثم ، ونهاه عن قتلهم وقتال قومه من الأوس ، وقال له : كأني بك وقد حملت قتيلًا في عباءة يحملك أربعة رجال ... فلم يقتل هو ومن أطاعه أحداً من الغلمان ، وأطلقوهم ، ومنهم سليم بن أسد جد محمد بن كعب ، وحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزرج ، وجرى بينهم قتال ، سمي ذلك اليوم الفجار الثانى ، وهكذا القول أشبه بأن يسمى اليوم فجاراً . فأما على القول الأول فإنما قتلوا الرهن جزاء للغدر من اليهود ، فليس بفجار من الخزرج إلا أن يسمى فجارًا لغدر اليهود .

١٠ـ يوم بعاث :

لبعاث في تاريخ الأوس والخزرج حال يختلف عن حال أيامهم كلها فهذا اليوم كان نهاية المطاف بالنسبة لعداوة دامت مائة عام ويزيد ، لم يهنأ بها الناس يومًا دون أن يستفحل بهم القتل ويكثر ووجد اليهود الفرصة سانحة للوقيعة بين هذين الحيين وتأجيج نار العداوة بينهما ، وكان يوم بعاث خاتمة المآسي الطويلة التي عاشها هؤلاء في كنف الحمية والعصبية القبلية والثأر وغير ذلك ، إلى أن قيض الله تعالى لهؤلاء الناس من أعادهم إلى رشدهم ، ووحد كلمتهم ، وصفي قلوبهم ، وخلصهم من جهل الجاهلية وخبثها ، فكان الإسلام الذي وحدهم من جديد ، وجعلهم عصبة المؤمنين الأوفياء الذين آمنوا بمحمد ﷺ ونصروه وساندوه فكانوا هم الأنصار .

كما ترتب على هذا اليوم الكثير من النتائج التي سبقت أو لحقت إيمان الأوس والخزرج وبذلك أجمع المؤرخون المسلمون على أن هذا اليوم كان خاتمة المآسى وفاتحة الخيرات لهذا الحى من العرب .

وأما عن هذا اليوم :

فإن قريظة والنضير جددوا العهود مع الأوس على المؤازرة والمناصرة ، واستحكم

أمرهم وجدوا في حروبهم ، ودخل معهم قبائل من غير يهود غير ما ذكرنا ، فلما سمعت الخزرج جمعت وحشدت،وأرسلت إلى حلفائها من أشجع وجهينة، وأرسلت الأوس من حلفائها من مزينة ومكثوا أربعين ليلة يتجهزون للحرب والتقوا ببعاث وهي من أعمال قريظة ، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك والد أسيد ابن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي وتخلف عبد الله بن أبي ابن سلول فيمن تبعه من الخزرج ، وتخلف بنو حارثة بن الحرث من الأوس . فلما التقوا اقتتلوا قتالًا شديدًا ، وصبروا جميعًا ، ثم إن الأوس وجدت مس السلاح ، فولوا منهزمين نحو العريض ، فلما رأى حضير الكتائب هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح واعقراه كعقر الجمل ، والله لا أعود حتى أقتل ، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فعطفوا عليه ، وقاتل عنه غلامان من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا ، وأقبل سهم لا يدري من رمى به فأصاب عمرو بين النعمان البياضي رئيس الخزرج فقتله .

فبينما عبد الله بن أبى ابن سلول يتردد راكباً قريباً من بعاث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلًا في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له ... فلما رآه قال : ذق وبال البغى ... وانهزمت الخزرج . ووضعت فيهم الأوس السلاح .. فصاح صائح : يا معشر الأوس ، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار (الثعالب) اليهود فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضير الكتائب مجروحاً فمات وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخلهم ، فأجار سعد بن معاذ الأشهلى أموال سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل وقد تقدم ذكره .

ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ، ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي ، أخذه فجز ناصيته وأطلقه وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الإسلام يوم قريظة.

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، ثم جاء الإسلام ، واتفقت الكلمة ، واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله ، وكفى الله المؤمنين القتال

وأكثر القوم الأشعار في يوم بعاث . ومنهم قول قيس بن الخطيم الظفرى الأوسى ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم[(١)]

المرحلة الثالثة كانت المرحلة الثالثة من علاقة الأوس بالخزرج نتائج يوم بعاث ، فقد كان هذا اليوم بداية النهاية لحرب قاسية استمرت نيفاً ومائة عام شهد بها القوم أياماً قاسية قتل بها من قتل وشوه بها من شوه ، وأسر بها من أسر ، وخربت الحياة من جميع نواحيها وأثارت قريحة الشعراء الذين قاموا بتأجيج الحماس بين الناس ، وذكر هذه الآيام وتهيئة النفوس لأيام أخرى .

ويمكن لنا أن نجد لمجريات حرب بعاث بعض الملامح التي حولت القاعدة إلى اتجاه آخر ، وهذه القوى الجديدة التي ظهرت في هذه المعارك أخذت تطرح بعض الآراء الجريئة والتي تنادى بالسلم بعد سماعها عن الإسلام وتجاوبها مع هذه الدعوة وآخرون توجهوا إلى توحيد القوى ونبذ الخلاف وإقامة نوع من الحكم يجمع الشمل ويقوى العرب (الأوس والخزرج) ضد الآخرين وعلى رأسهم اليهود .

ومن العجيب أن هذه الدعوة انطلقت من أخوين عاقلين مدركين لأبعاد هذه الحروب هما : إياس بن معاذ الذي سمع بالإسلام وحاول أن يغير الناس عن هذه الحروب وأخوه سعد بن معاذ الذي آلت إليه زعامة الأوس كلها بعد موت حضير الكتائب وكيف أنه رضى قبل أن يسمع بالإسلام أن تقام في يثرب حكومة وليكن على رأسها خزرجي كما سيرد تفصيل ذلك ..، ويمكن أن نختصر هذه الأيام وتواريخها وعلى من دارت بالجدول التالي .

ولم يكتف الشعراء بذكر أيامهم وانتصارات عشائرهم فقط ، وإعادة الحمية إلى النفوس استعداداً لأيام أخرى ومعارك أخرى ، وإنما وصل الحد إلى تصوير حال من البغضاء لا يمكن أن تكون في أبناء عمومة[(٢)]

---

(١) تم الاعتماد باللفظ على كتاب ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير بتصرف ١/ ٤٠٠ ـ ٤٢٠ .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٤٧٥

جدول يبين أيام الأوس والخزرج ونتائجها

مسلسل	اسم اليوم الحرب	التاريخ التقريبي	نتائج الحرب
١	يوم سُمير	٥٠٤م	انتصار الأوس على الخزرج
٢	حرب كعب بن مازن		انتصار الخزرج على الأوس
٣	يوم السرارة		انتصار الخزرج وانسحاب الأوس
٤	حرب الحصين بن الأسلت		انتصار الخزرج على الأوس
٥	حرب ربيع الظفري		انتصار الأوس على الخزرج
٦	حرب فارع بسبب الغلام الفضالي		الصلح والوئام بين الحيين
٧	حرب حاطب		انتصار الخزرج على الأوس مع التدخل للصلح
	أ ـ يوم الربيع (الفرس)	٦٠٤م	انتصار الخزرج على الأوس
	ب ـ يوم البقيع		انتصار الأوس مع الصلح
	جـ ـ حرب الفجار الأولى		انتصار الخزرج وانهزام الأوس

٨	حـــرب معـــبس ومضرس		انتصار الخزرج وانهزام الأوس
٩	يوم الفجار الثاني		اقتتال وتباعد دون مكاسب تذكر
١٠	يوم بعاث	٦١٧م	انتصار الخزرج وهزيمتها وانهزام الأوس وانتصارها

القسم الثاني

علاقة الأوس والخزرج بالمحيط الخارجي

١ - العلاقة مع العرب :

انفصلت الأوس والخزرج من مجموعة «عمرو مزيقيا» بعد تهدم سيل العرم وذهب إخوتهم وأبناء عمومتهم في شتى أنحاء الجزيرة ، منهم من باد ، ومن من أقام ملكا وساد ، ومنهم من عاد إلى البداوة وأقام الأوس والخزرج حول يثرب وهي بيد يهود يهنؤون بنعيمها ، والأوس والخزرج ينالون الحيف والقليل حتى جاءت مرحلة التحالفات بينهم وبين أبناء عمومتهم ضد اليهود ، وكان ما كان من أمر مالك بن العجلان واستنجاده بالغساسنة ، ويقال بالحميريين من اليمن ، وهذه القصة قد تفرعت أخبارها ، ورددتها الأخبار التاريخية والأدبية لما قيل فيها من شعر

وهذا التحالف بين الأوس والخزرج والغساسنة لم يدم طويلاً حتى تمكنوا من السيطرة على يثرب والقضاء على مظاهر الحكم التي كانت مع اليهود ، واستئثار هذا الحى من العرب الأوس والخزرج بالسيادة على يثرب .

ولو استمرت الوحدة بين الأوس والخزرج ربما كان مقدرًا لها إقامة مملكة قوية في الحجاز على غرار مملكة الغساسنة أو اللخميين أو أزد السراة ، أو أزد عمان ، ولكن مجاورتهم لليهود ووقوع الحروب الطاحنة بينهم أخر هذه الفكرة كثيرًا

وقد حاول أهل يثرب من الأوس والخزرج حل مشكلة الحكم في مدينتهم حلًا وسطًا على قاعدة أن من الأوس أميرا ومن الخزرج أميرا يحكمان حكمًا مشتركًا أو على التوالي، على أن يحكم سيد من الأوس سنة ثم يترك الحكم لسيد الخزرج ليحكم السنة التالية، ثم يعود وينسحب وهكذا ، غير أن الحل لم ينجح أيضًا وبقيت المشكلة

«مشكلة الحكم» مستعصية غير محلولة حتى دخل الرسول يثرب فحلها حلاً أزعج بعض من كان طامعا في الحكم ، وكان يرغب أن يكون سيد يثرب[(١)]

وعندما حان التفكير فيها سبقهم الإسلام وأنهى هذه المملكة التي كان من المقدر أن يكون حكامها من الخزرج ومن الأوس والرعية من العرب واليهود ، إلا أن الحروب الطاحنة بينهم جعلتهم يتجهون إلى طلب الحلف من العرب .

وقد كان بين الأوس قوم يقال لهم «النبيت» افتخر بهم الشاعر قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية وقد قتل قبل الهجرة ومدحهم ووصفهم بالشدة والبأس بقوله :

ويثـــرب تعلـــم أن النبيـــت رأس بيثـــرب ميزانهـــا

وقـــد علمـــوا أن مـــا فلهـــم حديـــد النبيـــت وأعيانهـــا

وقال:

فـــلا أعـــرفنكم بعـــد عـــز وثـــروة يقـــال ألا تلـــك النبيـــت عـــساكر

كما كان في إياد قوم يقال لهم النبيت ، وكان نبيت الأوس يتألفون من ظفرة رهط الشاعر قيس بن الخطيم ومن عبد الأشهل وحارثة ، وقد وقعت بينها حروب ومعارك فانضمت حارثة إلى الخزرج وتحالفت معها ودخلت فيها ، وأما ظفرة وبنو عبد الأشهل فقد اضطروا أخيرا إلى ترك ديارهم إلى مكة للتحالف معهم ، أو مع اليمن ، أو الغساسنة ، أو المناذرة لمساعدتهم على الخزرج واسترداد ملكهم .

والظاهر أنهم كانوا قديما من القبائل القوية ، وكانت في الحرار الشرقية ، ثم أفل نجمها وتشتت شملها بسبب الحروب التي وقعت بين بطونها ، ولعلها من القبائل التي كانت تقيم في الشمال (في العربية الحجرية) أو العربية الصحراوية ، ثم اضطرت إلى الهجرة إلى الجنوب والاستيطان في مناطق الحرار والظاهر أنها كانت على اتصال باليهود ، وقد تحالفت مع يهود خيبر[(٢)]

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٥ / ٢٥١ ـ ٢٥٢

(٢) جواد علي ـ تاريخ ١/ ٤٣٨

ومن القضايا البارزة في تحديد هذه العلاقة الوطيدة بين الأوس والخزرج من جهة وقريش من جهة أخرى ، فقد كانت هناك علاقات تزاوج ومصاهرة ، مثل زواج هاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب جد الرسول ﷺ من سلمى زوجة أحيحة ، قال ابن هشام : فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة عبد المطلب بن هاشم ، وأسد بن هاشم ، وأبا صيفي بن هاشم ، وفضلة بن هاشم ، والشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وحية ، فأم عبد المطلب ورقية سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ـ واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر(١)

تزوج هاشم بن عبد مناف امرأة من بني النجار ذات شرف ، تشرط على من خطبها المقام بدار قومها ، فتزوجت بهاشم ، فولدت له شيبة الحمد ، تربى في أخواله مكرمًا فبينما هو يناضل فتيان الأنصار ، إذا أصاب خصلة فقال: أنا ابن هاشم ، وسمعه رجل مجتاز ، فلما قدم مكة قال لعمه المطلب بن عبد مناف: قد مررت ببني قيلة فرأيت فتى من صفته ومن صفته يناضل مثل فتيانهم ، فاعترى إلى أخيك ، ما ينبغي ترك مثله في الغربة . فرحل المطلب حتى ورد المدينة ، فأراده على الرحلة فقال: ذاك إلى الوالدة ، فلم يزل بها حتى أذنت له ، وأقبل به وقد أردفه ، فإذا لقيه اللاقي وقال : من هذا يا مطلب قال : عبد لي فسمي عبد المطلب .

فلما قدم مكة وقفه على ملك أبيه وسلّمه إليه ، فعرض له نوفل بن عبد مناف في ركح (ناحية البيت) له فاغتصبه إياه فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه فسألهم النصرة على عمه ، فقالوا : لسنا بداخلين بينك وبين عمك ، فلما رأى ذلك كتب إلى أخواله يصف لهم حال نوفل ، وكتب في كتابه :

أبلغ بني النجار إن جئتهم … أني منهم وابنهم والخميس

رأيـــنهم قومـــا إذا جئـــتهم هـــووا لقـــائى وأحبـــوا حـــسيس
فـــإن عمـــي نـــوفلًا قـــد أبي إلا التـــي يغـــضى عليهـــا الخـــسيس

قال : فخرج أبو أسعد بن عدس النجاري في ثمانين راكبا حتى أتى الأبطح وبلغ عبد المطلب فخرج يتلقاه، فقال: المنزل يا خال، فقال: أما حتى ألقى نوفلًا ... فلا ، قال تركته جالسًا في الحجر مع مشايخ قريش . فأقبل حتى وقف على رأسه ، ثم استل سيفه ثم قال: ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا (ركحه) ، أو ملأن منك السيف قال ورب هذه البنية أرد «ركحه» ، فأشهد عليه من حضر ثم قال : المنزل يابن أختي ... فأقام عنده ثلاثًا واعتمر وأنشأ عبد المطلب يقول :

تـــأبى مـــازن وبنـــو عـــديٍّ ودينـــارُ بـــنُ تـــيم الـــلات ضـــيمي
وســـادةُ مالـــك حتـــى تنـــاهي ونكَّـــب بعـــد نوفـــل عـــن حريمـــي
بهـــم ردَّ الإلـــهُ عـــليَّ رُكْحـــي وكـــانوا في التَّنَـــسُّب دون قـــومي[(١)]

قال ابن سعد : حدثنا الحسين بن الفهم قال : أخبرنا محمد قال : أخبرنا معين ابن عون بن زياد قال أخبرنا هشام بن يوسف بن معمر ، عن أيوب بن محمد ابن سيرين قال : لما حضرت أبوطالب الوفاة دعا رسول الله ﷺ فقال له : ابن أخ إذا أنا مت ، فأت أخوالك من بنى النجار فإنهم أمنع الناس في بيوتهم[(٢)]

وذكر أن الشاعر عباس بن مرداس السلمى سمع رجلًا من أهل مكة اشترى إبلاً لقيس بن نشبة فلواه حقه وإن قيسًا قام بمكة يقول :

يـــا آل فهـــر كنـــت في هـــذا الحـــرم في حرمـــة البيـــت وأخـــلاق الكـــرم
اظلم لا يمنع مني من ظلـم؟

(١) الطبري ـ تاريخ ٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩
(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣ / ٥٤٣

بلغ ذلك عباس بن مرداس فكتب إليه أبياتًا منها :

وائت البيوت وكن من أهلها سددًا   تلق ابن حرب وتلق المرء عباسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه ، وقال أنا لك جار ما دخلت ، مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة [(١)]

ومن المعروف أن عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ توفي عند أخواله بني النجار ودفن في المدينة .

وقبل البعثة النبوية زوج الرسول ﷺ (أم أيمن) ـ بعد أن أعتقها حين تزوج خديجة بنت خويلد ـ من عبيد بن زيد الحارث بن الخزرج ،.فولدت له أيمن صحب النبي ﷺ وقتل يوم حنين شهيدا[(٢)] .وعندما انتشر خبر رسول الله ﷺ في العرب ، ذهب الخبر في الأوس والخزرج ذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء معهم في بلادهم ، فلما وقع ذكره في المدينة ، وتحدثوا بها بين قريش فيه من الاختلاف قال أبو قيس بن الأسلت أخو بني واقف ، قال ابن هشام : فأبو قيس بن الأسلت من بني وائل وواقف وحطمة إخوة الأوس .

قال ابن إسحاق فقال أبو قيس بن الأسلت ـ وكان يحب قريشا ـ وكان لهم صهرا ، وكان عنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته قال قصيدة يعظم فيها الحرمة ، وينهي قريشا فيها عن الحرب ، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ، ودفعه عنهم الفيل وكيده عندهم ومطلع القصيدة :

يا راكبا إما عرضت فبلِّغَن   مغلغلةً عنِّي لؤيَّ بن غالب ... إلخ[(٣)]

---

(١) الإصابة ـ العسقلاني ٣/ ٢٦٠ وما بعدها برقم ٧٢٤٢ ، جواد علي ٨/ ١١٨

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٨/ ٢٢٣

(٣) ابن هشام ـ السيرة النبوية ١/ ٣٠٢

وفي حرب معبس ومضرس حالفت الأوس قريشا ـ كما سبق ـ واحتال أبو جهل حتى نقض الحلف[(١)] وكذلك تدخل عيينة بن حصن الفزاري ، وخيار ابن مالك ابن حماد الفزاري في محاولة الصلح بين الأوس والخزرج ولكنهما ذهبا بعدما شاهدا من حرب ضروس يوم حاطب كما سبق[(٢)]

وقد حوت كتب السير والأخبار الكثير من الأحلاف التي كان يطلبها أحد الحيين من قبائل العرب المحيطة بهم ، أو التي لهم علاقة بها ، ففي يوم بعاث ـ كما ورد ـ طلبت الأوس الحلف من قريش . وقصة إسلام إياس بن معاذ الذي حاول أن يثني قومه عن مثل هذه الأحلاف ، وقيام الخزرج بطلب من أشجع وجهينة تحسباً ليوم بعاث .

ولقد كانت هنالك علاقات شخصية قوية بين أهل مكة وأهل يثرب ، وقد ظهرت هذه العلاقة بعد الإسلام خاصة بعد بيعة العقبة الثانية .

لما علم القرشيون بخبر بيعة العقبة الثانية لحقوا بأهل يثرب وتمكنوا أن يدركوا كلاً من سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو .

وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد فو الله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء الوجه أبيض شعشاع حلو من الرجال ، فقلت في نفسي : إن يك عند أحد من القوم خيرًا فعند هذا الرجل ... قال : فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة ، فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير .

قال فو الله إني لفي أيديهم يسحبونني ، إذ أوى[(٣)] لي رجل كان معهم فقال

---

(١) الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤١٥
(٢) الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤١٢
(٣) أوى : رحم ، أوى له : رق لحاله .

ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وأمنعه ممن أراد ظلمه ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية بن شمس بن عبد مناف ، قال: ويحك اهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما .. قال : ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما إن رجلًا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف بكما ، ويذكر أنه بينه وبينكما جوار قالا ومن هو ؟ قال سعد بن عبادة. قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده . قال : فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم[1] . وأما المنذر فأعجز القوم .

وشبيه بهذا قصة سعد بن معاذ سيد الأوس .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، انطلق سعد بن معاذ معتمرًا فنزل على أمية بن خلف بمكة . قال سعد لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت ، فخرج به قريبًا من نصف النهار،فلقيهما أبو جهل بن هشام،فقال:يا صفوان إنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما .

فقال له سعد ورفع صّوته عليه : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة[2]

ويتضح من هذا عمق العلاقات التي كانت تربط الأوس والخزرج بقريش وبغيرها من قبائل العرب ويمكن القول بأن هذه الأحلاف كانت إما عن طريق المصاهرة والزواج ، وكثير من هذه الأحلاف غير ما ذكرت ، وكذلك طلب الحلف والنجدة في اجتماع الأوس والخزرج على طلب النجدة من الغساسنة على اليهود ، أو حلف الأوس والخزرج مع اليهود ليتقوى كل فريق على الآخر أو طلب الحلف من قريش خاصة ومن العرب عامة خاصة القبائل التي تقيم حول مكة والمدينة من

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢/ ٩٢ ـ ٩٣

(٢) السيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/ ٣٨٥

هوازن أو ثقيف أو غيرهما ، وذلك لتقف هذه القبائل في دعم الحيين على الآخر ، أو للسعي للصلح بينهما

ومن المعلوم أن القبائل العربية قد شهدت للأوس والخزرج بشدة البأس ، والصبر على القتال وهذا ما كان له الأثر الكبير في نشر الإسلام بعد ذلك .

ويذكر أهل الأخبار أن حربًا وقعت بين «مالك» والأحلاف ، فخرجت الأحلاف تطلب الحلف من أهل يثرب على بنى مالك وعلى رأسها (مسعود ابن معتب) رأس الأحلاف، فقدم على أحيحة بن الجلاح أحد بني عمرو بن عوف من الأوس فطلب منه الحلف ، فأشار عليه أحيحة أن عليه أن يعود إلى الطائف ويصالح إخوانه ، فإن أحدًا لن يبر له إن حالفهم،فانصرف مسعود عن عتبة بعد أن زوده بالسلاح والزاد، وأعطاه غلامًا يبني الأسوار ، فلما وصل أمر الغلام ببناء سور حول مدينة الطائف فبناه له ، وأحيطت الطائف بسور قوى حصين.وأمنت بذلك على نفسها من غارات الأعراب[١]

قال ابن الخطيم :

لعمري لقد حالفت ذبيان كلها وعبسًا على ما في الأديم الممدد

قال أبو عمرو كتبوا وتحالفوا على ما في الصحف[٢] وهذا يدل على امتداد الحلف بين أهل يثرب وخاصة الأوس ، وبين عبس وذبيان .

٢ ـ علاقة الأوس والخزرج باليهود :

سبق القول بأن اليهود قدموا إلى المدينة قبل الأوس والخزرج ، واستقروا بها وأقاموا بها نوعًا من الحكم متأثرًا بما يجرى في جزيرة العرب على شكل حكم ملكى قبلي .

(١) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ١٥١

(٢) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠٠

ونزل بعدهم الأوس والخزرج على شكل قبائل تميل إلى البداوة أكثر منها إلى الـمَدَنيَّة والحضارة ، قطعت شوطا طويلاً في البادية في مسيرها من اليمن ، وحتى استقرت حول يثرب ، وامتازت هذه القبائل وحملت كل الصفات البدوية وكانت ديانتها وثنية ولها إلهها الذي تعبده وتقيم له رمزًا في مكة .

وقد عاشت هذه القبائل فترة ليست بالقصيرة على شظف العيش والفقر . واليهود ينعمون بخيرات المدينة الزراعية ، والاستفادة من الموقع التجارى لتنشيط تجارتهم أيضًا ، كما أقاموا العديد من الصناعات منها صياغة الذهب في سوق بني قينقاع ، وتصنيع السلاح وبعض المهن الأخرى ويمكن أن يكون هذا التطور الحضري لليهود قد أغرى الأوس والخزرج لأن يودعوا حياة البداوة التي ملُّوها ، وينزلوا منازل قريظة والنضير، وقد مرَّت العلاقة بين الأوس والخزرج وبين اليهود بمراحل عدة يمكن حصرها بالتالى :

١ ـ مرحلة التبعية لليهود :

عاشت قبائل الأوس والخزرج فترة طويلة بعيدة عن الفاعلية السياسية والاجتماعية في يثرب ، وكان اليهود قد استقلوا بشؤونهم في المدينة (يثرب) وخارجها في خيبر وفدك وتيماء ، وكان الأوس والخزرج يتطلعون إلى يوم يمكن لهم أن يسودوا تلك المناطق ويحققوا شيئًا من رغد العيش الذي حرموه .

وعاشوا في كنف تنظيم قبلي بدائي ، لا مزارع ولا منابت ، واستغل اليهود هذا الوضع المزري للعرب،واستخدمت معهم أساليب غير أخلاقية،سواء من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية وهذا ما شجع الأوس والخزرج إلى توحيد كلمتهم ، وطلب المعونة من أقربائهم لمساعدتهم ضد اليهود ، وقد مرَّت قصة (الفطيون) وما لاقاه هؤلاء على يديه وأعوانه من اليهود .

ولقد عقد الأوس والخزرج مع اليهود المتغلبين على يثرب وأصحاب العدد والقوة جوارًا وحلفًا يأمن بعضهم بعضًا ، ويمنعون به من سواهم ، ويبدو أن يهود

يثرب رحَّبوا بهذا الحلف لضمان سيادتهم على يثرب ، ولكي يستخدموا حلفاءهم في رد أي غزو خارجى عليها ثم إنهم كانو يسعون إلى الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب من المدن والتجمعات العمرانية المجاورة لهم . ووجدوا أحلافًا لهم في يثرب يمكن نفوذهم على المدينة من جهة ، ويقوون تظاهرهم بالإندماج مع العرب من جهة ثانية ويسبغ على سيادتهم على يثرب نوعًا من الشرعية ، ولعلهم كانوا يفكرون في الإفادة من خبرات هؤلاء الوافدين من عرب اليمين في المجال الزراعي والتجاري الذي اكتسبوه في بلادهم الأصلية .

وقنع الأوس والخزرج بادئ ذى بدء بتحالفهم مع اليهود وبالاشتغال لهم علَّهم يصيبوا من وراء ذلك مكاسب تهيئ لهم مشاركة اليهود في استغلال مصادر الثروة في يثرب ومضى على الحلف المنعقد بين اليهود العرب زمان طويل ، فأثرى الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد فلما رأبت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فتنمروا لهم ، وقد حطم الحلف الذي كان بينهم ، وكانت قريظة أعدُو وأكثروا ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود ، وقد ظهر بين الأوس والخزرج شاب طموح هو مالك بن العجلان سوده الحيان عليهم ، وأنف أن يظل قومه تحت رحمة اليهود ، فعزم على وضع حد لسيادة اليهود على قومه فوثب على زعيمهم فقتله ، وخرج حتى قدم الشام واستنجد بأبى جبيلة الغساني [(١)]

٢ـ مرحلة غلبة الأوس والخزرج :

ثم أدال الله للأوس والخزرج من اليهود ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] ، وإذا كانت الروايات التاريخية قد أجمعت على أن الأوس والخزرج إنما انتصروا على اليهود بواسطة مساعدة خارجية ، فإنها اختلفت في مصدر تلك المساعدة على رأيين قيل إنها من تبابعة اليمن ، وقيل إنها من غساسنة الشام ،

---

(١) تاريخ العرب ـ السيد عبد العزيز ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧ بتصرف .

وكلهم بالطبع يمتون إليهم بنسب عريق فالكل يرجع إلى قحطان من اليمن ، وليس من المستبعد القول بأنهم تلقوا المساعدة من التبابعة ومن الغساسنة معا ، أفضت بهم مساعدة التبابعة ، ومعاودتهم يثرب إلى الانتعاش وبدء الصمود أمام اليهود لولا موقفهم من تبع واغتيالهم ابنه ، وأدت بهم مساعدة الغساسنة إلى الانتصار النهائى عليهم .

ويقدر سيديو تاريخ هذه المساعدة حوالى ٤٩٢م ، وعليه لم تدم سيطرة اليهود الأخيرة غير عامين فقط وذلك على عهد أميرهم الفطيون ، وإن كنا نميل إلى تقديرها بحدود سنة ٥٠٠م ، وهي السنة التي تولى فيها الحكم أول ملك غساني معروف قوي ، وبذلك تكون مدة تسلط اليهود الجديدة حوالي عشر سنين ، وهي مدة كافية لتنمو اليهود والذي دفع بالخزرج إلى طلب النجدة من الغساسنة وتختلف الروايات مرة أخرى في السبب المباشر بحدوث هذه المساعدة العسكرية التي دعمت موقف الأوس والخزرج أمام اليهود وحققت لهم النصر[(١)]

١ـ ترى جميع الروايات أن مالك بن العجلان ورد على الملك الغسانى الذي سأله عن حالهم فشكى له غلبة اليهود عليهم ، وتمت عملية تدبير تسيير الجيش وقتل أشراف اليهود[(٢)]

٢ـ والدكتور محمد حسين هيكل يرى أن المسيحيين العرب الذين كانوا يعيشون في الشام ويقيمون دولة عربية تابعة للدولة الرومانية الشرقية وهم الغساسنة ، كانو بحكم نصرانيتهم يمقتون اليهود أشد المقت لعداوت سابقة بينهم تتعلق بإنكار اليهود لنبوة عيسى عليه السلام واعتقاد النصارى بأن اليهود هم سبب صلب السيد المسيح والتنكيل به ، وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم ، واستعملوا موضوع غيرتهم على الأوس والخزرج وسيلة للاستشفاء من اليهود وكسر شوكتهم ، والقضاء على

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٧٨

(٢) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩/ ٦٩ . الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٠١ ، وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٧

هيمنتهم فجاء أبو جبيلة إلى يثرب بجيوشه واستدرج اليهود بوساطة مالك بن عجلان[١]

ورأي آخر يقول : إن الأوس والخزرج لم يكونوا أهل نعم ولا شاة ، ولأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأغداق الميسرة ، فكانو يحيون الأرض الموات ، والأموال لليهود فلبثوا حينًا من الدهر على ذلك وهم في ضيق حال وسوء حال ، ثم قدم منهم مالك بن العجلان على أبي جبيلة الغساني فسأله عن حالهم فأخبره بضيق حالهم ، فقال له ما بالكم لا تغلبونهم كما غلبنا أهل بلدنا وقدم لنجدته[٢]

وظل اليهود أصحاب يثرب وساداتها حتى جاءت الأوس والخزرج فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين يهود فتغلبوا عليهم وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم فلم يبق يومئذ عليها سلطان[٣]

على أن (إسرائيل ولفنسون) إنما يحاول أن يربط هذه الأحداث التي كانت تجرى في يثرب سواء أكانت بين اليهود والعرب ، أو بين العرب أنفسهم من أوس وخزرج بالسياسة الدولية وقت ذاك وبين الصراع الديني بين اليهودية والنصرانية ، ويجعل من نكسة اليهود في حمير سببا في نكستهم في يثرب ، وأن الدولة البيزنطية إنما كانت من وراء ذلك كله ، فقضت على اليهودية في اليمن بعد حملة أبرهة المعروفة ، والتي أدت إلى جعل اليمن مستعمرة حبشية ثم دفعت بالغساسنة إلى التدخل في شؤون يثرب وتعضيد الأوس والخزرج ونصرتهم ضد اليهود .

وربما كان (ولفنسون) متأثرا في هذا بما ذهب إليه من قبل (جرتيز) حين رأي أن الأوس والخزرج لم يصارحوا اليهود بالعداوة والعصيان ، إلا بعد النكبة التي حلت بيهود اليمن لأنه من غير المقبول ـ فيما يرى ـ أن يضطهدوا اليهود في الحجاز

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٧٩

(٢) دائرة المعارف ـ البستاني ٧/ ٣٧٤

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥١٩

في الوقت الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ، ويتعصبون لدينهم ، ويناهضونهم أو يعتدي عليهم ، أضف إلى ذلك أن مؤرخي العرب كما أشرنا من قبل قالوا أن شمال الحجاز كانت في شبه تبعية للحميريين ، ويضيف (كوسان ده بيستعال) أن واحدًا من الأسر المالكة في اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة في شمال الحجاز .

ويخرج (ولفنسون) من ذلك كله بأن البطون العربية.بقيت في يثرب عصورًا طويلة على موالاة اليهود ومناصرتهم دون أن يظهر عليهم شيء يدل على أنهم يتربصون بهم النوائب إلى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكائد ، وتحرض عليهم زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم ، وأن غسان إنما فعلت ذلك بإيعاز من الروم الذين أرسلوا أسطولهم لمساعدة الحبشة في الاستيلاء على اليمن(١)

وتشتت الآراء وتوزعت حول هذا الموضوع ، فإن آراء المؤرخين.المحدثين إنما يعارضون هذا الاتجاه ، ويرون أن النزاع كان محليا بين العرب واليهود في يثرب وأنه كان بسبب الظروف الاقتصادية ، واعتماد السكان على استعمار الأراضى الزراعية في المدينة ، ويقدمون الدلائل التي تؤكد هذا القول(٢) كما مر من صبر الأوس والخزرج على الفقر والقحط الذي أصابهم وتطلعهم إلى أن يرثوا اليهود في ممتلكاتهم ، ثم جاءت قصة (الفطيون) الذي كان يعتدى على نساء الأوس والخزرج(٣) أو أية نسوة في المدينة قبل أن تزف إلى زوجها ، وكذلك قيام مالك بن العجلان بإتمام القضاء على اليهود مما جعلهم يصورونه في كنائسهم وبيعهم ويلعنونه ـ كما ورد سابقًا ـ وبذلك تمكن الأوس والخزرج من السيطرة على المدينة بعد مذبحتين دبرتا لليهود من قبل مالك بن العجلان .

سيطرت الأوس والخزرج على المدينة واليهود بعد أن تمت السيطرة للأوس

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٧ .

(٣) وفاء الوفا ـ السمهودي ١/ ١٧٧ . تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ٣٤٧، ٣٤٨

والخزرج على المدينة ما لبثت أن وقعت بينهم العداوة والحسد والبغضاء التي أججها اليهود وأوقدوا نارها ، ووجدت في نفوس العرب قبولًا ولكن هذه الحالة التي استمرت حوالي مائة عام شغلت الأوس والخزرج بحروب طويلة ، تخللها علاقات بين اليهود والعرب مختلفة متنوعة منها يرى بعض المؤرخين انتصار العرب على اليهود هو السبب المباشر لوقوع التنافس بينهم ، وخاصة على رئاسة يثرب ، فلم تقبل الأوس أن يتباهى عليهم الخزرج ويصبح لهم الذكر والشرف .

دخل اليهود في أحلاف مع الأوس ضد الخزرج ، أو مع الخزرج ضد الأوس في حروبهم الطويلة التي امتدت قرابة مائة عام ، حيث وقف الأوس في النهاية دون أن ينساقوا إلى اليهود من بني قريظة والنضير ، وقنعوا بحدة سطوة الخزرج ، كما فطن الأوس والخزرج معا إلى ما يسعى إليه اليهود من ضرب كل فريق منهم بالآخر ، حتى تصبح السيادة لهم ، حيث إن الحرب قد أنهكتهم وأكلت منهم الكثير ، وهذا ما توصلوا إليه بعد تلك التجارب المريرة التي قادتهم إلى التفكير بالملكية وتولية أحد زعماء الخزرج ـ عبد الله بن أبيابن سلول ـ ملكًا عليهم[(١)]

تفرق العرب بعد انتصاراتهم على يهود في عالية المدينة وسافلها ، ونزل بعضهم في مناطق كانت مهجورة فعمروها ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قرى يثرب ، واتخذوا الأموال والآطام وابتنوا فيها مائة وسبعة وعشرين أطما[(٢)]

حققت يهود نجاحا بعيد المدى فيما تريد ، ودقت طبول الحرب بين الفريقين تناوب فيها الأوس والخزرج النصر والهزيمة ونتيجة لانتصارات الخزرج الأكثر في الحروب التي دارت بينهم ، فقد رأي الأوس محالفة بنى قريظة ، فأرسلت الخزرج لئن فعلتم فأذنوا بحرب ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : «إنَّا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم». ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود فضلا عن قبائل عربية

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٥١ بتصرف .

(٢) تاريخ العرب في الجاهلية ـ الجميلى ص ١٩٢ ودراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٧٧ فما بعدها .

أخرى ، وأملا في أن يكتب لهم النجاح في القضاء على وحدتهم وبالتالى عودة السيادة لهم في يثرب من جديد .

وهكذا جدد بنوقريظة والنضير تحالفهم مع الأوس والخزرج ، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب ، وخشى الخزرج أن تنزل بهم هزيمة فراسلوا حلفاءهم من بني أشجع وبني جهينة ، وراسل الأوس حلفاءهم من بنى مزينة وهذه التحالفات جرت قبل يوم بعاث[١] ولقد ذل اليهود أثناء سيادة الأوس والخزرج وخافوا ولجأ كل منهم إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافا [٢]

وبعد أن عاش الأوس مع الخزرج في سلام بين القبائل اليهودية التي كانت في المدينة في أيديها أنزلوا إلى مكانة دنيا شيئًا فشيئا ، وكان أكثر اليهود بين الأوس مُفرقين ، ولكن كان منهم عشيرتان قويتان مستقلتان هما بنو النضير وبنو قريظة اللذان اتحدوا مع الأوس وساعدوهم مساعدة حقيقية في حروبهم مع الخزرج[٣]

لقد كانت حرب الفجار الثانية للأنصار قد دخل بها اليهود مدخلا قويًا وعنصرا فاعلاً فيها .

كانت الأوس قد طلبت من قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج ، فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب ، فقالت اليهود : لا نريد ذلك ، فأخذ الخزرج رهنهم على الوفاء ، وهم أربعون غلامًا من قريظة والنضير وقد ذكر هذا في شعر يزيد بن فحم ، عندما شرب وسكر فقال بهذه الأبيات :

هلـم إلى الأحـلاف إذ رق عظمهـم وإذا أصـلحوا مـا لا لجـذمان ضـائعا

إذا مـا امـرؤ مـنهم أسـاء عـمارة بعثنـا علـيهم مـن بنـي العـير مـا دعـا

---

(١)دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٨١

(٢)دائرة المعارف ـ البستاني ٧/ ٢٧٤

(٣)دائرة المعارف الإسلامية ـ خورشيد ٥/ ٢٢٤ ط دار الشعب .

فأمــا الــصريخ مــنهم فتحملــوا وأمــا اليهــود باتخاذنــا بــضائعا

أخــذنا مــن الأولى اليهــود عــصابة للغــدر هــم كــانوا لــدينا ودائعــا

فــذلوا لــرهن عنــدنا في حبالنــا مــصانعة يخــشون منــا القوارعــا

وقتل الخزرج الغلمان فقامت حرب الفجار الثانية كما ورد سابقا ص ٢٩٤ من هذا الكتاب . وفي فترة سيادة الأوس والخزرج استقر اليهود على تجارتهم وزرعهم ، ولم يكن من مصلحتهم ـ وهم أهل زرع وشرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام ـ أن يشتركوا بالحرب أو يشجعوا وقوعها في بلادهم وديارهم وفي جوارهم ، بل كان من مصلحتهم أن يعم الاستقرار في البلاد التي يقيمون فيها ليعيشوا عيشة هنيئة، وليبيعوا ما عندهم إلى الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال وفي النزاع الذي يقع بين القبائل لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب خوفًا من الوقوع في أخطاء تجر عليهم أخطارًا ومهالك هم في غنى عنها وفي مأمن من شرها ، ثم إنهم بتحيزهم لطرف يغضبون الطرف الآخر فيضمر عندئذ شرًا كان لهم ، فيخسرون بذلك مشتريا وبائعًا ، وهم أناس أصحاب سوق وتجارة ، غير أن الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب ، وعلى إثارة الحرب أيضًا حتى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى ، كأنهم ينهكون العدو بحرب مع عدوٍ آخر بإيقاع الفتنة،وإشعال النيران،كما أوقعوا بين الأوس والخزرج لإضعاف الطرفين معًا حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطرًا عليهم .

وفي يوم بعاث استعان الأوس ببني قريظة والنضير ، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الاشتراك في هذا النزاع فتوقفوا ، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس ، وانضم إليهم بنو النبيت ، فلما كسب الأوس الحرب كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج،وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس .

ويذكر أهل السير والأخبار أن يهود يثرب كانوا إذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم ، ففي رواية من بعض الصحابة ـ من الأنصار[١] ـ أنهم قالوا : كنا قد علوناهم في الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبيًا يبعث الآن نتبعه ، وقد أطل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ولما ذكرهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ، ونفر آخرون بدعواهم تلك وبظهور النبي العربي بقولهم لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ... فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ؟ فكان جواب يهود لهم على ما جاء على لسان سلام ابن مشكم ـ أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ؟ وما هو بالذي كنا نذكره لكم ، وقد أشير إلى ذلك بالقرآن الكريم : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][٢]

واستفتاح اليهود على المشركين هو للتفريج عن أنفسهم ، ولتخويف الأوس والخزرج لاعتقادهم حقًا بظهور ـ مسيح منهم ـ أي من بنى إسرائيل ـ ولهذا أنكروا نبوة الرسول وأبوا التسليم بها ، لأنه لم يكن منهم ، ولأن النبوة لا تكون ـ على رأيهم إلا من بنى إسرائيل فكيف يصدقون نبيا عربيا من الأميين (نبى أموت هاعولام neib`e ummot ha-olam[٣] وبمعرض قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) زيادة عن الأصل .

(٢) الطبري ـ تفسير ١/ ٣٢٤ . روح المعاني ـ تفسير ١/ ٢٨٩ تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٨ . في ظلال القرآن ١/ ٩٠ . مجمع البيان ١/ ١٥٨

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٣٧ .

ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة].
ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعا قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج ، كانت الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداء ، وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط مع هذا الحي وذاك من المشركين كان بنو قنقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج،وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى اليهودى من الفريق الآخر ـ وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم ـ وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم ، وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم ثم إذا وضعت الحرب بأوزارها فادوا الأسارى وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا وهنالك عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء[١] وعن ابن عباس أن قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج ، فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الأوس،فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما في التوراة ، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارًا ، ولا قيامة ولا كتابا فأنبأ الله تعالى اليهود بما فعلوه[٢]

مما تقدم نعلم أن العلاقة لم تنقطع بين الأوس والخزرج واليهود بعد أن سادت العرب في يثرب ، بل إن اليهود قد دخلوا في أحلاف ، ودخلوا أيضا في معارك ، ويظهر هذا جليًا في الإسلام كما سيرد من تعصب عبد الله بن أبي لحلفائه بني قينقاع وبنى النضير ، وحكم سعد بن معاذ في حلفائه بني قريظة .

ولقد استغل اليهود الصراع الدامي بين الأوس والخزرج ، وكانوا سببًا مباشرًا في العديد من المعارك والأيام التي حصلت بينهم ، كما مر تفصيلها ، وأيضا حاولوا أن يسيروا على هذا النهج في الإسلام لكنهم فشلوا عندما حاول أحدهم تذكير الأوس

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ١/ ٨٧ ـ ٨٨ .
(٢) مجمع البيان ـ تفسير ـ الطبرسي ١/ ١٥٥ في نفس تفسير الآية السابقة .

والخزرج بأيامهم ومعاركهم ـ كما سيرد تفصيله ـ هذه العلاقة أكسبت اليهود نوعًا من الاستقرار وخاصة أنهم ليسوا معنيين مباشرة في هذه الحروب إلا في بعض أيامها وهذه التحالفات كانت تصب في صالحهم باستمرار حتى ولو دخلوا المعارك مباشرة وأَسروا وأُسروا ، فإن انشغال الأوس والخزرج الدائم بالحروب وتهيئهم المستمر والتنافس جعل من الاستقرار والهدوء تمر على يهود .

إلا أن هذه الفترة قد انتهت بظهور الإسلام وتكذيبهم له بعد ذلك .

٢ـ علاقة الأوس والخزرج بالقوى الخارجية :

تجلى الحديث فيما سبق عن علاقة الأوس والخزرج بعضا ببعض ، وبعد ذلك عن علاقتهما بيهود ومن ثم عن العلاقة مع العرب المحيطين بالمدينة ، ونلقي الضوء الآن على علاقة هذين الحيين من العرب بالقوى العالمية المؤثرة في تلك الأثناء :

١ ـ العلاقة مع الغساسنة :

أفضنا في الحديث عن الغساسنة أبناء جبلة والأوس والخزرج أبناء الحارث أو ابني قيلة كانا أبناء عم ، وحددنا في أي جو بدأ التفرق بينهما ، وكان هذا الفراق قريبا جدا عندما خرج عمرو مزيقيا بأولاده من اليمن ، واتجه إلى مكة ومنها تفرق أبناؤه ولقد اتجه الغساسنة إلى جنوب بلاد الشام وشمال الجزيرة ، حيث كان يسيطر عليها القضاعيون من حمير والذين كانوا آخر ملك العرب (قبل الغساسنة) في الشام ، أو بالأحرى بمشارف الشام حتى جاءهم الغساسنة أبناء عمومتهم فنافسوهم وحلوا محلهم في امتلاك الشام (تحت نفوذ التاج البيزنطي) بعد حروب خسرها الغساسنة في أول الأمر ، وخضعوا لذلك فترة طويلة من الزمن للقضاعيين يدفعون الإتاوة (الجزية) لهم ، حتى نشبت بينهم الحرب من جديد فتغلبت الغساسنة نهائيا ، وأزالوا ملك القضاعيين من مشارف الشام بعد أن قتل أحد محاربيهم (الفتاك جذع الغساني) (سبيطا) ملك القضاعيين عندما طلب منه الجزية التي اعتادت قضاعة أن تقيضها من الغساسنة .

أما متى جاء الغساسنة إلى الشام فليس هناك تحديد دقيق لتاريخ مجيئهم إليها لأن تاريخ ما قبل الإسلام ليس فيه صفة ما بعد الإسلام من حيث الضبط والتحرى ، وربط الأحداث بتواريخها حسب المستطاع ، غير أنه مما لا خلاف فيه أن نزوح الغساسنة إلى الشام ـ إنما كان بعد اليهود بفترة طويلة[١] ـ لأن سد مأرب الذي تفرق بعده أبناء الملك عمرو مزيقيا[٢]، ومنهم الغساسنة إنما كان في أوائل القرن الأول للميلاد[٣]

وكانت النصرانية منتشرة في بلاد الشام واعتنقها الغساسنة وغيرهم مثل : عاملة ، وجذام وكلب ، وقضاعة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستين وهم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة،وأقنوما واحدا.ولذلك سموا أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعى المولود حوالي ٥٠٠م ، وقد دخل في مذهبه ـ كما تقدم ـ الغساسنة ومن والاهم من عرب الشمال ونفذت النصرانية أيضا إلى عرب العراق إلى تغلب وبكر وتغلغلت في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين ، منهم عباد الله ، ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام وإنما كانوا غالبا نساطرة نسبة إلى نسطوريس المتوفي عام ٤٥٠م، وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت ، وأقنوم اللاهوت ، وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر في التنصر ، ويقال أن هند أم عمرو بن المنذر ابتنت ديرًا هناك ، ويقال : بل بنته هند بنت المنذر ، وقد دخل أخوها النعمان النصرانية وهو آخر المناذرة[٤]

والغساسنة كانت أراضيهم تشمل المناطق الواقعة شرقي نهري العاصي والأردن ، وتمتد من شمالي العراق إلى خليج العقبة ، وقد استخدمهم الرومان لصد غارات البدو من العرب ، وليكونوا حاجزا ضد المناذرة اللخميين الذين أقاموا دولة لهم

---

(١) زيادة عن الأصل .

(٢) ورد بالأصل (ماء السماء مزيقيا) ولقب ماء السماء يطلق على (عامر ماء السماء والد عمرو مزيقيا) ، والأخير هو الذي رحل من اليمن كما مر سابقا .

(٣) العرب في الشام ـ باشميل ص ١٨٠ . دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٥٦٤ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ٩٩ـ ١٠١ بتصرف .

بالقرب منهم ، وقد وقعت الحرب بين الحيين رغم أنهم ـ كما تشير المصادر ـ من أصل واحد من عرب الجنوب .

وقد اشتد التنافس في القرن الثالث بين اللخميين (المناذرة) وبين الغساسنة على طرق التجارة في البادية،فاغتنم الفرس هذه الفرصة وساندوا اللخميين ، واتخذوهم عمالا لهم على العراق يردون عن حدودهم الغربية غارات الروم وعملائهم الغساسنة ، وكان النعمان الثالث ٥٨٠ ـ ٦٠٢م أشهر ملوكهم(١)

لما نزل آل غسان الشام خيموا في باديتها من جهة حوران ، ثم سكنوا البلقاء وأذرح واتسعت مملكتهم باتساع سلطناهم فبلغت معظم اتساعها في أيام الحارث ابن جبلة المذكور وأولاده وأصبحت كلمة الغسانيين نافذة في حوران وسائر مشارف الشام وفي تدمر وعلى سائر عرب سوريا وفلسطين ولبنان البدو والحضر

طي	مازن	الأوس
الأشتر	غسان	الخزرج
بجيلة	عدنان	خزاعة
جذام	مزيقيا	
الأزد	أزد	
عاملة	شنوءة	
كندة	نصر	
لخم		
مذجح		
همدان		

وشاد الغسانيون كثيرا من القصور والأديار وأنشؤوا المدن والقرى ، وبنوا القناطر ، وأصلحوا الصهاريج ، ومما ينسبون بناءه إليهم في المواضع والبلاد قسطل

(١) الحضارات ـ لبيب عبد الساتر ص ٢٣٠ بتصرف .

بالبلقاء ومنها أذرح من أعمال الشراة والجرباد بجانبها وسواها[١]

على الرغم من قيام هذه الدول في شمال الجزيرة فإن العلاقة مع الأوس والخزرج كانت علاقة تجارية تقريبا ، باعتبار أن المدينة تقع على الخط التجاري الذي يصل مكة واليمن بالشام ، وقد انشغل الأوس بحروبهم الداخلية ، وانشغل عنهم الغساسنة والمناذرة بحروبهم الدائمة أيضا ، ولذلك فقد بقيت العلاقة مع المناذرة والغساسنة علاقة تعاون في حدود معينة ، فعدا عن مد أبي جبيلة الغساني مالك بن العجلان بقواته التي ساعدت على السيطرة النهائية للأوس والخزرج على المدينة ، نجد أن التاريخ لم يحدث عن استمرار هذه العلاقة أو التعاون العسكرى بينهما أولا لبعد المسافة بين بصري ـ حاضرة الغساسنة ـ ويثرب ، وعدم وجود فترات سلم سواء في الشمال أو في يثرب ليقوى التبادل، وعدا عن الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج فإنهم كانوا يخافون من استعادة اليهود سيطرتهم على المدينة والانتقام منهم لما فعلوه في بداية سيطرتهم على المدينة .

وقد وردت أخبار متفرقة عن علاقة بعض المتنفذين في المدينة مثل «عمرو ابن الإطنابة» الخزرجي الذي كانت له صلة بالمناذرة . ووقوفه لينال ثأر خالد ابن جعفر الذي قتل الحارث بن ظالم ، وهي قصة لا ترحي بعميق الصلة بين هذين الحيين من العرب[٢]

فلما فعل الأوس والخزرج ما فعلوا باليهود ، واعتزوا وكثروا وتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها وملكوا أمرها ، ودخل في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر ، ثم قامت الفتن بين الحيين ، وكل منهم يستنصر بمن حالفه من مضر واليهود رحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فملكة على الحيرة ، واتصلت الرئاسة في الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس[٣]

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ٢٥٩ ـ ٢٦٠

(٢) المدينة ـ الخطراوي ص ١٣٤

(٣) دائرة المعارف ـ البستاني ٧ / ٢٧٥

كما أن الدولتين المناذرة والغساسنة لم يطمعا ببسط نفوذهم على يثرب ، فإن اليثربيين عاشوا أحرارًا لا يدينون بالولاء لفرس أو روم ، أو لأي سلطة خارجية ، حاولوا إقامة الدولة ونظام الحكم[(١)] وهذه الحرية التي كانت في يثرب هي التي أبعدت القوى المحيطة عنهم . ولقد تجلى تعاون الغساسنة مع الأوس والخزرج بعد البعثة النبوية عندما التجأ أبو عامر الراهب (الفاسق) إليهم وحرص على بناء مسجد ضرار - كما سيرد - وكذلك اتصالهم بمن تخلف عن غزوة تبوك خاصة (كعب بن مالك) [(٢)] ، ومحاولتهم جذب بعض الأوس والخزرج عليهم أو نحوهم.

أما علاقتهم بالروم فلم تكن قائمة أصلا ؛ لأن الغساسنة كانوا حاجزين عن دولة الروم العرب ولقد تنصر الغساسنة وتنصر اللخميون أبناء عمومتهم - كما سبق - وكل على مذهبه وبقى الأوس والخزرج على وثنيتهم ، وهذا يعني استقلاليتهم التامة وعدم خضوعهم لأي من هذه القوى ، وكانوا يعظمون الكعبة ويعبدون مناة إحدى آلهتهم ، ولم يتأثروا بالنصرانية التي تمكنت باليمن بعد أبرهة ، ولا بعرب الشمال ، ولا باليهودية التي عايشوها فترة زادت عن ٥٠٠ سنة بين تبعية وسيادة .

وهذا هو التفسير المقبول لبقاء الأوس والخزرج على وثنيتهم هو عدم خضوعهم أو تأثرهم بأي من العقائد السائدة في الشمال أو الجنوب ، ولا يعدم وجود بعض النصارى بين الأوس والخزرج وإليهم يشير حسان بن ثابت في رثائه للرسول ﷺ إن صح أنه له إذ يقول :

فرحت نصارى يثرب ويهودها ... لما توارى في الضريح الملحد[(٣)]

٢- مع الروم :

أما عن صلة الغساسنة مع الرومان فمن المرجح أن الشام قد دخلت في حوزة

---

(١) المدينة - الخطراوي ١٤٥

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٤ / ١٧٤ ، ١٧٩

(٣) تاريخ الأدب العربى - ضيف ص ١٠٠

الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول قبل الميلاد غير أن الرومان منذ ذلك العهد وعرب الشمال يسببون لهم المتاعب وخاصة الأنباط وأهل بتراء، وقد هادن الرومان الأنباط حتى ضعفوا وأصابهم الوهن والتراخي فاغتنم الرومان هذا الضعف الطارئ فانقضوا على الأنباط وأزالوا مملكتهم ، فتوحدت بذلك أقطار الشام تحت سلطان الرومان ١٠٦م .

ولم تهدأ متاعب الرومان من العرب ، ولعل أعظم هذه المتاعب .. أنزلها جيل من العرب في الشام بعد الميلاد وقبل دوران الغساسنة في فلك هؤلاء الرومان ـ ما أصابهم على أيدي التدمريين أذينة الأصفر وزوجته الزباء ، وأدى هذا الانكسار الشنيع إلى تحول كبير في السياسة الرومانية وتجهيز جيوش جبارة للقضاء على التدمريين وكان لهم ما أرادوا .

وفي الوقت الذي كان الرومان يقاتلون التدمريين كان الغساسنة يقاتلون القضاعيين، وقد تغلب الغساسنة على مشارف الشام ، وطردوا القضاعيين منها وكان الصراع على أشده أيضًا بين الرومان والفرس ، فخاف الرومان أن يغتنم الغساسنة هذا الوضع فيسارعوا إلى نجدة الفرس في حربهم ضد الرومان فسارعوا إلى التودد إلى الغساسنة ، وعقدوا معهم معاهدة تضمنت حلفا عسكريا بين الروم والغساسنة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة العلامة ابن خلدون فقال : وتفردوا ت أي الغساسنة ـ بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم والفرس ـ فخاف ملك الروم أن يعين عليهم فارسيا ، فكتب إليهم واستدناهم ، ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جذع بن عمرو قاتل (سبطة القضاعي) ، وكتبوا بينهم الكتاب أي المعاهدة على أنه إذا دهمهم أحد من العرب أمدهم ملك الروم بأربعين ألفا من جنده وإن دهمه أمر مدته غسان بعشرين ألفا منهم وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه[١] . وهذه العلاقة كان يستند إليها الغساسنة لتدعيم ملكهم تحت سلطانهم ، وبذلك بقيت العلاقة شبه مقطوعة بين الأوس والخزرج والروم تقريبًا أما بالنسبة للعلاقة مع الفرس فلم

---

(١) العرب فى الشام ـ باشميل ص ١٩٠ فما بعدها بتصرف .

تورد الأخبار أية علاقة بين الأوس والخزرج والفرس وكما كان الغساسنة دولة حاجزة للروم ضد العرب ، كان المناذرة أيضا دولة حاجزة للفرس ولم تكن بين أهل يثرب والفرس سوى بعض العلاقات التجارية البسيطة أيضا باعتبار أن التجارة التي تمر بيثرب قادمة من الجنوب أو الشمال أو الشرق قد تكون هناك بعض العلاقات والمعرفة التجارية ، وهذا أيضا لم يشر إليه أحد من المؤرخين .

ولم يشارك اليثربيون في أية حروب أو معاهدات أو صفقات كبيرة مع الفرس فإن انشغالهم بحروبهم وبعدهم عن التخوم الفارسية قد ضعف من هذه العلاقة إذا لم تكن القطيعة هي الأصل في هذه العلاقة.

وتشير بعض الروايات إلى أن حسان بن ثابت كان يزور الحيرة ويمدح ملوكها كما كان يفعل مع ملوك الغساسنة ولا يعنى هذا أية علاقة قوية بين موقعين مهما كان مختلفين.

القسم الثالث

الحياة الاقتصادية في يثرب وارتباطها بالحياة السياسية

مدخل :

أوعز الكثير من الباحثين سبب كل ما جرى في يثرب من سيطرة اليهود عليها أولًا ، بأمرها ، وإقامة نوع من الملكية فيها ، وكذلك الحرب التي شنها الأوس والخزرج على اليهود ، وغلبتهم عليهم ،وكذلك الحروب المدمرة الطويلة التي وقعت بين الأوس والخزرج أنفسهم أوعزو كل ذلك إلى الجانب الاقتصادي باعتبار أن المدينة واحة وارفة الظلال ، كثيرة المياه كثيرة الزرع والنخل ، ولذلك كانت هدفا ظاهرا لكل من حاول أو تمكن من السيطرة عليها ومن المؤرخين المحدثين من أكد على هذا الجانب حتى غلبه على الجوانب الأخرى الاجتماعية والسياسة وغيرها ، ويحسن أن نقف على بعض هذه الآراء التي يمكن أن تكشف لنا بعض الجوانب في هذا الموضوع :

أورد صاحب كتاب «دراسات في تاريخ العرب القديم» وبالتحليل الواسع قصة سيطرة الأوس والخزرج على المدينة ، كما فند الآراء جميعها خاصة قصة الفطيون ، وأبو جبيلة الغساني ومالك بن العجلان ، وبعد هذا الشرح يقول[1] : وهنا فيما يبدو لي فإن العامل الاقتصادي قد لعب دورا هاما فيما آلت إليه الأمور فيما بعد ، وتقدم لنا المصادر العربية ما يشير إلى أن العرب في المدينة قد قلبوا الحياة القاسية في أول الأمر لأنهم ما كانو بقادرين على مجابهة اليهود ، فلما اشتد ساعدهم ، وقويت شوكتهم ، سرعان ما تطلعوا إلى وضع اقتصادي أفضل عن طريق مشاركة اليهود في تملك الأراضي الخصبة ، أو مغالبتهم عليها ، وهناك رواية تذهب إلى أن عمرو ابن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضه إن أباكم أنزلكم إلخ

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥٥ وما بعدها .

الحديث الذي سبق إيراده[1] هذا القول وإن أوردته المصادر الغربية في ذكر يوم بعاث ، ومن حالف الطرفين المتحاربين من يهود ، إلا أنه يعطينا فكرة عن اتجاهات العلاقات العامة بين السكان في يثرب ، وأن العامل الاقتصادى إنما كان هو الموجه الأول.

ويذهب (إسرائيل ولفنستون) إلى أن سبب الصراع يعود إلى الصراع العالمى بين اليهودية والنصرانية ، وقد تأثر (ولفنستون) بما ذهب إليه (جرتيز) حينما رأي أن الأوس والخزرج لم يصارحو اليهود عندهم بالعداوة إلا بعد النكبة التي حلت باليهود باليمن[2]

على أن بعض المؤرخين إنما يعارضون هذا الاتجاه ، ويرون أن النزاع كان محليا بين العرب واليهود في يثرب ، وأنه كان بسبب الظروف الاقتصادية واعتماد السكان في المدينة على استثمار الأراضي الزراعية ، ويقدمون على ذلك عدة أدلة منها:

أولاً: استمرار هذا النزاع بين الأوس والخزرج أنفسهم بعد تغلبهم على اليهود ، واشتراك كل طوائف المدينة فيه تبعا لمصلحتها الاقتصادية .. ومنها ومنها ومنها

ثانيًا: إن الصراع لم يكن صراعًا دينيًا ، وإنما كان صراعًا اقتصاديًا بالدرجة الأولى وسياسياً في الدرجة الثانية . تحولت المنافسات التي كانت بينهم وبين اليهود إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض ، أدت في النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين لعبت فيه العوامل السياسية والتنافس على الزعامة في يثرب دورا كبيرا .

هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية ، والتي تتلخص في رغبة كل من الفرقين في الاستيلاء على ما عند اليهود ، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعا أخصب وأغنى من

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٢) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .

تلك التي احتلتها الخزرج في الوقت الذي كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة ؛ لأن نصرة العرب كانت على يد رجل خزرجي هو مالك بن العجلان ، وهكذا كان الخزرج ينفثون على الأوس مكانتهم الاقتصادية ، بينما كانا الآخرون ينفثون على الأولين مكانتهم السياسية(١)

تعاقب على سكني المدينة ـ كما رأينا ـ العمالقة وبنو عبيل واليهود ، ثم قدم الأوس والخزرج من اليمن ونزلوا فيها مع اليهود أو عليهم ، فلم يحسن اليهود جوارهم ، ولم يختلطوا بهم إلا في حدود ضيقة ، وبدافع الاستقلال رغم أن الأوس والخزرج اتخذوا منازلهم في علية المدينة وسافلتها ـ حسب الفروع والأفخاذ ـ ورغم تنازلهم لليهود عن كثير من الحقوق لأنهم كانوا أول الأمر في تخوف منهم ، لما لليهود من وفرة في العدد والعدة وامتلاك الثروة والحصون ولهذا الأمر نراهم عندما أحسوا(٢) بالشيء من القدرة والقوة يبادرون إلى مطالبة اليهود بتوقيع معاهدة حلف وحسن جوار تضمن للجانبين الحقوق وتحدد المسؤوليات ، ويكون بها قوة على سواهم ، ونشأ عن هذا الموقف الجديد شيء من التكافؤ ضمن للعرب كثيراً من حقوقهم الضائعة . وصحبه أيضًا كثير من الرخاء والازدهار الاقتصادى بالمدينة في الزراعة والتجارة وغيرها (٣)

١ـ الزراعة :

كان لطبيعة البلاد ونوعية المناخ تأثير كبير على أنماط العيش عند العرب ، وتحديد نشاطاتهم الاقتصادية ، ففي الوسط حيث الصحاري والجفاف ، فرض على العربي أن يحيا حياة البداوة والارتحال وتربية الماشية ، أما الجنوب والشمال حيث يسود المناخ وتغزر الأمطار، فقد استقر الحال وتعاطي الأعمال الزراعية ، وتفنن في

---

(١) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ بتصرف . العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص ٣٣٤

(٢) وفاء الوفا ١ / ١٧٧ ـ ١٩٠ بتصرف .

(٣) شعر الحرب ـ الخطراوى ص ٢٤

طرق الري ، ولعل سد مأرب في اليمن لحصر المياه وتوزيعها على الأراضي الزراعية هو أصدق دليل على ما وصلت إليه التقنية الزراعية في تلك البلاد[١]

والأوس والخزرج رحلوا بعد خراب هذا السد ، فهم من أصول عاشت على الزراعة والري واستخدام مصادر المياه ، ومع أن خط سيرهم الطويل قبل استقرارهم في يثرب قد أفقدهم شيئًا من المهارة في هذا المجال ، وحولهم إلى حياة البداوة بكل معانيها وتفرعاتها،إلا أنهم استقروا أخيرًا في مدينة تعيش على الزراعة،كثيرة المزارع، وقد استعادوا بذلك معلوماتهم التي فقدوها في رحلتهم من اليمن إلى أن تمكنوا من السيطرة على المدينة وما حولها   وتعتبر يثرب واحة حقيقية ذات تربة صالحة للزراعة ، فأرضها بركانية خصبة تتوافر فيها مياه الأودية والعيون والآبار ، ويأتي النخل في مقدمة الحاصلات الزراعية في يثرب ، فأكثر أموال أهلها النخل ، ومنه معاشهم وأقواتهم ، وخراجها من أعشار النخل والصدقات[٢]

وبالإضافة إلى شهرة يثرب بإنتاج أفضل أنواع التمور ، قامت زراعة الحبوب المختلفة ويأتي الشعير بالمرتبة الثانية بعد التمر ، ثم القمح وأنواع الفواكه كالعنب والموز والرمان والليمون والبطيخ[٣] ومن مصادر الثروة الزراعية أيضًا حب البان ومنها ما كان يحمل إلى سائر البلدان[٤]

وإذا كانت الحياة في مكة قد قامت على التجارة وأدواتها ومشتقاتها ومؤسساتها فإن الحياة في المدينة قامت على الزراعة ، وما يتعلق بها من ماء وإنتاج ، وأدوات عمل ودواب ، ولما وصل المسلمون المهاجرون إلى المدينة لم يطب لهم هواءها ، وأصيب أكثرهم بنوع من الحمى وسبب هذه الحمى هو جو يثرب الزراعي   وقد أصاب المرض أبا بكر وبلالًا وعامر بن فهيرة وقد ذكروا شعرًا في هذا ولما أخبر

---

(١) الحضارة العربية ـ عبد الساتر ص ٢٣٤

(٢) اليعقوبي ـ وفتوح البلدان البلاذرى ص ٧٣ والمسالك والممالك ص ١٢٨

(٣) مكة والمدينة ـ أحمد الشريف ص ٧٣ ـ تاريخ العرب ـ الجميلي ص ٦٨٧

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ٣٥٢

النبي ﷺ بذلك قال «اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة ، وبارك لنا في مدها وصاعها «من المكاييل الأدوات المستعملة لكيل الحبوب ومشتقاتها» .

وعن عروة أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير بن العوام في أشراخ الحرة ، فقال رسول الله ﷺ «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» وأخبرني عن الأشرم عن أبي عبيدة قال: الأشراخ : مسايل الماء في الحرار ، والحرة أرض مفروشة بصخر ، وقال الأصمعي : مسايل من الحرار إلى السهول[1]

وأرض يثرب من أخصب أراضي الحجاز ، فهي أرض بركانية خصبة تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون ، وأرض على هذا النحو من الخصب تكون صالحة للزراعة ، وقد رأينا أن النخيل كان أهم مزروعات يثرب وعليه كان يعتمد سكانها

ومع وجود المجتمع الرعوي الذي يمثله سكان البادية الذين تقوم حياتهم على الرعي واتنجاع الكلأ . والذين لا يرتبطون بالأرض إلا بمقدار ما توفر لهم من ماء وعشب واستقرار مؤقت وهم الأكثرية الكاثرة لبكر وتغلب ، وعبس وذبيان وغيرهم من قبائل البادية.

ويقوم المجتمع الزراعي الذي يمثله سكان الواحات والمناطق الوفيرة المياه كيثرب والطائف والحيرة ؛ إذ ليست كل الجزيرة العربية صحارى قاحلة أو وديانًا جافة ، ويأتي بعده المجتمع التجاري ، القائم على عملية تبادل المنتجات وتأتي على رأسه مكة واليمن والشام[2]

ومن مظاهر الاختلاف بين المجتمعات الثلاث،الرعوي والزراعي والتجاري، أن كلمة (مال) كانت تعني في المجتمع الرعوي الإبل والشاة ، وغيرها من المواشي ، ولعل في قصة[3]. زواج بنات الشاعر الجاهلي الفارس ذي الإصبع العدواني دليلًا على هذا المعنى .

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٢٥ فما بعد .

(٢) المدينة ـ الخطراوي ١٠٤ ـ ١٠٥ بتصرف .

(٣) الأغاني ـ الأصفهاني ٣ / ٥ .

فقد سأل كل واحدة من بناته الأربع بعد زواجهن السؤال التالي مالكم...؟ فأجابته الأولى إنه الإبل وأجابته الثانية إنه البقر وقالت الثالثة إنه المعز ، وقالت الأخرى : إنه الضأن . وفي الأغاني أيضًا أثناء حديثه عن «المرقش الأصغر» ثم انطلق إلى أهله وترك المال الذي كان فيه ـ يعني الإبل التي كان مقيما فيها ـ حياء مما صنع

أما في المجتمع الزراعي فإن الكلمة نفسها تعني الأرض المزروعة وحائط النخل ، يقول أحيحة بن الجلاح :

إني أقيم على الزوراء أعمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال[(١)]

وقال شاعر آخر :

هلم إلى الأحلاف أذرق عظمهم وإذا أصلحوا مالًا بجذمان ضائعًا [(٢)]

ونجد كتب السيرة والأحاديث تتحدث عن رسول الله ﷺ مثلًا : كان في مال بني فلان أو مر بمال لبني فلان : أي بحائط نخلهم .

أما في المجتمع التجاري المكي فهي تعني عروض التجارة أو الذهب أو الورق ، فلما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلًا من الشام قبل وقعة بدر ، ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم واخرجوا إليها،لعل الله أن ينفلكموها» ، وهو يعني أن فيها عروض تجارتهم .

وهكذا احتل الطابع الزراعي في أشعار اليثربيين مكاناً ومن قول أحيحة بن الجلاح:

إني أقيم على الزوراء أعمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

لها ثلاث بنار في جوانبها فكلها عقب يسقى بإقبال

---

(١) الزوراء : حائط نخل كان له ، وذو المال : ذو النخل.

(٢) جذمان: موضع سمي بذلك لوجود نخلة حوله جذمة تبع اليماني . وكلمة مال : تعني هنا النخل .

استفن أو مت ولا يغـررك ذو نـسب ... مـن ابـن عـم ولا عـم ولا خـال

يلـوون مـالهم عـن حـق أقـربهم ... وعـن عـشيرتهم والحـق للـوالي

وقول غيره:

يكلفنـي مـن تكاليفهـا ... نخيـل الأسـاويف والمـصيفة

نخـيلا فمنهـا بنـو مالـك ... جنـود أبـى كـرب المفـضيعة

ويقول كعب بن الأشرف:

ولنـا بئـر رواء عذبـة ... مـن يردهـا بإنـاء يغـترف

ونخيـل مـن تـلاع حجـة ... تخـرج التمـر كأمثـال الأكـف

وقد حوى أدب الأوس والخزرج الكثير من التعابير المتعلقة بالزراعة والآبار والرى والنخل وأصول الزراعة،والتلقيح والحرث وغيرها[1] وكانت في الحجاز ولاسيما ما وقع منه في شمال المدينة عند ظهور الإسلام مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية غرست بالنخيل ، واشتغل أهلها بالزراعة وقد وكان وادي القرى كثير المياه بصورة خاصة بالنسبة إلى باطن جزيرة العرب وعلى مواضع المياه أقيمت مستوطنات وقرى عديدة عاشت على النخيل والزرع ، وعلى القوافل التي تسلك هذا الوادي ، تحمل التجارات ، وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان في غزوات النبي ﷺ تقع كلها شمال يثرب إلى فلسطين ، ومن مكة ويثرب بعض مواضع المياه عاش سكانها على النخيل والقوافل والرعي .

وكذلك وجدت بعض مواضع المياه في (مكة) والعربية الجنوبية .

ومن الأماكن الخصبة (وادي القرى) قرب فدك بينها وبين معدن النقرة وكانت فيه منازل بني النضير[2]

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ١٠٦ فما بعدها .

(٢) تاج العروس ـ مادة غرس ٤ / ٢٠١

ومن المواضع التي اشتغلت في الزراعة (الجرف) ، وهو موضع قرب المدينة على ثلاثة أميال منها كانت أموال (عمر) ، ومنه حديث أبي بكر إنه من يستعرض الناس بالحرث فجعل ينسب القبائل حتى مر ببني (فزارة) [١]، وكان عبد الرحمن ابن عوف يزرع بها عشرين ناضحا ، فكان يدخل منه قوت أهله سنة[٢] أي كان يسقى أرضه نضحًا ، والناضح: البعير ، أو الحمار ، أو الثور الذي يستقى عليه الماء ، والنضح من الحياض : ما قرب من البئر حتى يكون الأفراغ فيه من الدلو ، ويكون عظيما وهي : ناضحة وساقية[٣]

وأرض يثرب وما تبعها من أطراف هي من الأرضين الخصبة ، وقد حفر أصحابها آبارها فيها وسقوا منها ، وغرسوا عليها النخيل ، وزرعوا بها ، واتخذوا لهم الحوائط والبساتين ، ويظهر أن بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنية بالماء لها جملة نواضح ، وهي تظهر أن أهل المدينة كانوا مزارعين وأن مزارعهم كانت تأتى عليهم بمال طيب جعل بعضهم من الأثرياء.

وقد استفيد من شراخ الحرة في سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة ، وقد كانت للزبير بن العوام مزرعة على هذا الشراخ ، كما كان لأنصارى مزرعة عليه كذلك.

وقد ورد ذكرها في كتب الحديث بسبب اختلافهما على السقي .

وتنافي هذه الأخبار المحدثة عن اشتغال الأنصار بالزراعة الأخبار الأخرى التي يرويها أهل الأخبار، وأيضًا الذاكرة أن الأنصار أهل المدينة لم يكن لهم علم بالزراعة ولم يكونوا يقبلون عليها إقبال يهود فدك وخيبر ووادي القرى على الفلاحة .

ويظهر أن رواياتهم هذه إنما نشأت من الوضع السيئ الذي كان فيما بين الأوس والخزرج ومن تقاتلهم بعضهم مع بعض على الزعامة ، وبسبب العصبية القبلية

---

(١) تاج العروس ـ مادة جرف ٦ / ٥٦ .

(٢) الاستيعاب ـ حاشية على الإصابة ٢ / ٣٨٨

(٣) تاج العروس ـ مادة نضح ٢ / ٤٢٠

الضيقة فأثر كل ذلك على الزراعة في يثرب وفيها حولها ، فجعلها متأخرة لاعتداء كل جانب منها على زرع خصمه وقد ألهاهم عن الزرع.

وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها:بالبقيع ، والبقيع الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمكان المتسع ولا يسمى بقيعًا إلا وفيه الشجر ومنه (بقيع الغرقد) ، وقد ورد في الحديث وهو مقبرة مشهورة في المدينة ، سمى بالغرقد بشجر له شوك فذهب (الشوك) وبقى الاسم لازما للموضع ، وبقيع النخل ، وبقيع الحنجية ، وبقيع الزبير وبقيع الخضمان ، موضع عند حزم بني النبيت.

وبيثرب ثلاثة أودية مهمة هي العقيق، وبطحان، وقناة، وفي وادي العقيق عيون ونخيل وقد ذكر في الحديث ، والأودية المذكورة من المواضع الخصبة المنبتة في هذه المنطقة ، ومياهها قريبة من سطح الأرض ، ومن الممكن العثور عليها بسهولة بحفر الآبار فيها ومن الأدوية التي استفيد منها بالزراعة(وادي مهزور) ، وقد ذكر في الحديث ، أنه وادي بني قريظة ، وأن الرسول ﷺ قضى في سيله أن يحبس حتى يبلغ الماء كعبين ، وذكر بعضهم أنه يذكر مع (مذينيب) يسيلان بماء المطر خاصة وهو من أودية المدينة ومن مذينيب إلى مهزور شعبة تصب فيها .

وقد كان بالإمكان استصلاح الأراضي المحيطة بيثرب بحفر الآبار بها، فالماء فيها غير بعيد عن سطح الأرض ، وهو عذب أومج ، ولكن يصلح للشرب ، ولسقى الزرع ، ولما نعمت يثرب بالهدوء في عصر الرسول ﷺ أقبل بعض المهاجرين على الزراعة فيها،فحفروا الآبار وزرعوا عليها،وحوطوها،وجنوا منها ثمرا طيبا ولولا الفتوحات الإسلامية التي اجتابت إليها المهاجرين والأنصار على السواء للخيرات الكثيرة التي كانت في الأرضين المفتوحة لتحولت يثرب إلى بساتين ومزارع منتجة ، تمون الأماكن البعيدة عنها بالتمور والفواكه والخضر

وقد زرع أصحاب يثرب أرضهم بقولا وحبوبًا ومنهم من زرع تحت النخل ، وورد أن مولى من موالي عثمان بن مظعون كانت في يده أرض لآل مظعون بالحرة ،

فكان يزرعها قثاء وبقلًا [١]. ولما صارت أرض بنى النضير خالصة لرسول الله ﷺ كان يزرع تحت النخيل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة ، وما فضل جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله [٢]

وقد كان بنو النضير استغلوا أرضهم ، وأقاموا بها الحوائط ، ولما أسلم مخيريق وهو أحدهم جعل ماله وهو سبعة حوائط وهي المتيب ، والصافية ، والدلال ، وحسنى ، وبرقة ، والأعوف ، ومشربة أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وهي مارية [٣] القبطية فجعلها رسول الله صدقة .

وقد ذكر في بعض الروايات أن أحيحة بن الجلاح ، وكان من أصحاب الأملاك بيثرب كانت له بساتين وأرضون يزرعها ويسقيها بالسواقي ، فلا يعبأ بتأخر المطر وانقطاعه ، ونسب بعض أهل الأخبار إليه هذه الأبيات:

إذا حمــــــادي قطرهــــــا ... إن حنـــاني عطـــف معـــصوف

معــــروف أســـبل جبـــارة ... أســـود كالغـــاب مغـــدوف

يزخــــر في أقطـــاره مغـــدق ... بجافيـــة النـــوع والغريـــف

ويظهر من وجود المصطلحات الآرامية والفارسية والنبطية في لغة زراع يثرب أنهم استعانوا في الجاهلية بالرقيق المستورد من العراق ، ومن بلاد الشام في زراعة الأراضي وإنباتها ، حتى إنهم أخذوا مسمياتها منهم ، ومنها الخربز (البطيخ) في لغة أهل مكة ، و (الخربز) لفظة عربية معربة من أصل فارسى ووردت في الحديث [٤]

قال المحدثون: لما كان النبي ﷺ بظريب التعاويل مقدمه من غزوة ذي قرد قالت بنو حارثة من الأنصار : يا رسول الله ، ها هنا مسارح إبلنا ، ومرعى غنمنا ، ومخرج

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٢٢
(٢) المرجع السابق ص ٣٣
(٣) المرجع السابق ص ٣١
(٤) جواد علي ـ تاريخ ٧ / ٤٠ ـ ٤٣

نسائنا ـ يعنون موضع الغابة ـ فقال رسول الله من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية ، فغرست الغابة .

وأضافوا أن رسول الله ﷺ قضى في مهزور أن يحبس الماء في الأرض إلى الكعبين فإذا بلغ الكعبين أرسل إلى الأخرى ، ولا يمنع الأعلى عن الأسفل . كما قضى بسيل طحان بمثل ذلك . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قضى ﷺ في سيل مهزور أن لأهل النخل إلى العقبين ولأهل الزرع إلى الشراكين ، ثم يرسلوا الماء إلى من هو أسفل منهم . وقال ﷺ : «بطحان على ترعة من ترع الجنة»

وقالوا: أشرفت المدينة على الغرق في خلافة عثمان من سيل مهزور حتى اتخذ له عثمان ﷺ ردمًا . قال أبو الحسن: وجاء أيضًا بماء مخوف عظيم في سنة ست وخمسين ومائة فبعث إليه عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو الأمير يومئذ عبد الله ابن أبي سلمة العمري فخرج وخرج الناس بعد صلاة العصر ، وقد ملأ السيل صدقات الرسول ، فدلتهم عجوز من أهل العالية على موضع كانت تسمع الناس يذكرونه ، فحفروه فوجدوا الماء منسربًا ، ففاض منه إلى وادي بطحان قال : وعن مهزور إلى مذينيب شعبة يصب فيها[١]

وقد وجد (فيلبي) [٢] وغيره من السياح ممن زار هذه الأرضين الواقعة شمال يثرب آثار مستوطنات جاهلية كثيرة ، وآثار قنوات وآبار ومسايل مياه ، تدل على أنها كانت عامرة مزروعة وأن في الإمكان إحياءها ، وأن آفة اندثارها هو كثرة الغزو الذي وقع عليها ، وعدم وجود حكومات تدافع عنها ويحميها من غزو الأعراب ،

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ٢٣ ـ ٢٤

(٢) سير جونت فيلبي (عبد الله فيلبي) بريطاني عمل في فترة تجزئة الدول العثمانية ، وكان على صلة بالحكام الذين ظهروا وتعاقبوا على السعودية عند تأسيسها والأردن والعراق أعلن إسلامه وقام بعدة رحلات حول الربع الخالي ، وكتب عدة كتب منها : أرض الأنبياء ، تاريخ نجد وغيرها ولقد كان ذا تأثير كبير ونفوذ سياسي واضح في القوى التي تحالفت ضد العثمانيين في الوطن العربي ـ المؤلف .

الذين كانوا وباء بالنسبة للحضر ينهبون ما يجدونه أمامهم ويحرقون الزرع ثم يهربون [١]

وعرفت يثرب وما حولها وما وقع أعلاها إلى بلاد الشام بكثرة نخلها ، هو نخل زرع سككا في بساتين على طريقة الأنباط في أمصارهم ، ولا يخافون عليها كيد كائد تتخلله السواني والسواقي لتسقيه ، فيثرب حوائط وآطام عاش أهلها على الزرع والغرس والجلاد[٢] وقد أشير إلى كثرة نخل يثرب في شعر ينسب إلى الشاعر امرئ القيس فنعتها بجنة يثرب :

علـــون بأنطاكيـــة فـــوق عقمـــة   كجرمـــة نخـــل أو كجنـــة يثـــرب

وقد افتخر كعب بن مالك يوم الخندق على قريش بأن غرسوا النخل حدائق تسقى بالنضح من آبار من عهد عاد إلى آبار قديمة جدًا فهي تسقي النخيل المغروسة عليها،ولهم رواكد فيها (الغاب) و(البردي) تزخر فيها نهر (المرار) ولهم الزرع الذي يتباهي بسنبله الجميل لا سيما إذا أصابته أشعة الشمس ، لم يجعلوا تجارتهم اشتراء الحمير لأرض دوس أو مراد ، بل أثاروا الأرض وحرثوها وغرسوها على نحو ما تفعل النبط في أمصارها ، لا يخافون عليها كيد كائد دلالة على عز أهل يثرب ومنعتهم،وأنهم لم يغلبوا على بلادهم من قديم الدهر،كما أجلبت أكثر الأعاريب عن محالها، وأزعجها الخوف عن مواطنها[٣]، ولحماية الشجر أحاطوا الأرض المشجرة بحائط مرتفع قدر الإمكان ليمنع الناس أو الحيوان من دخولها ، والاعتداء على شجرها أو ثمرها، ويقال لها (الحائط)، و(الحائط أو البستان ، وقد أطلقت اللفظة على البستان من النخل في الغالب ، وكانت يثرب آنذاك ذات (حوائط) وقد أشير إليها في الحديث الشريف ورد ألا على أهل الحوائط حفظها في النهار ـ يعني البساتين[٤]

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٧ / ٧١

(٢) الروض الأنف ـ السهيلي ٢ / ٢٠٧

(٣)جواد علي ـ تاريخ ٧ / ٧١ ـ ٧٢ . سيرة ابن هشام ٢ / ٢٠٧ حاشية على الروض الأنف : للسهيلي .

(٤) جواد علي ـ تاريخ ٧ / ٧٧ مادة حوط في تاج العروس ٥ / ١٢٣

فمدينة يثرب إذ تقوم حياتها أساسًا على الزراعة ، وكانت بها أودية وآبار كثيرة منتشرة هنا وهناك ، وأشهر أوديتها ـ كما سبق ـ العقيق وبطحان والأخير يسميه الناس الآن باسم آخر وهو وادى أبو جبيلة بالإضافة إلى اسمه التاريخي وهو بسكون الطاء .

قال الشاعر:

أبـــا ســـعيد لم أزل بعـــدكم في كـــرب للـــشوق تغـــشاني

كـــم مجلـــس ولي بلذاتـــه لم يهنـــي إذ غـــاب نـــدماني

ســـقيا بـــسلع وســـاحتها والعـــيش في أكنـــاف بطحـــان

أمـــسيت مـــن شـــوق إلى أهلهـــا أدفـــع أحزانـــا بـــأحزان

وجو يثرب على العموم خير من جو مكة والطائف ولم يعان أهلها ما عاني أهل مكة شح في الماء ، فالماء متوافر فيها ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة ، ولهذا كان في إمكانهم زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق ، وروى الحربي من طريق هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قدم رسول الله المدينة ووادي بطحان نجل يجترئ عليه الإبل ، أي واسع فيه ماء ظاهر

ولما نزل تبع حول يثرب بعث رائدًا ينظر إلى مزارع المدينة فأتاه فقال : قد نظرت فأما قناة[1] فحب بلا تين ، وأما الحرار[2] فلا حب ولا تين ، وأما الجرف[3] فالحب والتين،وهذه الخيرات الكثيرة،والمياه الغزيرة لم تفلح في خلق مناخ حضارى ملائم، ولا أمكنتهم من معالجة مشاكلهم بالتؤدة والروية ، شأن الإنسان المتحضر عادة ، بل عاشوا وسطًا بين المجتمع المكي التجاري والمجتمع الرعوي البدوي ، وكانوا

---

(١) وادي قناة شمالي المدينة ، جنوبي أحد مباشرة وهو جزء من وادي أخم .

(٢) الحرار جمع حرة وهي الأرض القاحلة ذات الحجارة السوداء .

(٣) هو موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام وبه بئر جشم ، بئر جبل ، قالوا : سمي الجوف لأن تبعًا مر به فقال : هذا جرف الأرض .

للبداوة أقرب سبيلا ومنوالا فقام الصراع في يثرب بادئ ذي بدء بين اليهود والأوس والخزرج وفي أحلاف عديدة ومتنوعة [١]

ومع ذلك فرغم أن الزراعة تعتمد في أساسها على استغلال جميع عناصر المعادلة الحضارية من أرض وإنسان وزمن،وتدل من الناحية الفعلية على حسن استخدامهم للوسائل الذاتية الميسرة للإنسان ، دون أي تدخل خارجي ، بما يعطي إيماءة كاشفة للمستوى الفعلي والفكري الذي بلغه اليثربيون ، فإن العرب الرعاة في البادية والعرب التجار في مكة كانوا ينظرون إلى الزراعة والزراعيين بتأفف وتقزز ، وبشيء من الاستنقاص في ذلك العهد على الأقل ، ومن هنا أطلق بعضهم كلمة أنباط على اليثربيين على اعتبار أنهم يشتغلون بالزراعة كالأنباط ، ولهذا قال أبوجهل وهو عقير في بدر لما علم أنه قتيل ابني عفراء من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق : لو كان غير أكار قتلني أو لو كان غير زارع قتلني [٢]

٢ـ الصناعة :

الصناعة حرفة الصانع ، وعمله الصنعة ، ورجل صنيع حاذق في الصنعة ، وعماد الصانع على يديه يستعملها في صنع الأشياء ، كما يعتمد في ذكائه في تحويل الأشياء إلى أشياء أخرى أهم منها أو أي شيء آخر يريده ، أو يطلب منه وهو بالطبع من أهم العناصر المنتجة اللازمة في الحياة الاقتصادية ، فهو محرر الإنتاج ، وعلى قدر إنتاج أمة (من الأمم) يقاس غناها ، ومقدار تقدمها في الحياة ، وتكون منزلتها بين الشعوب ، فبالصناعة يتم تحويل المواد الخام الفائضة عن الحاجة إلى مواد أخرى أفيد منها ، تستهلك في الأسواق المحلية ، أو تباع في الأسواق الخارجية.

والحرفة :الطعمة والصناعة التي يرزق منها،وهي جهة الكسب،وكل ما استغل الإنسان وجرى به أي أمر كان فإنه عند العرب يسمى صنعة (حرفة) يقولون: صنعة فلان أن يعمل كذا ، وحرفة فلان أن يفعل كذا ، يريدون دأبه وديدنه .

---

(١) شعر الحرب ـ الخطراوي ص ٦٥ ـ ٦٦

(٢) المدينة ـ الخطراوي ٢٠٤ ـ ٢٠٥

ذكر أن علي بن أبي طالب قال: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة، فإن قالوا : لا ، سقط من عيني .

وروى عن الرسول ﷺ أنه قال «لأن يأخذ أحدكم حبلا ويحتطب ، أحسن عليه أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

والمهنة عند العرب : الحذق بالخدمة والعمل، وامتهنه: استعمله للمهنة وابتذله ، والماهن العبد ، والمعدم والمهنة العمل ، والعامل هو الذي يقوم بعمل ما ، والعملة : العاملون بأيديهم ، وهم الذين يرتزقون بعمل أيديهم .

وأغلب (العملة) فقراء ، لا يملكون شيئا ، رزقهم بعملهم ، فإذا مرض أحدهم بعاهة انقطع رزقه ، ثم إن أجورهم قليلة ، وأرزاقهم من عملهم شحيحة ، ولذلك كانت حياتهم ضنكة.

والحرف : أي العمل باليد من الأمور المستهجنة عند العرب ، وعند أكثر العرب أيضًا ، فلا يليق بالعربي الشريف الحر أن يكون صانعا ؛ لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم ، والأعاجم والمستضعفين من الناس ، وإن الصانع من الطبقة التالية في المجتمع ، والناس يزدرونه على الرغم من احتياجهم إليه ، والصانع من الطبقة التالية في المجتمع ، وأيديهم هي التي تصنع ما يحتاج الإنسان إليه من حاجات ، ومدحهم الرجل الصنع باليد بقولهم: «رجل صنع اليدين» أي حاذق ماهر ، في الصنعة جيد من قوم صنيعي الأيدي حتى إنهم كانوا إذا وصفوا إنسانا بالبلاغة قالوا : رجل صنع اللسان ، ولسان صنع .

قال الحسن بن ثابت :

أهدى لهم مدحي قلب يؤازره فيما أراد لسان حائك صنع

ولا يقوم صناعة إلا في مكان تتوفر فيه إمكانياتها من استقرار وأمن ، ومن وجود حاجة إليها ، ومن توفر المواد الأولية فيها ، والمواد الخام اللازمة لها ، ومعنى هذا وجود مكان حضري ، أما البداوة فحاجتها إلى الإنتاج قليلة لسذاجة الحياة وبساطتها فيها.

والمجتمعات البدوية مهما كانت البداوة أو البدائية ، فإنها لا تخلومن وجود صناعات بدائية هي من ناتج حاجات المجتمع ، وناتجها يتناسب بالطبع مع حالة تلك البداوة ، ولا يصح نفي وجود الصناعة فيها وقد لعب الرقيق والموالي دورا كبيرًا في أعمال الحرف والزراعة في جزيرة العرب ؛ إذ استخدموا في التعدين وفي الزرع وقد ذكر (الهمذاني) أنه كان عند (شمام) ألوف من المجوس الذين يعملون المعدن ، حتى إنه كان لهم بيت نار يعبدونها في ذلك المكان(١)

ومن الحرف المتداولة بين الجاهليين النجارة والحدادة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والبناء ونحوها من حرف يحترفها الحضر في الغالب ، أما الأعراب فقد كانوا يأنفون من الاشتغال بها ، وينظرون إلى المشتغلين بها نظرة احتقار وازدراء ؛ لأنها في عرفهم حرف وضيعة خلقت للعبيد والرقيق والموالى ، ولا تليق بالحر ، حتى إن الشريف منهم وذو الحياء كان لا يحضر وليمة يدعوه إليها شخص من أصحاب هذه الحرف استنكافاً وازدراء؛ لأنه ليس في منزلته ومكانته . وقد كان عمل الرسول ﷺ عظيماً وكبيراً في نظر رؤساء القوم حينما جوز حضور طعام الخياط والصانع وأمثالهما ، وكان يحضر منازلهم ، فعد القوم ذلك عملا غير مألوف، ومخالفًا للعرف والتقاليد . وكان أهل القرى ينظرون إلى الحرف والمحترفين نظرة بها ازدراء كذلك ، و يأنفون لذلك من التزاوج معهم ، ويعيرون من يتزوج من امرأة أبوها قين أو نجار أو دباغ أو خياط ، ويلحق هذا التعيير الأبناء كذلك(٢)

والحرف وراثية في الغالب يتعلمها الابن عن والده وتنحصر في العائلة فتنتقل بين الآباء إلى الأبناء ولا يسمح لقريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها(٣)

وينضم أصحاب الحرف بعضهم إلى بعض مكونين (صنفا) أي طبقة خاصة تتعاون فيما بينها تعاون النقابات الحرفية والمهنية في الوقت الحاضر ، وتجمع رجال

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٧/ ٥٠٥ ـ ٥٠٧ بتصرف .
(٢) جواد علي ـ ٧/ ٥٤٣
(٣) المرجع السابق ـ ٧/ ٥٤٥

بعض الحرف في أماكن معينة ما هو الحال في الوقت الحاضر ، وقد تشتهر مدينة بحرفة من الحرف ويكون لمنتوجها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية[(١)]

بعد هذا السرد الطويل عن علاقة الصناعة بالمجتمع العربي قديمًا خاصة مجتمع البداوة فإن هذا الأمر ينطبق بكليته على يثرب ، خاصة أن الفترة التي كانت يسيطر فيها الأوس والخزرج على مقادير الأمور في المدينة ، وشغلوا بها بأيام طويلة من الحروب الطاحنة ، قد انشغلوا عن أوضاع أو عن أمور الصناعة أو التفكير بها ، وهي بالأصل بعيدة عن تفكيرهم كمجتمع شبه بدوى ، لكن وجود الصناعات قائم لتوفر شروطه فمنها حاجة الناس إلى كثير من المصنوعات ـ الألبسة ، والأغذية والأسلحة ، وأدوات الزراعة وما يرتبط بها من صناعات ضرورية كسكة الفلاحة وأدوات الربط بالحيوان وأدوات الزرع والدرس والطحن.

كما أن يثرب كانت حافلة بالعديد من الموالي الذين مارسوا مهنة الصناعة الضرورية من جهة ، ووجود اليهود الذين احترفوا كثيراً من الصناعات ـ وعلى الخصوص ـ الصناعات أو الحرف التي تدر أموالًا طائلة كالصياغة وشحذ الأسلحة ، وما يتعلق بها . وقد احتفظوا بأسرار هذه الصناعات مستغلين أن العرب تأنف من العمل الصناعي أو اليدوي ، وقد علق بعضهم على أن الصناعة ككل لم تعرف طريقها إلى العرب في الجزيرة عامة إلا نادرا وفي ممالك الجنوب اليمني أكثر من الشمال وقد أعطى أسبابًا منها قلة المواد الأولية ونفور العربي من العمل الصناعي ، واعتباره من العيوب وقد اقتصرت صناعتهم على دبغ الجلود ، وحياكة الثياب وصقل السيوف[(٢)]

و (القرظ) من أهم ما استعمل في دباغة الأدم يجلب فيطحن بحجر الطواحين ، ثم يستعمل في الدباغة ، ومن العقيق يجلب إلى مكة لاستعماله في الدباغة ، وقد أشار

---

(١) المرجع السابق ـ ٧/ ٥٤٦ .

(٢) الحضارة العربية ـ لبيب عبد الساتر ص ٢٣٤

بعض الإخباريين إلى ضخامة حجر الطواحين الذي يطحن به (القرظ)[1]، وقد ورد في بحثنا هذا تعريف لغوي (للقرظ) الذي استمد بنو قريظة لقبهم منه فعرفوا (بنو قريظة) ومفردها (قرظي) من اليهود وهذا يدل على أن هذا اللقب جاءهم من استعمال مادة القرظ في دبغ الجلود ، وأصبحت اللفظة علما عليهم كما هي أسماء الصفات لفظًا على شريحة كبيرة من المجتمع العربي الآن كالخياط والحداد والنحاس والنجار .. إلخ .

وقد انتشرت مهنة البناء في يثرب وعرف هذه المهنة الكثيرون، وكذلك استخدام المواد الأولية المساعدة على ذلك كالتراب والحجارة والطوب والأخشاب ، وكل الروايات تشير إلى سرعة إنجاز مسجد رسول الله ﷺ ومسكنه في أيدى المسلمين ، ثم إن الرسول أمر باتخاذ اللبن فاتخذ ، وبنى به المسجد ورفع أساسه من الحجارة وسقف بالجريد ، وجعلت عمده جذوعا[2]

أما من الناحية الصناعية قامت في يثرب بعض الصناعات البسيطة ، كصناعة الخمور المستخرجة من التمور ، ثم صناعة المكاتل والتنف من سعف النخل ، كما برع يهود بنى قينقاع بصناعة لتحف المعدنية كالحلى وأدوات الزينة ، ثم صناعة الأسلحة والدروع[3]

واختصت يثرب أيضاً بصناعة التحف المصنوعة من المعادن كالحلى ، وأدوات الزينة وبصناعة الأسلحة والدروع ، وقد احترف اليهود خاصة يهود بني قينقاع هاتين الصناعتين ، ولذلك غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع من المدينة كثيرًا من الدروع والسيوف والأقواس ووجدوا في حصونهم سيوفًا وسلاحًا كثيرًا ، وآلة للصياغة ، كذلك غنم المسلمون من بني قريظة ألفًا وخمسمائة سيف وألفي رمح ،

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٧/ ٥٣٦ .

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٢٠

(٣) تاريخ العرب ـ الجميلي ص ١٨٨ العرب قبل الإسلام ـ زيدان ٢٨٠ ـ ٢٨١ . تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٥٣

وألفا وخمسمائة ترس ومحفة وثلاثمائة درع[(١)]

وعلى العموم ، فإن الصناعة بمعنى الصناعة التي يتخذ الحرفيون فيها عملهم خالصاً في حياتهم يتوارثه صغيرهم عن كبيرهم ، أو تقوم وراءه تجمعات بشرية ـ صناعية ، أو أهل حرفة متوارثة ، لم يكن هذا في عرب يثرب إطلاقًا ، حتى قضايا الصناعة الصغيرة فقد كانت بعيدة عن تفكيرهم ، ولو أنهم جاؤوا ببعض العبيد والموالي لمزاولتها والقيام بها ، إلا أن هذه التجمعات كما هي من حيث التشكيل الحرفي والحياتي ، فقد وجدت بشكلها البدائي في اليهود ، ووجدت لديهم بعض الصناعات التي احتفظوا بأسرارها مستخدمين المواد الأولية المتوفرة ، خاصة الزراعية منها والفائضة عن استهلاك الآدميين والبهائم مثل التمر وكذلك بعض أشجار النخيل التي ساعدت في صناعة الخص ، وسقوف المباني وغير ذلك.

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود النسيج ، وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر والصياغة وقد اختص به بنو قينقاع ، والحدادة وهي صناعات يأنف منها العرب ويزدرونها ، ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة[(٢)]

وكانت في يثرب مصانع للأسلحة ، فقد كانت تصنع فيها الدروع ، وكان اليهود هم القائمون على صناعتها كذلك كانت تصنع السيوف والسهام ، وأخذت صناعة السهام فيها شهرة كبيرة حتى قيل أجود السهام سهام يثرب ، وكانت هذه الأسلحة على اختلافها عزيزة عليهم ، ولا يستغنون عنها ولا يفرطون فيها ، وكان الرجل منهم يهتم بسلاحه كما يهتم بولده ، ولقد قبل كعب بن الأشرف اليهودى رهن الأسلحة عنده بدلا من رهن الأبناء[(٣)]

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ص ٣٥٣ نقلاً عن مغازى الواقدى ص ١٤٢ لطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣- ١ / ٥٤ طبعة ليدن ، فتوح البلدان ـ البلاذرى ص ٣١ أموال بنى النضير .

(٢)جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦ .

(٣)يثرب قبل الإسلام ـ السيد الوكيل ص ١٣٢

٢- التجارة:

على العكس من الصناعة فإن التجارة قد ازدهرت في يثرب بشكل كبير ، والتجارة كانت مهنة لدى عرب الحجاز شريفة ومقبولة ، ولكن لا يعني هذا أن وصلت يثرب في جميع حالاتها أو موازنتها ، أو مقارنتها بما كان في مكة من تجارة ونشاط تجاري ، وتحرك وتجمع وتجارة الصيف والشتاء .

ومارس عرب الجزيرة التجارة يساعدهم على ذلك أمران: موقع بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ أقدم العصور،وكثرة الطرق التجارية التي تخترق بلادهم ، فكان العرب يقومون بدور الوسيط التجارى بين شعوب حوض البحر المتوسط ، وشعوب المحيط الهندى ، ويسيطرون على طرق التجارة البحرية في المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربي ، ويحتفظون لأنفسهم بأسرارها ، كما كانوا يتحكمون بطرق القوافل البرية . وقد بقى أهل اليمن أسياد التجارة العربية حتى سقوط مملكة (حمير) في القرن السادس الميلادي ، وبعد ذلك انتقلت الزعامة ولكن على نطاق أضيق إلى مدن الحجاز الثلاث مكة يثرب ، الطائف ، وأما الأسواق فقذ كثرت وتنوعت في أنحاء الجزيرة لتسهيل عمليات التبادل ، والتبادل الأدبي ، والتنافس ، والتنافس القبلي والاجتماعي ، وكان أهمها : عكاظ ، دبي ، عدن[(١)]

كان الاشتغال بالتجارة من الأعمال الرئيسية في يثرب ، ففيها نشطت حركة التجارة الداخلية . وكانت تقام بيثرب الأسواق المختلفة لبيع التمور ، والشعير والحطب والصوف والسلاح،ومن الأسواق المعروفة في الجاهلية:سوق بني قينقاع، وسوق زبالة ، وسوق الجسر ، وسوق الصفاصف ، وسوق البطحاء ، وفيها كان بنو سليم يبيعون النخيل والإبل والغنم والسمن ، وكانوا يجلبون إلى أسواق يثرب والطائف : الزبيب ومن اليمن المنسوجات القطنية والحريرية ، ومن الشام الحنطة، وكانت التجارة مع الشام واليمن تتبع الطريق البرى المعروف ، والطريق البحري عبر البحر الأحمر.

(١) الحضارة العربية ـ لبيب عبد الساتر ص ٢٣٤

ويذكر اليعقوبي أن البحر الأعظم (البحر الأحمر) منها على ثلاثة أيام ، وساحلها موضع يقال له الجار ، وإليه ترسي مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام من مصر ، وكانت الجار على حد قول ياقوت فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ، ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند . وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلًا في ميل لا يعبر إليها إلا بالسفن،وهي مرسى الحبشة خاصة يقال لها قراف، وسكانها تجار كنحو أهل الجار(١)

وكان لموقع يثرب على طريق القوافل التجارية بين اليمن والشام أثره في نشاط الحركة التجارية فيها ، فكانت تصل إلى يثرب منتجات الشام واليمن سالكة الطريق البرى ، والطريق البحرى عبر البحر الأحمر وأقيمت الأسواق التجارية ، ومن أشهر تلك الأسواق في الجاهلية : سوق بنى قينقاع وسوق زبالة وسوق الصفاصف وسوق البطحاء(٢)

كانت حياة يثرب قائمة على الزراعة ، لكن ذلك لم يمنع من وجود بعض الأسواق التجارية اللازمة فيها وكانت في الأعم الأغلب بيد اليهود وتحت رحمتهم وأشهر أسواق يثرب

أ ـ سوق زبالة : وكانت تقع في الناحية التي تدعى يثرب وهي في شمال لمدينة .

ب ـ سوق الجسر وكانت على طرق بطحان بين المراكشية والشرفية الآن ـ وتعرف هذه السوق بسوق بنى قينقاع ، ويبدو أنها كانت أهم أسواق يثرب بحيث يأتيها الناس من كل مكان ، فقد أتاها النابغة الذبيانى عندما زار يثرب ، وفي أثناء ذهابه لها التقى بالشاعر اليهودي (الربيع بن أبي الحقيق) نازلا في أطمة ، فلما أشرفا على السوق سمعا منها ضجة كبيرة ، وذلك لكبرها واتساعها وازدحامها بالحركة والنشاط ، فحاصت بالنابغة ناقته ، وكادت توقعه من فوقها

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان مادة الجار ٢/ ٩٢ ، تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ٣٥٢ ـ ٣٥٣

(٢) تاريخ العرب ـ الجميلي ص ١٨٧

جـ ـ سوق الصفاصف : وكانت بالعصبة غربي قباء في منازل بني جحجبا

د ـ سوق مزاحم ويبدوا أنها كانت سوقا صغيرة لأن المراجع التي بين أيدينا اكتفت بذكرها ، ولم تزد على ذلك ، والغالب أنها قرب أطم مزاحم .

إن الطابع العام الغالب على أسواق يثرب أنها محلية ، فلم تكن كالأسواق العربية الأخرى المشهورة التي وردت لشهرتها في الأشعار : كسوق دومة الجندل ، وسوق هجر ، وسوق عمان وسوق المشقر ، وسوق حمار ، وسوق صنعاء ، وسوق حضر موت ، سوق مجنة ، وسوق عكاظ .

وكانت التجارة الخارجية بيد بعض الأوس والخزرج ، غير أن أكثرها كان بيد اليهود فيأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات ، ويقدمون بالبر والشعير والتبن والقماش وغيرها من الأشياء التي تزخر بها بلاد الشام ، وكان اليهود بجانب ذلك يقومون بتسقط الأخبار لفائدة الروم ، وظهر ذلك بينا عند ظهور الإسلام .

ومما يدل على صلة يثرب التجارية مع غيرها من مدن عصرها مكة هو قصة إسلام سعد بن عبادة ورفاقه ممن بايعوا بالعقبة ـ كما سيرد تفصيلا .

وكثيرا ما كانت الأسواق التجارية مجالا للتسكع من الشباب العاطل أو المتفرغ عن العمل ، أو الذي يطلب النزهة عند ازدحام الأقدام ، فيكون ذلك سببا في نشوء النزاعات والخلافات ومنها السبب الذي أدى إلى اندلاع حرب سمير[(١)]

ولم تكن يثرب بمعزل عن النشاط التجاري في الجزيرة العربية ، بل إنها اشتركت فيه إلى حد كبير بجانب نشاطها الأساسي في المجال الزراعي ، فكانت القوافل تصدر منها للاتجار وتأتيها القبائل المجاورة للتزود والاتجار ، ففيما كان أبو سفيان والمشركون راجعين من معركة أحد ، مر به ركب من عبد شمس وهو بالروحاء ، فقال لهم أين تريدون؟قالوا: نريد المدينة . قال: ولم ؟ قالوا: نريد الميرة قال: فهل

---

(١)شعر الحرب ـ الخطراوى ص ٦١ فما بعدها بتصرف . المدينة ـ الخطراوى ١٥٧ فما بعدها .

أنتم مبلغون محمدا عنا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل إبلكم غدًا زبيبا بعكاظ ، إذا وافيتموها قالوا : نعم .. إلخ الخبر[١] وكان أهل مكة إنما يشترون ما يلزمهم من تمر من أسواق يثرب فقد جاء عن الزهرى أن عبد المطلب بعد أن زوج ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب أرسله إلى المدينة يمتار لهم تمرًا ، فمات عند أخواله بني النجار[٢]

والعلاقة التجارية بين يثرب ومكة قديمة ، فقد جاءت الأخبار بأن هاشم ابن عبد مناف شخص بتجارة له إلى الشام ، فمر بالمدينة ونزل فيها على عمرو ابن زيد ابن لبيد الخزرجي النجاري فرأي ابنته سلمى بنت عمرو فأعجبته فخطبها من أبيها وتزوجها أثناء رجوعه من الشام في أهلها في يثرب[٣] والذي نستطيع تسجيله حول هذه الأسواق أن بعضها كان للخزرج كسوق مزاحم ، وبعضها كان للأوس كسوق القصبة ، وبعضها كان لليهود كسوق الجسر أو بنى قينقاع[٤]

وكان أهل يثرب مثل غيرهم تجاراً يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها ، وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشام ، وكان (يهود) يثرب يتاجرون أيضًا ويأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات ، كما كانت (الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والإسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون بالشام) وكانوا يتسقطون الأخبار وينقلونها إلى الروم عند ظهور الإسلام ، وتقدم الساقطة المدينة وأبو بكر ينفذ الجيوش ، وسمعوا كلام أبى بكر لعمرو بن العاص وهو يقول عليك بفلسطين وإيلياء (فساروا بالخبر إلى الملك هرقل) وتهيأ لملاقاة المسلمين .

ولم يذكر الرواة جنس هؤلاء الساقطة الذين كانوا يأتون بالتجارة من بلاد الشام إلى المدينة ـ هل كانوا روما أم عربا ، يهودا أم كانوا خليطا من هؤلاء ـ؟ ولشراء ما

---

(١) الطبري ـ تاريخ ٢/ ٥٧٦
(٢) الطبري ـ تاريخ ٢/ ٢٤٦
(٣) المرجع السابق ٢/ ٢٤٧ . المدينة الخطراوي ١٢٥ فما بعدها .
(٤) المدينة ـ الخطراوي ص ١٢٦

يجدونه هناك وبقوا شأنهم هذا إلى الإسلام[١]

وكان اعتماد اليهود في يثرب عند ظهور الإسلام على التجارة ومعاطاة الربا والزرع، وبعض أنواع الصناعة ، كالصياغة وتربية الماشية والدجاج ، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام وكانوا يبيعون بالرهن ، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه .

وقد ورد أن الرسول ﷺ رهن درعا له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان له به حاجة شديدة .

ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين،وفلسطين جزء من الحجاز متمم له جغرافيا، وهو متصل بفلسطين منذ القدم وفلسطين منفذه التجارى ، وميناء غزة من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للاتجار ، والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز . وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشام وفي جملتها فلسطين[٢]

أهمية الموقع التجاري :

تقع يثرب على الطريق التجارى الرئيسى الذي يربط اليمن بمكة والشام ، ونظراً لتطور التجارة بشكل واسع في مكة ، وترتيب قريش لرحلتها في الشتاء والصيف ، فإن يثرب المحطة الرئيسية في الطريق إليالشام صحيح أن يثرب لم تبلغ مبالغ المواقع التجارية والأسواق في الجاهلية التي كثرت بشكل كبير وازدهرت إلا أن يثرب لم تكن مكانا مهملا فهي واحة وارفة الظلال كثيرة الإنتاج الزراعى كثيرة السكان ، بها يتفاعل الكثير من الأحداث خاصة الأحلاف التي كان اليثربيون قد عقدوها مع القوى المحيطة بهم وخاصة مكة والقبائل الأخرى ، فلم تكن من هذه الناحية يثرب مكانا مهملا إذا لم نقل بأنها كانت مكانا مقصودا ومكانا يجد فيه

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٤٧ . المدينة ـ الخطراوي ١٢٥ فما بعدها

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٦ .

المسافرون ما يريدون . وهذا ما جعل أهل قريش يكثرون من الأحلاف بينهم وبين اليثربيين وتصل القضية إلى حد التزاوج المتعدد بينهم حسب ما استقينا من الأخبار .

ولذلك فقد كان لموقع يثرب أهمية خاصة كعقدة مواصلات مهمة في شمال الجزيرة وغربها،وقد سلكت منها الكثير من الطرق التجارية التي لم يذكرها الأقدمون من تسيير الجيوش في زمن الرسول ﷺ إلى أرجاء الجزيرة العربية[(١)]

ومنها قالوا: كان الأغلبيون على عمان من الأزد ، وكان بها من غيرهم بشر كثير في البوادى فلما كانت سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ أبا زيد الأنصارى أحد الخزرج وعمرو بن العاص إلى عبيد وجيفر ابنى الجلندى بكتاب منه يدعوهما إلى الإسلام . وقال إن أجاب القوم وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الناس على الإسلام وتعليمهم القرآن والسنن ، فلما قدم أبوزيد على الصلاة وأخذ الناس على الإسلام وتعليمهم القرآن والسنن ؛ فلما قدم أبو زيد وعمرو عمان (وهي المناطق الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية على الساحل العربى وساحل عمان على المحيط الهندى) ، وجدا عبيدا وجيفر بصحار و (صحار مدينة على ساحل عُمان ، فالمحيط الهندي وهي بلدة معروفة الآن) على ساحل البحر ، فأوصلا كتاب رسول الله ﷺ إليهما فأسلما ودعوا العرب هناك إلى الإسلام فأجابوا إليه ورغبوا فيه[(٢)]

ولقد كانت هذه الطرق التي كان التجار يسلكونها في سفراتهم إلى نجد والشمال والجنوب وحتى إلى الغرب ، لم يكن أهل يثرب يركبون البحار ، ولم يفكروا في ذلك لكن هذا لم يمنعهم من أن يقيموا لهم مراكز على البحر الأحمر يتاجرون معه ، أو يتلقون بعض البضائع منه ، كما أن تسيير الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ الجيوش المتعددة في حروب الردة ، وكل واحد ضمنها أمره أن يسلك طريقا معينا معروفا ، يدل على أن أهل يثرب قد خبروا هذه الطرق وعرفوها وتمكن الخليفة

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٣٦ فتح خيبر ـ حتى دعوة الرسول لأهل اليمامة ص ٩٧

(٢)فتوح البلدان ـ البلاذري ٢٨٧

أبو بكر أن يحددها للقادة وليس فقط طرق الانطلاق والعودة ، ولكن أيضا طرق متابعة الفتوح والحرب ، فلم يكن قد أمر قائداً بذاته أن يقوم بمهمة واحدة ويعود إلى المدينة ، بل رسم لكل واحد منهم طريقًا وهدفًا ، ثم حدد له الهدف التالى من مكانه الذي ينتهي منه :من هدفه الأول .

فلما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر فأوقع بأهل نجد وما والاها في أشهر يسيرة بعث خالد بن الوليد إلى اليمامة وأمره بمحاربة الكذاب مسيلمة ، ولما انتهي منه سار إلى البحرين واستخلف على اليمامة سمرة ابن عمرو البزي[١]

وقد وردت أسماء الكثير من الطرق القديمة التي استخدمها التجار والحجاج قبل الإسلام ، ثم استخدمت أثناء الفتوح وللحج أيضًا في الإسلام ومن هذه الطرق التي تمر بالمدينة فمن أخذ عالى المدينة فمن المعدن إلى العسيلة ، ثم إلى بطن نخل[٢] ، ثم إلى الطرق ثم إلى المدينة وهي يثرب[٣]

وذكر بعض أهل الأخبار أن (مرزبان البادية) كان قد يمن على المدينة فى الجاهلية يجبى خراجها وكانت قريظة والنضير ملوكها ، ملكوها على الأوس والخزرج ، وفي ذلك يقول شاعر الأنصار:

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير

ومن المدينة إلى السيالة (طريق المدينة ـ مكة ـ) ومنها إلى الروحاء، ثم إلى الروثية ومنها إلى العرج ، ثم إلى السقيا ثم إلى الأبواء ثم الجحفة ، ثم إلى قدير ثم إلى عسفان ثم إلى الظهران ، ثم إلى مكة .

ومن أراد مكة قصد مغيثة الموان ، ومن مغيثة إلى الربذة ، وماؤها كثير ، وإليها هاجر أبو ذر الغفاري وبها مدفنه، وقد خربت سنة ٣١٩ للهجرة بالقرامطة ، ومن

---

(١)فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٩٩ ـ ١٠٠

(٢)خارطة ص ٧٣ ، ٢٤٧ ، ٣٠١ ، العرب قبل الإسلام ـ زيدان .

(٣)المسالك والممالك ص ١٢٨

الربذة إلى معدن بني سليم ، ومنها إلى العمق ، ومنه إلى أفاعية (الأفيعية) ومنها إلى المسلع ثم إلى القمرة ، ومنه يعدل إلى اليمن ومن القمرة إلى ذات عرق ومنه يقع الإحرام ثم إلى أوطاس ، ثم إلى بستان بني عامر (بستان ابن عامر) ثم إلى عمرة ذي كندة ، ثم فشاس ثم مكة ، ويلاحظ أن هذا الطريق هو من أقصر الطرق المؤدية إلى الحيرة من المدينة ، وهو يمر بجبلي طيئ وهو مدينة حائل في الوقت الحاضر وورد ذكرها في شعر امرىء القيس إذ يقول:

يـــا دار ماويـــــة بالحائـــــل ... فـــالفرد فـــالجبتين مـــن عاقـــل

وبجبل سلمى مدينة اسمها (أرك) عرفت بمدينة سلمى وأصحابها من طيئ وقد انحاز إليها خالد بن الوليد لما أرسله أبو بكر من (ذي القصبة) لمحاربة المرتدين[١]

وقد نزل خالد (بأجأ) ثم تعبأ لملاقاة (طليحة الأسدي) فالتقى به على بزاخة والربذة من القرى القديمة في الجاهلية ، وهي عن المدينة من جهة الشرق على طريق حاج العراق على نحو ثلاثة أيام سميت بـ (خرقة الصائع) وبها قبر أبي ذر[٢]

وكان موقع المدينة ذا أهمية كبيرة في تسيير الفتوح فهي مفتوحة باتجاه الشرق إلى نجد فشرق الجزيرة وهي مفتوحة من الشمال إلى خيبر وتبوك والشام ، وهي مفتوحة باتجاه الغرب إلى البحر الأحمر، ومفتوحة أيضًا إلى الجنوب إلى مكة، وليس بها عوائق طبيعية تحول دون تنقل الإنسان منذ القديم ودخوله وخروجه منها على عكس مكة المغلقة تقريبًا نحو الشرق التي تصدها جبال الطائف ، وحتى إلى البحر فإن هناك موانع طبيعية تحول دون الحركة السريعة ، ويبقى المجال مفتوحًا إلى الشمال يثرب فالشام ، وجنوبًا إلى عسير فاليمن ، وبحاجة إلى سلوك طرق متعرجة نحو نجد في الشرق والبحر في الغرب.

---

(١) الطبري ـ تاريخ ٣/ ٢٥٤

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٧/ ٣٣٩

وأفاد موقع المدينة ما سبق بتسيير الجيوش إلى أنحاء الجزيرة وإرسال الرسل ، وغزوات الرسول ﷺ سلكت كلها الطرق المعروفة قديمًا سواء إلى الشرق أو الشمال أو الجنوب حتى إلى الغرب عندما خرج بأصحابه لاعتراض عير قريش التي كانت مع أبي سفيان وهي عائدة إلى مكة . أما لماذا لم تكن يثرب ذات أهمية تجارية كمكة في الجاهلية رغم حسن هذا الموقع وأهميته؟فإن هناك العديد من الأسباب التي وجهت الأنظار باتجاه مكة :

أولها : وجود الكعبة في مكة مقصودة من العرب رغم وثنيتهم للحج والعمرة ، وبذلك فقد كانت تستفيد من المواسم استفادة كثيرة .

ثانيها: التنظيمات التي أوجدها قصي بن كلاب ، والأشهر الحرم مما جعلت مكة مأمنا للناس في فترات على الأقل ـ الأشهر الحرم ـ يجدون بها مأمنًا .

ثالثًا : ومنها حذق قريش بالتجارة ، وعدم وجود مورد رزق آخر سوى التعامل مع الحجيج أو التجارة إلى المناطق المأهولة الأخرى .

رابعًا: ومنها وحدة قريش ، الوحدة التي جعلت أعداءها يخافونها ويهابونها.

خامسًا: التحالفات التي تمكن القرشيون أن يوثقوها ويبرموها مع القبائل التي لها نفوذ على الطرق التجارية ، وكذلك الترتيب المدهش لتجارة قريش ودبلوماسيتها واحترام العرب لها لوقوع البيت الحرام فيها ، ويحسب الجميع أنهم لابد وأنهم قادمون لمكة لأمر ما

وهناك أسباب كثيرة جدًا أعطت مكة هذه الأهمية ، ومنها أيضاً موقعها الحصين وتعثر غزوها من القبائل الأخرى ، مما جعل القبائل المحيطة بمكة تتحالف مع قريش لتشكل حلف (الأحابيش) المعروفة في التاريخ .

ويضاف إلى ذلك عدم وجود مورد رزق لأهل مكة سوى التجارة وموسم الحج فلا زراعة ولا مياه ولا إنتاج سوى التعامل بالتجارة وتوابعها .

أما بالنسبة ليثرب ، فإن الحرب الأهلية قد أنهكتها ، والتي استمرت حوالي مائة عام قبل ظهور الإسلام،واعتماد أهل يثرب على الزراعة وبعض الصناعات البسيطة المرتبطة بها وكذلك العداوة بين العرب واليهود وبين اليهود واليهود وبين العرب والعرب، وعدم وجود حكومة مركزية قوية، لها السلطان على الناس، وعدم وجود تنظيمات دقيقة كتنظيمات قصي بن كلاب ، وأيضًا اعتبار يثرب واحة كبقية الواحات تجنب العرب التدخل فيها نتيجة وجود هذه القوى ، والحروب الدائمة فيها .

لكن عندما توحدت أحوال يثرب ، وتحولت إلى مدينة رسول الله فقد أصبحت مدينة مقصودة وعاصمة للدولة،ومركزًا لتجمع الجيوش وقدوم الوفود والسفارات، وموقع الخليفة ، قفزت أهمية المدينة لتضاهي في فترة بسيطة العواصم العالمية رغم حداثة . نشوئها وتكونها مستفيدة ما أمكن من موقعها الاقتصادى والجغرافي الهام ، وتمكنت من السيطرة على الجزيرة وتابع الخلفاء الفتوح حتى قضوا على دولة الفرس نهائياً بإدارة المعارك من المدينة وكذلك انحسار الروم إلى مواقع بعيدة جدًا .

ومن دلائل موقع المدينة المهم حتى في الجاهلية ، الحوار الذي جرى بين سعد بن معاذ وأبي جهل بن هشام قبل غزوة بدر ، عندما عاتب أبو جهل سعدًا بأنهم (أي الأنصار) قد آووا الصبأة والخارجين عن الوثنية وعليها،وهدد بالانتقام،فما كان من سعد بن معاذ إلا أن رد على التهديد بتهديد أشد منه فقال : طريقكم إلى المدينة [(١)]

٤ـ الآطام :

الآطام : ج أطم ، أ ط . م ، وهو بضمة وبضمتين : القصر ، وكل حصن بنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح . آطام وأطوم .

وآطام مؤطمة كأجناد مجندة وأطم : كفرح ، ـ غضب وانضم [(٢)]

وأطم : الأطم حصن مبنى بحجارة ، وقيل : هو كل بيت مربع مسطح ، وقيل

(١) السيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/ ٣٨٥.
(٢) ترتيب القاموس المحيط ـ ١/ ١٥٧ مادة أ . ط . م .

الأطم مثل الأجم يخفف ويثقل ، والجمع القليل آطام ، آجام .

قال الأعشى :

مـــا أتـــت آطـــام جـــو وأهلـــه أنيخـــت فألقـــت رحلهـــا بفنائكهـــا

والكثير (أطوم) : وهي حصون لأهل المدينة . قال أوس بن سفراء السعدي :

بـث الجنـود لهـم في الأرض يقـتلهم أ مـا بـين بـصري إلى آطـام نجرانـا

والواحدة : أطمة مثل أكمة ، وباليمن حصن يعرف بأطم الأضبط وهو الأضبط ابن قربع بن سعد بن زيد مناة . كان أغار على أهل صنعاء وبني بها أطما وقال :

وشـــفيت نفـــسي مـــن ذري يمـــن بـــالطعن باللبـــاب والـــضرب

قتلـــتهم وأبحـــت بلـــدتهم وأقمـــت حـــولا كـــاملًا أســـبي

وبنيـــت أطـــمًا في بلادهـــم لأثبـــت التقهـــير بالغـــصب

وقال ابن سيده وغيره (الأطم) : حصن مبني .

وقال الأعرابي : الأطوام : القصور . وفي حديث بلال : أنه كان يؤذن على أطم .

الأطم بالضم بناء مرتفع وجمعه آطام وفي الحديث «حتى توارت بآطام المدينة» : يعنى بأبنيتها المرتفعة كالحصون .

ابن برزح : أطمت على البيت أطما ، أي أرخيت ستوره ، والتأطيم في الهودج أي يستر بثياب .

يقال : أطمته تأطيما وأنشد :

تدخل جوز الهودج المؤطم[1]

ويثرب على شاكلة مكة بغير سور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلا

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ١ / ٧١ ، ٧٢ مادة أ . ط . م .

أمام من يريد بالمدينة سوءًا وقد كان عماد دفاع أهلها بالتحصين في بيوتهم ، وبسد منافذ الطرق في أثناء الخطر ، والأغنياء الموسرون يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم ويلجؤون إليها عند الشدة ومن معهم من أتباعهم يرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهام والحجارة ، وإذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف ، وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام وأرخوا بتلك الحرب ، وصاروا يؤرخون بعام الآطام .

وذكر أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت أيام عثمان .

ويظهر من وصف أهل الأخبار ليثرب أنها كانت تشبه الحيرة بالعراق من حيث خلوها من سور ومن تكونها من قصور هي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضع دفاعها أثناء الشدة وأوقات الحروب . وقد عرفت (أطم) و (آطام) عند أهل يثرب وذكر أن (الأطوام) ، القصور وحصون أهل المدينة والبنية المرتفعة كالحصون [١]

فلما تم لجبيلة قتل أعيان يهود أصبح للعرب الغلبة على يهود يثرب ، فعزت الأوس والخزرج بالمدينة واتخذوا الديار والأموال والآطام ، وتفرقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها ، وبعضهم نزل في مناطق لم تكن مأهولة فعمروها ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قرى يثرب واتخذوا الأموال والآطام ، فابتنوا مائة وسبعة وعشرين أطما [٢]

وكان سادات القرى قد حلوا مشكلة الدفاع عن أنفسهم وعن مواليهم ببناء أبنية حصينة ذات جدران سميكة يقال لها الحصون والآطام ، الواحد هو الأطم فكان أهل المدينة من الأوس يلجؤون إليها وقت الخطر ، فيتحصنون بها ويمتنعون .

كذلك كانت ليهود وادي القرى حصون وآطام [٣]

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٤ / ١٣١ ـ ١٣٢ و ٨ / ٣٥ ـ ٣٦ . المدينة الخطراوي ص ٨٨ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ السيد عبد العزيز ٣٤٨ فما بعدها .

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٥ / ١٧ ـ ١٨

ولئن كان كثير من الإخباريين يقرون إنشاء الآطام بيثرب إلى اليهود ، فإن الدلائل الأخرى تشير إلى أنها كانت من إنشاء الأوس والخزرج . نقلوها معهم من اليمن بعد أن طوروا فيها ووسعوا أغراضها فقد كان في اليمن منشآت مماثلة للآطام[١]

وقد امتازت يثرب عن مكة بوجود (الأطم) فيها وهي قصور تتكون من طابقين في الغالب أو ثلاثة طوابق تكون ضخمة نوعًا ما يعيش فيها ساداتها،وتكون حصونًا لأهل المدينة يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، ويحمون أموالهم بها ، وقد بنيت بالآجر وباللبن أحيانًا أو بالطين أحيانًا أخرى . بحيث تجعل الجدر عريضة لتقف صامدة أمام الدهر وأمام المهاجمين ، وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون لرشق المحاصرين بالسهام أو الحجارة ، ويصب الماء الحار أو النار عليه إن قرب من جدار الأطم .

وقد اتخذت الأطم في يثرب لعدم وجود سور حولها يحميها من الأعداء ، ولكونها مكشوفة لا تحميها حواجز طبيعية يتحصن بها أهل المدينة عند دنو الخطر منهم ، فلم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم ، على نحو ما فعل أهل الحيرة في مدينتهم حيث بنوا القصور ، وتوجد في أعالي يثرب إلى فلسطين بقايا حصون وقصور ومواضع قديمة كانت آهلة عامرة[٢]

وبلغ عدد الآطام في يثرب عددا كبيرا، أوصله بعضهم إلى السبعين، ولكني أرى أن عددها لابد أن يكون أكثر من ذلك ؛ لأن كثيرًا من الأفراد والعشائر كانوا يمتلكون أكثر من أطم واحد فإذا علمنا أن عشائر الأوس والخزرج وعشائر اليهود تناهز السبعين،فكيف يمكن التوفيق بين هاتين الظاهرتين ويبدو أن العدد المذكور لم يشمل سوى المشهور منها ، والآطام الكبيرة التي هي آطام الأغنياء وذوي المكانة وتكون عادة ضخمة لتسع معهم أتباعهم .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٨ / ٣١٢ . المدينة ـ الخطراوي ص ٩٠

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٨/ ٩

كما كانت الآطام عموماً تشمل على : مخازن للغلال والثمار والأسلحة والأموال كما تشمل هذه الأطام على بئر ماء يشرب من مائها أهل الأطم[1]

(١) وفي كلا الكتابين أورد المؤلف وصفًا مختصرًا لحوالي خمسة وثلاثين أطمًا مع أسمائها وأسماء مالكيها من اليهود والأوس والخزرج وغيرهم . المدينة ـ الخطراوي ص ٩٣ . وشعر الحرب فى الجاهلية ـ الخطراوي ص ٥٢

القسم الرابع

الحياة الفكرية

١ ـ القراءة والكتابة :

القراءة والكتابة : لفظ قرأ اتخذت في اللغة عدة معان :

ق ر أ : (القرآن) التنزيل . وقرأة ، وبه كنصرة ، ومنعه ـ قرءًا ، وقراءةً ، وقرآنا ، وصحيفة مقروءة، ومقروة، ومقرية . وقارأة ، مقارأة ، وقراء دراسة[١] و ك ت ب . كتبه كتبا وكتابا خطه ككتبه ، أو كتبه واكتتبه استملاه كاستكتبه والكتاب : ما كتب فيه[٢]

ومع اختلاف المعاني الكثيرة إلا أن الذي يعنينا في هذا المقام هو معرفة القراءة : أي النظر إلى تركيبات الحروف ، ومعرفة مدلولاتها ومعناها ، وما هي المقاصد التي نبغيها من وراء هذا الجمع أو الاختلاف ، وورد في القرآن الكريم حروف مجموعة عرفت بفواتح السور . ألم . ألمر . المص . ق . ن . ك هـ ى ع ص ... إلخ ، وهذه لها دراساتها الخاصة ، وباحثوها المختصون قادرون على معرفة المعانى المطلوبة وراء تراكيب الحروف، والتي تشكل بدورها كلمات ، ومجموع الكلمات يشكل جملاً ذات معنى ، يستطيع الذي ينظر إليها أن يركز في ذهنه معنى معينًا لمثل هذه التراكيب والكتابة هي القدرة على تركيب الحروف باليد أو بأية أداة أخرى تعطى هذه التركيبات معانى يريد الكاتب أن يعبر عنها في ذهنه برسمها وتوضيحها .

---

(١) ترتيب القاموس ٣ / ٥٧٨ مختار الصحاح ـ الرازي ٥٢٦ . لسان العرب ـ ابن منظور ٣/ ١٢ ـ ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١١. مختار الصحاح ـ الرازي ٥٦٢ لسان العرب ـ ابن منظور ٣/ ٢١٦ فما بعدها .

ولقد مرت قضية القراءة والكتابة في التاريخ بأدوار متعددة لا تخلو من الطرافة ، ولا تخلو من الإثارة أيضاً ؛ إذ تمكن الإنسان عندما بدأ يخطو هذه الخطوة ، أي أخذ ما يريد من أفكار الآخرين بالقراءة ، وإعطاء ما يريد للآخرين من أفكاره بالكتابة .

وقد شاع بين كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا في جهالة وضلالة لا يقرؤون ولا يكتبون وأن الكتابة كانت قليلة بينهم ، واستدلوا على رأيهم هذا بإطلاقهم لفظة الجاهلية على أيامهم وبما جاء بأنهم كانوا قومًا (أميين لا يكتبون) واستدلوا بحديث ذكر أن رسول الله ﷺ قاله هو: «إنا أمة لا نكتب ولا نحسب».

وذكروا عن ـ الفراء وهو من علماء العربية : إن الأميين هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب ، ويراد بالكتاب التوراة والإنجيل ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بـ (أهل الكتاب) وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظة (الأميين) الواردة في القرآن الكريم وتعني : الوثنيين أي جماع قريش ، وبقية العرب ، ومن لم يكن من يهود وليس له كتاب[1]

وعلى هذا الأساس فإن كلمة الأميين الذين ليس لهم كتاب تعني الأوس والخزرج) عرب يثرب ، وأن (اليهود) فهم أهل كتاب وليسوا أميين .

أما المعنى المراد ـ عندهم ـ في السابق ، وهو معرفة القراءة والكتابة فإنها تشمل سكان يثرب جميعا فمنهم من كان يلم بالقراءة والكتابة من ألأوس والخزرج واليهود ومنهم من لا يعرفها إطلاقاً من المجموعة كلها وربما هي الأكثرية الساحقة .

كما ذكروا أنه قد بحث الراغب الأصبهانى في معنى (الأمية) فقال : والأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وعليه قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة] .

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٩٢ ـ ٩٢

والأمي والأمان ـ بضمها ـ من لا يكتب أو من هو على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب وهو باق على جبلته . وفي الحديث: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب». أراد أنه على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتاب والحساب فهم على جبلتهم الأولى .

وأنه قيل لسيدنا محمد ﷺ «الأمي» لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولا ، وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة ؛ لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظومًا تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه، فلم يغيره، ولم يبدل ألفاظه . ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] .

وقالوا : قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي : إن مما حرم عليه ﷺ الخط والشعر[١] وهذا المعنى يستقيم لحديثنا عند الإشارة إلى الشيء الذي نريد هو أن نقف على مدى معرفة عرب يثرب وهم مجموعة من كافة العرب للقراءة والكتابة ومدى انتشار الأمية بينهم ، على الرغم من أن لفظة أمي أو أمية لم تكن تعني عند الجاهليين معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بهما،وإنما كانت تعني عندهم: مشركين وثنيين وهو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم والذي نعت فيه الرسول ﷺ فيه بالأمي ، لأنه من العرب ، ومن قوم ليس لهم كتاب ، عرفوا بذلك من قبل أهل الكتاب اليهود[٢]

ونخلص من هذا إلى أن أهل البوادي ، ولا سيما البوادي النائية عن الحواضر هم أميون ما في ذلك من شك ؛ لأن طبيعة البادية في ظروفها المعلومة لا تساعد على تعلم القراءة والكتابة ، ولا ظهور العلوم وتطويرها فيها .

وهذا لا يعنيأنهم كانوا جميعًا أميين لا قارئ بينهم ولا كاتب ، فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب[٣] وأما أهل الحواضر فقد كان بينهم من يقرأ أو يكتب كما كان بينهم

(١) جواد علي ٨ / ٩٦
(٢) جواد علي ٨/ ١٠٥
(٣) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١٠٧

الأمي أي الجاهل بالقراءة والكتابة ، كان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند وكان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دون فيه القرآن الكريم ، فصار القلم الرسمي للإسلام بفضل تدوين الوحي به ، كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط ، وبقلم بني أرم ، وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر

وذكر أن الحنفيين كانوا يكتبون ويقرؤون ، وبعضا منهم كان يكتب بأقلام أعجمية ، وكان قد وقف على كتب أهل الكتاب ، وكانوا أصحاب رأي ومقالة في الدين وفي أحوال قومهم، وذكر الهمذاني أن العرب كانت تسمى كل من قرأ الكتب أو كتب صابئا وكانت قريش تسمى النبي ﷺ أيام كان يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن صابئا [١]، فالصباة على تفسير الهمذانى هم الكتبة وكل من قرأ الكتب ، وعلى ذلك فيكون الحنفاء من جملة الصباة [٢]

وذكر أهل الأخبار أن قومًا من أهل يثرب من الأوس والخزرج كانوا يكتبون ويقرؤون عند ظهور الإسلام ذكروا فيهم أسعد بن زرارة والمنذر بن عمرو ، وأبى ابن كعب ، وزيد بن ثابت وكان يكتب بالكتابتين العربية والعبرية أو السريانية ، رافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعنى (معن) بن عدي البلوي ، وأبو عيسى ابن كثير ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد ، وسعد بن عبادة ، والربيع بن زياد العبسي ، وعبد الرحمن بن جبير ، وعبد الله بن أبي ، وسعد بن الربيع [٣]

وقد أرجعوا أصل علمهم بالكتابة والقراءة إلى قوم من يهود يثرب ، مارسوا تعليم الصبيان القراءة والكتابة دعوهم (بني ماسكة) وتعرض البلاذري لهذا الموضوع فقال: كان الكتاب في الأوس والخزرج قليلاً . وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية ، وكان قد تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون [٤] ، ونجد هذا الخبر في موارد أخرى أخذته دون أن

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ٣/ ١٢٠
(٢) جواد علي ـ تاريخ ٨/ ١٠٨
(٣) فتوح البلدان ، البلاذري ص ٤٥٩
(٤) فتوح البلدان ـ البلاذرى ، ص ٤٥٩ .

تشير إلى السند فظهر وكأنه حقيقة مسلمة ، حتى جاء الإسلام فانتشر بها .

فلو كانت الكتابة منتشرة عندهم وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فلماذا كلف الرسول ﷺ القارئين الكاتبين من أسرى بدر بأن يعلم كل واحد منهم عشرة غلمان من غلمان المدينة القراءة والكتابة فداء لنفسه من الأسر ؟[١]

ويظهر أن يهود يثرب وربما بقية يهود خيبر ، وتيماء وفدك ووادي القرى كانوا يكتبون بقلمهم كما كانوا يكتبون بالعربية ، ويظهر من استعمال البلاذري جملة (وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان في المدينة في الزمن الأول) [٢] إن اليهود في يثرب كانوا يكتبون بالعربية ، كما كان يكتب بها صبيان المدينة ، وكانوا يعلمون الكتابة لصبيان يثرب في مدارسهم ، وفي هذا الخبر وأمثاله دلالات على أن الكتابة كانت معروفة بين أهل يثرب أيضاً قبل الإسلام ، وأنها كانت قديمة فيهم ، ولهذا فلا معنى لزعم من قال: إنها انتشرت بيثرب في الإسلام وأن الكتابة كانت قليلة بها قبل هذا العهد .

وقصد أهل الأخبار بجملة: (وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية بالخط العربي الشمالي لا بالقلم المسند)،لأن هذا هو مرادهم من (الكتاب العربي) و(كتاب العربية) . ويظهر أن اليهود قد تعلموا الخط العربى من عرب العراق وبلاد الشام ، أو من التجار والمبشرين الذين كانوا يفدون إلى الحجاز ، وأما القلم المسند الذي هو قلم العرب الجنوبيين ، فلم يكن مستعملًا في يثرب وإلا لأشير إليه ، مع أنها من القواعد المتعصبة للقحطانية ، وحاملة الدعوة إلى اليمن قبل الإسلام وفي الإسلام . وهذا يدل على أن المسند كان قد طور في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وأن سلطانه كان قد تقلص كثيرًا خارج العربية الجنوبية أيضًا قبل الإسلام ، وربما كان القلم العربي الشمالي قد دخل الجنوب وأخذ ينافس المسند فيها ولا سيما في المناطق التي تركزت فيها النصرانية ، وتحكمت في أهلها فأخذ النصارى يقاومون ذلك القلم

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٢ قسم : ص ٢٢

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٥٩

لأنه قلم الوثنية ، ويعلمون أولاد النصارى القلم العربى الشمالى ، لأنه قلمهم الذي كانوا يعلمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشام[١]

ومما لا شك فيه أن أهل يثرب من اليهود والأوس والخزرج كانوا على معرفة بالكتابة والقراءة ، فأما اليهود فقد كانت لهم أحبارهم وعلماؤهم الذين يقرؤون لأتباع اليهودية التوراة في بيت المدارس بالآرامية وبالعبرية وبالعربية ، ولعل في هذا الخبر الإسلامى ما يدل على شأنهم في الجاهلية فقد روى أبو داود[٢] عن ابن عمرعن عمر رضى الله عنهما أنه قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى (القف) اسم واد بالمدينة فأتاهم بيت المدراس ـ البيت الذي يدرسون فيه ـ فقالوا: يا أبا القاسم إن منا رجلا زنى بامرأة فاحكم فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال ائتوني بأعلمكم ، فأتى بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم ، وذكر مثل ذلك أيضاً في بقية كتب الصحاح عدا النسائي وأما الأوس والخزرج فقد قال درهم بن زيد الأوسى يذكر الخزرج بما بينهم من رحم وعهود مكتوبة على الصحف :

أن مـــا بيننـــا وبيـــنكم حـــين يقـــال الأرحـــام والـــصحف

وقال قيس بن الخطيم:

ولمـــا بـــدت عفـــردة جبـــاههم حنـــت إلينـــا الأرحـــام والـــصحف

وقال ابن الخطيم أيضًا :

لعمـــري لقـــد حالفـــت ذبيـــان كلهـــا وعبـــسا عـــلى مـــا في الأديـــم المحـــدد

فهذه الأبيات وغيرها تدل بما لا يقبل الشك على معرفتهم للكتابة وانتشارها بينهم ولو بشكل محدود[٣] ، وذكر البلاذري عن الواقدي عن أشياخه : قالوا : أول

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١١٤ ـ ١١٥

(٢) رواه أبو داود فى كتاب ـ الحدود ـ باب رجم اليهوديين .

(٣) المدينة ـ الخطراوى ص ٢٠٠ ، شعر الحرب فى الجاهلية ـ الخطراوى ص ٧٠

من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة (أبي بن كعب الأنصاري) وهو أول من كتب في آخر الكتاب (وكتب فلان) [(١)] فكان إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري فكتب له ، فكان أُبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه . وكتبه إلى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك[(٢)] وقد اشتهر الشاعر عبد الله بن رواحة أنه كان ممن يكتبون في الجاهلية من الخزرج ، ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا مبلغ أهل مكة فيها ، ولعل رسول الله ﷺ لاحظ هذا النقص النسبي عندهم فأراد استكماله بطريقة رائعة ، هي فك أسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم عشرة صبيان من أهل يثرب القراءة والكتابة ، علمًا بأن يثرب بعد الهجرة لم تعد سكناها قاصرة على الأوس والخزرج ، بل أصبح يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين المهاجرين من مكة وغيرها [(٣)]

وأول من اشتهر بالكتابة في الإسلام من الصحب الكرام عمر وعثمان وعلى بن أبي طالب ، وأبي بن كعب الأنصارى ، وزيد بن ثابت الأنصاري ﷺ [(٤)]

قال البلاذري حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، ، قال حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد أن أباه زيد بن ثابت قال: أمرني رسول ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود ، وقال لى : إني لا آمن يهود على كتابي ، فلم يمر بي نصف حتى تعلمته ، فكنت أكتب له إلى يهود ، وإذا كتبوا له قرأت كتابهم[(٥)]

وتشير إلى هذا أن الكتابة المختصة باليهود قد كلف بها زيد بن حارثة ، وربما كتابة الخط العبري وليس العربى باعتبار أنه بقى نصف ـ ربما نصف سنة ـ حتى أتقنه ، لأنه مع مخالطة اليهود وربما يكون يعلمه ، وبلغ به الحد أن يقرأه لرسول الله ، ويكتب لهم بهذا الخط ، والله أعلم .

---

(١) محاضرة الأوائل ـ السكتواري ص ٢٧ . جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١٢١ و ١٣٢
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٤٥٨
(٣) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠٠
(٤) محاضرة الأوائل ـ السكتواري ص ٢٧
(٥) فتوح البلدان ـ البلاذري ٤٥٨ . .

كما قيل بأن زيد بن ثابت نسب إليه إتقانه الكتابة بلغات أخرى ، ذكر المسعودي منها:الفارسية،الرومية،والقبطية،والحبشية،وأنه تعلم ذلك بالمدينة من أهل الألسن وكان يكتب إلى الملوك ، ويجيب بحضرة النبي ، ويترجم له ، وكان هو الذي تولى قسم غنائم اليرموك وتولى جمع القرآن في أيام أبي بكر بتكليف من الخليفة ، وقد عرض زيد القرآن على رسول الله ، وكان آخر عرض رسول الله ﷺ القرآن في مصحفه [(١)]

ويقول الشيخ عبد الحي الكتاني : لم تكثر الكتابة العربية في المدينة إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة ، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلًا من صناديد قريش وغيرهم في غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء المال ، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة ، فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم فبذلك كثرت فيهم الكتابة ، وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته ﷺ وبعده ، حتى بلغت عدة كتابه اثنين وأربعين رجلا .

وذكر الماوردى في كتابه «أدب الدنيا والدين» نقلا عن ابن قتيبة أن العرب كانت تعظم قدر الخط ، وتعده من أجل المنافع حتى قال عكرمة بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى إن الرجل ليفادي على أنه يعلم الخط ، لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره ، وظهور نفعه وأثره . قال بعضهم وهذا يبطل ما قاله ابن خلدون عن جهلهم بالخط ،فإن عكرمة يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون قال ما قال عن تخمين[(٢)]

وقد أطلقت عدة ألقاب على ممارسى الكتابة . قال الواقدي وغيره : كتب حنظلة ابن الربيع بن رياح الأسيدي من بني تميم بين يدى رسول الله ﷺ مرة فسمي حنظلة الكاتب ، وقال الواقدي كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلًا وكان

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١٣٢

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٤٥٩ . جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١٢٠ ، ١٣٣

بعض اليهود قد علم كتابة العربية وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون ، وهم : سعد بن عبادة بن دليم ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، فكان يكتب بالعربية والعبرية ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعن بن عدي البلوي حليف الأنصار وبشير ابن سعد ، وسعد بن الربيع ، وأوس بن خولي ، وعبد الله بن أبي (المنافق) ، قال : فكان الكملة منهم ، والكامل: من يجمع الكتاب والرمي والعوم، ورافع بن مالك ، وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن أبي ، وأوس بن خولي .

وكان من جميع هذه الأشياء في الجاهلية من أهل يثرب: سويد بن الصامت ، وحضير الكتائب[١] ، وقد أطلق العرب على الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي وقيل الحساب: أيضًا ، الجلد ، أي الشجاعة وقول الشعر ، وأصحاب الشرف والنسب (الكملة) ، وجمع بعض أهل الأخبار إلى ذلك استواء القامة وكمال الإنسان .

ومن هؤلاء (سعد بن عبادة بن دليم سيد الخزرج) وهو من أسرة غنية تطعم الفقراء ولها أطم يأوي إليه الفقراء للأكل، ولما نزل النبي يثرب كانت (جفنة سعد) تدور مع النبي وكان يعشى كل ليلة أهل الصفة[٢]

ومن الكملة الربيع بن زياد العبسي ، وكان هو وإخوته من الكملة ، ورافع ابن مالك ، وأسيد بن حضير وعبد الله بن أبي ، وأوس بن خولي وسويد بن الصامت ، وحضير الكتائب[٣]

ويظهر من النظر إلى قائمة من أدخلهم أهل الأخبار فى الكملة أن الكتابة والرماية والعوم لم تكن الشروط الأساسية الكافية لكي يعد الإنسان كاملًا، فقد توفرت هذه

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠

(٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣ / ٦١٣ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢ / ٣٢

(٣) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣ / ٥٤٢ . البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٥٩ . الإصابة: العسقلاني ١ / ٩٨

الشروط في أناس آخرين لم يدخلوا مع ذلك في الكملة ، وإنما هناك أشياء أخرى بالإضافة إلى الأمور المذكورة وهي الشرف وكمال الجسم والعقل والامتناع عن الهجر في الكلام ، والتحلي بالحكمة والفطنة ، واللب وقول الشعر المحكم الحكيم . وكان عبد الرحمن بن جبير ، وأبو عبس الأنصاري يكتب بالعربية قبل الإسلام ومات سنة أربع وثلاثين[(١)] .وكان المنذر (منذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان الخزرجي) من الكتبة وكان أحد السبعين الذين بايعوا الرسول ، وأحد النقباء الاثنى عشر وكتب في الجاهلية بالعربية[(٢)] وكان أبو حبيرة بن الضحاك الأنصاري ممن يكتب وقد تولى الكتابة للخليفة عمر[(٣)]

وكان قيس بن نشبة عم الشاعر عباس بن مرداس السلمي أو ابن عمه من الكتبة، وذكر أنه كان ممن قرأ الكتب وتأله في الجاهلية ، والعباس بن مرداس نفسه كان كاتبًا[(٤)]

وجاء في ترجمة أنس بن مالك أن أمه جاءت به يوم قدم الرسول ﷺ المدينة وقالت له: يا رسول الله ، هذا ابنى وهو غلام كاتب ، ومعنى هذا أن غلمان يثرب كانوا يقرؤون ويكتبون ويظهر أن كتاب الرسول ﷺ قد وزعوا الأعمال الكتابية فيما بينهم ، أو أن الرسول ﷺ هو الذي وزع الأعمال عليهم ، بحيث خصص كل واحد منهم بعمل من الأعمال .

فقد روى أن عليا وعثمان كانا يكتبان الوحي فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد ابن ثابت الأنصاري[(٥)] . وكان العلاء بن عقبة فيمن كتب للنبي ، وذكر أن الرسول كان يبعثه والأرقم في دور الأنصار ، وكان يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات[(٦)]

---

(١) الإصابة ـ العسقلاني ٢ / ٣٨٦ و ٤ / ١٥٠
(٢) الاستيعاب ـ حاشية على الإصابة ٣ / ٤٣٨ ، ٤٠٠ رقم ٨٢٢٢ .
(٣) الإصابة ٤ / ٣١
(٤) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١١٦ ـ ١١٧
(٥) جواد علي ـ ٨ / ١٢١ ، ١٣١
(٦) الإصابة ٢ / ٤٩١

وفي جملة ما كتبه للرسول كتابه لبني شتخ من جهينة، وكتاب للعباس بن مرداس السلمى أنه أعطاه (مدفوا)[1] ، وذكر أنهما كانا يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وكان أوس بن خولى من كتاب يثرب ، ولما كان صلح الحديبية ، وأراد الرسول ﷺ تدوين الصلح دعا أوس بن خولي يكتب ، فقال سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك علي أو عثمان بن عفان ، فأمر عليًا فكتب أوس بن خولي وهو من الخزرج وآخى الرسول بينه وبين شجاع بن وهب ، وكان من الكملة وهو الذي مثل الأنصار أثناء تغسيل النبي ودفنه[2]

وهناك كتبة آخرون كتبوا الكتاب والكتابين والثلاثة لرسول الله ﷺ ، وذكر أن كتاب النبي من المهاجرين والأنصار كانوا يكتبون بالخط المقور (وهو النسخي) أما الخط المبسوط ويسمى باليابس.فقد استعمل بالنقش على الأحجار وأبواب المساجد وجدران المباني وفي كتابة المصاحف الكبيرة ، وما يقصد به الزينة والزخرف وغلب عليه إطلاق لفظ الكوفي[3]

وإلى الآن لم تسعف الأيام بأي أثر لكتابة الأوس والخزرج في جاهليتهم حتى يستطيع الباحثون على ضوئه التعرف على حالتهم الأولى ، وتتبع مراحل تطورهم ، وكانوا إنما يكتبون ـ بحكم بيئتهم الزراعية ـ على الخضب وعسيب النخل ، كما كانوا يكتبون بالإضافة إلى ذلك على الخزف والعظام والحجر الأبيض ، والأديم المدبوغ كما يفعل غيرهم من الكتابيين العرب في تلك العهود ، وقد عرفوا البردي الذي كان يكتب عليه قدماء المصريين ، ولكن المراجع لم تذكر لنا أنهم استعملوه في كتاباتهم يقول ابن الخطيم يصف محبوبته :

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ١ / ٢٧٣
(٢) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ١٣٦ ـ ١٣٨
(٣) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠١

تخطـــو عـــلى بـــردتين غـــذاهما غـــدق باحـــة حـــائر يعبـــوب

ومن المعلوم أن القبائل اليمنية في هجرتها إلى المناطق لشمالية ، ومنها يثرب حملت معها إلى تلك المناطق خطا مشتقا من خط المسند (وسمي بذلك لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة) ، فساد فترة من الزمن . وقد كان يكتب من اليمين إلى الشمال ، ثم أعقب ذلك عدة تطورات على هذا الخط من النبطية والآرامية ، وكلها كانت خالية من الأعجام مقتصرة على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجردة من علامات التمييز بين الحرف المشدد والمخفف .

وتعتبر معرفة الأوس والخزرج للكتابة مظهرًا من مظاهر رقيهم العقلي ، وذلك الرقي النسبي الذي نحسب أنه أتاح لهم الحصول على قدر من الحضارة والرفاهية ، جعل من يثرب بالإضافة إلى جهود مواليهم اليهود محط أنظار من حولهم من الأعراب ، يمتازون منها ، ويزورون أسواقها ويجلسون مجالس لهوها وغنائها ، كما جعلها ثالث قرية من قرى الحجاز وحواضرها ، أو هكذا كانت نظرة المكيين إليها على الأقل ، والتي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزُّخرُف] [1]

وأخيرًا، إن دعوى الجاهليين أنهم كانوا أميين، وعلى الفطرة والبديهة، لا يحسنون كتابة ولا قراءة خلا نفر بمكة ، وأشخاص بيثرب ، دعوى باردة سخيفة لا يمكن لمن له إلمام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها ، فأهل الأخبار الذين يروون هذه الرواية يعودون فيخطئون أنفسهم بسرد أسماء رجال من جزيرة العرب ، ومن العراق وبلاد الشام ذكروا أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون ، بل ذكروا أكثر من ذلك ذكروا أن منهم من كان يقرأ العبرانية أو السريانية ، كالأحناف ، ثم إنهم يذكرون أخبار مراسلات سادات القبائل ومختلف مواضع جزيرة العرب مع الرسل ﷺ .

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

ومكاتبة مسيلمة مع النبي ، وتأليفه كتابًا زعم أنه وحي نزل عليه من السماء مثلما نزل على الرسول ﷺ .

فهل يعقل بعد ذلك قول قائل : إن العرب كانوا أميين ، خلا نفر ، وقد رأينا أنهم تركوا آلاف الكتابات باللهجة العبرية الجنوبية، وبالثمودية، واللحيانية، والصنوية ، بل قد تجد الكتاب في بعض قبائل الجاهلية مثل قبائل الصفاة ، أكثر اتساعًا وانتشارًا مما عليه الحال بين قبائل هذا اليوم(١)

٢ـ اللغة والشعر :

قال الطبري في تفسيره: كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، وتباينوا المنطق والكلام ، وأن ألسنتهم الكثيرة كثرة يعجز عن إحصائها

وقد ذكر غيره مثل ذلك ذكر أن لغات العرب كانت متباينة ، وأن بعضها كانت بعيدة بعدًا كبيرًا عن عروبتنا ، كالألسنة العربية الجنوبية ومنها الحميرية .

قال ابن جنى وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة بن نزار ، وقال أبو عمرو بن العلاء ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا ، وذكر ابن فارس ، أن ولد اسماعيل يريد بهم العدنانيون ـ يعيرون ولد قحطان بأنهم ليسوا عربًا ، ويحتمون عليهم بأن لسانهم الحميرية ، وأنهم يسمون اللحية بغير اسمها مع قول الله جل ثناؤه في قصة موسى ﷺ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه:٩٤]، وأنهم يسمون الذئب : القلوب مع قوله تعالى : ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣] وما أشبه ذلك .

وقد عرف الكتبة الكلاسيكيون وغيرهم فذكروا مؤلف كتاب : «الطواف حول البحر الأريتري» periplvs mare erythrae أن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانوا يقيمون بين مدينة leukekome و muza يتكلمون بلهجات مختلفة

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨/ ١٤١ ـ ١٤٥ بتصرف .

ولغات متباينة وقل منهم من يفهمها عن الثاني ، والبعض بعيد عن بعض بعدًا كبيرًا ، وقد عاش هذا الكاتب في القرن الأول الميلادي ، والساحل الذي ذكره هو ساحل الحجاز .

وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أن أهل العربية الجنوبية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين ، وهي بلسان مباين لعروبتنا حيث تبين من دراستها و فحصها أنها كتبت بعربية تختلف عن عربية الشعر الجاهلي ، وبقواعد تختلف عن قواعد هذه اللغة ، وهي لو قرئت على عربى من عرب هذا اليوم حتى إن كان من العربية الجنوبية ـ فإنه لن يفهم منها شيئا ، لأنها كتبت بعربية بعيدة عن هذا اليوم وقد ماتت تلك العربية بسبب تغلب عربية القرآن عليها .

كما عثر في العربية الغربية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب على نصوص معينية ولحيانية وثمودية وغيرها ، وهي مختلفة بعضها عن بعض ، ومختلفة أيضاً عن العربية لغة القرآن[١]

لقد تكلم العرب في مختلف أنحاء بلادهم لهجات متقاربة ذات أرومة واحدة ولم يكن من الصعب عليهم تفهم هذه اللهجات، الأمر الذي ساعد على تسهيل التبادل التجاري فيما بينهم .

وقد كانت لغة الجنوب لغة معين وسبأ وحمير ، الأوسع انتشارًا في تاريخ العرب القديم وكانت أبجديتها تتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، وتكتب بخطوط مستقيمة تسمى الخط المسند ويرجع المنقبون أنها تطورت عن الحروف السينائية (نسبة إلى سيناء) المشتقة من الهيروغلوفية المصرية المتطورة .

أما عرب الشمال فلم يكن للغتهم العربية حروف ، ولذلك استخدموا في كتابتها الحروف الآرامية بالخط النبطي النسخي المستدير الشكل ، هذا الخط هو الذي

استخدمه عرب قريش لتدوين القرآن فأصبح بذلك الخط العربي المعروف[(١)]

لم يتطرق الباحثون إلى لغة أهل يثرب ، ولكنهم أجملوها بأنها لغة أهل الشمال ، مع أن الأوس والخزرج من قحطان ، والذين نفي عنهم أبناء إسماعيل كونهم عرباً . كما أن كل الدراسات تدل على أن لغة حمير ، ولغة اليمن عامة تختلف اختلافات كثيرة عن لغة الشمال وخاصة لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم .

وهنا نقف عند حالة غامضة في تاريخ لغة الأوس والخزرج ، لقد تكلم اليهود بلسانين وكتبوا بهما، وهذا واضح في كل الدراسات التي وصلتنا وهو اللغة العبرية ، ولغة العرب من أهل الشمال ، حتى إن الأخرى طغت على الأولى طغيانًا إذ ألف اليهود بها شعرًا [(٢)] وكان حديثهم مع العرب من الأوس والخزرج والمسلمين فيما بعد من غير ترجمان أو وسيط ، وهذا يدل على أن لغة الشمال طغت طغياناً واضحاً على سكان المدينة عربها ويهودها . وأن ما وردنا من شعر الأوس والخزرج ، وحتى الذين تطرقوا إلى التوسع في مثل هذه الحالة لم يذكروا اللغة التي كان لسان اليثربيين عليها

لكننا نستطيع القول بأن لغة أهل يثرب ، أو لهجة أهل يثرب قد أصبحت علمًا خاصًا عليهم ، لكنها ونتيجة الاحتكاك المتواصل مع أهل مكة من جهة وقبائل مضر من جهة أخرى ، وانقطاع الاتصال مع قبائل الأزد إلا فيما ندر ، والتلاحم الكبير الذي جرى بين الغساسنة واللخميين والروم والنصرانية وصلة الأوس والخزرج بهم ، فقد تحولت لغة أهل يثرب إلى لسان الشمال تشوبه بعض الشوائب ، لكنه لا يخرج عن القاعدة الأصولية الكبيرة التي كان عليها أهل الشمال وخاصة أهل قريش .

ولقد وردت بعض الإشارات إلى هذا التمييز البسيط ما قالوه عن اختلاف (زيد) مع النفر القرشيين الذين اشتركوا معه في جمع القرآن الكريم من كتابة

---

(١) الحضارة العربية ـ لبيب عبد الساتر ص ٢٣٧

(٢) جواد علي ٦ / ٥١١ . وقد أفرد المؤلف بابًا خاصًا للشعراء اليهود .

(التابوت) بالتاء أو بالهاء ، وكان من رأيه كتابتها (التابوه) ومن رأي عثمان (التابوت)[١]

وقد ذكر أهل العلم أن التابوه لغة في التابوت أنصارية ، واللفظة هي من المعربات أخذها الأنصار من العبرانية فهي عندهم (ت . ب . هـ) (ط . ب . هـ) بمعنى صندوق ، وقد كتب بالقرآن بالتاء ، وقد وردت اللفظة في سورة طه وهي مكية (سورة رقم ٢٠ آية ٣٩) ووردت في سورة البقرة وهي مدنية (سورة ٢ آية ٢٤٨) ولكن هذه الاختلافات الطفيفة لم تمنع الرسول ﷺ أن يتخذ الكتبة من الأنصار بعد الهجرة مباشرة، ورغبته بالتعليم بعد بدر من أهل مكة لفتيان الأنصار ، وهذا يدل على أن الخلافات جد ضئيلة وجدت أمثالها في لغات عربية أخرى حتى الآن .

وقد وردت إشارات كثيرة إلى اختلاف هذه اللغات ، لكنها كلها لم تتطرق إلى أن هناك اختلافاً بينا بين لغة قريش ولغة أهل يثرب ، ثم إن القرآن الكريم برأي بعض الباحثين لم ينزل بلغة قريش خاصة ؛ لأن في هذه اللغة بعض الغمغمة والغمغمة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغات على اللغة العربية[٢]، ولعلنا إن وقفنا على هذا الخبر نعلم الحقائق التالية وهي:

١ ـ إن لغة قريش ولغة الأنصار أقرب اللغات في الشمال إلى بعضها .

٢ ـ إن لغة قريش ولغة الأنصار هي لهجة العرب المعروفة آنذاك .

٣ ـ إن أفصح العرب كانت قريش والأنصار ، والسبب أن القرآن نزل فيهم بلسان عربي مبين . والخبر يقول : إن الخليفة (أبا بكر) لما هم بجمع القرآن الكريم بعد إلحاح عمر عليه بذلك، أجلس خمسة وعشرين رجلًا من قريش، وخمسين رجلًا من الأنصار ، وقال اكتبوا القرآن ، واعرضوا على سعيد بن العاص[٣] فإنه رجل فصيح .

---

(١) تاج العروس ١ / ٥٣٢ مادة: تبت .

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٦٠٧

(٣) روى أن لهجة سعيد بن العاص مشابهة للهجة الرسول ﷺ ، وكان من أفصح رجال قريش ولو =

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش خاصة ، وكانت مختلفة عن بقية اللهجات لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار ، وهم من غير قريش .

وروى في البخاري أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب ، وقريش خلاصة العرب وذكر بعضهم أنه نزل على لغة الحجازيين إلا قليلاً وإنه بلغة التيميين كالإدغام في قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:٤] وقوله : مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة:٥٤] [1] فكان إدغام المجزوم لغة تميم ، ولهذا قل ، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر

ولا يعنينا من هذا الباب إلا أن لغة اليثربيين كانت معروفة ومتداولة ، وليست من لغة أهل الجنوب التي نفى عنها العربية في بعض الأزمنة ، وقد استدللت بهذا البحث الطريف الذي أورده جواد على للدلالة على أن التواصل اللغوي قد بلغ مداه في تلك الفترة ، حتى إن بعض العلماء قال: «إن في القرآن من أربعين لغة عربية منها: قريش ، هذيل ، كنانة ، خثعم ، الخزرج ، إشعر ، نمير ، قيس عيلان ، جرهم ، اليمن ، أزد شنوءة ، وكندة ، غسان ، مذحج ، خزاعة ، غطفان ، سبأ ، عمان ، بنو حنيفة، تغلب، طيء، عامر بن صعصعة، أوس ، مزينة، ثقيف، جذام، بلى، عذرة، هوازن ، النمر واليمامة ..» [2]

أي إن هذه اللغات كانت متداخلة تماماً ، والقرآن جمعها لتكون لغة العرب التي أكد القرآن أنه نزل بها تأكيدًا [3] وما كان في يثرب إلا ما شمل العرب جميعًا.

أما الشعر فله شأن آخر لقد ازدهر الشعر العربي ازدهارًا رائعًا في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، وأصبح الشعر مادة التداول بين الناس، وحديث سمرهم،

= كانت عربية القرآن عربية قريش لما كان هناك معنى لقولهم : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ .

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٦٠٣

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ص ١٤٧ . السيوطي، الإتقان ٢ / ١٠٢،والصاحبي ص ٨٥ وما بعدها .

(٣)جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٦٠٣ و ٦٠٨ فما بعدها .

وقام الناس جميعًا ممن لم يكونوا شعراء تطوعا بنشر هذا التراث وحفظه ونقله ، وأصبح الشاعر في القبيلة يعادل إن لم يكن هو شيخها ، فهو الذي يدافع عنها بلسانه ، وكان اللسان أمضى كثيرًا من الحسام في ذلك الوقت إلى درجة أن قبائل فرقها بيت شعر بعد تجمع وقوة ، وأخرى رفعها بيت شعر بعد ضعة ودنو وعار ، ونستطيع أن نقول:إن العصر الذهبي لازدهار الشعر العربي كان في هذه الفترة،وأضحى الشعراء فرسان الكلام في تجمعات الناس في الحج ، وفي المواسم والأسواق ، والناس كل الناس رواة لهؤلاء الشعراء ، وحملة ونقلة ، ومعجزة القرآن الكريم أنها خالفت وقع الشعر وتحدته ببلاغتها،ومع رفعة البلاغة وقوتها فقد جاءت معجزة القرآن بالبيان .

ولقد أفردت الدراسات الكثيرة لتتبع تطور الشعر العربي وازدهاره ، وكذلك الكتب والمصنفات وجمع الكثيرون جمعاً شاملاً أو تخصصاً هذه الأشعار ورووها ودنوها ، وبعضهم اختص بشاعر أو مجموعة من الشعراء في مكان ما[١] أو غرض من أغراض الشعر ، أو شعراء طائفة من الطوائف (الشعراء النصاري والشعراء اليهود)[٢]

واقتضت دراسة الشعر والشعراء ليس فقط دراسة ما كان فعلًا من الشعر ، بل إنهم تعدوا ذلك إلى نسب شعر إلى آدم ، ومن جاء من سلالته ، فنسبوا شعراً لآدم ونوح وإدريس وهود وصالح ، وقحطان ، وكل من قال بهم القول إلى نسبة العرب هؤلاء .

ولذلك فهناك الكثير من الشعر الذي نسب إلى غير قائله ، والكثير من الشعر ضاع ولكن ما بين أيدينا يعتبر ثروة كبيرة في هذا المضمار .

ولم تكن يثرب غائبة عن هذا الجو المفعم بالحماسة للشعر والشعراء ، بل إن الجو المرعب الذي كان يخيم على الأوس والخزرج مدة حرب المائة عام التي نشبت بينهم ،

---

(١) شعر الحرب ـ الخطراوي ، جواد على ـ تاريخ ٩ / ٧١٩ (شعراء العرب) ، الحماسة ـ أبو تمام ، الحماسة ـ البحيري ، الأدب الجاهلي ـ طه حسين ، تاريخ الأدب ـ شوقي ضيف ، الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ، طبقات الشعراء ـ ابن سلام وغير ذلك كثير .

(٢) جواد علي ٩ / ٥١٩ فما بعدها .

قد خلق عددا من الشعراء الفحول الذين كان لهم باع طويل فيأداء المهات والأدوار التي طلبت منهم ، ولم يقتصر قول الشعر على العرب فقط بل تعداه إلى اليهود ، والنصارى والصابئة ، وكل من سكن بلاد العرب أو تعامل معهم ، ولكنا لم نقف على شعر منسوب للروم أو الفرس أو الأقوام من غير العرب .

لقد عاشت يثرب فترة الحرب الأهلية التي امتدت من استيلاء الأوس والخزرج على مقدرات الأمور إلى أن دخل الإسلام إليها وحولها باتجاه آخر عاشت فترة ازدهار الشعر والشعراء ، ورفع قيمتهم ومقدارهم بين الناس ، حتى أولئك الذين قادوا المعارك باعتبارهم القادة العسكريين والسياسيين فإنهم قد خلفوا لنا شعرا قويا ورائعا يظهر مدى افتخارهم ، ومدى رفعة شأنهم ولعل الحماسة والفخر كان من أوسع أبواب الشعر عند أهل يثرب[١]

ولم تحجب الأبواب الأخرى عن شعراء يثرب ، لكنها كانت في فترة زهو الشعر لا تطال فخرهم ومحاسنهم وما قالوه في حروبهم ، وتعتبر هذه الأشعار تاريخًا جليًا لفترة حرب المائة عام التي وقعت بينهم وتاريخا دقيقاً بتفاصيله . وقد فرق كثير من الدارسين بين فنون الشعر فالدكتور زكي المحاسني في كتابه : (شعر الحرب في أدب العرب) نبه إلى أن الفرق بين الشعر الحماسى والشعر الحربي من جهة ، ثم بين الشعر السياسي والحماسي من جهة أخرى ، وذلك في مقدمة الكتاب وخاتمته[٢] وتتجه لذلك فقد اتخذ الشعر مجرى آخر وهو فن السياسة ، حيث يذكر الشعراء الحيل والأعمال والمناورات التي قام بها القادة المحاربون في أيامهم الطويلة التي مر ذكرها . ومن جهة الشعر السياسي فليس كل شعر سياسى حماسيا ، فكثير من أشعار عبد الله بن قيس الرقيات ، وأشعار الكميت من الشعر السياسي لأنها تدعو لحزب أو تدافع عن مبدأ وتنادى بفكرة مذهبية أساسية ولا تعد من الشعر الحماسى أو الحزبى لافتقارها للخصائص التي يختص بها شعر الحرب .

---

(١) شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ـ محمد العيد الخطراي .

(٢) شعر الحرب ـ الخطراوي ص ١٨١

ولقد برز فن الرثاء كفن كبير جدًا في الشعر العربي ارتبط أيضًا برثاء الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل قبائلهم وفي سبيل الدفاع عنها . ويعتبر الرثاء من الفنون المطروقة بقوة في الشعر العربي .

إن الحروب التي عاشها العرب الداخلية منها خاصة والخارجية عامة قد أفرزت أشعارًا قوية خالدة،وحرب الأوس والخزرج تعتبر أحد الأمثلة للحروب الداخلية، فلم تكن حربهم على ماء أو عشب أو كلأ كما هو الحال في المجتمع الرعوى ، ولم تكن عن قحط في الغيث أو حرب في الأرض ، وضيق في اليد وجوع في البطون[١] فإن يثرب كانت واحة وارفة الظلال ، كثيرة الخيرات ، لكنها كانت من نوع الحروب السياسية من جهة ، ومن نوع العصبية القبلية التي استأثرت بنفوس الناس.

أما عن شعراء يثرب :

قال ابن سلام: شعراؤها الفحول خمسة ، ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس ، فمن الخزرج من بنى النجار ـ حسان بن ثابت ـ ومن بنى سلمة بن مالك ، ومن الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة .

ومن الأوس قيس بن الخطيم من بني ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بنى عمرو بن عوف[٢] وهنالك شعراء آخرون ، لكنهم لم يبلغوا مبلغ هؤلاء في الشعر منهم أحيحة بن الجلاح وسويد بن الصامت ، وأبو قيس مالك بن الحارث ، وآخرون [٣]

ويعد مالك بن العجلان الخزرجي في جملة شعراء يثرب ، ذكر أنه القائل للربيع ابن أبي الحقيق اليهودي من أبيات :

---

(١)شعر الحرب ـ الخطراوي ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣

(٢)طبقات الشعراء ـ ابن سلام ص ٢٥

(٣) جواد علي ٩ / ٧١٩

إني امــرؤ مــن بنــي ســالم كــريم وأنــت امــرؤ مــن يهــود

فأجابه الربيع في أبيات :

أتــسفه قيلــة أحلامهــا وحــان بقيلــة عثــر الجــدود

وفيه يقول الشاعر «عمرو بن امرئ القيس» من بني الحارث بن الخزرج من شعراء الجاهلية :

يــا مالــك والــسيد المعمــم قــد يبــصره بعــد رأيــه الــسرف

نحــن بــما عنــدنا وأنــت بــما عنــدك أرش والــرأي مختلــف

وهو أي مالك بن العجلان من مشاهير سادة يثرب ، وله ذكر في نزاع يثرب مع اليهود وفي حرب سمير بين الأوس والخزرج ، وهو قاتل الفطيون ملك اليهود.

وعمرو بن الإطنابة من شعراء يثرب ، وهو من الخزرج ، وهو شاعر فارس قديم ، خرجت الخزرج معه وخرجت الأوس وأحلافها مع معاذ بن النعمان في حرب كانت بين الأوس والخزرج ، وذكر أن حسان جعله أشعر الناس لقوله:

إني مــن القــوم الــذين إذا انتــدوا بــدأوا بحــق الله ثــم النائــل

المــانعين مــن الخنــا جــيرانهم والحاشــدين عــلى الطعــام النــازل

والخــالطين فقــيرهم بغنــيهم والبــاذلين عطــاءهم للــسائل

لا يطيعــون وهــم عــلى أحــسابهم يــشفون بــالأحلام داء الجاهــل

القــائلين ولا يعــاب خطيــبهم يــوم المقامــة في الكــلام الفاصــل[1]

ومن شعره أيضًا:

أبــت لي عفتــي وأبي بلائــي وأخــذ الحمــد بــالثمن الــربيح

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧١٩ ـ ٧٢٠.

وإكراهـــي عـــلى المكـــروه نفـــسي وضربي هامـــة البطـــل المـــشيح

ويقال: إن معاوية قال لقد وضعت رجلي بالركاب يوم صفين ، وهممت بالفرار ، فما منعني من ذلك إلا قول ابن الإطنابة الشعر المذكور(١)

ذكر الأصبهاني في أخبار حسان بن ثابت قال(٢) : أتيت جبلة بن الأيهم الغساني ، وقد مدحته فأذن لي فجلست بين يديه ، وعن يمينه رجل له ضفيرتان وعن يساره رجل أعرفه ، فقال أتعرف هذين ؟ فقلن أما هذا فأعرفه وهو النابغة ، وأما هذا فلا أعرفه ، قال فهو علقمة بن عبدة ، فإن شئت استشعرتها وسمعت منهما ، ثم إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكت . قلت فذاك ، قال فأنشد النابغة .

كليني لهـــمٍّ يـــا أميمـــة ناصـــب وليـــل أقاســـية بطـــيء الكواكـــب

قال: فذهب نصفي ، ثم قال لعلقمة : أنشد ، فأنشد :

طحا بـك قلـب في الحـسان طـروب بعيـد الـشباب عـصر حـان مـشيب

قال : فذهب نصفي الآخر ، فقال لى : أنت أعلم الآن إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وأن شئت أن تسكت ، سكت ثم قلت لا بل أنشد قال: هات ، فأنشدته:

لله در عـــــــــصابة نادمتهــــــــــا يومًـــا بجلـــق في الزمـــان الأول

أولاد جفنـــة عنـــد قـــبر أبـــيهم قـبر ابـن ماريـة الكـريم الأفـضل

يـسقون مـن ورد الـبريص علـيهم كأسًـا يـصفق بـالرحيق المسلـسل

يغـشون حتـى مـا تهـز كلابهـم لا يـسألون عـن الـسواد المقبـل

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٢١

(٢) الأغاني ـ الأصبهاني ١٤ / ٢.

بـيض الوجـوه كريمـة أحـسابهم شـم الأنـوف مـن الطـراز الأول

فقال لي : أدنه . أدنه ... لعمرى ما أنت بدونهما ، ثم أمر لي بثلاثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد وقال هذا لك عندنا في كل عام وقد ذكر أبو عمرو الشيباني هذه القصة لحسان ووصفهما ، وقال : إنما فضله عمرو بن الحارث الأعرج ومدحه بالقصيدة اللامية

وقد أورد صاحب الأغاني أخبار أحيحة بن الجلاح[1] وهو شاعر كبير وقائد شهير من قادة الأوس وقد عاصر هجوم تبع على المدينة فقاد الأوس والخزرج كليهما . ووقف في وجه تبع ومنعه من دخول المدينة . قال تبع عند حصار المدينة :

يـا ذا المعاهـد مـا تـزال تـرود رمـد بعينـك عادهـا أم عـود

منـع الرقـاد فـما أغمـض سـاعة نـبط بيثـرب آمنـون قعـود

لا تـسقنى بيـديك إن لم تلقهـا حربًـا كـأن أشـاها مجـرود

ومن شعر أحيحة يرثى الأزياد الذين قتلهم تبع:

أيـا لهـف نفـسي أي لهـف عـلى أهـل القفـارة أي لهـف

مـضوا قـصد الـسبيل وخلفـوني إلى خلـف مـن الأبـرام خلفـي

سـدى لا يكنفـون ولا أراهـم يطيعـون أمـراً إن كـان يكفـي[2]

وكان أبو قيس بن الأسلت الأنصاري يهاجي حسان بن ثابت وهو من الأوس وحسان من الخزرج فكانا يتهاجيان ، وكان بين الحيين هجاء ، فكان شعراء كل حى يهاجرون شعراء الحى الثانى عصبية لما كان بينهما من تحاسد وتفاخر

والأسلت لقب (عامر بن جشم بن وائل بن زيد) والد الشاعر المتقدم من

---

(١) الأغاني ـ الأصبهاني ١٣ / ١١٥ وما بعدها .

(٢) المدينة ـ الخطراوي ص ١٤٠ ـ ١٤٢

الأوس ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية وكانت الأوس قد أسندت أمرها يوم بعاث إلى (أبي قبيس بن الأسلت) فقام في حربهم وآثرها على كل أمر آخر حتى أنهكته وشحب لونه[(١)]

وفي سيرة ابن هشام[(٢)] قصيدة نسبت إلى قيس بن الأسلت زعم أنه وجهها لقريش ينهي فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ، ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم ، وأول القصيدة :

يا راكبًا أما عرضت فبلغن ... مغلغلة عني لؤي بن غالب

رسول امرئ قد راعه ذات بينكم ... على النائي محزون بذلك ناصب

وذكر أن أبا قيس بن الأسلت كان يعدل بقيس بن الخطيم في الشجاعة والشعر[(٣)]

وقيس بن الخطيم شاعر مجيد فحل ، من الناس من يفضله على حسان شعرًا وقال حسان : إنا إذا نافرتنا العرب فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا قيس بن الخطيم ، وهو الذي يقول في يوم بعاث :

أتعرف رسمًا كالطراد المذهب ... لعمرة ثغر غير موقف راكب

وله أشعار جيدة أخرى .

وذكر أنه كان مقيمًا على شركه ، وأسلمت امرأته ، وكان يقال لها «حواء» وكان يصدها عن الإسلام ويعبث بها ، وكان رسول الله وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمور الأنصار وعن حالهم فأخبر بإسلامها وبما تلقى من قيس ، فلما كان الموسم ،

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٢٥

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ١ / ١٨٠ حاشية على الروض الأنف. جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٢٤

(٣) الإصابة ـ العسقلاني ٤ / ١٦١ رقم ٩٤٤

وحضر مكة أتاه النبي في مضربه ، فلما رأي النبي رحب به وأعظمه فأخبره النبي بما تلاقي امرأته منه بسبب إسلامها ، وقال له : أحب ألا تعرض لها ، فكف ، ويقال: إن النبي دعاه إلى الإسلام وتلا عليه القرآن فقال : إنى لأسمع قرآنا عجبًا ، فدعني أنظر في أمرى هذه السنة ، ثم أعود إليك فمات قبل الحول[١]

وأبوقيس مالك بن الحارث ، وقيل صرعة بن أبي أنس ويقال : ابن قيس ابن مالك من بني النجار شاعر وكذلك كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتا فاتخذه مسجدًا لا يدخل عليه طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب إبراهيم فلما قدم الرسول يثرب أسلم فحسن إسلامه وهو شيخ كبير ، وكان قوالًا للحق معظمًا له ، يقول في الجاهلية أشعارًا حسانًا ، وقد ذكر ابن إسحاق أشعاراً له في الوصايا وفيها حث على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف ، وفي إنصاف اليتيم وغيرها من شعر المواعظ[٢]

أما حسان بن ثابت فهو من المخضرمين ، وهو شاعر رسول الله ﷺ وشاعر الإسلام وأمه الفريعة بنت خالد بن حبيش بن لوزان وهي الخزرج أيضًا . أدركت الإسلام فأسلمت ، قال أبو عبيدة : فضل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة . وشاعر اليمن كلها في الإسلام وكان مع ذلك جبانًا [٣] ولم يشهد مع الرسول مشهدًا ؛ لأنه كان يجبن ، وذكر أنه كان لسنا شجاعاً فأصابته علة أحدثت فيه الجبن فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده .

وروى أبو عبيدة ، اجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدن يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف وعلى أن أشعر أهل المدن حسان بن ثابت .

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٢٧ الإصابة ٣ / ٢٦٦ (٧٣٥٠) .
(٢) الاستيعاب ـ حاشية على الإصابة ٤ / ١٥٧ وما بعدها .
(٣) الإصابة ـ العسقلانى ٢ / ١٨٢ رقم ٤٠٦١

قال الأصمعي: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء . قال فيه أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة ، فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه .

وورد أن رسول الله ﷺ قال : ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبد الله بن رواحة شعرًا ولكنه حكمة .

وذكر أن الحارث المري قال للنبي ﷺ : إني أعوذ بالله وبك من هذا ، إن شعر هذا لو مزج بماء البحر لمزجه وكان حسان قد رآه جالسًا مع الرسول فقال فيه شعرًا مطلعه :

يـا جـار مـن يغـدره بذمـه جـاره   مـنكم فـإن محمـدًا لا يغـدر[1]

وقد حمل على حسان شعر كثير ، بسبب تحامل على قريش ، فأرادت قريش النكاية به فوضعت شعرًا على لسانه ليحط من مكانته ، قال ابن سلام : وأشعرهم حسان بن ثابت كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لما تعاضت قريش واستبت ، وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تليق به وأكثر علماء الشعر على أن شعر حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى منه في الإسلام قال الأصمعي: الشعر يقولون: نكد يقوى الشر ويسهل ، فإذا دخل فيه الخير ضعف.

ولأن حسان هذا فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره ، وقيل مرة أخرى شعره في الجاهلية من أجود الشعر ، وقيل لحسان ، لماذا شعرك هرم في الإسلام يا أبا الحسام ؟ فقال للقائل: يا ابن أخي، إن الإسلام يحجز عن الكذب ، أو يمنع الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب يعني إن شأن التجديد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق ، وذلك كالكذب ونسب إلى الحطيئة قوله : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يغـشون حتـى مـا تهـر كلابهـم   لا يـسألون عـن الـسواد المقبـل

---

(١) جواد علي - تاريخ ٩ / ٧٢٨ - ٧٢٩

وقال عبد الملك بن مروان : أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا[١]

وكان أبوه ثابت بن المنذر من سادات قومه وأشارفهم ، وكان المنذر الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة[٢] ، والخبر عن حسان بن ثابت يطول لما في حياة الشاعر وإنتاجه من سمو وروعة وذكر أن أول شعر قاله حسان بن ثابت في الإسلام هو قوله :

فأنـا ومـن يهـدى القـصائد نحونـا ... كمستبـضع تمـرًا إلى أهـل خيـبر

ولما أسرت (هذيل) بعض المسلمين وباعتهم إلى قريش ، هجاهم حسان هجاء مرًا ووصفهم فيه باللؤم ، واللؤم عند العرب من أقبح المعيبات إذ قال :

لـو خلـق اللـؤم إنـسانًا ... لكـان خـير هـذيل حـين يأتيهـا

ترمـي في اللـؤم رقـمًا بـين أعيـنهم ... كـما لـو أذرع العانـات كاويهـا

تبكـي القبـور إذا مـا مـات سـيدهم ... حتـى يـصيح بمـن في الأرض داعيهـا

قتـل القنافـذ تخـزى أن تفاجئهـا ... شـد النهـار ويلقـى الليـل ساريها[٣]

وكعب بن مالك من شعراء يثرب كذلك ، ويكنى أبا عبد الرحمن ، وهو ممن شهد العقبة وكان أحد شعراء الرسول الذين كانوا يردون الأذى عنه ، وكان مجودًا مطبوعًا قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر ، وذكر أنه كان أحد الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك من الأنصار وقال الله فيهم : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة:١١٨]. وكعب بن مالك من أسرة أظهرت جملة شعراء ؛ فمالك والد كعب كان شاعراً ؛ وعمه قيس كان شاعراً كذلك وكان أولاد كعب و أحفاده شعراء مجيدين ومقدمين في الشعر.

---

(١) الاستيعاب ١ / ٣٩٨ وما بعدها

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٣٠ ـ ٧٣١

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٤٠

وذكر ابن سيرين أن كعبًا قال بيتين كانا سبب إسلام قبيلة دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

تخبرنا ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوسًا أو ثقيفًا

فلما بلغ دوسًا قالوا : خذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[١]

وقال ابن سيرين أيضًا:كان شعراء المسلمين حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وقفوا ضد قريش واتخذ كل منهم طريقًا ـ فكان كعب يخيفهم الحرب ، وعبد الله يعيرهم بالكفر ، وكان حسان يقبل على الأنساب[٢]

وعبد الله بن رواحة من الخزرج ، وهو أبو محمد ويقال : أبو رواحة ، ويقال: أبو عمرو، وكان من شعراء يثرب المعروفين، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا، وكان ممن يكتب للنبي ، وكان ممن يكتب بالجاهلية ، وهو الذي جاء ببشارة بذر إلى المدينة ، استشهد بمؤتة سنة ٧ هـ وليس له عقب ، وهو خال النعمان بن بشير الأنصاري ، وكان عظيم القدر في قومه ، سيدًا في الجاهلية ليس في طبقته أسود منه ، وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم ، ويختلف عن حسان بكونه محاربًا ، اشترك مع الرسول في غزواته واستشهد مقاتلًا

وأكثر ما روى من شعره هو من الشعر الذي قاله في الإسلام ولا سيما في معركة مؤتة ، وروى أن الرسول ﷺ قال له يومًا قل شعراً تقتضيه الساعة ، وأنا أنظر إليك ، فانبعث مكانه ثم قال:

إني تفرست فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أن ما خانني البصر

أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب لقد أزري به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا

---

(١) الإصابة ـ العسقلاني ٣ / ٢٨٥

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٤٦ ـ ٧٤٧

وفي رواية ابن هشام :

إني تفرســـت فيــك الخــير قافلـــة   فراســة خالفــت فيــك الــذي نظــروا
أنـــت النبـــي ومـــن يحـــرم نوافلـــه   والوجـه منـه فقـد أزري بـه القـدر[١]

وكان النعمان بن العجلان الزرقى لسان الأنصار وشاعرهم ، وكان أحمر قصيرًا تزدريه العين وكان سيداً ، وله شعر يفخر فيه بقومه على قريش من جملته :

فقـل لقـريش نحـن أصـحاب مكـة   ويـــوم حنـــين والفـــوارس في بـــدر
نـــصرنا وأوينـــا النبـــي ولم نخـــف   صروف الليـالى والعظـيم مـن الأمـر
وقلنــا لقــوم هــاجروا مرحبًــا بكــم   وأهـلا وسـهلا قـد أمنـتم مـن الفقـر
نقاســـــمكم أموالنـــــا وديارنـــــا   كقسمة أيسار الجـزور عـلى الـشطر[٢]

هذا عن الشعراء العرب من الأوس والخزرج من أدرك الإسلام فأسلم، أو مات على كفره ولم يكن هؤلاء فقط حصيلة شعراء يثرب موضوع بحثنا ـ لكن ظهر أيضًا من يهود شعراء بالعربية تمامًا كشعراء العرب ، وقد أفرد لهم الكثير من الدارسين والباحثين البحوث والكتب ومنهم . (إسرائيل ولفنستون) في كتابه : (تاريخ اليهود في بلاد العرب) . بروكلمان ، وكذلك الأصبهاني في كتابه : (الأغاني) ، وجواد على في كتابه (المفصل فيتاريخ العرب قبل الإسلام)[٣] وإشارات ومقارنات في كتب أخرى .

لا نعرف نصا جاهليا فيه خبر عن شعر يهودي أو شاعر يهودي عاش في بلاد العرب ، وكل ما ورد إلينا من شعر يهود مستسقى من الموارد الإسلامية فحسب ،

---

(١) الاستيعاب ـ حاشية على الإصابة ٢ / ٢٨٧ . جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٤٩
(٢) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٥١ والاستيعاب ٣ / ٥٢١ حاشية الإصابة ، والإصابة ٣ / ٥٣٢ رقم ٨٧٤٨ .
(٣) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٦٨ فما بعدها .

وكذلك لا تعرف مصدرا عبرانيا أو غير عبراني تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب ، ولهذا فحديثي عن شعر يهود في أيام الجاهلية مستمد من الموارد الإسلامية وحدها

ومن يلقى نظرة على أشعار اليهود لا يجد فيها أي أثر لليهودية ، ولا أية مصطلحات تشعر أن صاحبها يهودى ، فلا نجد فيها شيئا من قصص التوراة أو التلمود أو المنشا أو (الكهارة) أو أي شيء له صلة بعقيدة يهود ، مع أننا قد وجدنا شيئا من قصص العهد القديم في شعر أمية بن أبي الصلت وهو غير يهودي .

لقد ذهب (إسرائيل ولفنستون) إلى أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية وأسماء شعرائهم إنما يرجع إلى ضعف إقبال اليهود على اعتناق الإسلام ، والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الإسلام[١]

وذهب الدكتورطه حسين إلى أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر في الدين وفي هجاء العرب ، وأنهم انتحلوا وصنفوا شعرا لإثبات وجودهم في الشعر فنسبوه إلى شعراء يهود ، ولكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع . وقد أدخل (كارلو فالينو) الشعراء اليهود مع الشعراء الوثنيين .

وجعلهم في الصنف الأول من أصناف طبقات الشعراء على حسب تصنيفه إلى أربع طبقات ، وليس من المستحيل أن ما فقد من أشعار يهود وهو كثير بالإضافة إلى ما حفظ ، قد حوى أشياء مما يختص بدينهم ، وليس من المحال أيضاً أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغة ولا أسلوباً ، ولا مأخذا كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة[٢]

(١) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٦٨ فما بعدها .
(٢) جواد علي : تاريخ ٩ / ٧٦٩

وقد ذكر ابن سلام فحول شعراء يهود فجعلهم السموأل بن الفريض بن عاديا ، وقد عاش في تيماء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران، وشفيعة بن غريض، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الزبال ، ودرهم بن زيد[١] وأضاف غيره إليهم أوس بن دني ، والفريض بن السموأل[٢] وسلام بن مشكم وكنانة بن أبي الحقيق[٣] . ولا يهمنا من أمر السموأل كثيرا فلم يكن ذا تأثير في يثرب ، وإنما كل ما جاء في وفائه وشعره كان في تيماء .

وقد نسبه البعض إلى هارون بن عمران أخي موسى عليه السلام ، وآخرون نسبوه إلى بني غسان والبعض نسبه إلى الأزد ، وبعض نسبه إلى عمرو مزيقيا ، أنكر ذلك الأصبهاني عليه[٤] وقد عاش في حصنه الأبلق الذي استعصى على الغزاة حتى الزباء ملكة تدمر[٥] وقد طبع الأب (لويس شيخو) ديوان السموأل برواية نفطويه ٣٢٣ هـ ، وقد شكك الكثيرون بنسبة الديوان للسموأل وقد قال بروكلمان إن القصائد من ١ ـ ٦ ربما تكون للسموأل والأخريات لشعراء يهود متأخرين .

ومن شعراء يهود الربيع بن أبي الحقيق وهو من بني قريظة على ما جاء في كتاب الأغاني[٦]، وكان أحد الرؤساء في يوم بعاث ، وكان حليفًا للخزرج هو وقومه ، فكانت رياسة بني قريظة للربيع ، ورياسة الخزرج لعمرو بن النعمان البياضي ، وكان رئيس بني النضير يومها سلام بن مشكم .

غير أننا نجد (ابن هشام) صاحب السيرة يذكر سلام بن أبي الحقيق وهو شقيق الربيع ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وهو أحد أبناء الربيع في جملة سادات بني النضير ،

---

(١) طبقات الشعراء ـ ابن سلام ص ٧٠

(٢) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٩٢ وما بعدها .

(٣) الاستيعاب ٤ / ٣٣٧ حاشية على الإصابة . جواد علي ـ تاريخ ٧٧٠ ـ ٧٧١

(٤) الأغاني ـ الأصبهاني ١٩ / ٥٨ فما بعدها

(٥) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٧٢ فما بعد .

(٦) الأغاني ـ الأصبهاني ٢١ / ٦١

مما يدل على أن الربيع بن أبى الحقيق هو من بني النضير ، وقد قتل ابن أبي الحقيق بعد (الخندق) ، وذلك أن الأوس لما أصابت كعب بن الأشرف قالت الخزرج والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدا فاستأذنوا النبي في قتل ابن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم ـ كما سيرد تفصيلا لذلك[1] فقتلوه .

وجعله ابن سلام من النضير ، والذي يؤكد أنه من بني النضير أن نبي قريظة كانوا حلفاء الأوس وبني النضير حلفاء الخزرج يوم بعاث .

ونسب إلى بن أبي الحقيق أبيات هي :

سئمت وأمسيت رهن الفراش ... من جرم قومي ومن مغرم

ومن سفه الرأي بعد النهي ... وعيب الرشاد ولم يفهم

فلو أن قومي أطاعوا الحليم ... لم يتعدوا ولم يظلم

ولكن قومي أطاعوا الغواة ... حتى تعكس أهل الدم

فآوى السفيه برأي الحليم ... وانتشر الأمر لم يبرم[2]

وله أشعار أخرى ذكرت في الأغاني وفي المفصل في تاريخ العرب .

ولكعب بن الأشرف ـ وهو من سادة يهود الذين كانوا يحرضون قريشًا وغيرهم على الرسول ـ أشعار في الحث على الانتقام من المسلمين لما أوقعوه بأهل مكة من قتل يوم بدر ذكرت في سيرة ابن هشام[3] وله أشعار أخرى افتخر بها أهله وبماله وبنخيله التي تخرج التمر كأمثال الأكف[4]

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢ / ٢٠٩ وما بعدها. حاشية على الروض الأنف . ٢ / ٢٠٩ وما بعدها .

(٢) الأغاني ٢١ / ٦٢

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢ / ١٢٣ و١٢٥ حاشية على الروض الأنف . الأغاني ١٩ / ١٠٦

(٤) الروض الأنف ـ السهيلي ٢ / ١٢٥ . ابن الأثير ـ الكامل ٢ / ٥٣ . جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٨٤

ومن شعره في رثاء قتلى بدر:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل الأدمع

قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصدع[١]

وهناك من رد عليه من المسلمين نساء ورجالًا ، وقد شبب بنساء المسلمين فأمر الرسول بقتله فقتله محمد بن سلمة ورهط معه من الأنصار[٢]. وقد ورد أسماء عدد آخر من شعراء اليهود وأورد أبو الفرج الأصبهاني أبيات شعر نسبها إلى شاعرة يهودية سماها (سارة القرظية) ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جبيلة) أشراف اليهود[٣] وهكذا نرى أن ازدهار الشعر في ذاك العصر كان عامًا عربيًا ويهوديًا ، وقد تم جمع بعض هذا التراث لكن فإن أكثر هذا الشعر قد فقد يقينا وعودة سريعة إلى الذي قيل كله أو جله في يثرب كان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحروب (أيام الأوس والخزرج) ، أو حروب اليهود مع الأوس والخزرج ويغلب عليها المدح للبعض أو للجماعة ، ويشُتم منها تحول نحو سياسة حب العلو والسيطرة التي غلبت على أفكار الشعراء في الجاهلية وتحد للكفر ، ومدح للرسول ، وإظهار لعظمة الدعوة ، وهم ـ هؤلاء الشعراء ـ الذين عناهم الله بقوله في سورة الشعراء.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء][٤]

٢ ـ المعتقدات الدينية :

لقد أقام عرب يثرب على الوثنية منذ دخولهم إلى المدينة حتى فشا الإسلام بينهم ،

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢ / ٣٣٨ . جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٨٤

(٢) الأغاني الأصبهاني ١٩ / ٩٨

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٩ / ٧٩١

(٤) سورة الشعراء ـ آية ٢٢٤ ـ ٢٢٧ . تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ٣ / ٣٦٦ ـ ٣٦٨ مجمع البيان ـ الطبرسي ٧ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩ . الظلال ـ سيد قطب ٥ / ٢٦٢٢

فقد كانت الوثنية معتقد عرب الجزيرة قاطبة قبل ظهور الإسلام ، إلا القليل النادر ممن لحق باليهودية أو النصرانية أو الحنيفية ـ دين نبي الله إبراهيم ـ ﷺ .

ولم يكن العرب أيضًا بمعزل عن الشعوب الأخرى التي سيطرت عليها الوثنية والشرك ، حتى أن الكثير من المعتقدات اليهودية والنصرانية قد شابها الشرك ، وتحولت كثيراً من الرموز المادية إلى معبودات من دون الله تعالى .

والعرب قبل الإسلام مثل سائر هذه الشعوب عبدوا الآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة مسالك هي التي نسميها بلغتنا ـ الأديان[١]

وقد عرف بعض العلماء الدين: بأنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ، ويكون لها أثر في حياة هذا الكون ، وعرفه الآخرون : استمالة واسترضاء القوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان .

وهو عند بعض شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائنات إلهية ـ وهو الصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة ، وبين الكائن أو الكائنات الإلهية ، وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وغيرها من أديان سواء أكانت سماوية أو غير سماوية ، كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تفريعات وحدود كثيرة أخرى للدين نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس إلى مفهوم الدين ، فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها هل تدخل في نطاق حدود الدين ، أولا كما أن مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[٢]

وللدين مهما قيل في تعريفه هو شعائر تظهر على أهله فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى،كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك،ولهذه الأمور

(١ ، ٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥ ـ ٦

أثر ـ بالطبع ـ في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع اتباع الدين بطابع مميز .

والدين: الحساب ومنه قول الله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة] (أي مالك يوم الحساب) وقيل:معناه يوم الجزاء.ولقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦] أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوى .

والدين : الطاعة : وقد دنته ودنت له : أي أطعته . قال عمرو بن كلثوم :

وأيـــام لنـــا غـــر كـــرام   عـــصينا الملـــك فيهـــا أن نـــدينا

والجمع الأديان يقال كان بكذا ديانة ، وتدين.به فهو دين ومتدين ، وتدينت الرجل تدينا إذا وكلته إلى دينه .

والدين: الإسلام وقد دنت به، وفي حديث علي ﷺ : محبة العلماء دين يدان به.

والدين: العادة والشأن : تقول العرب ، ما زال ذلك ديني ، وديدني أي عاداتي . قال المنتصب العبدي يذكر ناقته :

تقـــول إذا درأت لهـــا وضـــيني   أهـــذا دينـــه أبـــدا ودينـــي[(١)]

والديان : من أسماء الله ﷻ معناه الحكم ، القاضي ، وسئل بعض السلف عن علي ابن أبي طالب ﷺ فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبيها أي قاضيها وحاكمها .

والديان : القهار ، ومنه قول ذي الإصبع العدواني :

لاه وابن عمك ، لا أفضلت في حسب   فينـــا ، ولا أنـــت ديـــاني فتخـــزوني

أي لست بقاهر لي فتسوس أمري

والديان: الله ﷻ ، والديان : القهار ، وقيل الحاكم والقاضي ، وهو مقال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة . يقال : دنتهم فدانوا .. أي قهرتهم فأطاعوا[(٢)]

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور ١ / ١٤٠٤

(٢) اللسان ـ ١ / ١٤٠١ ترتيب القاموس المحيط ٢ / ٢٤٥ . مختار الصحاح ٢١٩ المعجم الوسيط ١ / ٣٠٦

وقد وردت هذه اللفظة في هذا المعنى المفهوم منها ـ الإسلام ـ في بيت شعر ينسب إلى أمية بن أبي الصلت قوله :

كـــل ديـــن يـــوم القيامـــة عنـــد الله إلا ديـــــــن الحنيفيـــــــة زور[١]

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الإسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينية وسبأية،وحضرمية، وأوسانية وقيتبانية، وثمودية، ولحيانية ، وصفوية ، وهي نصوص ليس بينها نص واحد للأسف في أمور دينية مباشرة، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية، أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك، غير أن هذه النصوص المذكورة ومعظمها لم يصل خبرها إلى علم الإخباريين ، لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الإسلام[٢]

وأما أديان العرب قبل لإسلام ، وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب ، ففيه ذكر لما كان عليه الناس ، ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء . وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزا من الآيات البينات . ويضاف إلى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .وفي الشعر المنسوب إلى الشعراء الجاهليين إشارات إلى بعض عقائد الجاهليين ، وإلى بعض الأصنام تعرض لها شراح الدواوين بالمناسبات ، وترد هذه الإشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية ، وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك في كتب اللغة والأدب والمعجمات .

وأشهر ما صنف في الأصنام في الحياة الدينية الوثنية (كتاب الأصنام لابن الكلبي) وقد طبع عدة مرات ، وترجم إلى عدة لغات[٣]

والرأي المعروف بين الناس في الطبقة المتعلمة عنهم أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٧

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ١١

(٣) المرجع السابق ٦ / ١١ ـ ١٢

منحط لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية ، وهو رأي خاطئ يفنده القرآن الكريم ، وإذا كان ما يقوله صحيحًا بالقياس إلى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكما عاما على الكل ، لاسيما وأن المتحضرين وما كان لهم اتصال بالعالم الخارجي وظهرت أسماء رجال كان لهم شأن وحظ في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار من المصلحين الهادين من أصحاب العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم ، وأن رجالا منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد وأن آخرين بشروا بالوثنية وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ ، وأن رجالًا من الجاهليين كانوا على عبادة (الله) و(الرحمن) ، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة إذن لظهور الإسلام[١]

وتعتبر وثنية العرب غير معقدة وليس لها طقوس معينة في غالب أحياء العرب وبواديهم ، ولم يبن العرب معبدًا لآلهتهم غير البيت الحرام في مكة ، والذي تحول بفعل تأثير عمرو بن لحى المخزومى إلى مركز للوثنية العربية ، ارتبط به العرب ، وخلطوا بين تعاليم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبين ما أحضره عمرو بن لحي هذا ، وازدادت التعقيدات وكثرت الآلهة بشكل كبير في مكة ، لكن بقى الارتباط بأيام الحج والزيارة لمن قدم للحج والزيارة ، أما غير هذا فقد كانت الآلهة العربية إما في البيوت، وإما في مواقعها كالأشجار والصخور، كنائلة وإساف وغيرهما ولا يكلف العربي نفسه عناء تمجيد الآلهة،وتعميق الإيمان بها تعميقًا وصل إلى ما وصلت إليه وثنية المجوسية أو البوذية،أو حتى وثنية الرومان واليونان قبل تحولهم إلى النصرانية، هذه البساطة أيضًا مهدت لتقبل الإسلام، ويحدثنا التاريخ أن أكثر من قاوم الإسلام أهل مكة من العرب،وبقيه القبائل كالأعراب أشد عداوة من أهل الحضر للإسلام.

كما عرف العرب النصرانية واليهودية لاتصالهم الدائم بغيرهم من الأقوام ، وفي فترات متقطعة انضمت قبائل برمتها إلى هاتين الديانتين ، كاعتناق أهل اليمن اليهودية واعتناق الغساسنة والمناذرة النصرانية وأهل نجران ، ولكن من كان من

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٣٠/ـ٣١

أصل غير عربي وعاش بين العرب فلم يذكر التاريخ أنه لاقى اضطهادًا دينيًا من الوثنيين العرب ، بل على العكس ربما لاقى الاحترام ولاقى الرعاية .

ويثرب وحدها دون غيرها قد حوت ولفترات طويلة اليهودية مع الوثنية، اليهودية التي قررنا أنها من غير العرب والأوس والخزرج القحطانيين من اليمن .

ولم يتأثر أهل يثرب رغم طول المعاشرة بينهم وبين اليهود بديانة يهود ونظرًا لعدم رغبة اليهود بنشر ديانتهم خارج بني إسرائيل من جهة ولقلة ثقافتهم الدينية من جهة أخرى وغلبة الأوس عليهم من جهة ثالثة .

لقد كان الدين عند العرب الجاهليين بشكل عام والحجاز بشكل خاص نتيجة تطور طويل وعوامل مختلفة ، وكانت ديانتهم الوثنية وأهم معبوداتهم الحجارة والأشجار ، وهذه الحجارة والأشجار لم تعبد لذواتها ، بل عبدت على أساس أنها بيوت للآلهة ، وقد اختلطت بهذه المعبودات وبتأثير بعض العوامل الأجنبية صفات غيبية ربطتها بالأجرام السماوية ، ويبدو أن البدو كانوا قليلي الاهتمام بهذه الآلهة وربما كان السبب في ذلك أنها كانت في الأصل آلهة مجتمعات زراعية تهتم بخصب الأرض ووفرة المحصول[(١)]

ويمكن أن نلاحظ بشكل عام أن وثنية عرب الشمال كانت أبسط شكل من أشكال الوثنية عند الساميين ، وأنها لم ترتق كما ارتقت وثنية عرب الجنوب ، ولم يكن لها المعايير الفخمة والشعائر المعقدة التي كانت في الجنوب .

ويعلل ابن الكلبي ظهور العبادة الوثنية عند عرب الحجاز ـ رغم أنهم ورثة إسماعيل وأصحاب بيت الله ـ بقوله وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به طوافهم بالكعبة ، ويحجون ويعتمرون على أرض إبراهيم وإسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا

---

(١) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩

ما استحبوا ، ونسوا ما كان من قبلهم[(١)]

ويخلص صاحب كتاب : (البدء والتاريخ) الموقف الديني عند عرب الشمال في الفترة السابقة لظهور الإسلام تلخيصًا شاملًا فيقول : كان فيهم من كل ملة ودين ، وكانت الزندقة والتعطيل في قريش ، والمزدكية والمجوسية في تميم ، واليهودية والنصرانية في غسان ، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم ، واتخذ بنو حنيفة إلها من (جبس) وعبدوه دهراً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه . فقال بعضهم .

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

وكان في مشركيهم بقية من دين إسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك ، وأحدثوا أمر الحمس (المتشدد) في الدين من قريش فكانوا لا يخرجون من الحرم ، ولا يقفون مع الناس في عرفات ، ويقولون نحن (آل الله) لا نخرج من حرمه ، وكان الرجل من الغرباء إذا قدم مكة لا يطوف في الثوب الذي قارف فيه الذنب ، فإن أصاب من ثياب الحمس طاف فيه ، وإن لم يصب طاف عريانا والمرأة بالليل عريانة ، وكان يبحرون البحيرة ويسيبون السائبة ، ويصلون الوصيلة ويحمون الحمى ، ويقتسمون بالأزلام ، ويقربون الحامى ، ويقربون القربان وغير ذلك . وكانوا يقولون : إن روح الميت تخرج من قبره وتصير هامة فتقول : اسقوني اسقوني ، ومنهم من كان يؤمن بالبعث والنشور بعد الموت ، ويزعم أن من نحرت مطيته عند قبره حشر عليها[(٢)]

أما بالنسبة لخصوصية ديانة أهل يثرب ، فقد كانوا في الجاهلية يعبدون مناة أكبر آلهتهم والصنم (مناة) هي في رأي ابن الكلبي أقدم الأصنام كلها ، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المثل بقديد بين المدينة ومكة ، والذي نصبه في ذلك الموضع عمرو بن لحي ، وكان مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم ، وأهل يثرب وأهل الشام ، وكانت على هيئة صخرة وتعبدها هذيل أيضًا .

(١) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩

(٢) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

ويذكر ابن الكلبي أن الأوس والخزرج ومن كان على دينهم من عرب أهل يثرب وغيرها كانوا يحجون ويقفون مع الناس مواقف الحج كلها ، ولكن لا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا من محجهم أتوا مناة، وحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا بقربها لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك ، وكان من عادة الأوسيين والخزرجيين أنهم يهللون لها، ومن أهل لها يطوف بين الصفا والمروة، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يستظل أحدهم بسقف بيت حتى يفرغ من محجته أو عمرته وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته ، وإن كانت له فيه حاجة ، وإذا اضطر إلى الدخول تسور من ظهر البيت حتى لا يظله سقفه فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة وأنزل الله تعالى الآية الكريمة ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:١٨٩].

ولم تزل العرب تعظم مناة حتى كان عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة حين خرج الرسول من المدينة إلى مكة لفتحها ، فلما سار من المدينة أربع أو خمس ليال بعث إليها على بن أبي طالب فهدمها وأخذ ما كان لها فجاء به إلى النبي ، فكان مما أخذ سيفان أحدهما اسمه مخذم ، والآخر رسوب كان الحارث بن أبي شمر الغساني قد أهداهما لها ، فوهب الرسول السيفين لعلي ويقال : إن ذا الفقار سيف على أحدهما ومناة هي المذكورة بالقرآن الكريم ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم] (١)

ومناة : لفظة مشتقة من (المنا والمنية) وهو: الموت والقدر : ومن : (المنية والمنون) منها مناة وهو موضع في مكة كان يمني فيه أي يراق الدم فيه ، كذلك كانت من الأصنام المعروفة عند النبط ورد اسمها في أقدم النقوش النبطية .

وقد مثلت مناة الموت عند العرب ، كما مثلته عند البابليين ، ولكنها لم تمثل القدر الذي تمثله مناة البابلية ؛ لأن القدر في قصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا

---

(١) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ٢٧٧، ٢٧٨ ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيد عبد العزيز ، ص ٤١٨

امرأة ، وقد يفسر هذا استقسام العرب عند هبل ، وذى الخلصة بالأزلام ، وحلقهم فقط أمام مناة .

هذا بالنسبة للأوس والخزرج ، فجميع الطقوس المرتبطة بالعبادة عند الأوس والخزرج أنهم يحلون إحرامهم عند مناة عند انصرافهم من الحج ، أو تقديم الهدايا لهذه الآلهة ، وينتهي التعظيم عند ذلك ، أما المعتقدات اليومية فإنها ارتبطت بشيء من الحرية العقائدية ، خاصة وأن تأثير الوثنية لم يكن بالقدر الذي كان عند أهل مكة ، فلا بيت للآلهة ، ولا كعبة للطواف ولا مناطق للزيارة في المدينة ، بل إن أهل يثرب كانوا تبعاً للمعتقدات الوثنية العربية التي مركزها مكة وكانت بعض التماثيل الصغيرة المشابهة لمناة قد وضعت ضمن البيوت يتبركون بها عن قرب ويخضعون لها أحيانًا .

ومع هذا الارتباط البسيط بالوثنية ، فإن الأوسيين قد سمعوا وقرؤوا وناقضوا أهل يهود ، وكانوا يضيقون عليهم ، فإذا ضاق الأمر باليهود هددوهم بقرب ظهور نبى ، المدينة مهاجره ، يؤمن به يهود ويقاتلون العرب والأوس والخزرج خاصة تحت لوائه فينتقم لهم مما أصابهم على يدى هؤلاء ، وهذه الفكرة ربما طغت على تفكير كل أهل المدينة ، حتى أصبحت من الحقائق المتوقع حدوثها في كل لحظة ، وهذا ما دفع اليثربيين إلى الإيمان بمحمد قبل أن تسبقهم إليه يهود .

أما بالنسبة لليهود فقد ورد الحديث عنهم بشىء من التفصيل وعن معتقداتهم ، وعزلتهم عن بقية الناس وليس عن العرب فقط ، بل الملاحظ أنهم معزولون عن بقية يهود في العالم ، على الرغم من الاتصال الدائم بينهم وبين يهود فلسطين باعتبار أن يثرب عقدة مهمة في طريق التجارة التى سادت المنطقة آنذاك بين اليمن وبلاد الشام .

فالقضية على ما يظهر ليست قضية عزلة يهود يثرب خاصة ويهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم ثقافيًا وعلميًا عن بني دينهم انفصالًا لا يؤثر في مستواهم

الثقافي والعلمي ، فيجعلهم دون غيرهم من إخوانهم في العلم والثقافة ، وإنما يظهر أن هناك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم .

فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم ، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى وما إليها في العراق أو فلسطين أو مصر ، كما أن حالتهم المادية لم تكن على مستوى عال بحيث يمكن أن تقارن بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرون في الأرضين المشار إليها ، أو أصحاب تلك الأرضين من غير يهود ثم إن عددهم مهما قيل فيه لم يكن كبيرًا ، وقد رأينا أن رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون في الحجاز كلها بضعة آلاف ، وفي مثل هذه الظروف والأحوال لا يمكن بالطبع أن تتوفر الإمكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعميق[(١)]

ولم يظهر على ما يبدو في يهود يثرب أحبار كبار أو رجال دين نالوا شهرة كبيرة بين يهود ، على الرغم من ادعاء أولئك اليهود أنهم من سلالة (الراهبين) أو من سلالة هارون عليه السلام وكانت قضايا الدين مرتبطة بالقضايا اليومية التي توارثها أولئك عن شريعة موسى وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات والأحوال الشخصية ، والعزلة التي فرضها اليهود على أنفسهم عمت هذه الخلفية ، وجعلت اليهود حتى معرفتهم بشريعة موسى قليل ، ولقد تحداهم الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة أن يظهروا كتاب موسى أو تعاليمه التي وصلتهم على الرغم من تحريفها ، وكان يبين لهم أنه هو النبي المرتقب الذي يجدون وصفه عندهم في التوراة ، وحتى في أماكن عبادتهم (المدراس) فقد تحداهم الرسول أن يظهروا هذه الكتب ويبينوا هذه الآراء إلا أنهم استكبروا وعتوا وحملوا عداوة الرسول حتى كان ما بينهم وبين المسلمين ، وعلى العموم فإننا نستطيع أن نلخص أن الحياة الدينية في يثرب عند العرب أو اليهود على السواء لم تكن بالعمق والتغلغل الذي كان عند الآخرين ، حتى إن

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٦/ ٥٥٩

مناطق العبادة كانت بعيدة عن هذه المدينة إلا بعض البيع التي ابتناها اليهود لممارسة طقوسهم الدينية .

وتجدر الإشارة إلى أن المسيحية واليهودية اللتين انتشرتا في الجزيرة العربية قبل الإسلام قد دخل تعاليمها شيء كثير من التعديل لتلائم العقلية العربية والإطار العقائدى لهم ، وكان من أهم آثار انتشار هاتين الديانتين الموحدتين أن أخذت فكرة (الله عندهم) معنى جديداً يختلط فيه التوحيد بعبادة الآلهة الوثنية التي كانت تقدس في مجتمعهم ، وجعلوا من هذا العبادة الوثنية وسيلة للتقرب إلى الله.

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزُّمَر:٣] كما نسبوا ما يفعلون إلى الله ، وادعوا أنه بأمر منه كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف] [(١)]

٤ـ العلوم عند أهل يثرب :

ارتبطت معرفة الإنسان للعلم بمدى الحاجة إليه ، ففي الوقت الذي ازدهرت علوم التجارة والتعامل والنقد والتبادل والربا عند أهل مكة نجد أن هذه المعارف تقل في المدينة تماماً وتبرز المعرفة بالزراعة والفلاحة والثمار وغيرها ، ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ كما ورد في الأخبار قد أشار على أهل يثرب ألا تؤبر النخل (لا تلقحه) ففعلت استجابة لأمره ، إلا أن نخلهم ذلك العام لم يثمر فجاؤوا إلى الرسول وأخبروه، فقال: «أمرتكم ألا تؤبروا النخل ولكنى آمركم الآن أن تؤبروه ، أنتم أعلم بشؤون دنياكم» فالرسول جاء من بيئة لا ترتبط بحال بقضايا الزراعة ، فلما أبدى رأيه ـ مجرد رأي ـ تراجع عنه فوراً أمام خبره أولئك بثمارهم وأشجارهم ، ولذلك فإننا لا يمكن أن نقف على ترتيب واضح لأمور العلم وتقسيماتها الحديثة وتفرعاتها ، ونبحث عن مدى معرفة أهل يثرب بهذه العلوم الإنسانية والتطبيقية

(١) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص ٣٠٧

فإن معارفهم لا تعدو بحال ولا تزيد كثيرًا عن المستوى العلمي الذي كان عليه العرب جميعا آنذاك .

والبداوة والحضارة في المستوى العلمي والثقافي متناقضان ولا تجتمعان على صعيد واحد ، ولا يمكن أن تزدهر مدينة في ظل بداوة ، إذ إن المدينة كلمة مشتقة من قولهم : مدن المدائن ، أي مصرها وبناها ، وتمدن : أي تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة إلى حالة الحضارة وهي في عرف علماء الاجتماع تعني الحالة الراقية التي توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم العالية والفنون الجميلة ، والصنائع المناسبة لهذه الحالة ، فهي على هذا الاعتبار غاية تتدرج الأمم في الوصول إلى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، ويرى الفلاسفة أن الإنسان مدنى بطبعه متطور بالغريزة على حب التطور والارتقاء(١)

وقد شاع بين الناس أن العرب في جاهليتهم كانوا أمة منعزلة عن العالم لا صلة لها بمن حولها من الأمم ، وما عندها من مدخرات ثقافية ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب آخر حصراها وجعلاها منقطعة عن غيرها تمام الانقطاع ، لا تتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم أدبًا ولا تهذيبًا ولا تأخذ منهم و يأخذون منها في أي مضمار من شؤون الحياة .

والحق أن هذه الفكرة خاطئة كل الخطأ فقد كان العرب على صلة دائمة بجيرانهم من فرس وأحباش وروم وكانت لهم صلاتهم الخاصة بالهند أيضاً ، ولكن هذه الصلة كانت محدودة ، ولم تكن درجة التفاعل فيها بالقدر الذي كان قائماً بين الأمم المتحضرة لذلك العهد ويرد بعضهم ذلك إلى الموقع التجاري وإلى الأحوال الاجتماعية السائدة ، وكان لهذا الاتصال عدة طرق أهمها التجارة وإنشاء المدن العربية المتاخمة للفرس والروم والحروب التي قامت بينهم وبين الفرس والحباش ، والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمها ، والتي كان نصيب يثرب فيها نصيب الأسد .

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ١٩٠

كان للعرب في الجاهلية بما فيهم عرب ثرب علاقة تجارية واسعة مع الهند ، يأتون منها بالتوابل والبهارات واللبان وغيرها من السلع ، ويذهبون إلى الشام ومصر وغيرها يبيعونها ويجنون من ورائها المكاسب الطائلة والأرباح الوفيرة ، ولم يكن منتوج التجارة فقط صاحب التأثير ، ولكن هناك فوائد كثيرة لها آثارها على التفكير والسلوك والعادات واللسان(١)

مع انتشار الكتابة في يثرب ـ كما سبق ـ فإنه لم يؤثر عن الأوس والخزرج أو غيرهم من العرب في العصر الجاهلي أنهم نقلوا من حولهم من الفرس والروم علما منتظماً ، أو أدباً مكتوبا ، مترجما ، أو غير مترجم بل كان كل ما نقلوه حكماً أوقصصاً أو أمثالاً ، أو حوادث تاريخية مما يخف نقله وحمله على الناقل ، ويسهل هضمه على المتلقى ، وهم يستخدمون في ذلك الذاكرة والحافظة لا القلم ولا الكتاب وتعتبر معرفة الأوس والخزرج للكتابة مظهراً من مظاهر رقيهم العقلى ، ذلك أن الرقى النسبى الذي نحسب أنه أتاح لهم الحصول على قدر من الحضارة والرفاهية جعل من يثرب بالإضافة إلى جهود مواليهم من اليهود محط أنظار من حولهم من الأعراب ، يمتارون فيها ، ويزورون أسواقها ويجلسون مجالس لهوها وغنائها ، كما جعلها ثالث قرية من قرى الحجاز ، وهي مكة (أم القرى) والطائف والثالثة (يثرب)(٢)

وتعتبر المعرفة الزراعية أهم المعارف والعلوم التي عرفها أهل يثرب ، وجاءت هذه المعرفة نتيجة للممارسة العملية والخبرة الطويلة بهذه الشؤون والمعارف ارتبطت بالمواسم الزراعية والأنواء ومعرفة أوقات الأمطار وطرق السقاية وحفر وحماية الآبار ، ومعرفة تجمع المياه والأشجار ومواعيد ثمارها ولقاحها ، وأنواعها والأمراض التي يمكن أن تصيبها وطرق معالجتها ، وأصول الجنى والحفظ والتجفيف والعصر ، وهذه قضايا يتوارثها الزراعيون عن بعض.

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٩٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢

وقد لا يكون فيها شيء من التجديد إلا أن الحاجة لها هي التي تقود الإنسان إلى تعلمها . ارتبط بالعلوم الزراعية التي كانت في يثرب تربية بعض الحيوانات الأليفة التي تستخدم للحرث وللتحميل والاستفادة من ألبانها وأوبارها وصوفها ولحومها ، وكان الجمل أول هذه الحيوانات لكثرة تردده في الآثار التي وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام ، أو عصر الإسلام وتأتي الخيول والبغال والحمير في المرتبة التالية ، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل] . ولم يرد كثير من التفاصيل حول الأعداد التي كانت في تلك الأثناء إلا أنها كانت تتناسب مع الأعداد التي يحتاجها السكان ويستخدمونها .

وارتبط بالزراعة قضايا الري، وتبدأ بالاستفادة من السيول[1] ومن المعروف أن أجداد الأوس والخزرج قد مارسوا عملية الزراعة في اليمن ، وخرجوا بعد خراب سد مأرب إلا أن الفترة الطويلة بين خراب السد وسيطرة الأوس والخزرج على المدينة وتصرفهم بشؤونها قد أفقدهم بعض هذه المعرفة ، إذ انقطعت الممارسة العملية لقضايا الزراعة وتحول هؤلاء إلى طبيعة أقرب للبداوة منها للحضارة وهذه المعرفة السابقة قد أفادت بالاستفادة من بعض مياه السيول ، ولكن لم يذكر أن أقيم سد في يثرب على غرار ما قام في اليمن . ولقد وردت في كتب الصحاح الكثير من القضايا المرتبطة بالزراعة والسقاية وتربية الماشية وكلها تقريبًا وردت في يثرب ، فلم يرد مثلها في مكة ، بل كلها ارتبطت بقضايا الزرع والسقاية والمياه والثمار[2] والذي ورد من أحاديث في مكة كان يتعلق بتربية الماشية وكان الرسول ﷺ يضرب الكثير من الأمثال عليها.

---

(١) انظر : جواد علي ـ تاريخ ٨/ ٤١٩

(٢) التاج الجامع للأصول ٢ / ١٩٢ ـ ٢٤٩ . صحيح البخاري ٢ / ٤٥ فما بعدها . المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠٤

ففي تربية الماشية واستئناس الحيوانات عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال «من اقتنى كلبا ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض نائية ينقص من أجره قيراطان كل يوم» (متفق عليه) وقال : «من أمسك كلبا فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب غنم أو حرث أو صيد».

وعنه عن النبي ﷺ قال «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه ، فقالت: لم أخلق لهذا ، خلقت للحراثة ، قال : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر . وأخذ الذئب شاة فتبعها الراعي فقال له : الذئب : من لها يوم السبع يوم لا راعي غيري . قال آمنت به أنا وأبو بكر وعمر» قال أبو سلمة وما هما يومئذ في القوم رواه الشيخان والترمذي [(١)]

وهذا يدل على اتجاه الفقه الإسلامي إلى الحلول للمشكلات الزراعية التي قابلت المسلمين بعد هجرة الرسول ﷺ في المدينة ، ونتيجة لمعرفة أهل يثرب لقضايا الزراعة فقد اعتمد مكيالهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «الوزن وزن مكة والمكيال مكيال أهل المدينة» (رواه أبو داود والنسائي وابن حبان) .

عرف أهل يثرب بجانب الزراعة أمورًا أخرى ارتبطت بحياتهم ، ولعل الحروب المتواصلة بينهم قد أكسبتهم بعض العلم في فنون القتال ، وبناء الآطام وتعتبر الآطام في الواقع حصونا عسكرية وثكنات يلجأ إليها المتحاربون عندما تشتد الحروب بينهم ، قد بنيت لتستوعب الرجال والنساء والأطفال والمؤونة التي يحتاجها اللاجئون وإن طال الحصار ، وأيضا بنيت كأماكن يسهل الدفاع عنها ورد المعتدين عنها ، وبذلك فقد كانت عبارة عن قلاع تفنن بها بانوها وأبدعوا فيها وأكثروا منها ، وكذلك تعلم أهل يثرب صناعة الأسلحة ولو أن هذا الباب قد استأثر به اليهود وحذقوا به وتمرسوا به .

وكان العرب أصلًا يأنفون من الأعمال الصناعية ، فعمل بها اليهود ، كما تعلم أهل يثرب عمل الدروع والزرود والرماح.. وكانت أكثرها مستوردة إلا أنها كانت

---

(١) التاج الجامع للأصول ٢ / ٢٣٤

تحتاج إلى شحذ وتجديد وتحسين وصيانة فكان يقوم عليها يهود يثرب . وتعلم أهل يثرب الكثير من الأمور المرتبطة بهذه الحروب كصناعة السروج للخيل وبرعوا في معرفة أمراض الحيوان ومداواتها ، وأيضا عمل بهذه المهن بعض الموالى واليهود ولم يعمل بها العرب .

وارتبط ببناء الآطام بناء البيوت الفخمة التي عرفها زعماء يثرب ، واستتبع ذلك صنع الأبواب وسقوف البيوت وأعمدتها من خشب النخل وقد كان الحرم النبوى في أول عهده قد بنى كذلك وازدهرت صناعة الحبال للاستعمالات المختلفة من ألياف النخيل والزنابيل من سعفة كما كانت تصنع من خوص النخل أيضاً المراوح اليدوية لمقاومة الحر وريح السموم التي عرفت بها يثرب ، ولا تزال من خصائصها حتى اليوم[1] ، وصناعة النجارة التي كانت لديهم كانت أدق ما يكون .

وعرف أهل يثرب غير العلوم الزراعية والصناعية والتجارية المرتبطة بمبانيهم عرفوا الأنواء والنجوم وخاصة الطلائع والبروج وارتبط هذا لدى بعض الكهان ولم يكن هذا العلم من العلوم البعيدة عن الأسرار ، بل اكتنفتها الأسرار وأحاطت بها الأساطير وعرف أيضا أهل يثرب علم الأنساب وهو علم اعتبر من أهم معارف العرب نتيجة للتنظيم القبلى الذي ساد حياتهم ، ولقد ورد الكثير من هذا العلم في أشعارهم ، حيث كان الشعراء يتغنون دوما بمثل هذا ، ويذكر أجدادهم ومشاهيرهم ، وقادتهم وكذلك الأيام التي انتصروا فيها على خصومهم ، وعلم الأنساب من أهم هذه المعارف التي حظيت لدى العرب بالكثير من الاهتمام وأخذ هذا اليهود حيث بحثوا عن أنسابهم ودونوها أو حفظوها بشكل واضح وعلم الأنساب بقى حتى الإسلام حيث استفيد منه في توزيع العطايا ـ ولو أن المراتب والمقامات قد تغيرت .

---

(١) المدينة ـ الخطراوي ص ٢٠٧

والطب من العلوم المطلوبة في كل زمان ومكان لما له من صلة بحياة الإنسان ولعلماء اللغة آراء في معنى الطب ، وقد ذكروا أن من المجاز الطب بمعنى السحر قال ابن الأسلت :

ألا مـــن مبلـــغ حـــسان عنـــي أطبّـــا كـــان داؤك أم جنـــون

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة ، وهو يعبر عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر فقد كان الساحر طبيبًا يداوي المرضى ، ويشفي المريض بسحره وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بسائر السحر في مداواة المرضى ، فيراجعون من يدعي العلم بالسحر لنيل الشفاء وكان الطب في ذلك الزمان شرفا ، فللطبيب مكانة كبيرة عن الجاهليين ، قال المرتضي في حديثه عن زهير ابن خباب: كان سيد قومه وشريفهم، وخطيبهم، وشاعرهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم.

والطب في ذلك الزمان شرف ، وحازى قومه ، والحزاة: الكهان . فهو قد جمع خلالاً كثيرة وفي جملتها الطب والكهانة .

ولا بد أن يكون السحرة والحزاة في الجاهلية هم الذين مارسوا الطب ، وعالجوا المرض بالسحر والأدعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عمن سبقهم من تجاربهم الخاصة ، ونحن نأسف لأن نقول إن النصوص الجاهلية لم تعطنا حتى الآن نصوصا طبية ، ونصوصا فيها وصفات أو أودية للشفاء من الأمراض[١]

وقد أفرد علماء الحديث في كتب الصحاح باباً خاصاً للطب والرقى ، ذكروا فيها كل ما ورد عن الرسول ﷺ من نصائح وتوجيهات طبية ، كما ذكروا فيه بعض الأمراض وعلاجها والشفاء منها[٢] والطب هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة إلى فروع العلم الأخرى عند الجاهليين فقد أشير إليه ، وأشير إلى اسم نفر من

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨/ ٣٨٠ ـ ٣٨١

(٢) التاج الجامع للأصول ٣/ ١٨٩ ـ ٢٢٧

الأطباء هم الحارث بن كلدة الثقفي ، والنضير بن الحارث وابن أبي رقية التميمي ، وضماد ، وكلهم ممن عاصر الرسول وأدرك زمانه ، وبفضل هذه المعاصرة ذكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولولاها لكان شأنهم شأن غيرهم ممن لم يصل اسمهم إلى أحد فصاروا نسيا منسيا . وذكر أن رجلا جاء إلى النبي فرأي بين كتفيه خاتم النبوة ، فقال إن أذنت لى عالجتها فأنا طبيب ، فقال له النبي طبيبها الذي خلقها ، ومعناه العالم بها خالقها الذي لا أنت[1] [2]

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً ، فقد قامت رفيدة تداوى الجرحى من المسلمين يوم ذهابهم إلى بنى قريظة ، وكانت امرأة تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيقة من المسلمين ، وكانت لها خيمة في المسجد ، مسجد رسول الله ﷺ بيثرب تداوي به الجرحى ولما جرح سعد بن معاذ سيد الأوس يوم الخندق ، قال رسول الله ﷺ «اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتي أعوده عن قرب» . وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء .

واشتهرت (زينب) وهي من بني أود بالطب كانت تطبب وتعالج العين والجراح والوجع المؤلم والعرب كانت تسمى كل مرض وجعًا[3]

لقد عرف الجاهليون بالأنواء ، ومعارفنا عنها قليلة وضحلة ، وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواء ، ولم يصل إلينا شيء منها في نصوص المسند غير أن ما نجده في المؤلفات المذكورة على قلته وضآلته يدل على أن الجاهليين كانوا أصحاب عناية بالأنواء والتوقيت ، وكانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق وأهل الشام ، ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان والاتين بالأنواء .

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٣٨١

(2) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٣٨١

(٣) جواد علي ـ تاريخ ٨ / ٣٨٧

وقد ارتبطت معارفهم بالأنواء بمعرفة الفصول المطالع والنجوم والبروج وحركة القمر وأعطوا أسماء لهذه الأشياء ، واهتدوا بالنجوم في الليل ، كما عرفوا المواقيت والأجرام السماوية وأطلقوا عليها أسماءها .

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين ، وقد عدوا وقوعه من الأمارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسيمة في العالم ، شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى . وكان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم، وقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ﷺ ووافق ذلك موت إبراهيم ابن رسول الله. فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله. فقال النبي: «إن الشمس والقمر آيتان الله تعالى يخوف بهما عباده وإنهما لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته ، وقد حدث ذلك في المدينة»

وورد في الأخبار أن الأنصار كانوا يقولون في النجم الذي يرمي به (مات ملك) ، ولد مولود ، وكانوا يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المغيبات والخطايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء ، فيأخذون أخبارهم ، وإن الرعد صوت الموكل بالسحاب يزجر السحاب أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله [(١)]

وهكذا نستطيع أن نقف على بعض المعارف الأخرى التي لم يرد الحديث عنها تفصيلا عند أهل يثرب مما يدل على أن الأرضية التي كانت في يثرب كانت قائمة على شيء من المعرفة العلمية التي أكدها الإسلام أو محاها إن خالفت تعاليمه أو الحقائق الثابتة ، وكما عرف عرب يثرب هذا فقد عرف اليهود أيضا بعضا من المعارف العلمية التي وردت في كتبهم ، أو وصلتهم عن طريق السماع والرواية وقد استخدموها في حياتهم الخاصة والعامة . واستفادوا منها دون أن يعطوها لأحد أو يطلعوا عليها أحدا ، ومنها صياغة الحلى ، وصناعة الذهب ، وصناعة الأسلحة ، وغير ذلك .

---

(١) جواد علي : تاريخ ص ٨ / ٤٣١

كما أنهم تكتموا على معارفهم التي وردت في كتبهم وتحداهم القرآن الكريم في أكثر من موضع أن يبرزوا هذه المعارف ويقولوها ليجدوا أن نبوة محمد حق أقرت في هذه الكتب ، وهذا ما جعل بعض يهود يتركون يهوديتهم ويتبعون الرسول ويدخلون في الإسلام ، ويحسن إسلامهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق وغيرهم .

٥ـ وسائل نشر المعرفة :

لم تكن ثمة مواقع متخصصة لنقل العلوم والمعرفة عند العرب عامة وعند عرب يثرب خاصة ، وكل الوسائل التي كانت منتشرة هي عادات وتقاليد وأخبار ينقلها الآباء للأبناء ، كما أن الأمهات كن يقمن بمثل هذه الأعمال حيث يذكرون لأولادهن أخبار أيام قبائلهم ، ويروون أشعار شعرائهم وهذه الوسائل البدائية أدت في الواقع إلى انتشار الأمية كما سبق وتحدثنا ، إلا إن نوعا من المعرفة كان ينتقل إلى الأبناء من مهن الآباء كالزراعة والري والبناء والتجارة والفروسية التي كانت من أهم الأعمال التي تحرك المجتمع الجاهلي وتسيطر عليه.

ويتلقن الأبناء هذه العادات والأعراف بشغف وإقبال شديدين ، وكان محيط القبيلة يورث الأبناء المعارف التي استأثرت بها القبيلة ، أو اتصفت بها ، كما أن ترديد أشعار الفخر التي قيلت بهذه القبيلة هي التي كانت تحرك مشاعر الفتية ، وتهيج أحاسيسهم ووجدانهم ، ولعبة الفروسية التي كان يحرص الآباء على نقلها للأبناء كانت تتم ضمن الآطام أو التجمعات التي يلتقى بها الأطفال عادة وكانت تجرى بينهم عادة المصارعة والنزال والحرب .

وهذا ما كان يتصف به أبناء الأوس والخزرج ، وفي غزوة أحد أجاز رسول الله فتية من الأنصار منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما فقيل يا رسول الله، إن رافعا رام فأجازه، فقيل: يا رسول الله، فإن سمرة يصرع رافعا ،فأجازه أيضا ، ورد أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن

الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم وأسيد بن ظهير ثم أجازهم يوم الخندق . وهم أبناء خمس عشرة سنة[(١)]

وهذا يدل على مدى الاهتمام الكبير لدى اليثربيين بتعليم أبنائهم الرماية والقتال والنزال ، وهو من أهمم الاتجاهات التي كان يرغب بها الآباء ، كما أن شيئاً من القراءة والكتابة قد انتشرت في المدينة ، ولكنه لم يكن بالقدر الذي كان في مكة مما جعل الرسول يكلف أسرى بدر بتعليم فتية من الأنصار القراءة والكتابة كما هو معروف ولما اشتدت العداوة بين الأوس والخزرج ، كان الآباء يطبعون الأبناء بطابعهم ، ويشبعونهم بهذه العداوة إلى درجة يمكن منها أن يجدوا في نفوسهم رغبة القتال ورغبة الأخذ بالثأر .

من هنا نعلم أنه لم يكن لدى عرب يثرب أي ترتيب لعقد دروس في أي من المعارف المتداولة إلا من أمر واحد وهو تعليم الصبية أو بعض الصبية القراءة والكتابة في تجمعات بسيطة أو منفردة أو أن بعض الهواة لبعض المعارف قد التحقوا بالعارفين لها فأخذوا عنهم .

ومن العرب الذين تعلموا على أيدى يهود أولئك الذين تهودوا نتيجة نذور نذر بها أمهاتهم من عرب يثرب لم ينجبن وإن حصل وأنجبن فإنهن سيدخلن أولادهن في دين يهود[(٢)]

لقد تعلم بعضهم القراءة والكتابة وتعلم أكثرهم فنون الحرب من آبائهم ومقاتلى قبيلتهم ، وتعلم الشعراء من آخرين وخاصة من آبائهم ومن الممارسة العملية للزراعة ، وهكذا فإن وسائل نقل المعرفة كانت بدائية جدا أما طقوس الديانة الوثنية فلم تكن بالعمق الذي يخصص لها أماكن للتدريس أو للعلم ، ولم نستطع الوقوف على أي مكان يتجمع به الأولاد لتلقى العلم بدروس مخصصة إلا ما كان من أمر التدريب على القتال.

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ٣ / ٧ . السيرة النبوية ـ ابن كثير ٣ / ٢٩

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥١٦ و ٥٣٠

أما بالنسبة لليهود فإن الأمر يختلف نوعًا ما ولا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة والقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره ، وفي القرآن الكريم ، أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته ، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربانيوه . فكل ما كانوا يقولونه له كانوا يرونه حقاً وعلماً .. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة][(١)] ، مع أن من بين أولئك من كان دجالا ليس على درجة من دراية وعلم ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب لينال بذلك كسبا ومالا ، وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلديهم سلطان عظيم .

وقد تعرض ابن خلدون لموضوع علم اليهود والعرب وثقافتهم فقال إذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين يهود[(٢)]

فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية هم في مستوى يعد دون مستوى يهود البلاد الأخرى بسبب تبديهم وانقطاعهم عن غيرهم من يهود ، وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم ، وكان لهم أحبار وحاخامات علموهم أمور دينهم ، وذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يكتبون بالعبرية والسريانية[(٣)] ولم تكن المدارس أو (المدراس) موضع عبادة وصلوات بل كان إلى ذلك دار ندوة لليهود ، فهو مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء من السادات وأصحاب الشرف فيهم وإليه كان يقصد الجاهلون حين يريدون أمرًا من الأمورأو الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه .

---

(١) التاج الجامع للأصول ١ / ٢٩٦ فما بعدها .
(٢)ابن خلدون ـ تاريخ ١ / ٤٣٩
(٣) جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٥٧ .

وإليه ذهب الرسول وكبار الصحابة لمحادثة يهود ومجادلتهم فيما كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون البت فيه . ويقال : إنهم عرضوا أمام الرسول كتبهم فكان يقرؤها له بعضهم ممن دخل الإسلام كعبد الله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود ، ولقد كان لدى اليهود بعض المعلمين الذين كانوا يعرفون أمور التوراة وشريعة موسى يعلمون الجاهليين أمور دينهم ، خاصة الأطفال منهم .

وللفظة ـ حبر ـ أهمية كبيرة عند اليهود ، فإنها تشير إلى العلم والمعرفة ، وإن كانت لا تصل إلى درجة (رابي) (ربي rabbi) ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس لشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة (rabbi) فهي في العبرانية بمعنى عام ، ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الإسلاميين فهذا المعنى هو في مقابل(rabbi) أي (ربان) لا حبر وقد وردت لفظة (حبر) في شعر الشماخ :

كما خط عبرانية بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

أما الربانيون ، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي على رأي بعض العلماء الإسلاميين،وقال بعض آخر:الرباني العالم الراسخ في العلم والدين أو العالم العامل المعلم ، أو العالى الدرجة في العلم وفرق بعضهم بين الربانيين وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم ، وبما كان يكون ، وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في أثناء الكلام عن علماء يهود[(١)]

وهكذا فإن وسائل نشر المعرفة كانت بدائية تماما سواء لدى عرب يثرب أو يهودها مما أوجد قبولا واندفاعا شديدين على دخول الإسلام وتعلمه ونقله إلى العالم أجمع

---

(١) سورة المائدة آية ـ ٤٤ ، ٦٢ ، آل عمران آية ٧٩ ، جواد علي ـ تاريخ ٦ / ٥٥٠ ـ ٥٥١ بتصرف .

الفصل الثاني

ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب

القسم الأول : الاتجاهات المؤثرة فى فكر أهل يثرب .

القسم الثانى : الفكر السياسي عند عرب يثرب .

القسم الثالث : توجه عرب يثرب نحو الملكية .

الفصل الثاني

ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب

القسم الأول

الاتجاهات السياسية المؤثرة في فكر أهل يثرب

مدخل :

تخضع الحياة اليومية لشعب من الشعوب كبر أو صغر لتأثيرات كثيرة من ذاته أو من محيطه، ولعل التأثيرات السياسية هي الأكبر ظهورا في تصرفات الشعوب والأقوام ، وحتى الشعوب البدائية فقد استفادت كثيرًا من تجاربها الخاصة الذاتية أو من تجارب من سبقها من الشعوب ، أو من حكمها أو من جاورها ، وحركة التاريخ الدائمة في هذا قد أحدثت أنواعا كثيرة من أشكال الحكم الذي تدرج من الحكم المطلق الفرد إلى حكم الجماعة إلى أنواع لا مجال للخوض أو الحديث فيها فهي معروفة ومدروسة لدارسي النظم السياسية المتعارفة أو النظم الدستورية .

ولقد انتقل هذا التأثير بأساليب شتى ، كان أولها أن يؤثر شعب حاكم بشعب محكوم فيعطيه سياسته وفكره وإدارته وتقسيماته وتنظيماته ، وهذا شائع في عصرنا الحاضر فكل من خرج من حكم الاستعمار في بلاد العالم الثالث قد أخذ بما قدمه الاستعمار والمستعمرون وأصبح عادة لديهم ، منها أنظمة السير ، فشعب مستعمر يسير على اليسار فرض على الشعب المستعمر ذلك وآخر يسير على اليمين ، وهكذا، ولم يكن لهذا أو ذاك أي رأي في هذا، لكن فرض هذا النوع من الحياة ومن أسلوب التعامل فسار عليه المغلوب وقبِلَه ومثله أنظمة الحكم الجمهوري أو الملكي أو الديكتاتوري ، وهي الأساليب الحديثة التي وزعت على شعوب العالم الإسلامي يتجرع من معين هذه الأنظمة حتى الثمالة .

ومحيط جزيرة العرب التي ضمها الصحاري والقفاري في الماضي قد تميز فيها نوع من الحكم يختلف تماما عما حوله من أنظمة ، في القبائل التي قدر لها أن تخرج عن حدود الجزيرة اختارت نوعا من الحكم المتأثر بالقوى المحيطة بها، وهذه القبائل اتجهت نحو النظام الملكي باعتباره صورة مصغرة من حكم الأباطرة في ذلك الوقت، والذين كانوا يخضعون لسلطانهم العديد من الملوك، فنشأت مملكة البطر أو «البتراء » ومملكة تدمر، وبعدها ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة وغيرهم .

أما الجزيرة فقد بقيت تحكم بنظام قبلي معروف ، مع بعض التعديلات الضرورية للعديد من المشاكل التي حلت بالجماعة أو فرضت نفسها عليها كتنظيمات«قصي بن كلاب » في مكة أو حكم الطائف ، أو بعض التوجهات السياسية الأخرى في بعض المناطق ذات التجمعات البشرية في الجزيرة والتي لها علاقة كبيرة في تحول عرب يثرب من نوع من حكم ملكي إلى دخول في حياة قبلية طيلة فترة الحرب الأهلية ، ثم التحول التدريجي إلى نوع من الحكم الملكي الذي عاجله الإسلام ، فتحول سكان يثرب من العرب إليه، ليكونوا بناة وجند هذا النظام الجديد .

إن التأثيرات السياسية كان لها كبير الأثر في هذا الأمر ، وإن الكثير من الشعوب التي تأثرت بنوع من أنواع الحكم المجاورة أو المفروضة لم تكن صورة طبق الأصل عما رسم لها ، لكنها كانت مزيجا من تأثيرات ذاتية ، وتأثيرات خارجية أدت بالنهاية إلى شكل مميز من أشكال الحكم الكثيرة .

(١) الحياة القبلية

عرفت القبيلة في العربية بأنها :

القبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى كالزنج والروم والعرب وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة ، وجمع القبيل قبُل، واستعمل سيبويه « القبيل » في الجمع والتصغير وغيرهما من الأبواب المتشابهة[١]

والقبيلة :الجماعة من الناس تنتسب إلى أب أو جد واحد،ومن الحيوان والنبات: الصنف والرقعة في قب القميص ، وسير اللجام ، وإحدى عظام الرأس المتصل بعضها ببعض والجمع: قبائل .

وقبائل الرحل : أحناؤه المشعوب بعضها إلى بعض . وقبائل الشجرة : أغصانها، ويقال : ثوب قبائل : أخلاق[٢]

والقبيلة : عبارة عن أسرة كبيرة تفرعت إلى ما كان يسمى البطون والأفخاذ ، والعشائر يرأسها شيخ يراعي في اختياره شرط السن ، والتجربة ، والشجاعة ، وسداد الرأي ، والكرم سلطته أبوية يعاونه في الحكم وتقديم المشورة رؤساء العشائر الذين فرضت عليهم واجبات كثيرة ، منها إيواء الغريب ، وحماية الحمى والذود عن النساء ، وإجارة المستجير.

ولم يكن للقبيلة نظام مكتوب ، بل كانت تحكم حسب (العرف) ، أو مجموعة العادات والتقاليد الموروثة وأفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة ، يرتحلون معا ،

(١) لسان العرب : ابن منظور ٣/ ٢ ، وترتيب القاموس المحيط ٣ / ٥٥٥ .

(٢) المعجم الوسيط ٢ / ٧١٣

ويقاتلون معا ، وإذا ارتكب أحدهم جناية حملتها القبيلة ، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة شعارهم «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ولم يكن الفرد يؤمن إلا بتقاليد قبيلته وعاداتها التي يتعصب لها ويعتز بها ويفاخر؛ ولذلك كانت العصبية القبلية تحل عنده محل الروح القومية .

هذه العصبية هي التي جعلت العلاقات بين القبائل علاقات عداوة وإعزاز واقتتال وغزو في معظم الأحيان ، وتضع نفسها تحت تصرف الأجنبي استعداءً لها على جاراتها[١]

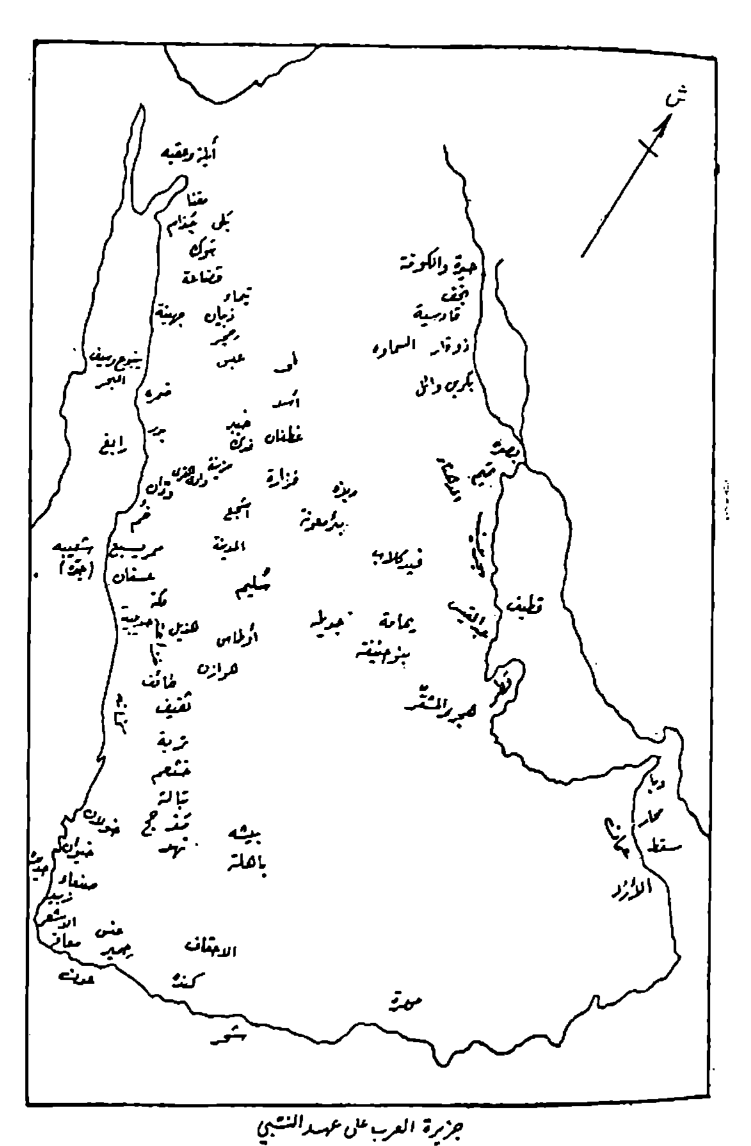
القبيلة : كانت عرب البادية تعيش قبائل متقاطعة ، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلا في حليف موقوت فلم يستطيعوا في صحرائهم ، وما يقتضي لها من حياة قبلية أن ينشئوا مجتمعا راقيا ، وقومية شاملة ودولة واحدة موحدة . ولم تبتعد عصبيتهم عن القبيلة ، وإن فاخروا بجنسهم واعتدوا به على سائر الأمم ، وبين الفرد والقبيلة صلة مكينة تجعل الفرد بجميعه للقبيلة ، والقبيلة بجميعها للفرد ، فإذا نزل عار بالقبيلة أصاب كل شخص منها ، وإذا نَبُه ذكرُ شخص عاد فخره إلى القبيلة بأسرها ، وتتحمل القبيلة جناية أخيها وتنصره ظالما أو مظلومًا[٢]

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسية عند العرب في العصر الجاهلي ، فأفراد القبيلة ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك ، تجمعهم وحدة الجماعة، وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ورابطة العصبية هي شعور بالتماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ، فهي بذلك مصدر للقوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وحفظ كيانه ، وهي تعادل الشعور بالقومية بالعصر الحاضر ، ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح

---

(١) الحضارات: لبيب عبد الستار ، ص٢٣٦

(٢) أدباء العرب فى الجاهلية : بطرس البستاني ١ / ٢٠ ، ٢١



جزيرة العرب على عهد النبي

نقلاً عن كتاب : « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ــ مقابل صفحة ٢١٢ ــ ٢ » جمعها الدكتور : « محمد حميد الله » .

والفرد يرتبط ارتباطا وثيقا بقبيلته وينصرها ظالمة أو مظلومة ، والعصبية عند العرب نوعان: عصبية الدم وهي أساس القرابة ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة ، ثم عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه ، وعلى هذا الأساس لم تكن للعرب في الجاهلية نزعة أو شعور بالقومية الشاملة ، ذلك لأن وعيها السياسى كان ضعيفا محدودا لا يتجاوز القبيلة أو القبائل المنتمية إلى الجد المشترك(١)

وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فقد كان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزا لتلك القبائل على التنقل والحركة والسعى وراء العيش ، إلا أنها في بعض الأحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها وتدعى الدار ، أو قد تنشئ لنفسها (حمى) أي منطقة ثابتة من الأرض لا يجوز لغيرها أن يخترقها

أما عن نظام الحكم السائد في تلك المجتمعات القبلية فقد كانت لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه رجل يتم اختياره من بين أفراد القبيلة ، ويطلقون عليه ألقاب منها الرئيس ، والشيخ، والأمير، والسيد ، ويشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن تتوفر فيه عدة صفات تؤهله لقيادة القبيلة ورئاستها منها الشجاعة والحكمة والصبر والكرم ، وأن يكون ذا نفوذ عظيم وقوة في البيان ورأي ثاقب .

وقد ذكر الجاحظ في كتاب (شرائع المروة) : أن العرب كانت تُسوِّد على أشياء أما مضر فُتسوِّدُ ذا رأيها وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر ، والحلم ، والتواضع ، والبيان(٢)

وتتم رئاسة القبيلة بالانتخاب الحر بين الأفراد ، إذ لم يكن مبدأ الوراثة مقبولا

---

(١) تاريخ العرب : الجبيلي ص ٤٨ ، ٤٩

(٢) بلوغ الأرب : الآلوسي ٢ / ١٨٧

عند العرب ،لما قد يؤدي إليه من تقييد للحريات ، وإذا حدث انتخاب الابن بعد أبيه ، فإنما يتم ذلك لتوفر شروط الرياسة فيه ، وكان على سيد القبيلة واجبات أهمها قيادة الجيش أوقات الحرب ، وتولى أمر المفاوضات مع القبائل الأخرى ، ورفض المنازعات ، والحكم في الخلافات ، ومراعاة الضعفاء وإيواء الغريب ، وإجارة المجير ، والذود عن النساء ، والمحافظة على وحدة القبيلة .

ومن واجباته أيضا تقسيم الغنائم بين المقاتلين ، وله فيها حقوق وامتيازات أجملها عبد الله الضبي في البيت التالي :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[(١)]

وكان مجلس القبيلة يعقد اجتماعاته بدار الندوة ، أو المنتدى ، أو النادي ، حيث تناقش الأمور والمسائل التي تخص القبيلة كإعلان الحرب ، وإقرار السلم ، وتتخذ قراراته بعد التشاور والمناقشات بالأغلبية[(٢)]

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله حيث لا (شرط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما هنالك عصبية تأخذ بالحق و (أعراف) يجب أن تُطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب)، ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد ، وبصلب جد أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم، ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة إلى جد أعلى ، ثم يرجعون أنساب الجدود إلى أجداد القبائل إلى أجداد أقدم وهكذا حتى يصلوا إلى الجدين للعرب : قحطان وعدنان[(٣)]

---

(١) جواد علي : تاريخ ١/ ٣٧٢

(٢) تاريخ العرب : الجبيلي ص ٥٠ .

(٣) جواد علي : تاريخ ٤ / ٢١٣

وتتألف القبيلة من بيوت ، تختلف عددها باختلاف حجم القبيلة وباختلاف المواسم، ففي مواسم الربيع تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد لتتمكن إبلها من الرعي ومن إملاء بطونها بالعشب، فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت، كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتا ، أما في المواسم الأخرى حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود أحياء القبيلة إلى تكتلها وتجمعها فتكون كل مجموعة حوالى ٥٠٠ بيت أو أكثر تتجمع حذر وقوع غزو عليها . وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها[١]

فهي إذن جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها إلى أصل واحد وجذر راسخ ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد، وهو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة ، فالرابط ألذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو (الدم) أي النسب والنسب، عندهم هو القومية، ورمز المجتمع السياسي في البادية ، والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها،وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على إطلاق لفظتي القبيلة على الحضر أيضا مع أنهم استقروا وأقاموا .

فقريش عندهم قبيلة،والأوس والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة، وذلك لأن هؤلاء الناس وإن تحضروا واستقروا وأقاموا وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب إلى جد أعلى وإلى أحياء وبطون ، وفي إجابة النخوة والعصبية وما شابه ذلك من سجايا البداوة ، فعدوا على القبائل، وإن صاروا حضرًا وأهل قرار طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ

---

(١) تاج العروس ٨/ ٧٢

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة؛ لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبلية ، والقبيلة عندهم جماعة من بيوت ترى أنها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جد واحد ، فهم جميعا أبناء الجد الذي تنتمي إليه القبيلة ، وهم مثل العرب في النداء وفي النسب، وقد يذكرون الاسم فقط فيقولون مثلا أدوم ، مؤاب ، إسرائيل ، يهوذا ، أو أبناء إسرائيل أو أبناء يهوذا وقد يقولون بيت إسرائيل ، وبيت يوسف ، وبيت خمرى ، وبيت أديني بمعنى أبناء المذكورين ، تماما كما نقول غسان ، وآل غسان ، وأبناء غسان وأولاد غسان ومن غسان وغساني وما شاكل ذلك ، ويريدون بها شيئا واحدا وهو النسب أي الانتماء إلى جد واحد، وبه تسمى القبيلة وإليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب أن أبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد ومن لحم ودم ذلك الجد ، وهم يخاطبون بعضهم بعضا بقولهم «أنت من لحمي ودمي» وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل :«وذهب أبيمالك بن يربعل إلى شكيم إلى أخوة أمه وكلمهم وجميع عشيرة بيت أبي أمة قائلا تكلموا الآن في آذان جميع أهل شكيم، أي هو خير لكم .. أئن يتسلط عليكم سبعون رجلا جميع بنى يربعل ، أم يتسلط عليكم رجل واحد ، واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم»[١]

وقد اعتبر داود عليه السلام جميع أبناء عشيرته إخوة له ، وخاطب[٢] شيوخ يهوذا بقوله:« أنتم إخوتي أنتم عظمي ولحمي»[٣]

فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد يسرى في أجسامهم جميعا ما دامت القبيلة حية باقية، ووحدة الدم هذه هي الرابطة التي تجمع شمل القبيلة ، وهي صلة رحم وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب أن تطاع[٤]

---

(١) سفر القضاة الإصحاح التاسع (١ ، ٢)، ٢٩٥
(٢) صموئيل الأول الإصحاح (٢٠/ ٢٩) .
(٣) صموئيل الثاني الإصحاح (١٩/ ١٣) .
(٤) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣١٥)

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة ، وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة دولة العظم واللحم ، أي دولة النسب ، فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم وهو دين الدولة عندهم ، وقانونها المقرر المعترف به، وعلى هذا القانون يعامل الإنسان ، وبالعرف القبلي تسير الأمور ، فالحكام في القبيلة والبنية ـ وهذا هو ما يحدث في الغالب تصير سنة القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها ، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وتوسع نفوذ القبيلة[١]

والمفهوم عن لفظ القبيلة في العادة ، القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام فإذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن إلى آلاف البيوت تجتمع تحت اسم القبيلة ، ولكن الناس يتجوزون في الكلام وفي الكتابة أحيانا فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل بنى عبيد الله بن أفصى بن جديلة وغير ذلك ، وقد يطلقونها على أكثر من ذلك، ولكن عددًا قليلًا من الناس أيضا كأن يكون خمسين رجلا أو ستين ، وهذا الاستعمال على سبيل التجوز والاصطلاح .

ويرى علماء العربية أن هناك تجمعات هي في نظرهم أكبر حجما من القبيلة أطلقوا عليها الشعوب ، فذكروا أن الشعوب فوق القبائل ومثاله : بنو قحطان وبنو عدنان ، فكل منهما شعب وما دونهما قبائل ، وذهب بعض منهم إلى أن الشعوب للعجم[٢] . فإن الشعوب بالنسبة لهم مثل القبائل للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي)، وقيل : بل هو للعرب وللعجم والذي عليه أكثر علماء الأنساب أن الشعب أكبر من القبيلة ، وأن الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه أي يجمعهم ويضمهم[٣]

---

(١) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣١٥) .

(٢) ابن كثير تفسير (٤/ ٢٣٢)، ويضيف : أن المراد بالشعوب بطون العجم وبالقبائل بطون العرب كما أن الأسباط بنو إسرائيل .

(٣) تاج العروس ١/ ٢١٨

ويظهر أن مرد هذا الإختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحُجُرات:١٣]. فقدم الشعوب ، على القبائل، فذهب أكثر المفسرين والعلماء إلى أن هذا التقديم يعنى أن الشعب أكبر من القبيلة ، وأن الشعوب الجماع ، والقبائل البطون، أو الشعوب: الجمهور ، والقبائل: الأفخاذ ، أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل دون ذلك(١)

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة أي (البيت) ، فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة التي يختلف حجمها ، وتختلف كثرة أغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها من بذرة جيدة ، ومن تربة صالحة ، وماء كاف ، والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع إنساني(٢)

والقبائل مثل الدول أنماط ودرجات منها قبائل قوية نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأنا وقوة ، وتتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها؛ لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة ، وقبائل صغيرة وليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها؛ لذلك تركن إلى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها؛ لتحافظ بذلك على وجودها

والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد ، وإذا ترأسها سادات ذوو كفاية وقدرة هابتها القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منها ومن القبائل التي تستولى عليها مملكة كالذي فعلته كندة ، ولم يورد العلماء شروطا في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة، وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ فلم تعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس، وجب إطلاق لفظة قبيلة عليها، بل

---

(١) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣١٧) .
(٢) جواد علي : تاريخ ٤ / ٣٢٠

نجد علماء النسب يطلقونها أحيانا على بطون وأفخاذ فيقولون:قبائل قريش، ويذكرون أسماءها ، بينما هي في الواقع (آل) أو أرهاط ، أو بطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأَرحى)، وعرفت القبيلة التي لا تنضم إلى أحد بـ (الجمرة) ذكر أنها القبيلة تقاتل جماعة قبائل ، وكل قبيل انضموا فصاروا يدا واحدة، ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة ، وقيل : الجمرة كل قوم يصيرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحدا، ولا ينضمون إلى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس ولما سأل عمر بن الخطاب ﷺ الخطيئة عن عبس ومقاومتها قبائل قيس قال: يا أمير المؤمنين ، كنا ألف فارسي كأننا ذهبة حمراء ، لا نستجمر ولا نحالف ، أي لا نسأل غيرنا أن يجتمعوا إلينا لاستغنائهم عنهم . والجمرة : اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل ، وذكر أن (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان ، وقيل : ثلاثمائة فارس أو نحوها ، والذي يستنتج من علماء اللغة والنسب في تعريف الجمرة : أنها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال ، ولا تركن إلى غيرها ولا تحالف غيرها لتستفيد من هذا الحلف في قراع القبائل .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم هم عماد حركة الجيوش ومن أسباب القوة والانتصار ، وقد عدوا القبيلة التي يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة وقيل : الجمرة ألف فارس(١)

ولكل قبيلة كما ذكرت ـ جد تنتمي إليه وتفاخر وتباهى به ، وقد يكون هذا الجد حقيقيا أي إنسان عاش ومات وساد القبيلة ، وترك أثرا كبيرا في قبيلته حتى نسبت القبيلة إليه ، وقد يكون الجد اسم حلف تكون وتألف من قبائل عديدة حتى عرفت

---

(١) لسان العرب ، دار اللسان ١ / ٤٩٥ . ومن هذا قيل: المواضع الجمار التي ترمي بمنى جمرات ، لأن كل مجمع منها جمرة ، وهي ثلاث جمرات ، وقال عمرو بن بحر : يقال لعبس وخبة ونمير الجمرات وأنشد لأبي حية النمري :

لنا جمرات ليس فى الأرض مثلها ... كرام وقد جربن كل التجارب

به ودعيت بذلك الحلف وصار وكأنه اسم جد وإنسان عاش ، ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل الأخبار ، فقد رووا أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها .

وقد يكون اسم موضع أقامت قبيلة فيه، فنسبت إليه كما يذكر أهل الأخبار من اسم (غسان) وقد يكون اسم إله عبد، فنسب عباده إليه مثل (بنو سعد العشيرة) و (تالية ريام) جد قبيلة همدان . وقد يكون اسم حيوان أو نبات، أو ما شابه ذلك مما يدخل في دوامة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقاتها، وهو شيء مألوف نراه عند غير العرب أيضا، فليس العرب بدعا وحدهم في هذه الأمور[١]

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزنا للأخوة والنسب ، فإذا اختلفت المصلحة، فلا تجد القبائل عندئذ أي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها ، لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب، ومحاربة أختها التي انفصمت عنها فعبس تحالفت مع بني عامر في حرب البسوس على (ذبيان وهي أختها) . وتحالفت (ذبيان) مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين تميم وعبس وذبيان من عداء قديم ، وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل[٢]

ومن الأمثلة المشهورة العداء الذي استمر مائة عام بين الأوس والخزرج حتى أعزهم الله بالإسلام، فأصبح الأنصار جند الإسلام المشهورين .

وتمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها ، فما يقع الداخل فهو موطن القبيلة، وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موطنها ، وتعيين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شاكل ذلك ، ونظرًا لعدم تثبيت القبائل لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سببًا من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل .

---

(١) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣٣٢) .
(٢) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣٤١، ٣٤٢) .

وتكون مواضع الماء في أرض قبلة أبنائها ، يستقون منها ما يحتاجون إليه من (إكسير الحياة) وتكون هذه المواضع آبارًا أو عيون ماء أو حسيًا أو ما شاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي ، ويؤدي الإخلال بحقوق السقي إلى وقوع نزاع قد يؤدى إلى قتال لا سيما في أيام القيظ وانحباس المطر ، حيث تشتد الحاجة إلى الماء ويصير افتقاده سببا لهلاك الأنفس والمال ، والقاعدة أن ماء القبيلة مشاع في القبيلة ، أما المياه المحمية ، والمياه التي تحمي للسادة والرؤساء ، والمياه الخاصة كالآبار التي يحفرها أصحابها فتكون خاصة بهم ، ولايجوز الاستسقاء منها إلا بإذن .

ومنها استئثار السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام بماء زمزم عندما عرضت جرهم القيام معها حول البئر ، وكذلك سيطرة واستئثار عبد المطلب بهذه البئر عند إعادة حفره لها بعد أن ردمتها خزاعة عند خروجها من مكة ، ولكل قبيلة حق حماية أرضها ، شأنها في ذلك شأن الدول، وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد من أن يكون في حماية إنسان منها ، وإذا كان المجتاز جماعة كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيًا يريد التنقل إلى أرض أخرى . ولا بد له من المرور بأرض هذه القبيلة للوصول إلى هدفه ، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، وإلا تعرض للمنع والقتال؛ لذا كان لابد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور بدفع حق المرور، وهي إتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من المارة .

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل ملك مملكة بالنسبة لمملكته ، فهو الرئيس وهو المرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب ، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة ، وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ويترأسها ، وقد ينصب نفسه ملكا عليها كالذي فعله ملوك كنده من بني (آكل المرار) [١]، وكالذي فعله الأوس والخزرج عندما توجهوا لتنصيب عبد الله بن أبي ملكا على يثرب إثر يوم بُعاثُ .

---

(١) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣٤٣) .

وقد لا نخطئ إذا ما قلنا إن أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل في الأصل استغلوا مواهبهم وقبائلهم وإمكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك وعلى التلقب بلقب ملك فنالوه.[١]

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) والرئيس سيد القوم والرياسة السيادة ، ويقال رأس ورئيس القوم[٢] ورؤساء القبائل هم سادات القبائل والمتولون لأمورها ، كما يقال فلان ساد قومه وهو سيد القوم ، فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد ، وردت لفظة (زعيم) بمعنى سيد القوم ورئيسهم، والمتكلم عنهم والجمع زعماء ، كما وردت الزعامة الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المغنم ، غير أن استعمال زعيم القبيلة أقل من استعمال (سيد) ورئيس

وأنا حين أستعمل (سيد القبيلة) أقصد به الرئيس الفعلي لقبيلته المسؤول عنها ، المدبر لأمورها والمرجع الأخير لها، والذي يكون كالملك أو الحاكم بالنسبة لقبيلته ؛ لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة . وقد عرف خبرهم في كل مكان . وربما اشتهر ذكرهم أكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم . ومع ذلك فإنهم لا يعدون رأس تلك القبيلة ؛ لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد .

والعرف أن يسود الرؤساء في القبائل كما يترأس الأشراف أمر مدينة بأن يرأسوا عمائر القبيلة ، ثم فروعها الدنيا التي تلي العمائر فهو رؤساء قبيلته بالمعنى المجازى الذي جوز إطلاق لفظة (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطون بل والبيوت، بأن ميزوا الرئيس بالخصال الحميدة التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يعلو اسم رئيس القبيلة في كثير من الأحايين[٣]

فالحياة القبلية مجموعة من الأعراف التي لم تكتب ولم تسجل ، ولكنها كانت محفوظة في رأس أبناء القبيلة تماما كأشعار فخرهم وأنسابهم ، والخروج على هذه

---

(١) جواد علي : تاريخ (٤/ ٣٤٣) .

(٢) اللسان ، دار اللسان ١/ ١٠٩

(٣) جواد علي : تاريخ ٤/ ٣٤٤

الأعراف خروج على القانون العام الذي يسود القبيلة ، قد يؤدى بالخارج إلى الموت عادة أو الطرد ، والطرد عند العرب أصعب كثيرًا من الموت ، لأنه سيتحول إلى مولى في قبيلة أخرى يفقد معها امتيازات الحر أو يتلقفه الأقوياء،فيباع في سوق النخاسة .

شيخ القبيلة : هو العرف وهو القانون وهو الحاكم الفعلي في مجموعة من الناس تحت سيطرته وهذه السيطرة لم تستقر يوما على حال من الأحوال إطلاقا ، ويساعده في حكمه مجلس القبيلة وهو مجلس غير مسمى إنما يتوصل أعضاؤه إلى مواقع اتخاذ القرار أو المشاركة فيه على الأقل بما يمتاز به صاحبه من ذكاء وفطنة ، وتميز عن أصحابه ، وهؤلاء مجموعة يشاركون الشيخ في القرارات الهامة ، وعادة يكونون شيوخ بطون ، أو كبار أسر ، أو حكماء أو يتمتعون بذكاء أو شجاعة ، ويجالسون الشيخ أو الرئيس في مجالسه ، وتكون لهم ولرأيهم إذا أجمع كلمة نافذة في مصير القبيلة وفي بقائها وحربها وسلمها ، ولم يكن هناك من طريقة تتبع؛ ليصبح هؤلاء من أصحاب الرأي، فمجلس الشيخ (رئيس القبيلة) مفتوح للمداولة والمدارسة والحديث .

ويتميز في مجلس الشيخ الشعراء ـ وخصوصا ذلك الشاعر الذي استطاع بقريضه أن يجعل من قبيلته شيئًا مهمًا ، فالشعر هو كل الثقافة ، وهو كل الإعلام معا، والقبيلة التي ينبغ فيها شاعر تكون قد احتلت مكانًا بين القبائل ، يُحافَظ على هذا الشاعر وتروي قصائده، ويستمع له، ويقف في الساعات الحرجة ليهيج الناس للحرب أو ليدافع عن قبيلته في ملتقي العرب السنوي العام ، الحج ، أو أسواقهم وتجمعاتهم ، يذود عنها الأذى ويفتخر بها ، والشاعر متميز عن كل الناس تقريبا، وقد لا يكون من شجاعته في قومه إلا لسانه ، أو قد يكون فارس القبيلة ورجلها (كعنترة)، وبعض الأسماء الأخرى التي وردت في أساطير العرب .

وقد يصادف وجود حكيم أو معلم في القبيلة يلجأ إليه الجمع في الملمات ليرشدهم إلى الطريق الصواب ، وله عادة تأثير كبير في مجرى اتخاذ القرار ، وقد يتمكن من منع القبيلة من حرب،أو يدفع عنها أذى بحكمة أو رأي صائب، ويتولى

الحكيم عادة تعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة والتي كانت نادرة عند العرب في ذلك الوقت ، ويكون الحكيم قد اطلع على بعض أخبار الغابرين أو زار بعض قصور الملوك ، أو سمع من الناس أو وقع على سفر من الأسفار الكثيرة التي سبقت الإسلام ،لكن تأثيرها كان محدودًا نتيجة الانطوائية التي تمتاز بها .

والحكيم قد لا يكون من القبيلة أصلا ولكن مقامه كبير، ويلجأ إليه العرب في أسوأ الحالات التي يترددون فيها ، ثم يأتي الخطيب وقد يكون الحكيم أو الشاعر ، وقد يختلف كل منهم عن الآخر . فالخطيب لسان آخر للقبيلة التي تحتاج إلى بلاغة القول مثل سلاسة الشعر .

وكان الخطيب يتصف بالحكمة والرزانة ، وإن جنح بعض الشعراء إلى أبواب من المجون والغزل وذكر محاسن النساء ومن الخطباء من كان يلهب مشاعر المقاتلين ويحرضهم على القتال والثبات، وقد برزت مواقف كثيرة في أيام العرب اتصف بها الخطباء بالفصاحة والبلاغة حتى غيروا مجرى الأحداث والكثير من المعارك كما فعل حضير الكتائب يوم بعاث عندما هزمت الأوس فنزل عن ناقته وعقرها وصاح يا معشر الأوس،إن أردتم أن تسلموني إلى شر فافعلوا ، فعاد الأوس يحملون جراحهم وثبتوا وتمكنوا من تغيير الهزيمة إلى نصر ، وكذلك موقف الرسول ﷺ يوم حنين عندما وقف عمه العباس بصوته الجهوري القوى يثبت الناس ويدعوهم للالتفاف حول رسول الله .

قال الحافظ البيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين حين رأي من الناس ما رأي« يا عباس، ناد: يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة ». فأجابوه ؟ لبيك لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه عن عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله مائة[١]

---

(١) السيرة النبوية : ابن كثير ٣ / ٦٢٥ ، إمتاع الأسماع : المقريزي ١ / ٤٠٦ ، السيرة النبوية : ابن هشام ٤ / ٨٧

فالخطابة كانت ذات تأثير كبير في القبيلة، ومع الشاعر والحكيم ورؤساء العشائر والخطيب، يتألف من مجموع هؤلاء مجلس القبيلة . فكانت هذه المجموعة هي التي تدير شؤون القبيلة الداخلية والخارجية لم يكن هناك تخصصات ، ولم يكن هناك دستور مكتوب ، ولكن كان لأصحاب الرأي نفاذ رأيهم ، وكانت الأحكام تعتمد على الأعراف وارتبطت بقضية العرب النسب ، والذي كان له من الأثر الكبير في حياة القبيلة ليعرف كل رجل منبته وأصله ، وكانت هذه القضايا تحفظ للأجيال والأولاد حتى بالألقاب التي عرف بها الأجداد واشتهروا ، وكثيرا ما وردت أشعار كثيرة تذكر الألقاب التي تعارف عليها الناس للقبائل أو الأفراد ، ولم تكن الأنساب معروفة مكتوبة إنما كانت محفوظة تماما

والتصنيف المألوف للقبائل هو حاصل عرف جرى عليه النسابون ، ولا نعرف تدوينا لأهل الجاهلية للأنساب ، إنما نعرف أن أول تدوين رسمى كان هو التدوين الذي تم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب؛ حيث ظهرت الحاجة إلى التسجيل فسجلت ، ولم تصل ويا للأسف سجلات ذلك الديوان إلينا ، ولم يصرح أحد من النسابين أنه أخذ مادة أنسابه ، من تلك السجلات ، وإنما الذي بين أيدينا هو خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل ، وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيون بهذا الموضوع[١]

ويبقى ابن الرفيع والشيخ والرئيس رفيعًا حاكمًا مطاعًا ، أو يجرى عليه الزمان إن لم يكن على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فيبرز الشجعان والفرسان ليأخذوا مواقعهم في حياة القبيلة ، وامتازت حياة القبائل بالحروب والغزو والترحال الدائم، ولا يمضي كبير وقتٍ تستقر به القبيلة إلا ويلوح لها في الأفق مصلحة من أرض خصبة أو ماء غدق ، أو خوف من الأقوياء فتأخذ بالترحال طلبًا للكلأ والماء ،

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ٤١٤ ، وحول أنساب العرب : جمهرة أنساب العرب : ابن حزم ، الأنساب : مسلمة الصحاري ، سبائك الذهب القلقشندي ، قلائد الذهب ابن حزم ، وكتب السيرة والتاريخ

ولمزيد من الأمان والعيش ، ويكون الرواد في القبيلة أصحاب الرواية في المسالك والمهالك . وحادي البصر له دور في ترحال القبيلة وحتى في طعنها وإقامتها فإنهم يقومون عل حراستها خوفا من المباغتة والغدر الذي كان سائدا في كل حياة العرب .

والثأر من أصعب المبادئ وأعقدها كان عرفا سائدا بين أعراف القبائل في الجاهلية على من يقع الدم ، وعلى من يقع الثأر ، وعلى من تقع الدية ، وعلى من يقع الفداء ، وهذه أمور تعارف عليها العرب أيضا بدرجة واضحة قوية ، وبقى الثأر يحرك مشاعر الناس ، ويدفعهم إلى الكثير من الخصال وأهمها الشجاعة للرد السريع، والانتباه الدائم ، ومعرفة أشكال الناس وعاداتهم وانتسابهم ، ومن أهمها أيضا أنه ينام وعيونه مفتحة خوفًا من الغدر والقتل .

فالسياسية العامة للقبيلة يحكمها كل هذه الأحداث ، ولذلك تعارفت العرب على أشهر يتناسون أحقادهم وثأرهم ، وعرفت هذه الأيام بالأشهر الحرم، يعود بها الاطمئنان والهدوء حتى تلتفت القبائل لتأمين معاشها ، وتأدية حجها وعمرتها ، وتبحث عن ضالتها من البهائم والناس والعبيد والموالى وتعقد الأسواق التي يتم فيها البيع والشراء ، ولم تسلم هذه الشهور أيضا من الخرق الأرعن بأسلوبين منفصلين تماما أحدهما (النسىء) وهو تأخير أيام وتقديم أيام حتى يتسنى للأقوياء الأخذ بثأرهم أو الوصول إلى ما في نفوسهم من أحقاد وضغائن ، وهذا أمر يقره صاحب القرار الأقوى في القبائل ، والقضية الثانية جاءت باختراق حرمة هذه الأشهر وعدم الاكتراث كثيرًا بها ، وإعلان الحرب بها وعرفت هذه الحروب في القديم بحروب الفجار .

هذا مجمل سريع لتنظيمات القبيلة السياسية والاجتماعية ، أما من النواحي الأخرى الاقتصادية والفكرية فإن لها مجالاً آخر للحديث عنها .

وبذلك فإن الحكم القبلي (بداية الحكم المتمدن) كان قد تمخض في كثير من الأحيان عن تنظيمات فرضتها الظروف المحيطة بالقبيلة ، والتي أدت إلى أعلى

مراتب الحكم وقتها وهو الملكية ، ولم تتحول قبيلة لمثل هذا إلا وتمكنت من السيطرة على العديد من القبائل والأرض ، ووجد أصحابها نوعا من الاستقرار حول منابع المياه ، والخيول المسومة ، والجو البارد الذي يشعر به أصحابه شعورًا غير دائم يؤدي بهم إلى: بعض التنظيم وبعض التجمع والتخصصات بالحكم والإدارة .

(٢) تنظيمات مكة

مكة مصر إقليم الحجاز ، قد خطت حول الكعبة من شعب واد ، رأيت لها ثلاث نظائر عمان في الشام[(١)] ، واصطخر بفارس[(٢)] وقرية الحمراء بخراسان[(٣)] ، بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضا ، وعلوها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهي طبقات مبيضة نظيفة حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب ، وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه (المسفلة)وما ارتفع عنه (المعلاة) وعرضها سعة الوادي . والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة والكعبة في وسطه[(٤)]

وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ لها ستة عشر اسما ، مكة فتح الميم وتشديد الكاف المفتوحة وهاء في الآخر كما نطق به القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:٢٤] .

---

(١) **عمان** : عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية ، كانت قرية صغيرة حتى قسمت بلاد الشام عام ١٩٢٠م فكانت منطقة الجنوب الشرقي منها من نصيب الأمير عبد الله بن الحسين بن على الهاشمي أعطى إمارة عرفت باسم شرق الأردن ، اتخذ عبد الله عاصمة له عمان وبدأ التوسع بها حتى أصبحت مدينة حديثة جدًا سكانها يزيدون الآن عن مليون نسمة ، وقد بنيت على سبع جبال تتخللها الأودية التي تشبه إلى حد كبير مدينة مكة. (المؤلف) .

(٢) **اصطخر** : مدينة فى فارس ، والراجح أن اسمها الحقيقي هو «ستخر»كما يكتب باللغة الإنجليزية، فتحها المسلمون عام ٢٣ هـ ٦٤٣ م بقيادة أبي موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص، وتقع على خط عرض٥٩.٥٠° شمالا وخط طول٥٣° شرقا على مسيرة ساعة شمال (برسبوليس) في وادي بلور ومرغاب الضيق (دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٢٤٤) فما بعد ، ط دار المعرفة مادة (إصطخر).

(٣) **خراسان** : إقليم كبير وتعرف باسم (بلاد الشمس المشرقة) ، وهي مؤلفة من خر بمعنى الشمس و(آسان) بمعنى مشرقة ، وبها جبال تمتد على حدودها الجنوبية يصل ارتفاعها إلى ١١٣ ألف قدم ، والماء شحيح في هذا الإقليم الذي هو أشبه بمجموعة من الواحات ترويها أنهار متقطعة وآبار تمتد على طول مجاريها فى باطن الأرض. (دائرة المعارف الإسلامية (٩/ ٢٩٢) ط دار المعرفة مادة (خراسان) .

(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : المقدسي (١٣/ ٩٨) .

وسميت بذلك لقلة مائها أخذا من قولهم: أمتك الفصيل ضرع أمه : إذا امتصه . وقيل لأنها تمك الذنوب : بمعنى أنها تذهب بها ، ويقال لها أيضا : بكة بإبدال الميم باء موحدة وبه نطق القرآن الكريم أيضا بقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران:٩٦]. قال الشرقي بن القطامي : إنما سميت مكة؛لأن العرب في الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه : أي نصفر صفير المكاء فيه حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذ كانوا بها .

والمكّاء بتشديد الكاف: طائر يأوى الرياض، قال أعرابي ورد الحضر فرأي«مُكَّاء » يصيح فحنّ إلى بلاده :

ألا أيها المكاء مالك هاهنا آلاءٌ ولا شيحٌ فأين تبيضُ

فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى الشام لا تصيح وأنت مريض

وهناك أقوال كثيرة حول هذه التسميه . نكتفي بما ورد منها في هذا المقام(١)

ومن أسماء مكه أيضا (البلد) لقوله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) ﴾ [البلد] ، ومنها (البلد الأمين) لقوله تعالى : ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ (٣) ﴾ [التين].

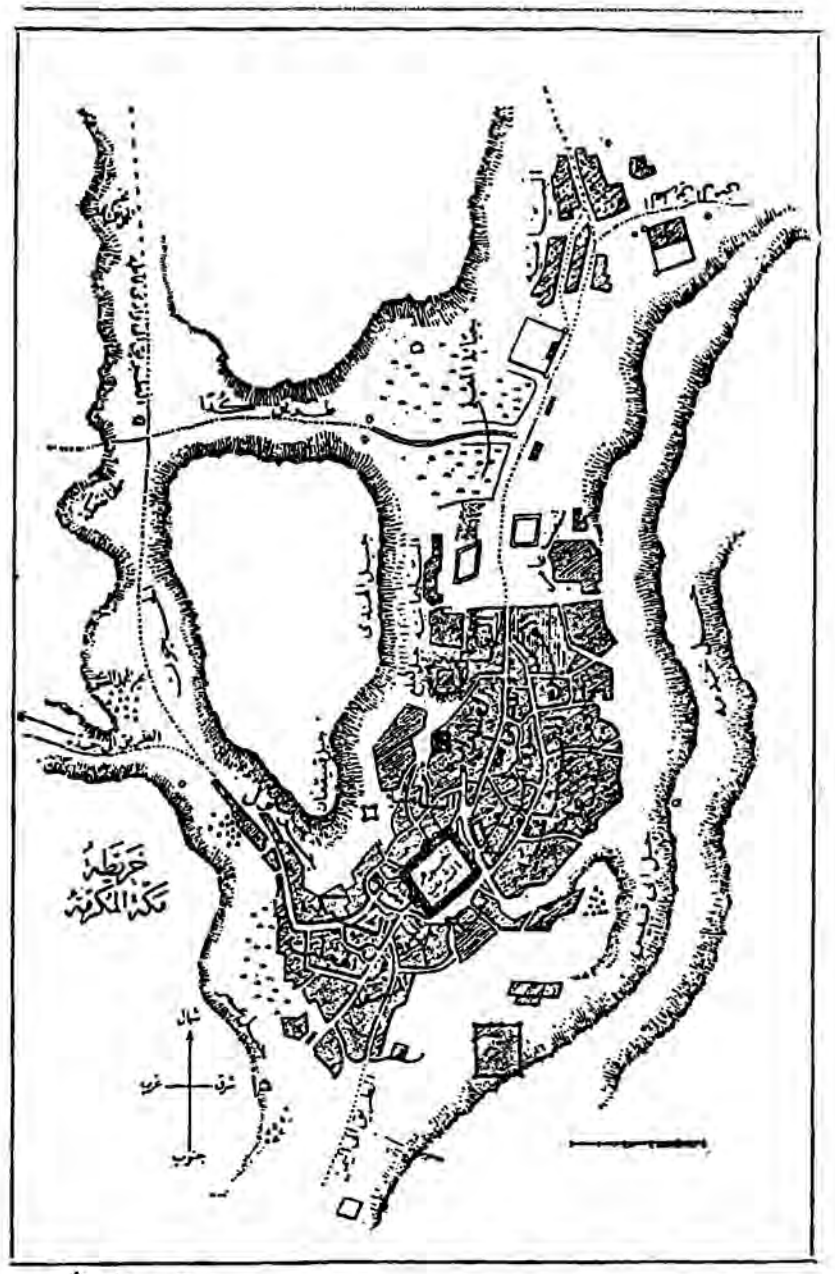
واختلف المؤرخون في أصل اسم مكة ، والأرجح عندنا أنه آشوري أو بابلي لأن (مكا) في البابلية (البيت) وهو اسم الكعبة عند العرب ، ويدل ذلك على قدم هذه المدينة كأنها سميت كذلك من عهد العمالقة على إثر هجرتهم من بين النهرين ، فسموا المكان بها إشارة إلى امتيازها بالبناء الحجري عن سائر ما يحيط بها من باديه (٢)

وحول تسميتها (ببكة) قال الليث: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة ،أي تدقها ، والبك : الدق. وقيل : بالميم الحرم كله ، وبكة المسجد خاصة . وقيل : بالباء

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ٩.

(٢) العرب قبل الإسلام: زيدان (٣٢٧).


خريطة
مكة المكرمة
شمال
شرق
غرب
جنوب

اسم لموضع الطواف سمي بذلك لازدحام الناس فيه والبك الازدحام ، ومن أسمائها أيضا (أم القرى) و(البلد الأمين) و(أم رحم) بضم الراء وإسكان الحاء المهملتين ؛ لأن الناس يتزاحمون فيها ويتواعدون و (صلاح) مبني على الكسر كقطام ونحوه ، و (الباسة) لأنها تبس الظالم ، أي : تحطمه ، و (الناسة) لذلك أيضا ، و (الحاطمة) : لأنها تحطم الظالم كما تقدم ، و(الرأس و (كوثي) بضم الكاف وفتح المثلثة و(القدس) و (القادس) و (المقدسة) .

قال النووي : وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى . ولذلك كثرت أسماء الله تعالى وأسماء رسوله ﷺ .

وقد تقدم أنها من جملة الحجاز وحكى ابن حوقل عن بعض العلماء أنها من تهامة ورجحه في تقويم البلدان ، والجبال محتفة بها ، فأبو قبيس مشرف عليها من شرقيها ، وأجياد بفتح الهمز مشرف عليها من غربيها ، وقال الجوهري سمي بذلك لموضع خيل تبع منه .

قال في الروض المعطار : وسعتها من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين ، ومن أسفل أجياد إلى ظهر جبل قيقعان مثل ذلك ، قال الكلبي ولم يكن بها منازل مبنية في بادئ الأمر ، وكانت جرهم والعمالقة حين ولايتهم على الحرم ينتجعون جبالها وأوديتها ، ينزلون بها ، ثم جاءت قريش بعدهم، فمشوا على ذلك إلى أن صارت الرياسة في قريش لقصي بن كلاب، فبني بها دار الندوة يحكم فيها بين قريش ثم صارت لمشاورتهم وعقد الأولوية في حروبهم[(١)]

وفي مكة البيت العتيق ، وارتبط اسم مكة بوجود البيت ، ولولا البيت لبقيت مكة بلدا في قفار الحجاز ، إلا أن هذا البيت هو الذي رفع مكانة مكة وجعلها محجا للناس وأمنا . وأول من أتى للحج وطاف بالبيت الملائكة كذا في تاريخ مكة ـ وأول

---

(١) صبح الأعشي: القلقشندي ٥/ ٢٢٨ ،ط وزارة الثقافة ـ دمشق ، مكة في عصرما قبل الإسلام : أبو الفضل ٣٣.

من سعي بين الصفا والمروة هاجر أم إسماعيل عليه السلام (ذكره السيوطي في الأوائل عن ابن عباس) .

أول بيت وضع للناس للعبادة والبركة مكة ، ويقال : أول بيت بناه آدم واتخذه قبله ، وورد في الخبر لما وصل آدم عليه السلام إلى مكة استقبلته الملائكة وقالوا يا أدم، بر حجك وطف فقد طفنا قبلك بألفي عام ، قال المفسرون: إنه أول بيت وضع للناس يحجون إليه ويعبدون الله فيه ، وكانت قبله بيوت كثيرة. قال الإمام النووي الجمهور على أنه أول بيت وضع للناس مطلقا (تاريخ مكة)[1]

ومكة مدينة قديمة ، ولكن تاريخها الأول غامض جدا حتى إن اسمها قد فقد دلالته اللغوية قيل : إن أقدم سكان مكة العماليق ، وهم قوم جاؤوا ما بين النهرين (العراق) ثم غلبهم عليها (بنو جرهم)،وفي جرهم قولان : إنهم من عرب الجنوب، وقولهم إنهم من عرب الشمال ويبدوا أن جرهما كانت قبيلة قديمة في الذاكرة العربية حتى قال زهير بن أبي سلمى يقسم بالبيت العتيق ، أو ينسب بناؤه لجرهم ، أو ينسب تجديد بنائه على الأقل لقريش ، ثم لجرهم قبلهم :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

ثم جاء بنو خزاعة من اليمن ـ أيضا ـ فيما يقول الرواة ، ونزلوا في تهامة بعدئذ ، قاتلوا جرهما وتغلبوا عليهم وأجلوهم عن مكة ، وتولوا على الكعبة ، وكان من رؤساء خزاعة عمرو بن لحى فيقال إنه رجع من إحدى رحلاته بصنم اسمه (هبل) جاء به من البلقاء في الشام ، أو من هيث في العراق على الفرات الأعلى[2] ، ومن خزاعة ورثت قريش الحكم في مكة والولاية على الكعبة .

ومكة : بلد في واد غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جرد فتزيد في قسوة مناخها ليس بها ماء غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى فجة حفرها أصحاب

---

(١) اضرة الأوائل، البسنوي ص (٤٠)

(٢) تاريخ الجاهلية، فروخ ص ١١٠

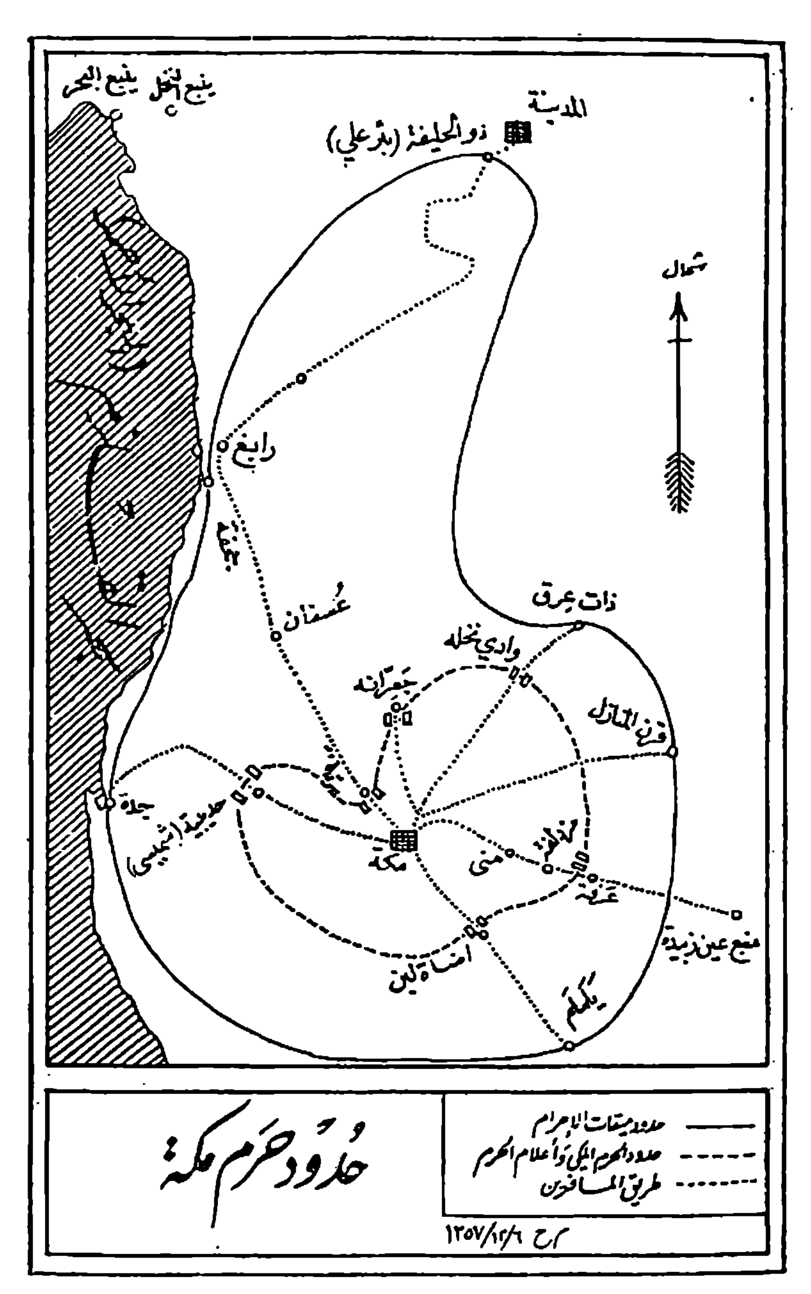
البيوت ، أما ما يوجد من مياه جارية وعيون غزيرة على ما نرى في أماكن أخرى فليس لها وجود بهذا المعنى هناك وكل ما كان يحدث من نزول سيول قد تكون ثقيلة تهبط عليها من شعاب الهضاب والجبال فَـتُنزل بها أضرارا فادحة وخسائر كبيره ، وقد تصل إلى الحرم فتؤثر فيه ، وقد تسقط البيوت فتكون السيول نقمة ، لارحمة تسعف وتغيث أهل الحرام[١] . وكثيرا ما كانت الأوبئة تتفشى عقب السيول المخربة فقد أصيب أهل مكة بمرض شديد[٢] أصابهم في أجسادهم وألسنتهم وأصابهم منه شبه الخبل عقب سيل ٨٤ هـ .

وأهمية مكه الرئيسية لم تكن من الناحية الزراعية أو الناحية التجارية ، وإنما كانت من الناحية الدينية ، كانت مكة مركز الوثنية عند العرب ، موطن مناسك الحج والأمن والقداسة بين القبائل المتناحرة ، تهيأت القداسه عن طريق الكعبة،وهي هيكل صغير مربع من صخر ـ سوداء بالغة حدا كبيرا من القدم وكان حجر الزاوية في هذا الهيكل[٣] نيزكا تربطه التقاليد بإبراهيم عليه السلام وكان بعد الإله صاحب الرئاسة الذي يقيم تحت لوائه جميع الآلهة القبلية ويهرع فيها الحجاج ليتبتلوا عند الكعبة[٤] ويحتفلون بالهدنة[٥]

ويعود الفضل في بقاء مكة ، وبقاء أهلها بها موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية إلى الجنوبية تريد بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية، والتي كان لابد أن تستريح في هذا المكان[٦] ، وهي من أهم ماقع الحضر في الحجاز على الإطلاق، وأنها ربما ترجع في نشأتها إلى عهد الخليل وولده إسماعيل عليه السلام ، وإن كان سكانها من الإسماعيليين إلى جانب قبائل عربية ، لم

---

(١) جواد علي: تاريخ (٤/ ٥) ، تاريخ مكة: الأزرقي ص (٣٨٨) ، فتوح البلدان : البلاذري ص ٦٥.
(٢) مكة فى عصر ما قبل الإسلام : أبو الفضل (٤٢) .
(٣، ٤) تسمية هيكل تسمية نصرانية، والمؤلف نصراني يطلق التسميات التي عرفها من الوثنية والنصرانية ، والهيكل في الديانة اليهودية، هو: المكان الأكثر قداسة في الكنيس أو الكنيسة، والتبتل : بالعرف النصراني : التعبد ومنه مريم البتول .
(٥) العرب : إدوار عطية ص (١٣) .
(٦) جواد علي : تاريخ ٤/ ٦



نقلاً عن كتاب « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة – مقابل الصفحة (٦٧) – » . جمعها : « الدكتور محمد حميد الله » .

يذكر لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة كالعماليق وجرهم وخزاعة[١] وكانت المياه شحيحة في مكة ، فكان المكيون يعانون من قلتها ، مما دعا بعض الإخباريين إلى تفسير اسم مكة بأنها مشتقة من (مك) أي : امتص؛ لقلة مائها[٢]

وذكر ابن هشام أن قريشا قبل أن يجمعها قصي ، وقبل أن تدخل مكة كانت تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعي (اليسيرة) ومن بئر حفرها مرة بن كعب تدعي (الروي) ، وهي مما يلي عرفة ، ثم حفر كلاب بن مرة (خم ، ورم ، والجعفر) بظاهر مكة، ولما تولى قصي رئاسة قريش حفر بئرا يقال لها : (العجول) كان يردها العرب عندما يقدمون إلى مكة فيشربون منها ويتزاجرون عليها وفيها قال قائل :

نـروي عـلى العجـول ثـم ننطلـق قبـل صـدور الحـاج مـن كـل أفـق

إن قـصيا قـد وفى وقـد صـدق بالـشيع للنـاس دري فعتـق

كذلك حفر قصي بئرا عند الردم الأعلى عند دار(أبان بن عثمان) ، ثم دثرت فنثلها جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف وأحياها . وقد حفر الكثيرون آبارًا أخرى في مكة منهم على سبيل المثال لا الحصر : عبد شمس بن عبد مناف حفر بئر (الطوي) في البطحاء وأمية بن عبد شمس حفر (الجعفر) وبنو عبد شمس بئر (أم جعلان) ، وبئر (العلوق) بأعلى مكة، وحفر بنو أسعد بن عبد العزى بئر(شقية)، وبنى بنو عبد الدار بن قصي بئر (أم أحواد)[٣]

وللبيت فضل كبير على أهل مكه ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج إليه،وقد عرف البيت بـ (الكعبة) لأنه مكعب على خلقة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و (قادس) و (بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك .

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب : مهران ٣٩١.

(٢) مكة فى عصر ما قبل الإسلام : أبو الفضل ص ٣٨.

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ١٥٦

وبمكة جبل يطل عليها يقال له : جبل (أبي قبيس) ذكر بعض أهل الأخبار أنه سمي(أبا قبيس) برجل حداء لأنه أول من بني فيه ، وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعا فيه ، وأمامه جبل آخر، وبين الجبلين واد نمت فيه مكة ونبتت فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات . وقد سكن الناس جبل (أبي قبيس) قبل سكنهم بطحاء مكة، وذلك لأنه موضع مرتفع ، ولا خطر على من سكنه من إغراق السيول له وقد سكنته بنو جرهم ويذكر أهل الأخبار أنه سمي قبيسا بـ(قبيس بن شامخ) رجل من جرهم كان في أيام عمرو بن مضاض[١]

وتقع مكة في منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام في واد من أودية جبال السراة تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها : بواد غير ذي زرع،وهي تتراءي لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءي لنا أكبر مركز للوثنية الجاهلية[٢]، ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة إلى وجود(أطم) أو (حصون) في مكة للدفاع عنها لأن هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبروج وسور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها ، ويظهر أن ذلك إنما كان بسبب أن مكة لم تكن قبل أيام (قصي) في هذا الوادي الذي يتركز به (البيت) بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

أما الوادي فكان حرما آمنا يغطيه الشجر الذي أنبتته السيول ، ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ، بل كان سكن من يأوي إلى بيوت الخيام ، أما أهل المرتفعات فكانوا إذا داهمهم عدو ، أو جاءهم غزو اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزو منها[٣]

أما من سكن مكة في القديم فيعود المؤرخون بنسب العرب العدنانية إلى إسماعيل ابن إبراهيم بن جاريته هاجر ، ويرون على ذلك أنه لما ولد إسماعيل أمر الله إبراهيم

---

(١) مكة : أبو الفضل (٣٨) ، جواد علي : تاريخ (٤/ ٧) ، تاريخ العرب القديم : عاقل ٢٢٥
(٢) تاريخ الأدب العربي : ضيف ٤٩ ، مكة : أبو الفضل (٤٠) .
(٣) جواد علي : تاريخ ٤/ ٩

أن يذهب به وبأمه إلى مكة ففعل وجاءت جرهم وقطوراء وهما : قبيلتان من اليمن فنزلوا مكة ، وتزوج إسماعيل من جرهم وكان من ذريته عدنان أبو العرب المستعربة ، ومن عدنان كانت القبائل النزارية بشعبتيها الكبيرتين ربيعة ومضر[١] وكان الشمال موطن العرب العدنانية ، كما كان الجنوب موطن العرب القحطانيه وهذا لايعني أن الشمال استأثر بالعدنانية وحدها ،ولأن العدنانية لم تتخذ بعض قبائلها بالجنوب أو في أطراف الشام والعراق موطنا ، وغلبت البداوة الخشنة وسكن الخيام على عرب الشمال ، فكان العدنانيون في كثرتهم بدوا رحلا لايأنسون بقرية ، ولايتفيؤون ظلا معمورا إلا أقلهم (كقريش) في مكة وبني ثقيف في الطائف[٢]

ولم يرد ذكر مكة أو الكعبة في كتب قدماء اليونان ، إلا ما جاء في كتاب (ديودورس) الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد في أثناء كلامه عن النبطيين مما يراد به مكة ، وهي قوله : ووراء أرض الأنباط في بلاد (بني زومين) وفيها هيكل يحترمة العرب كافة احتراما كثيرا ، فلعله يريد الكعبة وأما (بنو زمين) فربما أراد بهم جرهم أو غيرهم من قبائل العرب التي تولت مكة[٣]

وعلى كل حال فإن الإسماعيلية ـ أو قبيلة منهم ـ والجرهمية أقاموا معا في مكة وما يليها حتى جاءتها خراعة وهي طائفة من عرب اليمن يقول العرب أنهم هجروا بلادهم بعد سيل العرم ورئيسها عمرو بن لحى نزلت مكة وأخرجت جرهما منها ، وعمرو بن لحي هذا المشهور بإدخال الوثنية على عرب الحجاز ، وإليه ينسبون كثيرا من أوابد الجاهلية . وفي الحديث الشريف« رأيت عمرو بن لحي يجر قصبته في النار » يعني أحشاءه[٤]

---

(١) أدباء العرب : بطرس البستاني ١/ ١٧

(٢) أدباء العرب : البستاني ١/ ١٨

(٣) العرب قبل الإسلام : زيدان ٣٢٧

(٤) المصدر السابق ١٢٨، ابن هشام ١/ ٧٨

يزعم الإخباريون أن أقدم من حكم مكة والحجاز العمالقة وعليهم السميدع ابن هوثر بن لاوي، وخلفهم بنو جرهم القحطانية، وكان إبراهيم عليه السلام قد أسكن ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر وبني البيت العتيق بالحجر بمعاونة ابنه إسماعيل ، وتزوج إسماعيل امرأة جرهمية ، وكانت منازل جرهم بمكة وما حولها . وقام بأمر البيت بعد إسماعيل الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو أول من ولى البيت ثم وفدت خزاعة إلى مكة بعد سيل العرم ، فنزلوا بظاهر مكة وغلبوا الجرهميين على مكة وطردوهم منها ، وكان أول من ولى أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحي فغير دين إبراهيم وبدلة بعبادة الأوثان، فقد ذكروا أنة استحضر معه من البلقاء(بالشام) أصناما نصبها حول الكعبة ، وظلت خزاعة تلي أمر البيت ، أما مضر فقد احتفظ بحق الإجازة بالناس من عرفة ، والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى(١)

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ، وأعجبهم حتى خلف الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه(٢)

ثم جاءت جرهم فنزلوا على قطوراء ، وكان على قطوراء يومئذ : (السميدع بن هوثر) ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض بن عمرو بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فنزلوا (بقيقعان)، وكان قطوراء بأسفل مكة ،

---

(١) مكه : أبوالفضل ٤٣ ومحاضرة الأوائل: ٤٠ ، والسيرة النبوية : ابن كثير ١/ ٦١

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ٨٠ ، جواد على : تاريخ ٤/ ١٥

وكان مضاض يعشر من أهل مكة من أعلاها ، و(السميدع) من أسفلها ، ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب المضاض وغلب السميدع . وجرهم قوم من اليمن فهم قحطانيون إذن جدهم هو ابن (يقطن بن عابر بن شالخ) وهم بنو عم (يعرب) كانوا باليمن ، وتكلموا العربية ثم غادروها فجاؤوا مكة .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) وقد عدهم (بلعام) (أول الشعوب) وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج وبقوا في أماكنهم إلى أيام (شاؤول) ومن جرهم تزوج (إسماعيل بن إبراهيم) على رواية الإخباريين ، وبلغتهم تكلم ،وكانت (هاجر) قد جاءت به إلى مكة ، فلما شب وكبر تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها ، وهم من (اليمن) في الأصل وكانت لغتهم هي اللغة العربية[1] ، تزوج امرأة أولى قالوا: إن اسمها : (حرا) وهي (بنت سعد بن عوف بن هانئ بن نابت بن جرهم) ، ثم طلقها بناء على وصية أبيه إبراهيم له ، فتزوج امرأة أخرى هي السيدة بنت الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم ، والأمر على البيت لجرهم إلى أن تغلبت عليهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر وهم خزاعة وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانتزعت منها الملك ، وزحزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحي ـ وهو منها ـ ملكا عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن[2]

وهناك إشارات طويلة إلى أن الإسكندر المقدونى قد دخل مكة وطاف حول البيت، كما أن هذه الروايات تذكر أن موسى قد أرسل جيشا حارب العمالقة ، وطاف حول البيت ، وكل هذه الروايات لا تعتمد على أساس قوي يمكن الركون إليه ، وخاصة وأن الإسكندر المقدوني لم يأت الحجاز ، واحتلاله للخليج العربي جاء بعد دخوله بلاد فارس، وإرسال قوة للسيطرة على الخليج لحماية ظهره كما تذكر

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ١٣ . الطبري : تاريخ ١/ ٢٥١ فما بعدها ، وابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٦ وما بعدها .

(٢) جواد علي : تاريخ ٤/ ١٤ ، ١٥

الروايات التاريخية ، وسيدنا موسى عليه السلام قد يكون جاء بمفرده إلى مكة أثناء التيه ، وطاف حول الكعبة التي بناها جده إبراهيم وأخو جده إسماعيل [١]

والذي يهمنا بعد أن وقفنا على أخبار مكة وشيء عن جوانبها ومناخها ، وأول من سكنها من الشعوب هو الوصول إلى الإفضاء بشيء من الحديث عن قريش وتنظيمات قصي بن كلاب فيها أما قريش فهي قبيلة عظيمة اختلف في تسميتها ونسبتها ، فقالوا قريش من القرش وهو الكسب والجمع ، وقالوا التقريش التفتيش ، فكان يقرش أي : فهر بن مالك . فيسرها بفضله ممن كان محتاجا أغناه ، ومن كان عاريا كساه ، ومن كان طريدا آواه ، ومن كان خائفا حماه ، ومن كان ضالا هداه [٢]

قارش: قرشه يقرشه و يقرشه : قطعه وجمعه من هاهنا وهاهنا، وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم ، أو لأنهم كانوا يتقرشون البيعات فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في قومه يوما فقالوا : تقرش ، أو لأنه جاء إلى قومه فقالو: كأنه جمل قريش أي شديد . أو لأن قصيا كان يقال له : القرشى ، أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خللها أو سميت بمصغر القرش وهو: دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها ، أو سميت (بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر) ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش ، وخرجت عير قريش . والنسبة : قرشي وقريشي [٣]

وقريش : قبيلة سيدنا محمد ﷺ ، أبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه، سموا بقريش مشتق من الدابة التي ذكرناها التي تخافها جميع الدواب ، وفي حديث ابن عباس في ذكر قريش قال:«هي دابه تسكن البحر تأكل دوابه» .

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ١٤ ، ١٥

(٢) مختار الصحاح (٥٢٨) ، المعجم الوسيط (٢/ ٧٢٦) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط (٣/ ٥٩٠) ، معجم قبائل العرب ٣/ ٩٤٧ ، لسان العرب ٣/ ٥٧ ، دار اللسان .

قال الشاعر :

وقُـرَيْشٌ هـي التـي تـسكنُ البحـر بهـا سُـمّيَت قُـرَيْشٌ قُرَيْشا

وقيل: سميت بذلك لتقرشها أي تجمعها إلى مكة من حواليها بعد تفرقها في البلاد حين غلب عليها قصي بن كلاب وبها سمي قصي مجمعا، وقيل: سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم فلان يتقرش المال أي : يجمعه .

وقال سيبويه : ومما غلب على الحي قريش ، قال : وإن جعلت قُرُيْشًا اسم قبيلة فعربي، قال عدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غَلَبَ المَساميحَ الوليدُ سماحةً وكفى قريش المعضلات وسادها

وإذا نشرت له الثناء وجدته ورث المكارم طرفها وتلادها[1]

وتنقسم قريش إلى قسمين عظيمين : قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، فقريش البطاح الذين ينزلون الشعب بين أخشبى مكة ، وقريش الظواهر ، الذين ينزلون خارج الشعب ، أما قريش البطاح فهي قبائل كعب بن لؤي وهم بنو عبد مناف بنو عبد العزي،بنو عبد الدار،بنو زهرة،بنو تيم،وبنو مخزوم،وبنو جمح ، بنو سالم بني عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو عدي بن كعب ، وأما قريش الظواهر فهي: قبائل بني عامر بن لؤي بن يخلد بن النضر وهم الحارث ومالك ، وقد درجا ومحارب والحارث بن الفهر ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر، وقيس بن فهر وقد درج .

ويرجع الفضل لجمع قريش وجعلها قبيلة عزيزة الجانب عظيمة الشأن إلى ذلك الرجل العظيم قصي بن كلاب ، فقد جمع قريش من متفرقات مواضعهم من شبه جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت وتسليم لقصي، فكان بينهم قتال كثير ودماء غزيرة ثم تداعوا إلى التحكيم

(١) لسان العرب ٣/ ٥٨ ، مكة : أبو الفضل (٤٥) وما بعدها .

فحكم بأن قصيا أولى بالبيت من خزاعة ، فولى البيت وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتمالك على قومه وأهل مكة[(١)]

ونظرًا لتحضر كنانة وقريش في مكة ، واستئثارها بمكان الحج كان لهما التقدم على سائر مضر ، وكانت كنانة قبل قريش ، وكان التقدم في قريش كله لبني لؤى بن غالب بن فهر بن مالك وسيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي[(٢)]

وسبب التسمية في نظر الطبري هو : قريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد ابن النضر بن كنانة، وبه سميت قريش قريشا ؛ لأن عير بني النضر كانت إذا قدمت قالت العرب   قد جاءت عير قريش ، وقريش هذا دليل بني النضر في أسفارهم ، أو أن بني النضر بن كنانة قد سموا بقريش بداية تكون في البحر تأكل الدواب تدعى القرش فشُبه بنو النضر بن كنانة بها؛ لأنها أعظم دواب البحر قوة[(٣)]

وإذا أردنا فصلا في هذه الأقوال الكثيرة التي تتحدث عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم لوجدنا أننا نستطيع أن نوافق الأستاذ سعيد الأفغانى حين ذهب إلى القول : يستبعد الذهن أن تكون دابة البحر هي التي أوحت بهذا الاسم ، ولو روى هذا القول عن ابن عباس؛ لبعد العرب حول مكة عن البحر وجهلهم حيوانه ، ففي هذا الشرح تكلف ظاهر ،والذي لا يجد المرء غيره مذهبا يرتضيه هو أن تكون قريش من (القرش) بمعنى الجمع، كما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال ، إذا كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة .

ذكر ابن هشام : إن التقرش ، التجارة والاكتساب ، وإن القروش أيضا التجارة والاكتساب وأتى على ذلك بشواهد من كلام العرب[(٤)]

ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس الميلادي حتى يظهر بها قصي بن كلاب ومعه قبيلة قريش فيتولى عليها ويخرج خزاعة .

---

(١) معجم قبائل العرب : كحالة ٣/ ٩٤٨ ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام : أبو الفضل ٤٥ وما بعدها .

(٢) العرب قبل الإسلام : زيدان (٣٢٩) .

(٣) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٦٣ـ٢٦٥

(٤) تاريخ العرب القديم : عاقل ٢٣٢ ، ٢٣٣

ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم ، وقد دعم مكانتها غزو الأحباش لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرستقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم، وحاول أبرهة والى الحبشة أن يستولى عليها سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م[1] فباءت حملته بالفشل الذريع فزاد ذلك في تقديس العرب لها وإعظامها ، وعدها رمزا لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم إذ لم تدن لأي ملك أجنبي . وفي ذلك يقول حرب بن أمية :

أَبَــا مَطَــرٍ هَلُــمَّ إلى صَــلَاحٍ   فَتَــكْفِيكَ النَــدَّامِيُ مِــن قُــرَيَشٍ
فَتَــأمَنَ وسْــطَهمُ وَتعــيشَ فِــيهم   أَبــا مَطَــرٍ هُــدِيَت لِــخَيْرِ عَــيْشٍ
وتَنْــزِلَ بَلْــدةً عَــزَّتْ قَدِيمًــا   وتَــأْمَن أَن يَــزُورَّك رَبُّ جَــيْشٍ

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلا ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها ، وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بصري في الشام وإلى غزة ومصر ، وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب ، وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة . يقول ابن الفقيه : إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعز العرب يتأمرون عليهم قابطة ، وكانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم،وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة يدل على ذلك الصحابيان صهيب الرومي وسلمان الفارسي .

---

(١) بالأصل (٦٧٠ ،٦٧١) وهو خطأ ؛ إذ الثابت أن الرسول ولد فى عام الفيل الموافق ٢٤/ ٤/ ٥٧١ م .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب،فهي بيت تجارتهم،وبيت كعبتهم المقدسة، وفيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ، ومجبة وذي المجاز ، ولم تكن أسواقا تجارية فحسب ، بل كانت أسواقا أدبية أيضا ، تعرض فيها قصائد الشعر فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم الحكام(١)

وكان الكثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى وكانوا يقصدونهم بالمديح طلبا للعطاء والنوال ، ومديح أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان مشهور، وبهذا كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية ؛ إذ كانت مثابة للعرب وأمنا ، وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة وهم هاشم وأمية ومخزوم ، وتيم وعدي ، وجمح ، وسهم وأسد ، ونوفل، وزهرة، وكانوا أصحاب النفوذ فيها، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هندا بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها .

وكانوا يقيمون على حرف ومهن كثيرة ، ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة بحكم ثرواتهم واتصالهم بالفرس والروم ، ويقال:إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة ، ونجد في سورة الزخرف: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّخرُف] استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة .

ويقال أيضا أن عبد المطلب جد الرسول ﷺ دفن في حليتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب ، ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة والنجاشيين والأكاسرة . كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يمرون بها في طرقهم التجارية(٢)

---

(١) تاريخ الأدب العربي : شوقي ضيف ٤٩ ، ٥٠

(٢) تاريخ الأدب العربي : ضيف ٥١ ـ٥٢

قال ابن هشام: النضر هو قرشي ، ومن لم يكن كم ولده فليس من قريش ويقال : فهر بن مالك هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ ابن عمرو بن عبد البر،والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد، وروى من حديث كليب بن وائل: قلت لربيبة النبي ﷺ ، يعني زينب بنت أبي سلمة في حديث ذكره أخبرني عن النبي أكان من مضر ...؟ قالت: فممن كان إلا من مضر من بني النضر بن كنانة(١)

وقال الطبراني حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، عن الجفشيش الكندي قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أنت منا وادعوه فقال: لا نحن بنو النضر بن كنانة لانقفو أمنا ولا نتفي من أبينا(٢)

ارتبط التطور الحضري والسياسي في مكة بظهور قصي بن كلاب ، وإليه ينسب المؤرخون كل التنظيمات التي تجاوزت الحياة القبلية ، ومهما كان من أمر فإن الحياة بقيت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقبلية العربية بكافة أبعادها ، عدا الارتحال الذي تغير إلى رحلتي الشتاء والصيف والعيش في الخيام انقلب للعيش في بيوت وشعاب ودور عرفت مكة، وتعتبر خطوات قصي بن كلاب التي شملت دقائق الحياة في مكة والتزمت به قريش أن يفرض هذا التنظيم في وقت كان قادرا بقوته الحربية أن يقنع من اقام في مكة من خزاعة أومن قريش الظواهر بمثل هذة اللإصلاحات ولقد عد كثير من المؤرخين الغربيين تنظيمات قصي بن كلاب بأنها أول جمهورية أقيمت في الجزيرة العربية، واعتبرها الكثيرون خطوة رائدة في مضمار الديمقراطية والحياة الاجتماعية.

ولكن هذا جميعه ينبغي ألا يجعلنا نبالغ مبالغة (لامانس) فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كانت مجتمعا قبليا ، فهو لايعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف لغرض

---

(١) البخارى٢/ ١٣٢

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ١/ ٨٤ .

سدانة الكعبة من جهة ، والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى ، ولاسلطان لعشيرة عن عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ، ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هنالك أن اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحريه ، ولكنه تخفيف لايخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف بالقبائل الجاهلية ، ووجود ملأ فيها ، أو مجلس شيوخ لاينقص هذه الحقيقة ، إذا لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شؤونها حسب قوانين العرف والعادة .

ولكنه لم يقض على حرية الفرد، فقد كان الفرد متمتعا بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة ، أو حقوق القبيلة ، وهذا هو النظام الذي كان سائدًا في مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته ، وللجماعة عليه حقوق لاتتناقض مع الحرية[١]

وإذا كان عمرو بن لحى أول من تداول المؤرخون اسمه في تاريخ مكة بعد إسماعيل وأبنائه من عدنان ومضر باعتباره قد حرف التوحيد الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فإن قصي بن كلاب يطغى بذكره على من سبقه من أجداده عدا إسماعيل عليه السلام الذي شيد البيت الحرام مع أبيه إبراهيم .

وتاريخ مكة الحقيقي يبدأ من أيام قصي بن كلاب بن مرة القرشي الذي تولى أمر مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ، أما قبل ذلك فليس لدينا ما نعتمد عليه في إثباته أو نفيه غير روايات الإخباريين وهم إسلاميون أو مخضرمون ، والمدة بينهم وبين هذه العهود ، بخلاف الأمر في حالة قصي وقبيلة قريش التي إستقرت في مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادي وأدبي وديني ممتاز ، وأصبحت في عهدها تتمتع بتوجيه عربى عام في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع حتى ظهور الإسلام ، وبين قصي وظهور الإسلام مدة لاتزيد عن مائة وخمسين عاما، وهي مدة كانت حال قريش فيها متصلة بمكة[٢]

---

(١) تاريخ الأدب العربي : ضيف (٥٢) .

(٢) مكة : أبو الفضل ٤٤ ، السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ١٣٠

وقصي اسمه : زيد، وإنما قيل له : قصي، لأن أباه كلاب بن مرة كان قد تزوج (أم قصي) فاطمة بنت سعد بن سيل ـ واسم سيل خير بن ماله بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة بن يشكر من (أزد شنوءة) حلفاء بني الديل، فولدت لكلاب زهرة وزيدا فهلك كلاب وزيد صغير وقد شب زهرة وكبر ، فقدم ربيعة ابن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد أحد قضاعة فتزوج فاطمة أم زهرة وقصي ـ وزهرة رجل قد بلغ ، وقصي فطيم أو قريب من ذلك ، فاحتملها إلى بلاده من أرض بني عذرة من أشراف الشام ، فاحتملت معها قصيا لصغره ، وتخلف زهرة في قومه ، فولدت فاطمة بنت سعيد بن سيل لربيعة بن حرام رازح بن ربيعة فكان أخاه لأمه ، وكان لربيعة بن حرام ثلاثة نفر من امرأة أخرى .

وشب زيد في حجر ربيعة بن حرام فسمى زيد (قصيا) لبعد داره عن دار قومه . ولم يبرح زهرة مكة[١] ، وعلم قصي بنسبه من أحد قضاعة الذين عيروه بأنه في غير أهله فقرر العودة إلى مكة إلى أهله ونسبه ، وفعلا عاد إلى مكة حاجا ، فلما فرغ من الحج أقام في مكة ، وكان رجلا جليدا نسيبا فخطب إلى حليل بن حبشية الخزاعي ابنته (حبي) فرغب فيه حليل فزوجه ، فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا[٢]، فأما خزاعة فزعم أن حليلا أوصى إلى قصي بولا ية البيت لما رأي من كثرة نسله من ابنته وقال :أنت أحق بذلك منى[٣] وحليل فيما يزعمون يومئذ يلي الكعبة وأمر مكة .

فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشا فرعة إسماعيل بن إبراهيم ، وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة فأجابوه[٤] ، قال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٥ ، البدايه والنهاية : ابن كثير ٢/ ٢٠٥ فما بعدها .
(٢) السيرة النبوية :ابن هشام ١/ ١٢٣ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٥
(٣) البداية والنهاية : ابن كثير ٢/ ٢٠٥ ، والطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٥
(٤) السيرة النبوية :ابن هشام (١/ ١٢٤) .

إلا منهم ، وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استعان بإخوته من أمه،وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وإخوته ، وبني كنانة وقضاعة ومن حول مكة وغيرهم فأجلاهم عن البيت ، واستقل هو بولاية البيت،لأن إجازة الحجيج إلى (صوفة) وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، فكان الناس لايرمون الحجارة : «الجمار» حتى يرموا ولا ينفرون من منى حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا [١]

وقال هشام في خبره قدم قصي على أخيه زهرة وقومه فلم يلبث أن ساد، وكانت خزاعة بمكة أكثر من بني النضر ، فاستنجد قصي أخاه رزاحا وله ثلاثة إخوة من أبيه من امرأه أخرى، فأقبل بهم وبمن أجابه من أحياء قضاعة ، ومع قصي قومه بنو النضر فنفوا خزاعة ، وتزوج قصي (حبي) بنت حليل بن حبشية من خزاعة فولدت له أولاده الأربعة، وكان (حليل) آخر من ولى البيت. فلما ثقل ، جعل ولاية البيت إلى ابنته (حبي) فقالت : قد علمت أني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، قال فإني أجعل الفتح والإغلاق إلى رجل يقوم به ، فجعلته إلى أبي غبشان وهو سليم بن عمرو ابن بوي بن ملكان بن أقصي ـ فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود ، فلما رأت ذلك خزاعة كثروا على قصي فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة فبلغنا ـ والله أعلم ـ أن خزاعة أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم ، فلما رأت ذلك جلت عن مكة ، فمنهم من وهب مسكنه ، ومنهم من باع ، ومنهم من أسكن ، فولى قصي البيت وأمر مكة ، والحكم بها وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم في الشعاب ورؤوس جبال مكة ، فقسم منازلهم بينهم ، فسمي مجمعا ، وله يقول مطرود ، وقيل : قائله حذافة بن غانم :

أَبـوكُمْ قُـصَيٌّ كـان يُـدْعَى مُـجَمِّعًا ... بـِهِ جَـمَعَ اللهُ القَبَائِـلَ مِـن فِهْـرِ [٢]

---

(١) البدايه والنهاية ٢/ ٢٠٦

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ١٢٤ ،الطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٦

وقد وصف المؤرخون الحروب التي قامت بين قصي وخزاعة بشيء من التفصيل والتحكيم الذي كان لصالح قصي على خزاعة وبكر[١]، ويجمع المؤرخون على أن قصيا هذا من ولد إسماعيل عليه السلام فهو قصي[٢] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد...، وإن كانو يختلفون في أسماء العشرة حتى إسماعيل ، ولعل أرجح سلسلة الأنساب التي تقول : أن عدنان هو بن أدد بن زند بن يرى بن أعراق الثرى ، فأما يرى فهو نبت أو (بنايوت) ، وأما أعراق الثرى فهو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وإلى هذا يشير الحديث الشريف :«اختار الله من ولد إسماعيل كنانه ، واختار قريشا من كنانة ، واختار بني هاشم من قريش واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار»[٣]

قال ابن إسحاق : فولى قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة، فملكوه إلا أنه أقر للعرب ما كانوا عليه وذلك كان يراه دينا في نفسه لاينبغي تغييره ، فأقر آل صفوان ، وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله، فكان قصي أول بني كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه[٤]

ومع قريش التي عاشت وأقامت في مكة ، وبنت البيوت وتملكت الشعاب قوة أخرى كبيرة كانت تعيش عيشة البداوة خارج مكة وهم الأحابيش.ذكر أهل الأخبار أنهم حلفاء قريش وهم بنو المصطلق والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهون ابن

---

(١) البدايه والنهاية :ابن كثير٢/ ٢٠٦ وما بعدها ، والسيرة الحلبية : على الحلبي ١/ ٨ .

(٢) تذهب المراجع العربية إلى أن قصيا إنما كان على أيام المنذر بن نعمان ملك الحيرة (٤١٨-٤٦٢م) وبهران ملك الفرس (٤٢٠-٤٣٨) ، ويرى (وليم موير) فى كتابة : (محمد) إنه ولد حوالي عام ٤٠٠م وولده عبد مناف حوالى ٤٢٠ وولد هاشم حوالي ٤٦٤ ثم ولد عبد المطلب والد محمد حوالي ٥٤٥م . (دراسات فى تاريخ العرب : مهران ، حاشية ص ٤٠٠) .

(٣) البدايه والنهاية :ابن كثير(٢/ ٢٠٠) فما بعد .

(٤) دراسات في تاريخ العرب ـ مهران (٤٠٠-٤٠١) ، السيرة الحلبية ـ على الحلبي (١/ ٨) .

خزيمة ، اجتمعوا بذنب حبشي ـ وهو جبل بأسفل مكة ـ فتحالفوا بالله : إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار ،وما أرى حبشى مكانه ، وقيل إنها سموا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش باللغة، هو التجمع في كلام العرب(١)

وقد بحث (لامانس) في موضوع الأحابيش فرأي أنهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من أفريقيا من عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها ، وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من.أيده ، ومنهم من توسط برأيه، ومنهم من أيد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها ، وعندى رأي آخر قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناة) من كنانة ومن أيدها من (بني المصطلق) ، وبني الهون بالأحابيش ، هو أن تكون هذه التسمية التي قد وردت إليهم من أجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الإسلام بزمن طويل ، وهو أن الساحل الذي ذكره (بطليموس) باسم CINAEDO COLPIAE إنما هو ساحل تهامه وهو منازل (كنانة) ، وقد بقى الحبش به وقتا طويلا ، واختلطوا بسكانه ، فيجوز أن يكون لفظة (الأحابيش) قد لحقت بعض كنانه من خضوعهم للحبش حتى صارت اللفظة لقبًا لهم ، أوعلما لكنانة ومن حالفها.ويجوز أن تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتميزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم إليهم ممن سكن خارج تهامة أو لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات حتى ظهرت السمرة على سحنهم(٢)

وقد وقف الأ حابيش مع قريش في حروبها للمسلمين حتى فتح مكة ، وكان الأحابيش يدارون من قبل زعمائهم الذين وردت اسماؤهم في التاريخ الإسلامي ، وكان لهم رأي منفصل تماما عن آراء الآخرين(٣)

حكومة قصي بن كلاب وإصلاحاته :

---

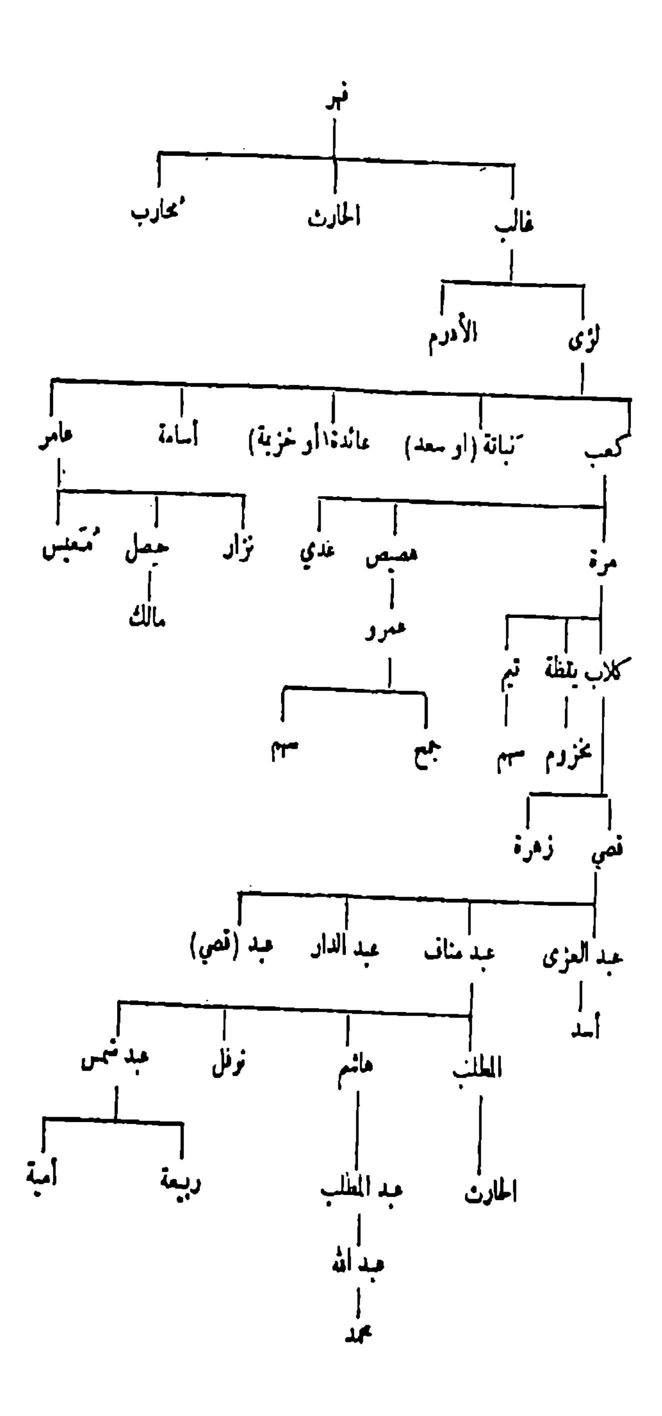
(١) جواد على : تاريخ ٤/ ٣٠

(٢) جواد على : تاريخ ٤/ ٣٣، وتاريخ العرب القديم : عاقل ٢٤٦-٢٥٢

(٣) الطبري:تاريخ ٢/ ٢٥٩، ابن هشام:السيرة النبوية ١/ ١٣١،السيرة النبوية: ابن كثير ١/ ٩٦، ومكة: أبو الفضل ٤٩، ودراسات فى تاريخ العرب: مهران ، ٤٠١،أصالة الحضارة العربية: معروف ١٠٩

انفردت مكة بين سائر العرب بنظام خاص بها لم يسر عليها أحد من العرب أو يأخذ به ، ومع غلبة الحياة القبلية التي كانت واضحة في تاريخ مكة إلاأن تنظيمات قصي أعطت لمكة نموذجا ، وحياة خاصة شجعت الكثير من المؤرخين الغربيين على إضفاء بعض الصفات المعروفة في أنظمة الحكم قديما أو حديثا عليها ، كما أن بعضًا من المؤرخين العرب قد انجرف وراء هذه التسميات التي استهوته لوجود بعض التشابه بين ما أحدثه قصي وسارت عليه قريش ، و بين بعض الأنظمة أو الحكومات المعروفة في القديم والحديث .

ولا يعنينا في هذا المقام مناقشة هذه الآراء وتثبيت بعضها ونقض البعض ، ولكن يعنينا الوقوف على تفصيلات هذه الحياة لما كان لها من تأثير واضح في حياة العرب قبل الإسلام الذين أقروها وخضعوا لها في مكة،ولكن لم يأخذوا مدرهم وحضرهم بها ـ لعل كل التنظيمات كانت مرتبطة بالحج وبوفود العرب إلى مكة حاجين ومتاجرين ومعتمرين وعابري سبيل ، وهذا هو الذي جعل مكة تنفرد بين العرب بهذه الحال الذي سيرد تفصيله .


فهر
غالب
الحارث
مُحارب
لؤي
الأدرم
كعب
نباتة (او سعد)
عائذة (أو خزيمة)
أسامة
عامر
مرة
هصيص
عدي
نزار
حِسل
مُتعيس
مالك
عمرو
كلاب
يقظة
تيم
جمح
سهم
مخزوم
سهم
قصي
زهرة
عبد العزى
عبد مناف
عبد الدار
عبد (قصي)
أسد
المطلب
هاشم
نوفل
عبد شمس
الحارث
عبد المطلب
ربيعة
أمية
عبد الله
محمد

ويذكر الإخباريون أن قصيا بعد أن تمت له الغلبة جمع قومه من الشعاب والجبال والأودية إلى مكة، فسمي لذلك مجمعا ، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم ، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤى أصاب ملكا ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أربعا بين قومه فبنوا المساكن وأن قريشًا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده ، فأعانوه ، وأنها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمرا ولا تفعل فعلا إلا في داره . وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره يشق عليها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لايعمل بغيره تيمنا بأمره ومعرفة بفضله وشرفه ، واتخذ قصي دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة وفيها كانت قريش تقضي أمورها .

وقالوا إن قريشا كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة فضله ، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها[(١)]

ودار الندوة هي دار مشورة في أمورالسلم والحرب ومجلس المدينة يديرها (الملأ) ، وهم مثل أعضاء مجلس شيوخ أثينا ، وقد ذكر أن دار الندوة لم يكن يدخلها إلا ابن أربعين أو مازاد وقد دخلها أبو جهل ابن ثلاثين لجودة رأيه ودخلها غيره للسبب نفسه ـ ويظهر من دخولها الإسهام بإبداء الرأي ـ ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال أخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لمن يسمح له بالاجتماعات وإبداء الرأي .

فدار الندوة هي إذن دار (ملأ) مكة وهم ساداتها ووجوهها وأشرافها وأولو الأمر فيها ، ولم تكن برلمانًا أو مجلس شيوخ على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي، وإنما كانت دار (أولى الشورى) و (الرأي) ، لم تكن قراراتها

---

(١) جواد علي تاريخ ٤/ ٤٤ ، الطبقات الكبري ابن سعد ١/ ٧٠ ، السيرة النبوية ابن هشام ١/ ١٣٢

ملزمه ، بل كان يخالفها سيد ذو رأي ومكانة فينفرد برأيه ، ولا يحصل الإجماع إلا باتفاق ، والغالب ألا يحصل هذا الاتفاق . والغالب أن الملأ لا يتخذون رأيًا إلا بعد دراسة وتفكير ومفاوضات يراعى فيها جانب المروءة والحلم والمرونة حتى لا يقع انشقاق قد يعرض الأمن إلى الاهتزاز .

فالحكم في مكة إذن حكم لا مركزي، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة تطاع فيها الأحكام ، وتنفذ الأوامر ، لاوجود لحكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة ، بل لأن الأحكام والأوامر هي أحكام ذوي الوجاهة والسن والشرف [(١)]

ولم يكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المعروف المفهوم من الحكومة ، فلم يكن هناك ملك متوج وله عرش ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكما مشتركا أو بالتناوب ولا حكما مدنيا عاما أو حكما عسكريا، ولم يتحدث أهل الأخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه الأمن ، أو مدير له سجن يزج فيه الخارجين عن الأنظمة والقوانين أو ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات ، وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب كل شعب لعشيرة وأمر كل شعب لرؤسائه هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب .ولقد أشير إلى رؤساء مكة في القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزُّخرُف] يقابل عظماء مكة عظماء الطائف وساداتها ، والطائف كمكة من حيث التنظيم عدا ما يرتبط بمكة من شعائر وحج .

وقد توارث بنو عبد الدار دار الندوة حتى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم) من معاوية فجعلها دار الإمارة في مكة ثم أدخلت الحرم[(٢)] ، ويذكر أن قصيا أول من

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ٤٨ بتصرف .
(٢) ابن سعد : الطبقات (١/ ٧٧) ، الكامل ، ابن الأثير ٢/ ١٤ ، الأحكام السلطانية ١٦٤ ، جواد علي : تاريخ ٤/ ٥٠ .

بني الكعبة بعد بناء تبع وكان سمكها قصيرا فنقضها ورفعها[١] ، وهو أول من أظهر الحجر الأسود وكانت (إياد) قد دفنته في جبال مكة فرأتهم امرأة حين دفنوه ، فلم يزل قصي يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه فأخرجه من الجبل ، واستمر عند جماعة من قريش يتوارثونه حتى بنت قريش الكعبة فوصفوه بركن البيت بإزاء باب الكعبة ـ المركز الشرقي .

ويذكر أن قصيا عندما تمكن من مكة حفر بها بئرا سماها : العجول وهي أول بئر حفرتها قريش، وذكر أهل الأخبار أن جملة ما أحدثة قصي في أيامه وصار سنه لأهل الجاهلية ، أنه أحدث وقود النار بالمزدلفة ، حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، فلم تزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية ، ويظهر أن قريشا حافظت على هذه السنة أمدا في الإسلام ، وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان[٢]

وقد كان من جملة ما فعله قصي الحجابة وهي أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه[٣] ، وقد أوصى قصي بالحجابة لابنه عبد الدار وكان بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب وعبد العزي وعبد . قال قصي لعبد الدار (أما والله) يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك لايدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها[٤]

والسقاية : يعني سقاية زمزم وكانوا يصنعون بها شرابا في الموسم للحاج الذي يوافي مكة ، ويخرجونه تارة بالعسل وتارة بلبن وتارة بنبيذ يتطوعون بذلك من عند أنفسهم .

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري (٥٥) ، جواد علي : تاريخ (٤/ ٥٤) .

(٢) الطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ٢/ ١١ ، ابن كثير : تاريخ ٤/ ٢٠٧ ، الطبقات : ابن سعد ١/ ٧٢.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣١.

(٤) الكامل : ابن الأثير ٢/ ٩ ، جواد علي : تاريخ ٤/ ٥٩ .

والرفادة :طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم، ويقولون: هم أضياف الله تعالى[١] وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي ابن كلاب ، فيصنع فيه طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به :يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرم ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه إليه فيصنعه طعاما للناس أيام مني ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، فجرى في الإسلام إلى يومك هذا ـ زمن المؤلف ـ فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج[٢]

ومما أحدثه قصي : اللواء ، وهو أن يعقد في بيته أثناء الحرب ، واللواء هو الراية التي تعقد فيجتمع إليها المحاربون ، ويسلمها قصي لمن يتولى القيادة العامة وهي قيادة الجيش عند الحرب ، وقد يتولاها بنفسه أو ينيب عنه من يتولاها ، وهاتان الوظيفتان كانتا موجودتين في تنظيم القبيلة العربية ، فشيخ القبيلة هو الذي يعلن الحرب على القبائل الأخرى ، ويدعو المحاربين إلى الاجتماع كما أنه يقود القبيلة في حروبها أو ينوب عنه من يقودها ، وكل ما استحدثته قريش في هذه الناحية وكلت أمر هذة الوظائف إلى عشائر معينه تتوارثها ، وذلك لأنه لم يصبح لقريشبعد موت قصي زعيم عام ترجع إليه القبيلة ، وإنما أصبح يحكمها الملاء وهم رؤساء العشائر الذين اعتبروا أنفسهم متساوين من حيث المبدأ واقتسموا المناصب بينهم[٣]

واللواء : من الوظائف التي دفعها قصي أيضا لابنه عبد الدار في جملة ما دفع له من وظائف، وقال له : لايعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيديك .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣١

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣٧ . جواد على : تاريخ ٤/ ٥٩ ، الكامل : ابن الأثير (٢/ ١٤) ، ابن كثير ـ البداية والنهاية (٢/ ٢٠٩) ، مكة : أبو الفضل ٥١ ، الطبري : تاريخ ٢/ ٢٥٩

(٣) مكة : أبو الفضل ٥٩

قال الحسن فجعل إليه ـ إلى عبد الدار ـ قصي كل ما كان بيده من أمر قومه وكان قصي لايخالف ولايرد عليه شيئًا صنعه[١]

هذه هي المناصب الرئيسية السدانة ، الحجابة، الرفادة ، السقاية ، اللواء ، القيادة ، ودار الندوة التي برزت في عهد قصي ، والتي اقتسمها بعد ذلك أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف بن قصي ، ولكن تتطلع البطون القرشية إلى التقدم والمشاركة في شؤون مكة ، وحرص الملأ على وحدة القبيلة وإرضاء العشائر أدى إلى أن يستخدموا عشر وظائف أخرى هي :

١ـ **العمارة** : وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام ، فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات .

٢ـ **الحجابة** : وهو قفل البيت الحرام وفتحه للزائرين .

٣ـ **المشورة** : وهي أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبه .

٤ـ **الأشناق** : وهو جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها .

٥ـ **القبة** : وهي خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش عند بدء الحرب وعند الانتهاء .

٦ـ **الأعنة** : وهي قيادة الخيل وبالأحرى قيادة الفرسان في الحروب .

٧ ـ **السفارة** : وهي الاتصال بالقبائل الأخرى في المناظرات والمفوضات وعقد الأحلاف .

٨ـ **الأيسار** : وهي الأزلام يضرب بها عند هبل كبير الأصنام في جوف الكعبة .

٩ـ **الحكومة** : وهي الفصل في المناظرات والخصومات .

١٠ـ **الأموال المحجرة** : وهي الأموال المسماة للآلهة[٢]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ١٣٦ ، ١٣٧

(٢) مكة ـ أبو الفضل ص ٥٩ ـ ٦٠

وهناك وظائف أخرى لا تعيرها المصادر اهتماما كبيرا رغم أنها أيضا من مصادر السيادة في مكة، وتتعلق بالبيت الحرام ،وتنظيم العبادة فيه ومنها هاتان الوظيفتان :

١- النسيء وهي وظيفة تتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يحرم فيها الحرب والقتال ويسود السلم والأمن ، لما لهذه الأشهر من أهمية في انتقال القبائل من أماكن سكنها إلى مكة لأداء مناسك الحج والأشهر الحرم عند قريش هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وصفر ، كان شهر المحرم هو شهر الحج وشهر صفر هو شهر العمرة[(١)]

ومعروف أن العرب كانت تستخدم التقويم القمري ، وتختلف الشهور في هذا التقويم عن التقويم الشمسي مما يخل بحلول الأشهر في مواعيد فصلية معينة، وبالتالى مما يخل برحلتي الشتاء والصيف التجاريتين المعروفتين .

٢- الإجازة الأجاوة لغة هي الإفاضة ، وكمنصب من المناصب التي تتعلق بشؤون الكعبة والحج إليها ، فهي مرتبطة بأم (الغوث بن مر بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر الذي كان يلي أمر الإجازة للناس بالحج من عرفة ، وقد تولى هذا المنصب أولاده من بعدة[(٢)]

---

(١) لقد ابتعد المؤلف عن الصواب مرتين ، مرة عندما قال: بأن صفر من الأشهر الحرم بدلا من رجب، وقال عنه بأنه شهر العمرة ، ومرة ثانية أكبر من أختها باعتباره محرم شهر الحج ومعروف أن شهر الحج هو ذو الحجة وليس محرما ، وجعل الحج فى ذى الحجة وحرم مع ما قبلة وما بعدة ليتمكن الناس من الوصول من ديارهم والعودة إليها .
قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبى بكرة: أن النبي ﷺ خطب فى حجة الوداع فقال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنه اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ....إلخ الحديث .
(فى ظلال القرآن الكريم : سيد قطب ٣/ ١٦٥٠ ، ابن كثير : تفسير ٢/ ٣٦٧ ، مجمع البيان : الطبرسي ٥/ ٢٧ ، وصفوة البيان ص:٢٥٥ ، ولعل المؤلف قد وقع فى الخطأ من جراء النسيء الذى يتحدث عنه، وهو تحريم شهر كأن يحرم صفر بدلا من محرم وذلك لغايه معروفة فى نفوس طواغيت العرب بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:٣٧]

(٢) تاريخ العرب القديم : عاقل ص :٢٤٢ وما بعدها .

بعض هذه الأعمال قد ظهرت بعد وفاة قصي ، وقد دعت الحاجة إليها،وبعد ظهور عدد كبير من رؤساء العشائر أرادوا أن يكون لهم شرف في قريش .

وقد ذكر أن قصيا أول من أصاب الملك من قريش من ولد إسماعيل ، وقد ترك قصي أثرا كبيرا في أهل مكة وعدوه المؤسس الحقيقى لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائما بخير ، وكانو لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه ، فلما تطاول الشاعر عبد الله بن الزبعرى على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حده بذكر قصي بسوء في شعر له كتبه كما يقولون في ستار الكعبة غضب بنو عدنان واستعدوا عليه بني سهم،لأنه كان منهم فأسلموه إليهم ، فضربوه ، وحلقوا شعره ، وربطوه في صخرة، فاستغاث قومه فلم يغيثوه، فجعل يمدح قصيا ويسترضيهم فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه فمدحهم بأشعار كثيرة[١]

ويذكر الإخباريون أنه كان لقصي أربعة أولاد ، ورددوا أقوالا زعموا أنه قالها ، فقد ذكروا أنه قال (ولد لي أربعة ، فسميت اثنين بصنمي ، وواحدًا بداري ، وواحدًا بنفسي) وكان يقال لعبدمناف (القمر) واسمه (المغيرة) وكانت أمه (حبي) دفعته إلى مناف،وكان أعظم أصنام مكة تدينا بذلك فغلب عليه عبد مناف . وعبد الله وهو عبد الدار، وعبد العزي و عبد قصي ، وهند بنت قصي تزوجها عبد الله بن عمار الحضرمي .

قال ابن إسحاق : ثم إن قصي بن كلاب هلك[٢]، فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده فاختطوا مكة رباعا ـ بعد الذي قطع لقومه بها ـ فكانوا يقطعونها في قومهم وفي غيرهم وحلفائهم ويبيعونها، فأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بني عبد مناف بن قصي مما كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة والسقاية والرفادة،ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) ودفن بالحجون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه. (جواد على : ٤/ ٥٨)

ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم ، فكان صاحب أمر بني عبد مناف (عبد شمس ابن عبد مناف)،وذلك أنه كان أسن بني عبد مناف ، وكان صاحب أمر بني عبد الدار : (عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار) .

فكانوا بنو أسد بن عبد العزي بن قصي ، وبنو زهره بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ابن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بني عبد مناف، وعرفوا بالمطيبين .

وكان بنو مخزوم بن يقظه بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب مع بني عبد الدار وعرفوا ب (الأحلاف) ، وخرجت بنو عامر بن لؤى وبنو محارب ابن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

وقامت الحرب بين الفريقين ، ولكن الناس تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقايه والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، كما كانت، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم من حالفوا ، فلم يزل على ذلك حتى جاء الله بالإسلام فلم يزده إلا شدة . قال ﷺ : ماكان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة[١]

وقد تواردت بنو عبد الدار اللواء فلا يعقد لقريش لواء الحرب إلا هم ، وهي وظيفة مهمة جدا لما للواء من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام ، ولهذا كانوا يتدافعون في الذود عن اللواء حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تصيب المحاربين تحت ظل ذلك اللواء ولما أسلم بنو عبد الدار قالوا : يا نبي الله، اللواء إلينا ، فقال :«الإسلام أوسع من ذلك» فبطل اللواء[٢]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ١/ ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) جواد علي : تاريخ٤/ ٦٠

وقد زاد كثيرون على اصطلاحات قصي بن كلاب إذ يظهر من وصف الإخباريين لهاشم بن عبد مناف:أنه كان تاجرا ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه حتى زعموا أنه هو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وأنه كان صاحب : (إيلاف قريش) .

قال الشاعر

هُـوَ الّـذِي سَـنَّ الرَّحِيـلَ لَقَوْمِـهِ رِحُـلَ الـشِّتَاءِ وَرِحْلَـةَ الأَصْـيَافِ

وقد فسر الجاحظ الإيلاف: بأنه جعل فرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين ؛ قال : وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : إن هاشما جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم ولا سيما ناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدرا مثل طيئ وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب ، فيفهم من ذلك إذن أن الإيلاف هو نوع من تأليف قلوب سادات القبائل لصدهم عن التحرش بأهل مكة ، ومن التعرض بقوافلهم ، فألفهم هاشم وصاروا له مثل المؤلفة قلوبهم في الإسلام لاسيما وأن بين الإيلاف و(ألف) و (ألف بينهم) و(المؤلفة) صلة ، وإن فيما قال الجاحظ عن هاشم من قوله : (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب وجعل بينهم ربحا) [(١)]

وقيل إن اسم هاشم عمرو ، وكنيته أبوفضلة، وإنما قيل له هاشم؛لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه[(٢)]

وذلك أن قريشا كانوا تجارا ، ولكن تجارتهم كما يقول أهل الأخبار لم تكن تتجاوز مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبايعونها على من حولهم من العرب ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ،

---

(١) جواد علي : تاريخ ٤/ ٦٨

(٢) الكامل : ابن الأثير ٢/ ٩

فكان يذبح في كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجمل الناس وأغناهم ، فذكر ذلك لقيصر فدعا به فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ، ويحادثه ، فلما رأي نفسه تمكن عنده قال : أيها الملك إن قومى تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب بطريقه عقد معهم عقدا على أن تقدم قريش إليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم وبين قريش ، فكان الإيلاف ، فلما وصل إلى مكة كان هذا (الإيلاف) أعظم ما جاء به هاشم إلى قريش ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم هاشم يجوزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ، فكان ذلك بدء (إيلاف قريش) [(١)]

ومن الأعمال العظيمة الهامة في التنظيمات السياسية لمكة والذي ذكر لها بخير في تاريخها بشهادة رسولنا ﷺ هو حلف الفضول ، وهو من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تاريخ مكة ، وإذا صح ما يذكرونه من أنه عقد بعد الفجار بشهور،وفي السنة التي وقع فيها هذا اليوم (يوم الفجار) ، والذي حضره الرسول ﷺ وهو ابن عشرين سنه فإن هذا الحلف يكون قد عقد حوالى سنة ٥٩٠م[(٢)]

قال ابن هشام : أما حلف الفضول فحدثنى زياد بن عبد الله البكائى عن محمد ابن إسحاق قال : تداعت قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى لشرفة وسنه فكان

---

(١) جواد علي تاريخ ٤/ ٦٦ وما بعدها ، والطبري ، تاريخ ٢/ ٢٥٢ ، السيرة النبوية ،بن هشام ١/ ١٤٣ ، ومجمع البيان : تفسير ١٠/ ٥٤٥ ، وفي ظلال القرآن : سيد قطب ٦/ ٣٩٨٣ ، وابن كثير : تفسير ٤/ ٥٩١ ، وصفوة البيان : تفسير ص ٨٢٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ١/ ١٢٨ ، والسيرة النبوية : ابن كثير ١/ ٢٥٧ ، وجواد على : تاريخ ٤/ ٨٧

حلفهم عنده ، بنو هاشم،و بنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[١]

قال ابن إسحاق فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التميمى:أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ماأحب أن لى به حمر النعم ، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبت[٢]

وذكر أهل الأخبار أن الغاية التي أريد بها منه هي إنصاف المظلومين من أهل مكة من الضعفاء والمساكين،ومن لا يجد له عونا ليحميه ويدافع عن حقوقة ، وإنصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجار ممن يعتدى عليهم فيأخذ أموالهم أخذا ويأكلها ولا يدفعها لأصحابها ، فذكر أن رجلا من زبيد من اليمن ، وكان قد باع سلعته له (العاص بن وائل السهمى) فمطله الثمن حتى يئس ، فعلا جبل قبيس وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعا صوته يشكوا ظلامته ، ويطلب إنصافه مستجيرا بقريش ، فمشت قريش بعضها إلى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب واجتمعت في دار الندوة ، وكان ممن اجتمع بها من (قريش) بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وزهرة ، وتيم ، وبنو الحارث فاتفقوا على أن ينصفوا المظلوم من الظالم ، وهكذا ذهبوا إلى دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا هناك[٣]. ولا يخفي أن حروبا كثيرة قد وقعت بين قريش والقبائل الأخرى

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/ ١٤١ ، وبهامش السيرة ١/ ١٤٠ يذكرون فى سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم أن جرهما فى الزمن الأول قد سبقت قريشا إلى مثل هذا الحلف فتحالف منهم ثلاثة وهم ومن تبعهم أحدهم الفضل بن فضالة و الثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث فلما أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميين سمي حلف الفضول .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٤١ ـ ١٤٢

(٣) جواد علي : تاريخ ٤/ ٨٧ . السيرة الحلبية ـ على الحلبي ١/ ١٥٦

المحيطة بها ، ووقعت حروب بينها وبين بطونها ، وكما كان عند اليثربيين أيام فجار ، كان لدى المكيين أيام فجار؛ إذ إنهم حاربوا في الأشهر الحرم وبعضها حضره الرسول ﷺ وهو يافع ينبل أعمامه[(١)]

وقد خلصت الأعمال الهامه التي أوجدها قصي بن كلاب، أو استحدثت بعده إلى ما بعد ظهور الإسلام وكانت بيد كل من :

١ـ العباس بن عبد المطلب من بطن هاشم وإليه كانت السقاية وبقى له ذلك في الإسلام .

٢ـ أبو سفيان بن حرب ـ من بطن أمية، وعنده العقاب راية قريش فإذا اجتمعوا على أمر سلمها له، وإلا فهو صاحبها وهذه هي وظيفة القيادة .

٣ـ الحارث بن عامر ـ من بطن نوفل : وكانت إليه الرفادة .

٤ – عثمان بن طلحة ـ من بطن عبد الدار : وكانت إليه اللواء والسدانة والحجابة ويقال بأن الندوة أيضا عندهم .

٥ ـ يزيد بن زمعة ـ من بطن أسد : وكانت إليهم المشورة .

٦ ـ أبو بكر الصديق ـ من بطن تيم : وإليه كانت الأشناق في الجاهليه (أي جمع الأموال) .

٧ـ خالد بن الوليد ـ من بني مخزوم : وإليه كانت القبة والأعنة .

٨ ـ عمر بن الخطاب ـ من بطن عدى : وإليه كانت السفارة في الجاهلية .

٩ ـ صفوان بن أمية ـ من بطن جمح : وإليه كانت الأيسار .

١٠ ـ الحارث بن قيس ـ من بطن سهم:وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة .

---

(١) السيرة الحلبية : على الحلبي ١/ ١٥٢ ، وابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١٢٨ . جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٨٥ .

وقد بقيت هذه المناصب حتى فتح مكة حين ألغاها النبي ﷺ جميعا ما عدا السقاية وسدانة البيت وبعض هذه المناصب تفريع لبعض الوظائف السابقة ، وبعضها ليست له قيمة كبيرة ، على أنها جميعا من صميم التنظيم القبلى ، إلا ما كان منها متصلا بالكعبة والبيت الحرام ، ولم تكن هذه المناصب توكل إلى الأفراد ، وإنما كانت توكل إلى البطون ، وكل بطن يرشح لهذه الوظيفة من تكتمل له صفات الرياسة على ما كان يجرى في النظام القبلى ، وإن الفضائل الشخصية هي الأساس في تولى مناصب الرياسة(١)

ولم يشرف مكان في الجاهلية ة والإسلام ما شرفت به مكة ، فمن موقع قاحل جاف غير ذي زرع إلى مهوى أفئدة الناس ، وقد تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

لقد أصبحت مكة محج العرب من أبناء إسماعيل ومن غير أبناء إسماعيل ، ومن شرفها أنها كانت أنها لقاحا لا تدين لدين الملوك ، ولم يؤدى أهلها إتاوة ، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان ، تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضا وشرفا عندهم عظيما ، وكان أهلها آمنين يغزون الناس ولا يغزون . ويسبون ولا يسبون ، ولم تسب قرشية قط فتوطأ قهرا ، ولا يجال عليها السهام . قال أحد الشعراء :

أَبَــوا ديــنَ الملــوكِ فَهُــمْ لِقَــاحُ ... إِذَا هُيِّجُــوا إلى الــحَرْبِ أَجَــابُوا (٢)

كان المكيون يشعرون بمكانة الكعبة عند العرب عامة ، ومن ثم فقد كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتطاول إليها غيرهم من العرب لأنها تتصل بكرامة البيت وحرمته

---

(١) مكة :أبو الفضل ص: ٦٠

(٢) مكة : أبو الفضل ص ٦١

فهم أولياؤه وهم سندنته والقائمون بالأمرفيه يسقون الحجيج ويطعمونهم ، ويوفرون لهم الأمن والراحة ، ولذلك فقد نشأ عندهم ما يسمى بنظام (الحمس) ، ويعنون به ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطنى المقيم والذي ينتمى إلى الكعبة والمقام فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة،وولاة البيت، وقطان مكة وساكنيها ، وبذلك فقد نادوا بالناس نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، وولاة البيت وقاطنوا مكة ، وساكنوها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا .

ـ كان أهلها أصحاب دين توحيد فانحرفوا إلى الوثنية وربطوها بدين إبراهيم ، وعادت إليهم ثانية الحنيفية .

ـ أفنى الطير الأبابيل جيش أبرهة الحبشي على أبوابها فانهزموا شر هزيمة .

ـ بها ظهر الإسلام خاتم الرسالات ، ومن أهلها كان محمد ﷺ ، ومنها خرج الإسلام إلى العالم وإليها تحج ملايين الناس ، وهي مهبط الأفئدة ومحط الآمال .

لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا وقال :«إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى، وإنك أحب أرض إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت»

وقالت عائشة : لولا الهجرة لسكنت مكة ، فإني لم أر السماء أقرب إلى الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبي ما اطمأن بمكة . ولم أر القمر بمكان أجمل منه بمكة .

ويطول الحديث عن مكة وشرفها فهي التي قدسها الله وحماها واختارها مهبطا لوحيه ، ووقف رسول الله ﷺ على جمرة العقبة عام الفتح وقال :«والله إنك لخير أرض الله ، وإنك لأحب أرض الله إلى ولو لم أخرج ما خرجت ، إنها لم تحل لأحد من قبلي ، ولا تحل لأحد كان بعدي ، وما أحلت لي إلا ساعة من نهار ، ثم هي حرام لا يعضد شجرها ، ولا يختش خلاها ولا تلتقط ضالتها إلا لمنشد »، وقيل يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لبيوتنا وقبورنا ، فقال ﷺ :«إلا الإذخر».

وقال ﷺ :« من صبر على حر مكة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام ، وتقربت منه الجنة مائة عام ،ووجد على حجر فيهما كتاب فيه . أنا الله رب بكة الحرام وضعتها

يوم وضئت الشمس والقمر وحفظتها بسبعة أملاك حنفاء . لا تزال أخشابها مباركة لأهلها في الحمأ والماء».

ومن فضائله ـ أي الحرم أنه من دخله كان آمنًا، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثا ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله ، فإذا خرج أقيمت عليه الحدود .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [القصص:٥٩] وقوله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام:٩٢] دليل على فضلها في سائر البلاد[(١)]

(١) مكة ـ أبو الفضل: ٦١ ـ ٦٢

(٢) الملكية عند العرب

الملكية عند العرب : عرف العرب النظام الملكي منذ عهد بعيد جدًا ، فقد تمكن العمالقة من العرب أن يقيموا حكما لهم في مصر امتد حوالي ثلاثمائة سنة (الهكسوس) وعاصر حكمهم إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده ، وقد استفاد يوسف عليه السلام من وجودهم في مصر فأصبح وزيرا أولا لدى الملك - وليس فرعون - الذي استأثر به لنفسه : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف].

وفي ظل حكم الهكسوس دخل بنو إسرائيل مصر وارتقى شأنهم ، ولما تمكن أهل مصر الفراعنة من طرد الهكسوس دخل بنو إسرائيل في العبودية لمعاونتهم العماليق العرب كما هو معروف من سياق تاريخ بني إسرائيل حتى ظهر سيدنا موسى وخلصهم من العبودية .

كما أن العماليق أقاموا حكما لهم بالمدينة وبمكة وبسائر الحجاز ، تمكنت جرهم منهم في ضواحي وشعاب مكة قبل أن يأتي إبراهيم عليه السلام بزوجته وابنه إسماعيل إلى مكة ، وسياق الحديث في هذا المعنى كثير .

لكن أقرب الممالك التي عرفتها العرب هي ممالك الجنوب التي قامت في الشام بعد الميلاد أو عاصرت تلك الأحداث ، ومن المصادفات التي رافقت قيام الممالك العربية قيام الإمبراطوريات الكبيرة ، فممالك اليمن رافقت قيام إمبراطورية الأحباش ، ومملكتا تدمر والبطر رافقتا قيام الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وقبل أن تصبح القسطنطينية مركزًا للإمبراطورية (الرومانية)[1] . في الشرق بوقت

---

(١) زيادة عن الأصل .

طويل ظهرت إلى الوجود دولتان عربيتان إحداهما بالبطرا [(١)]. والأخرى بتدمر [(٢)] نتيجة لانتعاش طرق التجارة التي تمر بالمنطقة ، وكان الموقع الاستراتيجي الذي احتلته (البطرا) سببا في سيطرتها على الطريق المؤدية إلى الحجاز ، وما وراء ذلك إلى بلاد الغرب الجنوبية ، وكذلك عن الطريق المتجهة غربا صوب مصر ، وبقية القارة الإفريقية ، أما تدمر فقد ازدهرت على حدود الإمبراطورية نفسها بموقعها على طريق (دقلد يانوس) الذي كان يصل بين أهم مدن الساحل الفنيقى وبادية الشام وأرض الجزيرة .

ولغة الرقوم التي وصلتنا من البطرا وتدمر هي الآرمية التي تأثرت في تطورها بانتعاش العلاقات التجارية لهاتين الدولتين ، كما كان لها أيضًا كتاباتها الخاصة بها ، أما اللغة العربية كلغة لها وزنها فإنها لم تتطور إلا في أزمنة تالية لذلك .

هذا وقد وضعت روما حدا لحياة (البطرا) عام ١٠٦م كما قضت على تدمر وخربتها عام ٢٧٢م ، وفي العهد الذي أعقب سقوط دولة أذينة والزباء ، وهو أيضًا

---

(١) هي مملكة النبط: مملكة عربية لم يعرف الإخباريون من أمرها شيئًا ، سداها ولحمتها النبط وهم قوم من جبلة العرب ، وإن تبرأ العرب منهم وعيروا بهم ، وأبعدوا أنفسهم عنهم ، وعابوا عليهم لهجتهم حتى جعلوا لغتهم من لغات العجم ، وقالوا إنهم نبط ، فإن في لسان من استعرب منهم رطانة ، وسبب ذلك هو أنهم كانوا قد تثقفوا بثقافة بني إرم ، وكتبوا بكتاباتهم ، وتأثروا بلغتهم ، حتى غلبت الآرية عليهم ولأنهم فضلا عن ذلك خالفوا سواء العرب باشتغالهم بالزراعة والرعي وباحترافهم الحرف والصناعات اليدوية ، وهي حرف يزدريها العربي الصميم ؛ ويعير من يقوم بها ويحترفها (جواد علي : تاريخ ٣ / ٥) .

(٢) ويتصل الحديث عن النبط بالحديث عن مكان آخر له علاقة بهم أيضًا وهو (تدمر) المعروفة Palmyra باسم عند الغربيين الذين ورثوا التسمية من الرومان واليونان ، وهو (تدمر آمور) المذكور فى كتابات (تغلب فلاحر الأول) ١١٧ ـ ١٠٨ ق . م على رأي بعض الباحثين، وقد ورد اسم المدينة وهي تدمر فى عدد من الكتابات . كما ورد اسم علم للأشخاص (جواد علي ٣ / ٧٦).
وقد أشار (بليتوس) (بلينيوس) إلى مدينة Palmyra وهو أول كاتب كلاسيكي عرض لها ، فذكر أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز ، أرضها خصبة ، وبها ينابيع وعيون ، تحيط بحدائقها الرمال، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف ، بعيدة المسافات ، وتقع بين إمبراطوريتين عظيمتين إمبراطورية (رومة) وإمبراطورية (الفرث) parthia ، ولهذا استرعت الأنظار للدولتين وورد اسمها فى كتب الكلاسيكيين الذين عاشوا بعد (أبلينوس) مما يدل على ازدياد شهرة هذه المدينة بعد الميلاد. (جواد علي : تاريخ ٣ / ٧٩ ـ ٨٠) .

عهد مرت فيه إيران بحالة من الضعف الشديد تحت حكم فرهران (بهرام) الثاني ٢٧٥ ـ ٢٩٢ وفرس ٢٩٢ ـ ٣٠١ في ذلك العهد أحست القبائل العربية البدوية ببطش سيد جديد ، برز من بيت اللخميين في الحيرة ، ولم يكن ملوك اللخميين آنذاك قد اعترفوا بالتبعية الفارسية،بل كانوا يجهدون لتوطين أقدامهم على حدود الإمبراطورية الرومانية[(١)]

الدولة المعينية : تعد الدولة المعينية من أقدم الدول العربية التي بلغنا خبرها ، وقد عاشت وازدهرت بين ١٣٠٠ ـ ٦٣٠ ق.م تقريبا على رأي بعض العلماء ، وقد بلغنا أخبارها من الكتابات المعروفة بالمسند والكتب الكلاسيكية ، ، أما المؤلفات العربية الإسلامية فلا علم لها بهذه الدولة ، ولكنها عرفت اسم معين على أنه مخفد من مخافد اليمن وحصن ومدينة ، وذكرت أنه هو وبراقش من أبنية التبابعة[(٢)] وحكومة معين حكومة ملكية يرأسها حاكم يلقب بلقب ملك غير أن هذه الحكومة، وكذلك الحكومات الملكية الأخرى في العربية الجنوبية ، جوزت أن يشترك شخص أو شخصان أو ثلاثة مع الملك في حمل لقب (ملك) إذا كان حامل ذلك اللقب من أقرباء الملك الأدنين كأن يكون ابنه أو شقيقه[(٣)]

انقرضت حكومة معين وحلت محلها حكومة سبأ ، غير أن هذا لا يعنى انقراض شعب معين بانقراض حكومته ، وذهابه من عالم الوجود ، إذ ورد اسم المعينيين في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع عهدها إلى ما بعد سقوط حكومتهم[(٤)] وقد جعل (البرايت) في رأيه في سقوط حكومة معين سنة ١١٥ ق.م وهو مبدأ التقويم السبئي أواخر أيام حكومة معين واندماجها نهائيا في مملكة سبأ ظهرت حكومات صغيرة يمكن أن نشبهها بحكومات المدن وانتهزت فرصة ضعف ملوك معين

---

(١) العرب على حدود بيزنطة وإيران ص: ٣٩

(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٧٣

(٣) جواد علي : تاريخ ٢ / ١٠٨.

(٤) جواد علي : تاريخ ٢ / ١٠٥، ١٠٦

فاشتغلت في شؤونها ، ثم اندمجت بعد ذلك في سبأ ومن هذه الحكومات (هرم) و (نش) و (كمنت) وغيرها[١]

وعاصرت مملكة نعيم مملكة أخرى من ممالك العربية الجنوبية وهي مملكة (حضر موت) وقد ظهرت قبل الميلاد أيضا ، وما زال اسمها حيا يطلق على مساحة واسعة من الأرض ، فلها أن تفخر بهذا على الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد ، ثم ماتت أسماؤها ، أو قل ذكرها قلة واضحة،وقد قطع اسمها مئات الأميال قبل الميلاد ، فبلغ مسامع اليونان والرومان ، وسجله كتابهم في كتبهم لأول مرة في القارة الأوربية[٢]

وقد ورد اسم حضرموت في الكتابات العربية والأجنبية كما عثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت ، وأسماء حضرية ومدن كانت عامرة زاهية تلك الأيام[٣]

وقد أورد فيليبي[٤] قائمة بأسماء ملوك حضرموت بدأها (صدق آل) (صديق إيل) ملك حضرموت ومعين وقد حكم على تقديره حوالى سنة ١٠٢٠ق.م ، ويرى أن حضر موت ألحقت بعد (معديكرب) ثالث حكامها بمملكة معين وقد ظلت تابعة لها إلى حوالى سنة ٦٥٠ ق.م،وكان آخر ملوكها (علهان) (إلهان١٠٥ـ١٢٥) .

ويرى فيليبي أنه منذ سنة ١٢٥م حتى سنة ٢٩٠م كان الوضع غامضا في حضر موت ، فلا تعرف من حكم فيها ، أكان يحكمها مكربيون ، أم كانت تحت حكم مملكة سبأ وذويدان ، فصاروا يعرفون لذلك منذ هذا العهد بملوك سبأ وذويدان وحضر موت[٥]،وعاصرت مملكة معين مملكة عربية أخرى هي حكومة (قتبان) وقد

(١) السابق ذاته .
(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ١٢٩ – ١٣٠
(٣) السابق ذاته .
(٤) حاشية ص٢٠٠ من هذا الكتاب
(٥) جواد علي : تاريخ ٢ / ١٦٧ ١٦٩

وجد اسمها في كتابات عديدة متباينة وغير متباينة وهي التي أمدتنا بأكثر علمنا بحكومة قتبان[١]

ووجد من دراسة الكتابات القتبانية: أن حكامها كانوا يلقبون أنفسهم باللقب الذي تلقب به حكام سبأ وهو لقب (مكرب) (مقرب) في لهجتنا ، وتعبر (كرب قرب) عن التقرب إلى الآلهة وهو كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الآلهة التي يتحدث باسمها[٢] كما ذكر جواد على مملكتا ديدان ولحيان استقلتا عن المعينيين بعد ضعف حكومتهم وانقطعت صلتهما بأمهما في اليمن وحكمهما ملوك منهم نسميهم ملوكا ديدانيين[٣]

ولورود اسم سبأ في القرآن الكريم فضل ، وما كان القرآن الكريم ليشير إلى سبأ لو لم تكن لهم قصة عند الجاهليين[٤] ، وقد اضطر المفسرون إلى التقاط ماكان ورد عنهم من قصص وحكايات .

وسبأ عند الإخباريين اسم جد ولد أولادًا نسلوا من ذرياتهم شعوبا ووالده هو : يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده وإليه نسب نسله السبئيون ، وقد زعموا أن اسمه الحقيقي هو (عبد شمس) ، وأما سبأ فلقب لقب به لأنه؛ أول من سبأ أي وسن سنة السبي من ملوك العرب وأدخل اليمن السبايا ، وذكر بعضهم أنه بني مدينة (سبأ) (وسد مأرب)، وغزا الأقطار ، وبني مدينة (عين شمس) في إقليم مصر وولى عليها ابنه (بابلون) (بابليون) وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل .

وقد ورد على لسان علقمة بن ذى جدك في هذا المعنى :

---

(١) جواد علي : تاريخ ٢ / ١٧١ ، ١٧٩

(٢) السابق ذاته .

(٣) جواد علي : تاريخ ٢ / ٢٤١ ـ ٢٥٧

(٤) سورة سبأ (١٥) وسورة النمل (٢٢) ، صفوة البيان ـ تفسير ٤٨٢ و ٥٣٩ ، وما بعدها

وَمِنَّا الَّذِي لَمْ يُسْبَ قَبْلَ سِبَائِهِ سَبَاءٌ وَمَنْ دَانَ الْمُلُوكَ مِرَارًا [(١)]

ومنه انحدرت قبائل الأزد والمناذرة والغساسنة والأوس والخزرج وغيرهم الكثير كما ورد في بداية هذا الكتاب .

ثم جاء الحديث عن الحميريين ، ووجب علينا الآن البحث عن شعب لعب دورًا خطيرًا في السياسة العربية الجنوبية في هذا الوقت وقبله بمئات السينين ، وهذا الشعب هو (حمير) الذي لا زال قائمًا يلعب دوراً بارزًا مهمًا بين القبائل العربية الجنوبية حتى الآن .

كانت حمير من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية عند الميلاد ، حتى وصل خبرها إلى اليونان والرومان فعرفوها باسم DMYLITAI ، HOMERITAI ونحو ذلك وقد اعتبر (بلينيوس) حمير من أكثر الشعوب العربية الجنوبية عددا ، وذكر أن عاصمتهم مدينة SOPPHAP ويقصد بذلك مدينة ظفار وعرفوا باسم :HEMRL عند الحبش ، وأشار إلى اسم مدينة من مدنهم سماها MASALA مسلة ، وفي كلام هذا الكاتب عنهم إشارة إلى أن مدينة ظفار كانت عاصمة حمير في أيامه ، وأن الحميريين كانوا قد تمكنوا في أيامه من تكوين شخصيتهم، ومن إثبات وجودهم في العربية الجنوبية يومئذ[(٢)]

ويطلق أهل الأخبار لقب (تبع) على الملوك الذين حكموا اليمن وعلى مجموعهم التبابعة ، وهم في حيرة من تفسير المعنى ، وقد ذكر أكثرهم أنهم سموا تبعا وتباعية؛لأنهم تبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابع له على مثل سيرته؛ أو لأن التبع : ملك يتبعه قومه ويسيرون خلفه تبعا له أو لكثرة أتباعه ، أو من التتابع وذلك لتتابع بعضهم بعضا ، فأشير إلى تبع في القرآن الكريم: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:٣٧] ، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [ق:١٤] ، وقد ذكر بعضهم

---

(١) جواد علي : تاريخ ٢ / ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٥١٠

أن هذا اللقب لا يلقب به إلا الملوك الذين يملكون اليمن والشحر وحضر موت ، وقيل : حتى يتبعهم (بنو جشم بني عبد شمر) ، أما إذا لم يكن كذلك فإنما يسمى ملكا ، وأول من لقب منهم بذلك (الحارث بن ذى شمر) وهو الرائش ولم يزل هذا اللقب واقعا على ملوكهم إلى أن زالت مملكتهم بملك الحبشة[1] ولقد مر سابقا خبر تبع الذي حاصر المدينة ، وتركها لعلمه بأنها مهاجر نبي ، وكسا الكعبة وأطعم أهلها، وكما ذكر ابن كثير بأنه هو : (أسعد أبو كريب بن مليكا كرب اليماني) وهو تبع الأوسط وخضعت بعد ذلك اليمن لحكم الأحباش الذين حاولوا بقيادة أبرهة التمدد لاحتلال مكة وتهديم الكعبة:﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾[الفيل][2] كما هو معلوم .

هذه هي بعض ملوك وممالك الجنوب ، وعودة أخرى إلى القوى الكبرى في الشمال نقف على بعض الأخبار عن هذه القوى التي سبقت قيام ممالك المناذرة والغساسنة .

ففي القرن الرابع الميلادي ، خلف لنا المؤرخون اليونان واللاتين معلومات عن أحوال القبائل العربية الشمالية ، كما وجدت معلومات عنهم في عدد كبير من الرقوم وكذلك في أنسابهم التي حفظها لنا العرب المسلمون ، والتي لا تحظى بالكثير من الثقة ، ويحتل مركز الصدارة بين مصادر تاريخ العرب في القرن الرابع أقدم رقيم قبوري عربي ، وذلك هو الشاهد الذي تم العثورعليه بقرية (النمارة) الواقعة إلى الجنوب الغربي من دمشق ، وإلى الشمال الغربي من بصطري ـ بصري في منتصف المسافة بين المدينتين بالتقريب ، ويوجد الآن في متحف اللوفر ، ويتألف هذا الرقيم من خمسة أسطر بالكتابة النبطية منحوتة على لوحة من البازلت مقاسها ١١٦×٣٣ سم ، وقد جرى نشره وترجمته ، والتعليق عليه أكثر من مرة ، وهذا نص ترجمته :

١ ـ هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج .

---

(١) جواد علي : تاريخ ٢ / ٥١٣ ، والبداية والنهاية ـ ابن كثير ٦ / ٣٠ .

(٢) صفوة البيان ص :٨٢٤ ، وغيره من التفاسير .

٢ ـ وأخضع أسدًا ونزارًا وملوكهم وأجبر مذحجًا على الهرب إلى اليوم وتوجه .

٣ ـ إلى نواحي نجران مدينة شمر وأخضع معدا وقسم بنيه .

٤ ـ القبائل وأوكلهن للفرس والروم فلم يبلغ ملك مكانته .

٥ ـ إلى اليوم مات عام ٢٢٣ يوم ٧ كسلول السعد الذي ولده(١)

وتدوين الاسم (امرؤ القيس) هي الصيغة التي ارتضاها (دوسو Roné Dossou) في آخر بحث له يعالج فيه الكلام على هذا الرقيم ، بينما ظهر الاسم في أبحاثه السابقة في صورة (امرؤ القيس) ونضيف من جانبنا أن الاسم يرد في الكتابة اليونانية في صورة : (أَمُرْ القيس) . Amorkes ، وهو ما يؤكد صحة نطقه بالفتح وملك العرب كلهم ، عقد التاج (من المؤكد على مفرقه هو)، وقد لاحظ الباحثون من قبل أن لفظة (تاج الفارسية نالت انتشارا واسعا أما لفظ ملك) في السطرين الثاني والثالث فترد بمعنى (أخضع)،وأما لفظ (بين) فترد بمعنى (قسم) على أولاده (الشعوب) وهذا اللفظ الأخير الذي يعني القبائل وأحيانا الجماعات كثيرا ما نلتقى به : في الرقوم العربية الجنوبية المدونة بخط المسند(٢)

وهو بذلك قد حكم مملكة كبيرة حدودها محددة على الرقيم ، كما أنه حدد سياسته وعلاقته مع القوى الكبرى آنذاك وهي الفرس والروم ، كما حدد زمانه بالقرن الثالث الميلادى وهي فترة بعيدة نسبيًّا عن ظهور القوى الكبرى في الجزيرة مثل الغساسنة والمناذرة، وقد ذكرت المصادر العربية فترة حكم امرئ القيس .منها : الطبري وحمزة الأصبهاني ، الذي عاش ١١٤ عاما ـ حسب رواية الأخير ـ وحكم ثمانين عامًا وشهر في زمنه ثمانية من ملوك الفرس ، ونفس العمر وحكم خمسا وأربعين سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وعاصر أربعة من ملوك الفرس كما روى الطبري(٣)

---

(١) العرب على حدود بيزنطة وإيران ص ٣٩ـ ٤٠

(٢) العرب على حدود بيزنطة وإيران ص ٤٠ .

(٣) العرب على حدود بيزنطة ص :٤٦

وحتى الآن لا يوجد تحت أيدينا تحليل متتابع الحلقات لجميع المصادر بأنواعها التي تمس تاريخ العرب الشماليين حتى ظهور الإسلام ، علما بأنه لن يكون في الطوق وضع تاريخ متكامل للعرب قبل الإسلام ما لم يفرغ العلماء من تحضير عمل من هذا القبيل[١]

وفي مجال الصراع الدينى الذي نشب في منطقة المشرق بين فئات النصارى المختلفة وصل إلى حد شن حرب دينية أعقبت محاولة فرض تعيين رهبان وتثبيت مذهب ظهرت امرأة في فلسطين وقفت في وجه محاولة فرض المعتقدات النصرانية الغربية على المشرق . ويروى لنا (رفينوس) الآتي :

«وأشعلت ماوية[٢] . ملكة القبائل العربية نار حرب شعواء بفلسطين وبمنطقة الثغور العرب، ضربت فيها القلاع والمدن ونسفت القرى والأرياف ، وقد أضعفت بهذا القتال الدائم القوات الرومانية وأهلكت الكثيرين واضطرت الباقى إلى الهرب، ولم تقبل ماوية بعقد الصلح إلا بشرط أن يجرى تنصيب قس من قبيلتها يدعى (موسى) أسقفا ، وموسى هذا الذي عرف في حياته بأعمال البر والتقوى رفض أن يجرى تنصيبه بالإسكندرية على يد (لوقيا) ؛ لأنه كان يعده هرطوقيا وأنبه على اضطهاده الشديد لرجال الدين الأرثذوكس ، وطالب أن ينصب على يد أولئك الأساقفة الذين أرسلوا إلى المنفى وقد لقيت القصة رواجا كبيرا لدى المؤلفين اليونان ، فسقراط[٣] . يرددها في روايته لأحداث الفترة بين عام ٣٠٥ ـ ٤٣٩م .

---

(١) نفس المصدر ص :٤٩

(٢) أورد جواب على لقب (مريا) فى حديثه ، وقد أمكن الحصول فى هذا اليوم على أسماء عدد من حكام الحضر منهم: (أورد وس) (ورود) وكان يلقب بلقب (مرياة أي السيد ، وهو الرئيس) ، و (نصرو) (نصر) وقد لق بلقب (مريا) كذلك وهو ابن (نشري هبة) (نشري هاب) ووالد الملك (سنطرق) (سنطروق) المرسوم بالأول ثم (وجش) (وجس) . وقد لقب ب (مريا) أي الرئيس فى أحد النصوص ، ويلقب (ملكا ذي عرب) أي (ملك العرب) و« ملك الأعراب» في نص آخر مما يدل على أنه عاف لقب (مريا) أي السيد أو الرئيس الذي لقب به فى أول عهده بالحكم وهو لقب أسلافه ، واستبدله بلقب ملك ، وهو أضخم من لقب (مريا) بالطبع: (جواد على ٢ / ٦١٢ ، ٦١٣) .

(٣) سقراط هذا ولد حوالي ٣٨٠م وكان من فقهاء القانون فى البداية ، واتخذ لنفسه لقب الأسكولي أي (المدرسي) وعاش بالقسطنطينية ودون تاريخه في عهد الإمبراطور (ثيود وسيوس) الثاني مستخدما=

في ذلك الوقت مات ملك العرب فنقضوا اتفاقيتهم التي كانوا عقدوها مع الرومان ، وقد حكمت زوجته ماوية وضربت مدن فنيقية وفلسطين حتى مناطق مصر المأهولة المسماة بإقليم العرب والواقعة على الجانب الأيسر من النيل إذا ما أبحرت ضد التيار .

وعلى الرغم من أن الحرب قد تولتها امرأة ، إلا أنه يستحيل القول بأنها كانت حربا سهلة ، وقيل: أن هذا القتال كان ضاريا بالنسبة للرومان حتى إن قائد قوات فنيقية استغاث بقائد جميع الفرسان والمشاة بالمشرق ، فهزأ هذا من استغاثته وأمره أن يتنحى عن القتال ، ثم عبأ صفوفه وتقدم نحو ماوية فشتت قواته ، ولم ينقذه قائد قوات فلسطين وفنيقية إلا بعد جهد جهيد(١)

ولما ثقلت وطأة الحرب على الرومان اضطروا إلى إرسال سفارة إلى ماوية يطلبون إليها الصلح ، ويقال: إنها رفضت ما عرضه السفراء من عقد اتفاق للصلح مع الرومان ما لم يجر تنصيب أحد رعاياها المدعو موسى (أسقفا) وكان آنذاك ينقطع للعبادة في الصحراء الغربية وعرف بالتقوى وبكراماته وأعماله ، ولكن موسى كما يروى (روفينوس) رفض تنصيبه أسقفا بالإسكندرية كما سبق على يد (لوقيا الأريوسى) وأدانه أمام الجميع ، وأصر إصرارا شديدا على موقفه عند ذلك أضحى من الضروري أخذه إلى الأساقفة الذين كانوا بالمنفى وهناك جرى تنصيبه أسقفا على يديهم ثم توجه فعقد الصلح بينهم وبين الرومان ، وظل يعمل في الدعوة وفي تلقين أعداد كبيرة منهم بتعليم النصرانية وذلك عندما أحس بأن القليلين قد تشربوا هذا المذهب(٢)

ولم ينقطع قيام حكام أقوياء في مناطق مختلفة من شمال الجزيرة أو وسطها أو جنوبها ، ولكن الذين استأثروا بالأهمية البالغة هم الغساسنة والمناذرة وكندة ، وغيرهم من الممالك التي سبقت ظهور الإسلام ، وسبقت تحول أهل يثرب إلى الملكية فاعتناق الإسلام ثم التوجه لفتح العالم .

= عددا من الوثائق أوردها حرفيا » (العرب على حدود بيزنطة وإيران ص ٥٤) .

(١، ٢) العرب على حدود بيزنطة وإيران ص ٥٤ ـ ٥٥ .

أ ـ الغساسنة :

وغسان : اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، ومنهم بنو جفنة : وهط الملوك ، قال حسان :

إِمَّــا سَــأَلْتَ فَإِنَّــا مَعْــشَرٌ نُجُــبٌ الأَزْدُ نِــسْبَتُنَا وَالــمَاءُ غُــسَّانُ

وغسان : أبو قبيلة في اليمن منهم ملوك غسان ، وماء بين يرقع وزبيد من نزل من الأزد فشرب منه سمى غسانا ومن لم يشرب فلا [(١)]

ويقال : غسان : اسم قبيلة[(٢)]

الغُسَّان أقصى القلب يقال لقد علمت أن ذلك من غسان قلبك ، جدة الشباب يقال كان ذلك من غسان شبابه ، ويقال ما أنت من غسانه من رجاله[(٣)]

لا شك أن اسم الغساسنة كان في التاريخ الإسلامى أكثر بروزا ، وأشد ارتباطا بتاريخ الشام من اسم أي جيل عربى آخر حكم واستوطن الشام .

ويظهر أن ذلك راجع في الدرجة الأولى ، إلى أن وجود الغساسنة في الشام وجود سياسي وعسكري صادف نهوض الإسلام بعرب شبه الجزيرة ، أي بعد أن تمت لهم السيطرة على جزيرة العرب وإخماد روح الهرطقات الوثنية والقضاء عليها قضاء تاما ، واتجهت أنظارهم إلى الشام ، التي كانت خاضعة لتاج الإمبراطورية البيزنطية (الروم الشرقية) ، والتي كانت الشام ويحكمها داخليا ملوك من الغساسنة ، الذين كانوا رأس الحرية تقريبا في كل جيش يواجه الرومان به جيوش الإسلام التي اجتازت حدود الشام في العهد النبوي،وفي عهد الخليفة الأول أبي أبكر الصديق[(٤)]

---

(١) تهذيب القاموس ٣ / ٣٩٢ ، العرب فى الشام : باشميل ١٧٨ ، جواد علي : تاريخ ٣ / ٣٨٧

(٢) لسان العرب : دار اللسان ٢ / ٩٨٩

(٣) المعجم الوسيط ٢ / ٦٥٣

(٤) العرب فى الشام : باشميل ص ١٧٥

والغساسنة هم جيل من أبناء اليمن القحطانية ، وهم أبناء عم حمير بن سبأ يشجب بن يعرب بن قحطان فقد كان لسبأ من الأبناء الذين أنجبوا كل أجيال اليمن وملوكها اثنان هما :

١ ـ كهلان بن سبأ .

٢ ـ حمير بن سبأ ، فينتهي الغساسنة بنسبهم إلى كهلان بن سبأ بن يشجب فالغساسنة هؤلاء منهم أبناء عمرو بن عامر (كزيقيا) الملقب بماء السماء ، وأحد ملوك مأرب والذي في عهده تفرق أبناؤه في مختلف أقاليم الجزيرة العربية والشام والعراق بعد أن انهدم سد مأرب التاريخى في القرن الأول الميلادى تقريبا ، ومنهم اللخميون ملوك الحيرة والغسانيون ملوك الشام ،ومنهم أيضا الأوس والخزرج ـ كما سبق الحديث ـ الذين استوطنوا يثرب وصاروا فيما بعد أنصار رسول الله ﷺ، والعمود الفقرى لجيشه أثناء حياته .

ومنهم خزاعة الذين كانوا ملوك (مكة المكرمة) قبل أن يتغلب عليهم القرشيون ويخرجونهم منها .

وأما غسان ، فإنهم من بني أب لا يدخل بعضهم في هذا النسب ، ويدخل فيهم من غيرهم ، سموا العتق؛ لأنهم اجتمعوا ليفتكوا برسول الله فظفر بهم ، فأعتقهم ، وكانوا جماعة من بطون شتى ، وأما غسان فإنهم أيضا طوائف نزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا إليه[(١)]

والأنصار ـ أي أهل يثرب وهم من الأوس والخزرج هم من الدوحة التي أخرجت الغساسنة ، وقد ظهر تاريخهم في يثرب بعد حادث سيل العرم ـ على نحو ما سبق ، وافتخار أهل يثرب بآل جفنة يزيد كثيرًا على افتخارهم بآل لخم مع أنهم على حد قولهم من أصل واحد ، ويظهر أن لقرب الغساسنة من يثرب وللمصالح الاقتصادية ، وللهبات والعطايا التي كان ينالها حسان وأمثاله من الغساسنة بسهولة

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٢ .

ويسر لقربهم منهم أثرًا كبيرًا في المدح والتعصب لغسان على آل لخم[١]

ويحسن أن نؤكد هنا أن المناذرة والغساسنة أقوام يقال فيهم: إنهم من تنوخ عرب الجنوب هاجروا من اليمن إلى العراق في مطلع القرن الثالث للميلاد ، ويحسن بنا أن ننظر على الغساسنة والمناذرة مهما قيل في أصلهم وموطنهم وزمن هجرتهم على أنهم أسرتان حكمتا في العراق والشام تحت سلطان الفرس والروم ، ولم يكن بين هاتين الأسرتين ، وبين الشعبين اللذين عاشا في حكمهما صلة نسب ولاصلة مودة .

أما الدور الذي قام به المناذرة والغساسنة في الحكم في العراق والشام فكان دورًا قاصرًا على أمرين :

الأول : كان المناذرة يجمعون الضرائب من القبائل العربية القريبة منهم ويقدمونها للفرس كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضرائب للروم .

الثاني كان المناذرة يحمون تخوم الإمبراطورية الساسانية من غزوات البدو الآتية من نجد وبادية الشام ، كما كانوا حاميات وطلائع في وجه الجيوش الرومية ، ومثل ذلك كان شأن الغساسنة بالإضافة إلى الروم .

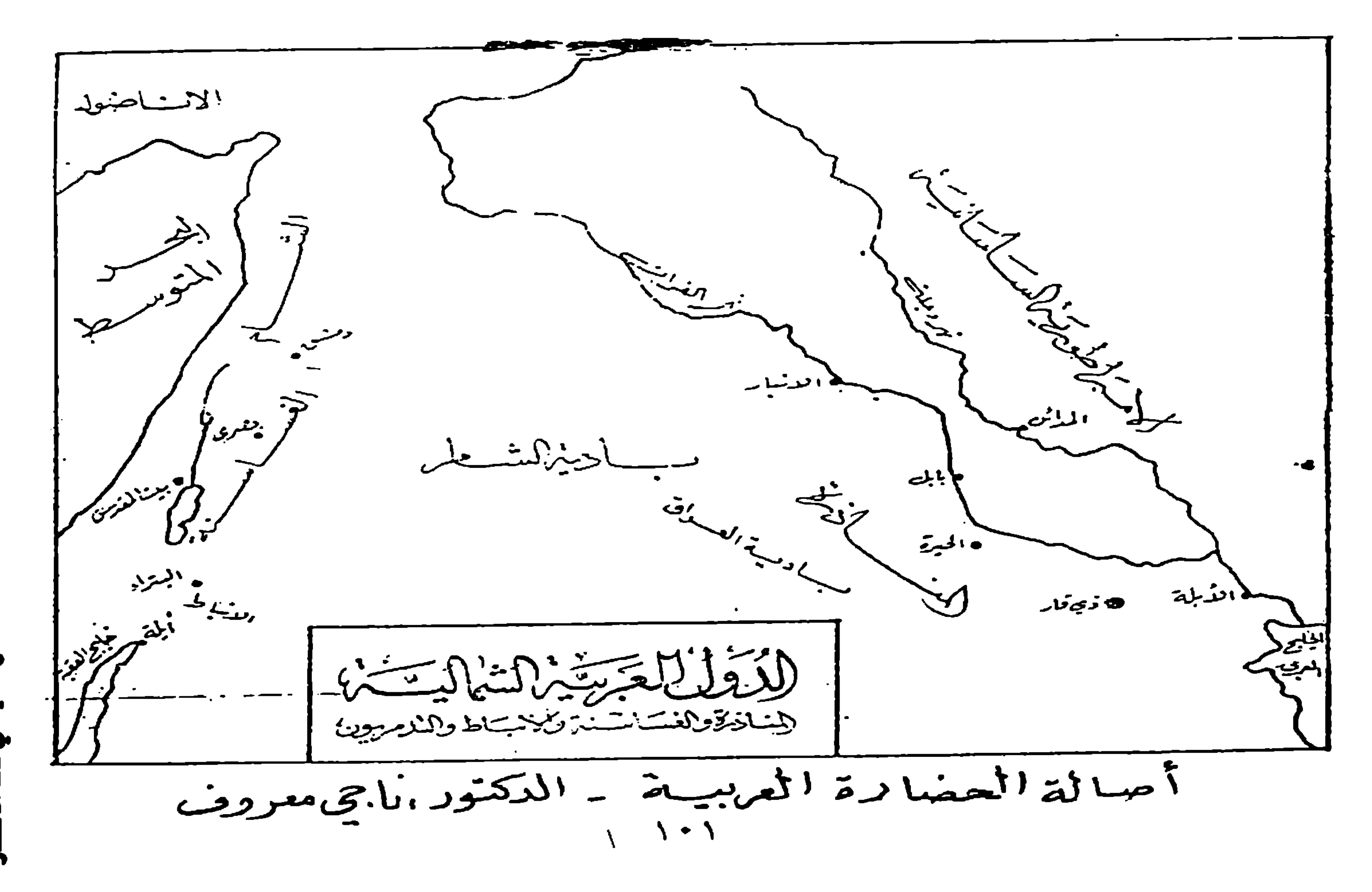
وكان بين الغساسنة والمناذرة بطبيعة الحال عداوة انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم[٢]

واستحكمت العداوة كثيرا بين المناذرة والغساسنة ،وقد كانا ردءا للقوى الكبيرة وقتها فربما نجد مبررا للقتال بينهم نتيجة تحريكهما من الساسانيين والبيزنطيين ، لكن ماذا يمكن أن نجد تفسيرًا للعداوة التي استحكمت بين الأوس والخزرج ، والأيام الطويلة من الحروب ـ كما سبق ـ سوى دس اليهود الدائم لإضعاف شوكتهم بعد أن تمكنوا من السيطرة على المدينة ، وتحول اليهود إلى مواطنين من الدرجة الثانية .

---

(١) جواد علي : تاريخ ٣ / ٣٩١

(٢) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٦٨


الدول العربية الشمالية
المناذرة والغساسنة والأنباط والتدمريون
الأناضول
البحر المتوسط
دمشق
بصرى
بيت المقدس
البتراء
الأنباط
أيلة
خليج العقبة
بادية الشام
بادية العراق
نهر الفرات
نهر دجلة
الأنبار
المدائن
بابل
الحيرة
ذي قار
الأبلة
الخليج العربي
أصالة الحضارة العربية - الدكتور ناجي معروف
١٠١

ويربط المسعودي ظهور الغساسنة بالشام بالأحداث التي كان مسرحهما اليمن، والتي اضطرت هذه القبائل إلى الارتحال حتى بلغت الشام ، وقد أخذوا اسم غسان من بئر أو ماء كانوا قد نزلوا عندها، ووفقا لإحدى الروايات فإن هذه البركة أو الحوض: كانت تقع بين زبيد وريم باليمن (المسعودي) ، ووفقا لرأي آخر فإنها كانت بالشام كما قال حمزة الأصبهانى وأبو الفداء ويقول اليعقوبي : أن غسان غزت الشام في أول الأمر ، فنزلت أرض البلقاء ، هذا في الوقت الذي كان بالشام قبيلة (سليح) ، وهؤلاء الغساسنة سألوا سليحا أن تعينهم في الحصول على الشروط نفسها التي كانت (لسليح) من إمبراطور الروم ، فكتب رئيس (سليح) آنذاك، وهو (دهمان بن العملق) إلى ملك الروم الذي أعطى موافقته،وبهذا نزل الغساسنة بأرض سوريا ، ويذكر حمزة الأصبهانى في هذا العدد شخصا آخر هو (سليح بن حلوان) وقد بسطت سليح حمايتها على القادمين وفرضوا عليهم الإتاوة ، وبسبب الإتاوة شب النزاع الذي قاد بدوره إلى القتال ، وانتهي بطرد سليح عن الشام ، وتثبيت سلطان الغساسنة ، ثمة مصدر آخر يقول : إن جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا، هو الذي قتل الملك (سليح) وحل محله .

ويرد اسم الإمبراطور الذي كتبت إليه (سليح) بشأن الغساسنة في صور مختلفة (لدى المؤلفين العرب) فحمزة الأصبهاني يقول: ملك الروم يقال له : نسطورس ، بينما يدعوه اليعقوبي (توشى) وأما المتن الغربى لتاريخ الدول لابن العبري فيعطي (انسطس)١٤٨،الذي يرتفع إلى مصادر أخرى ويذكر موقع الإمبراطور في أنطاكية .

وانتقال الغساسنة من الجزيرة العربية ونزولهم بأرض البلقاء ، والتقاؤهم بسليح الذي لم يكن في الوسع تجنبه ، ثم محاولتهم اكتساب الشرعية لوضعهم بالمناطق الجديدة ، كل هذه المراحل معروفة لدينا بوضوح من المصادر العربية ، وتؤكد مادة هذه المصادر أن وضع(سليح)و (فيلا رخيتهم) كانت تتحكم فيه شروط معينة ، مثل قبولهم حماية حدود الإمبراطورية ، أكد الغساسنة قبولهم للشروط نفسها التي ارتضيتها سليح من قبل ، ومن الجائز أن (فيلارخ) الغساسنة وأسرته قد التزموا

بدورهم باعتناق النصرانية ، متأسين في هذا خطا سليح ، وعلى العموم فقد شيد الغساسنة عددًا من البيع والأديرة ، كما فعل جفنة وابنه عمرو[١]

واختلف في أول من ملك منهم لغموض تاريخهم ، فقيل إنه جفنة بن عمرو، وقيل: بل هو ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، وماري نيكلسون يقول إنه ابن قتيبة وجعله الحارث بن عمرو ، أما نولد كه وهو أوثق من يعتمد عليه في تاريخ الغساسنة فيرجح أنه أبو شمر جبلة بن الحارث بن ثعلبة بيد أن أول أمير اشتهر منهم، واتسع سلطانه هو الحارث بن جبلة ، وخلفه ابنه المنذر فحارب اللخميين ، وقهر ملكهم قابوس بن المنذر سنة ٥٧٠م (يوم عين آباغ قرب الحيرة) وزار عاصمة الروم سنة ٥٨٠م ، وليها طيبا روس فتوج فيها ، إلا أن القيصر لم يلبث أن سخط عليه فأمر باعتقاله وجاء به إلى القسطنطينية في أواخر سنة ٥٨١م ومنع من أبنائه الحبالة السنوية ، فثاروا في الشام وشنوا الغارات على الأراضي البيزنطية فطاردتهم جيوش الروم ، وأسرت النعمان أخاهم الأكبر ، فمال عرش الغساسنة إلى الضعف ، وانفصلت عنه عدة إمارات حتى إذا استولى الفرس على ديار الشام هوى العرش ، وذابت الإمارات وخضع أكثر أصحابها للفاتحين على أنه عاد للغساسنة شيء من ملكهم بعدما طرد هرقل الفرس من سوريا وفلسطين سنة ٦٢٨، فإن مؤرخي العرب يجمعون على أن (جبلة بن الأيهم) آخر من ملك آل جفنة ، وأنه كان في مقدمة جيش الروم يوم اليرموك سنة ٦٣٦م[٢]

قالوا جمع هرقل جموعا كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية تكون زهاء مائتى ألف، وولى عليهم رجلا من خاصتهم ، وبعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغسانى في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وعزم على محاربة المسلمين فإن ظهروا وإلا دخلوا بلاد الروم فأقام بالقسطنطينية ، واجتمع المسلمون فرجعوا إليهم فاقتتلوا على اليرموك أشد قتال وأبرحه ، واليرموك نهر،

وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين ألفًا[(١)]

وكان للغساسنة قسط من الحضارة لا ينبغي إنكاره لتأثرهم بحضارة البيزنطيين ، ولم تكن دولتهم بدوية خالصة لا عاصمة لها كما زعم بعض المستشرقين، بل كان لهم مستقر في جابية الجولان وفي جلق (يؤخذ من الشعر الجاهلي أنها بلدة صغيرة على بردى بالقرب من دمشق) ، وربما كانت بصري من قواعدهم ، ويضيف إليهم مؤرخو العرب بناء القصور العالية والبنايات العامة ، ووفد شعراء البادية على قصورهم ، كما وفدوا على ملوك العراق ومدوحهم بأحسن الأشعار ، فرجعوا من عندهم بأحسن الصلات ، وأشهر مداحيهم علقمة الفحل وحسان بن ثابت .

وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية على مذهب اليعقوبية المبتدعة ، فأسخطوا عليهم غير مرة قيصر الروم الكاثوليكي ، ولكن حاجة هؤلاء إليهم كانت تحملهم على أخذهم بالحسنى والتساهل ، وربما كانت عقيدتهم المخالفة من أسباب سقوط بعض ملوكهم ، كما سقط المنذر بن الحارث بعدما أمر القيصر باعتقاله ونفيه[(٢)]

وخلف الحارث بن جبلة أباه سنة ٥٢٨ ـ ٥٦٩ ، ويسمى أحيانا الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دورا مهما في حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب بالشام ، ومنحه لقب (فيلارك)،ومعناه شيخ القبيلة أو القبائل ، ولقب البطريق ومن أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الملك ، وقد اشتبك مع المنذرين ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة ، وقع في أثنائها أحد أبنائه في قبضته سنة ٥٤٤م فقدمه المنذر ضحية للعزي ، وثار الحارث لنفسه في يوم حليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤، إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قتل فيها وفي أمثال العرب (ما يوم حليمة بسر) ، وهناك عدة مواقع بين المناذرة والغساسنة كان من أسبابها لجوء بعض القبائل

---

(١) فتوح البلدان : البلاذري ص ١٤٠ ـ ١٤١

(٢) أدباء العرب في الجاهلية : البستاني ١ / ١٧

إلى هؤلاء أو أولئك نظرا لقوتهم وسيطرتهم آنذاك[(١)]

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمال تدمر ، وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن القرن الرابع الميلادي[(٢)]

وفي مجال العلاقة مع الروم يضطر الإمبراطور الروماني عام ٥٧٨م إلى عقد صلح مع المنذر بن الحارث في الرصافة ، وهناك ما يشير إلى أن ملك غسان قد قام بعدة إصلاحات في الرصافة كما بني أو جدد كنيستها ، كما قام في عام ٥٨٠م بزيارة القسطنطينية حيث استقبله تيتروس الثاني (٥٧٨ ـ ٥٨٢) م،و أجرى له استقبالا حافلا فضلا عن الإنعام عليه بالهدايا وعلى ولديه برتب عسكرية ، إلا أن أعظم المنح إنما كان التاج بدل الإكليل الأمر الذي لم يسبق له مثيل مع ملوك غسان حتى أطلق عليه مؤرخو الروم (ملك العرب) [(٣)]

وقد كان النظام الملكي الذي أخذ به الغساسنة آنذاك تقليدا واقتداء بالإمبراطور الروماني أو الملوك المجاورين هو السائد في ذلك الوقت ، وقد اعترف العرب بالحدود الشمالية بهذه المملكة،ولذلك فقد كانت ردءًا تمنع وصولهم إلى الحدود الأخيرة للدولة البيزنطية ، والمهم في حديثنا هنا أن هؤلاء قد اختاروا الملكية التي كانت بالمرحلة الأولى مرتبة دينية أكثر منها سياسية، والدليل أن الروم قد أطلقوا على الحكام الغساسنة في بداية أمرهم لقب (البطريق) وجاءت مرحلة تالية لتبين أن هذا المنصب ليس دينيا فقط، بل به ارتباطات سياسية ، والإكليل عادة يعطيه الرومان لقادتهم المظفرين الذين يدخلون إلى روما وقد جروا وراءهم آلافا مؤلفة من الأسرى والعبيد والسبايا .

---

(١) الكامل : ابن الأثير ١ / ٣٥٥ وما بعدها ، دراسات في تاريخ العرب : مهران ص: ٥٦٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي : ضيف ٣٩ ، دراسات في تاريخ العرب : مهران ص ٥٦٩

(٣) دراسات في تاريخ العرب : مهران ٥٧٣ . تاريخ العرب : سيد عبد العزيز ص ١٩٩ ، تاريخ العرب القديم : عاقل ص ١٥١

وانتقل الرومان بعد ذلك ليضعوا على رأس بطريقهم المتوج بالإكليل (التاج) ليتحول هذا الحامل للتاج؛ ليكون تحت تصرف الملوك والأباطرة ، ولقد استعان بهم أهل يثرب من العرب، وأنجدوهم ضد أعدائهم اليهود ، ثم كانوا بعد ذلك ردءا ضدهم عند بدء الفتوحات الإسلامية وتبنت حكومة الغساسنة وجهة النظر العربية الوثنية رغم كونهم نصارى ضد مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة من الرومان ، وانتهت الدولة الغسانية، وعلى رأسها جبلة بن الأيهم .

قائمة أمراء الغساسنة من آل جفنة

وفقا لنولدكة[١]

١ ـ أبو شمر جبلة : حوالى ٥٠٠م ؟

٢ ـ الحارث بن جبلة « فيلارخا » ابتداء من : ٥٢٩ ـ ٥٦٩م .

٣ ـ أبو كرب المنذر بن الحارث ٥٦٩ ـ ٥٨٢م .

٤ ـ النعمان بن المنذر ٥٨٢ ـ ٥٨٣م .

٥ ـ الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر .

٦ ـ (الحارث) الأعرج بن الحارث الأصغر

٧ ـ أبو حجر النعمان (ابن الحارث الأصغر) .

٨ ـ عنر وأخوه .

٩ ـ حجر بن النعمان .

(من ٥ إلى ٩) بين عامي ٥٨٣ ـ ٦١٤م

١٠ ـ جبلة بن الأيهم عام ٦٣٥م .

(١) العرب على حدود بيزنطة ـ نينا ص ٢٥٤ ـ وتاريخ العرب قبل الإسلام ـ زيدان ٢٤٩

شجرة نسب الغساسنة (آل جفنة وفقا لأبن الكليبي)[1]

عامر

عمرو مزيقيا بن عامر

جفنة

عمرو | الشطبة = ثعلبة

ثعلبة | الأكتم

الأرقم | الحارث

مارية = جبلة | يزيد

الحارث (مللك)

أبو شمر (ملك) | جبلة (ملك) | المنيذر | المنذر (ملك) | لنعمان (ملك)

الحارث (ملك | الأيهم | جبلة

جبلة (ملك) | الحارث (ملك)

(١) (العرب على حدود بيزنطة وإيران ـ نيتا ص ٢٥٥)، وأوردت المؤلفة قائمة عظام آل جفنة حسب حمزة الأصفهاني (ص ٢٥٦) مع عدد سني حكمهم، وأورد جرجي زيدان قائمة خاصة مستخلصة من كل هذه القوائم في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤)

ب ـ المناذرة (اللخميون) :

كان اللخميون المناذرة عمال الفرس على أطراف الشام ، كما كان الغساسنة عمال الروم على مشارق الشام[١] وقد رأيت في كلامنا عن قضاعة أن أول من حكم العراق آل تنوخ ، ومنهم جذيمة الإبرش وأن الحكم بعده صار إلى ابن أخته عمرو ابن عدي ، وهو من آل نصر فرع من لخم،ولذلك فإن هذه الدولة تسمى دولة آل نصر ، أو آل لخم ، أو آل عمرو بن عدي ، ملوك الحيرة ، أو المناذرة على السواء .

وتاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ آل غسان وأثبت ، لأنه كان مدونا في كتب الحيرة مثبتا في كنائسهم وأشعارهم ، وفيها أنسابهم وأخبارهم ومبالغ أعمار من ولى منهم للأكاسرة ، وتاريخ نسبهم ، وعليها كان معول المسلمين فيما ورد من أخبار هذه الدولة[٢]

شغلت الحيرة (عاصمة المناذرة) مكانة خاصة في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الخامس والسادس، فقد أثبتت هذه الدولة العربية التي كانت تقوم بدور العازل Bupper State . بين الدولتين الكبيرتين ، وأنها كانت دعامة من دعامات إيران الساسانية بوضعها لقواتها العسكرية، تحت تصرف الأكاسرة غير أنه من خطل الرأي أن يعلن أن (عرب الفرس) هؤلاء قد عاشوا تحت إمرة الفرس ولمصلحة إيران ، فالمصادر ذات الوزن ، وكذلك الرقوم الكتابية التي تم الكشف عنها منذ أمد ليس بالبعيد ، تتحدث عن دولة الحيرة بوصفها دولة عربية ذات شأن، لها مصالحها الخاصة بها سواء على الحدود مع بيزنطة بأرض الجزيرة وسورية الفنيقية، أو بمناطق الجزيرة العربية نفسها كالحجاز (مهد الإسلام) ونجد ، أو على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من أقصاها إلى أدناها متجهة صوب بلاد العرب

---

(١) لم يصب المؤلف الحقيقة كاملة عندما اكتفى بجعل المناذرة عمالا للفرس ، كما أن الغساسنة عمال للروم، فإن الحيين من العرب عندما تعاملا مع القوتين العظيمتين وقتها لم يقتصر عملها على هذه السهولة ، بل كانت لهما مناح أخرى تتعلق بتاريخهما وواقعهما وصلاتهما الداخلية والخارجية ، وكثيرا ما أعلن هؤلاء العمال الحرب على أسيادهم ـ مثل حرب ذي قار وحروب مارية، وغير ذلك .

(٢) العرب قبل الإسلام : زيدان ص ٢٦٣

الجنوبية ، وتنال أهمية خاصة في هذا الشأن الرقوم المكتوبة بخط المسند التي فتحت مجالات واسعة في دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام رغما من إيجازها الشديد، كما حظيت باهتمام خاص كذلك؛ لأنها تثبت تواريخ الأحداث التي نتكلم عنها(١)

ومن قصص التعاون الذي تم بين اللخميين والفرس على أساس من التساوى أحيانا اعتناق اللخميين للنصرانية وعدم اعتناقهم للوثنية، وتورد مؤلفة الكتاب(٢) تفصيلات كثيرة عن حياة (شمعون العمودى) الذي كان له تأثيره الواضح في نشر النصرانية بين القبائل العربية وعلو منزلته وانصياع الكثير من العرب لدعوته .

كما ترد تفصيلات عن حياة (بهرام يزدجرد) ملك الفرس الذي عاش وتربى في الحيرة وبعد عام ٤٢١ ، وبعد موت بزدجرد الذي تشير كل الدلائل على أنه كان عنيفا أصعد أعيان إيران على العرش (خسرو) الذي لم ينحدر من صلبه مباشرة،وأقصوا أولاده الشرعيين ، أما بهرام فقد أقضى منذ البداية بوصفه شخصا غير مرغوب فيه؛ لأنه ربيب العرب ؛ ولأنه أكثر شبها بهم في مظهره وأسلوب حياته ومشاربه ، غير أن الأمير عزم على القتال في سبيل العرش ، ووجد العون والسند في الحيرة ، وكان جيشه مؤلفا من الفرس ، ومن عرب قبيلة (تنوخ) تحت قيادة ملك العرب .

وشطر من تنوخ كان قد استقر وعمل بالزراعة ، بينما شطر آخر ظل على حياة الرحل ، وكانت القبيلة تنزل المناطق الواقعة غرب الفرات عند مجراه الأدنى .

وقد احتلت القوات الفارسية والعربية بقيادة النعمان بن المنذر المنطقة الواقعة بين طيفون وبه أزدشير ، وقد رجح هذا العون العسكرى الذي قدمه عرب الحيرة كفة بهرام ، ورأي الملك الشاب أنه مدين للمنذر ، وأعرب عن تقديره له بأن رفع مكانته فوق (جميع العرب) بيد أن هذه العبارة يجب ألا تؤخذ على إطلاقها؛لأن

---

(١) العرب على حدود بيزنطة ص: ٨١ .
(٢) السابق ذاته ص: ٨٢ .

المناطق التي كانت تحت نفوذ الشاب ويقطنها العرب لم تكن كبيرة، وعلى قول أحد المصادر فإن بهرام أحب المنذر والنعمان؛ولذا فإنه فوض إليه جميع أرض العرب (الحيرة).

وهكذا نجد أن ما تمتع به ملوك الحيرة من مكانة عالية منذ القرن الخامس إنما كان بسبب ما قدمه اللخميون من خدمات البهرام حينما قامت قبيلة تنوخ، وإلى جانبها وحدات فارسية بدور حاسم في تأمين عرش إيران لملكهم أي الشخص الذي تخيروه. ولقد قدر ملك الفرس خدمات ملك الحيرة حق قدرها.

وروى لنا الطبري عن إسناد يزدجرد مهمة تربية ابنه إلى ملك اللخميين وعن مكافأته المنذر بن النعمان ؟ على ذلك، حتى أنه منحه لقبا رفيعا هو (ماهست) أي الأكبر[١]

لقد رفض اللخميون سلطانهم على الكثير من القبائل العربية الجنوبية والذين قدموا في أعداد كبيرة كانت سببا في وقوع كارثة بمناطق الحدود البيزنطية التي كانت تعسكر بها قوات الروم أما (طياية) المشار إليهم فهم قبيلة (طي العربية النصرانية) التي كانت تدين بالطاعة للخميين ويدعوهم (برصوما) (عبيد الفرسي) أي رعاياهم، غير أنهم كانوا بلا ريب تحت السيادة المباشرة لملك اللخميين آنذاك، وهو الأسود بن المنذر[٢]

ويقابل الغساسنة في الشام المناذرة في العراق، وهم من لخم، ويعود بهما النسابون إلى أصل يمني هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ، وقد احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان وأعدائهم البيزنطيين، أعدائهم التقليديين مع عرب الشام، وربما جذيمة الأبرش أهم ملك أسطورى ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخميين ويقال إنه كان يعاصر الزباء، وخلفه ابن اخته عمرو بن

---

(١) العرب على حدود بيزنطة ص ٨٨ـ٨٩، والكامل : ابن الأثير ١ / ٢٣٤، والطبرى : تاريخ ٢/ ٨.
(٢) العرب على حدود بيزنطة ص ٩١

عدي اللخمي ، وهو رأس المناذرة ، وتاريخهم أكثر وضوحا من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم فأخذه عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها[١]

يزعم الإخباريون أن مالكا بن فهد الأزدى أول من ولى أمر العرب في العراق، وأنه كان يسكن الأنبار ثم جاء من بعده أخوه عمرو على رأي و (جذيمة الأبرش) على رأي آخر صاحب القصة المشهورة مع الزباء[٢]، على أن المؤسس الحقيقى لدولة اللخميين إنما كان عمرو بن عدى ٢٦٨ ـ ٢٨٨م ابن أخت جذيمة ، وأول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب ، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم وإليه ينسب ملوك العرب في العراق[٣]

ويعيدها بعضهم إلى المنذر بن النعمان بطن من جفنة من غسان من الأزد من القحطانية من المناذرة وكانت تسميهم العرب (الأشاهب) لجمالهم ، وكانوا يتبارون في البيع وزيها بالحيرة ومن أهم أديرتهم دير (مارت مريم) . وهو دير قديم بنواحى الحيرة بين الخورنق والسدير[٤]

وكانت الحيرة عاصمة اللخميين على ثلاثة أميال من سكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق ، وتقع الآن في الجنوب الشرقي من مشهد على وقد أكثر العرب من تحليل اسمها وتعليله على عادتهم في إرجاع الأعلام إلى مشتقات عربية ، فقالوا : سميت بذلك من الحيرة أي الضلال ؛ لأن تبعا لما بلغ موضع الحيرة ـ كما يزعمون ـ ضل دليله وتحير وزعم آخرون أن مالكا لما نزلها جعلها حيرا ـ أي حظيرة أو بستانا ـ وأقطعه قومه ثم

---

(١) تاريخ الأدب العربي ضيف ص ٤١ ـ ٤٢ تاريخ الجاهلية ص ٦٨، أدباء العرب بطرس البستاني ١ / ١٤

(٢) الطبري : تاريخ ١ / ٦١٧ـ٦١٨

(٣) دراسات في تاريخ العرب : مهران ص: ٥٧١

(٤) معجم قبائل العرب : كحالة ٣ / ١١٤٥

صارت الحيرة وقال غيره بل سميت الحيرة من (الحوار) أي البياض لبياض أبنيتها [(١)]

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربي إنما هو من أصل سامي واحد ذلك أن المضرب والمعشر والحمى إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد . والحير الذي أقيم بها وجعل حظيرة للوحش من الظباء ، والحمير الوحشي، والآيايل ، والأرانب ، والأنعام .

وتقع الحيرة قريبًا من مدينة بابل القديمة ، وعلى بعد ثلاثة أميال على الجنوب من الكوفة في نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا مركزا هاما للقوافل ، لم يسع الساسانيون إهماله ، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم [(٢)]

وورد في بعض مؤلفات السريان مع (الحيرة) اسم موضع آخر قريب منها هي : (عاقولا)، وقد ذهب ابن العبرى إلى أنه (الكوفة) .

وقد اشتهرت الحيرة في الأدب العربى بحسن هوائها وطيبة، حتى قيل يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة ، وقيل عنها إنها منزل بريء صحيح من الأدواء والأسقام ، وهي على سيف البادية ليست بعيدة عن الماء ، وقد ورد ذكرها كثيرا في شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وهي لا تبعد كثيرا عن النجف والكوفة ، وقد ذكر حمزة الأصفهاني : أنه بسبب حسن هواء الحيرة وصحته لم يمت بالحيرة من الملوك أحد إلا قابوس بن المنذر ، أما بقية الملوك فقد ماتوا في غزواتهم وصيدهم وتغربهم. وأنه بسبب ذلك قالت العرب : لبيتة ليلة بالحرية أنفع من تناول شربة [(٣)]

وأهل الحيرة عرب يقسمهم الإخباريون إلى طبقات ثلاث تنوخ ، العبدان ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : زيدان ص ٢٦٥.

(٢) السابق ذاته .

(٣) دراسات فى تاريخ العرب : مهران ٥٧٩.

الأحلاف ، وهؤلاء في نظرهم من قبائل متعددة فيها قحطان وفيها عدنان ، وقد ذكر أن في لهجة أهل الحيرة هجنة أرجعوا سببها إلى اختلاط هؤلاء العرب بمن كان يفد عليهم من النبط ، ممن كانوا يثيرون الأحداث فيلتجؤون إلى هذا المكان ولذلك شاب لهجتهم رطانة نبطية ، وقد كتبوا بقلم (بني إرم) شأنهم في ذلك شأن تدمر وأهل بطرا ، إذ استعملوا قلما نبطيا من الكتابات[(١)]

وقد عثر على آثار كثيرة من ملوك الحيرة منها واحد عن معد يكرب ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت وأعرابها بالنجار والتهام الذي جاء لنجدة عرب الحيرة ضد الفرس[(٢)]

وقد أوردت كتب التاريخ تفاصيل كثيرة عن ملوك اللخميين وحوادثهم مع ملوك الفرس فمنهم امرئ القيس بن عمرو المذكور في الرقيم والذي نعت المحرق (محرق الحرب) . ومما حكاه الإخباريون عن هذا الملك أنه كان قد تنصر من آل نصر ـ وهو أمر يحتاج إلى دليل ـ كما ذكروا أن ملكه كان واسعًا ، وأنه كان عاملًا للفرس على مزج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة [(٣)]

وذكر الطبرى أن يزدجرد المعروف بالأثيم ٣٩٩ـ ٤٢٠م الذي في أيامه كان هلاك امرئ القيس استخلف مكان امرئ القيس ابنه (النعمان) وهو فارس حليمة وصاحب الخورنق وهذا النعمان المعروف عند المؤرخين بالنعمان الأول وهو أول ملك نستطيع أن نتحدث عنه بشيء من التأكيد والتحقيق والتفصيل ، وهو كما يقول الإخباريون النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى أما أمه فهي شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، وهي أخت عمرو المزدلف وقد عرف النعمان بالنعمان الأعور كذلك ، كما عرف أيضا بالسائح،وكان له شقيق من أمه هو حسان بن زهير.

---

(١) العرب على حدود بيزنطة : ص ٩٨

(٢) جواد علي : تاريخ ٣ / ١٨٩

(٣) الطبري : تاريخ ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ٧

ويظهر من وصف الإخباريين للنعمان بأنه كان رجلا حازما قويا محاربا من أشد الناس نكاية في عدوه . غزا عرب الشام مرارا كثيرة وسبى منهم وغنم ، وكان يغزو بكتيبتين كانتا عنده دوسر ، وأهلها تنوخ ، والشهباء : وأهلها الفرس ، يغزو بهما من لا يدين له من العرب ، وقد اشتهرت دوسر بشدة خبرتها حتى قيل أبطش من دوسر[١] ، ومعروف أيضًا قصة بنائه لقصر الخورنق الذي ورد ذكره في التاريخ والأدب العربي .

وتفيض كتب الأدب والتاريخ العربيين بأخبار ملوك الحيرة وغزواتهم وأيامهم . وتزداد بشرح أخبارهم مع العرب ومع الفرس ومع الروم إلى درجة قد تصل إلى حد الأساطير . وقد أفاض الطبري كما أفاض غيره من المؤرخين بسرد أخبار ملوك الحيرة الذين طبقت شهرتهم بواد العرب وحواضرهم[٢] ، ومن مشاهير اللخميين : عمرو بن هند المعروف بـ (مضرط الحجارة) وهو لقب يشير بالطبع إلى قوة ابن هند وشدة بأسه، وقد عرف عمرو بأمه هند بنت عمرو بن حجر الكندي ، آكل المرار ، فهوى كندي من جهة أمه .

ويرى بعض الباحثين احتمال كون هند من آل غسان وإليها ينسب دير هند ، ويرى أن حكم ابنها عمرو كان فيما بين السنة ٥٥٤ ـ ٥٦٩ ، وقد ارتبطت بعمرو ابن هند هذا كثير من القصص والطرائف والأساطير حكاها القصاص والشعراء .

ومع ما رافق حياة عمرو من أحداث كثيرة وحروبه المستمرة مع الغساسنة وأحلافهم،وكذلك سعيه للصلح بين العديد من القبائل فقد انتهت حياته بيده ، ونتيجة غروره . وذلك في القصة المشهورة بالأدب والتاريخ العربيين عن أنه قال لجلسائه : هل تعلمون أن أحدا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه ليلى بنت المهلهل بن

---

(١) جواد علي : تاريخ٣/ ١٩١ و ٢٠٠ وما بعدها ، ودراسات في تاريخ العرب : مهران ص٥٨٥

(٢) الطبري : تاريخ ٢/ ٦٥ وما بعدها ، وجواد علي ٣/ ٢٠٠ ـ ٢٢٨

ربيعة، وعمها كليب بن وائل أعز العرب . وزوجها كلثوم وابنها عمرو . وقد دعى عمرو ابن هند عمرو بن كلثوم وأمه ، وأحسن ضيافتهما ووفادتهما ، وأمر أمه أن تستخدم ليلى ففعلت،وهنا ردت ليلى على هند بأن تقوم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. وصاحت بابنها وبمن معه من آل تغلب فأقدم عمرو بن كلثوم ومعه سيف وضرب به رأس عمرو مضرط الحجارة ونادى في التغلبيين ، فأخذوا ما استطاعوا ، وعادوا من حيث أتوا ، وذهب المثل القائل (أفتك من عمرو بن كلثوم) .

كما افتخر بها الشعراء التغلبيون، ويقال أن أخا عمرو بن كلثوم (مرة بن كلثوم) هو قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر . وفي ذلك يقول الأخطل :

ابنــي كليــب إن عمــي اللــذا ... ن قــتلا الملوكـا وفككـا الأغــلالا

وللشاعر أفنون التغلبي وهو (مريم بن معشر) :

لعمرك يا عمـرو بـن هنـد وقـد دعـا ... لتخـــدم لـــيلى أمـــه بموفـــق

فقام ابـن كلثـوم إلى السـيف مـصلتًا ... وأمـــسك مـــن ندمانـــه بـــالمخنق

وعاجلـه عمـرو عـلى الـرأس ضربـة ... ذي شـطب صـافي الحديـد رونـق[١]

ولقد آلت إمارة اللخمين في أواخر أيامها أن تحكم مباشرة من قبل الفرس ، حيث ورد عدد من الأسماء الفارسية حكام هذه الدولة ، وكان آخر ملوكها من العرب المنذر ابن النعمان المغرور ٦٢٨ ـ ٦٣٢ . قتل في البحرين يوم جواثا . وليس له من الأعمال ما يستحق الذكر[٢]

ويبدو أن القوة العسكرية للخميين ، مضافا إليها تطلعهم المتزايد نحو الاستقلال. قد أثار مخاوف الساسانيين ، ولذا فإن إقصاء اللخميين أصبح أمرًا مرغوبا فيه لدى

---

(١) الأغاني : الأصبهاني ٩ / ١٨٣ ، والكامل : ابن الأثير ١ / ٢٦٦ ، جواد علي : تاريخ ٣/ ٢٥٥ وما بعدها

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : زيدان ٢٨٣ ، سيد عبد العزيز ص ٢٦٢

الفرس ، هذا وقد أعيد تنظيم إدارة (عرب فارس) بعد النعمان على أساس جديد واستعمل الفرس على الحيرة ، وعلى أملاك اللخميين الأخرى : (إياس بن قبيصة) الذي لم يكن ينتمي إلى اللخميين ، بل كان نصرانيا من طيئ، إلا أنه في وقت واحد مع إياس تم تعيين فارسي هو (نه فركان ـ به ركان) بدوارة شؤون العرب ، وبهذا فإن ابن قبيصة لم يكن حاكما مستقلا ـ بل وجد على حالة من التبعية لعامل الفارسي خلال فترة حكمه التي امتدت لتسعة أعوام ٦٠٢ ـ ٦١١م[١]

لقد كانت القبائل العربية في شمال الجزيرة أكثر احتكاكا بدولة اللخميين منهم بدولة الغساسنة وأكثر تعظيما لأمرها وتهيبا منها ، فكانوا أشد رغبة في الانضمام إليها والدخول في رعايتها، فاتسع سلطان اللخميين اتساعا كبيرا ، ولا سيما أنه في إبان سطوة الفرس وضعف الروم ، وقد رأيت مبلغ ذلك في أيام امرئ القيس بن عمرو صاحب قبر النمارة ، فإنها شملت معظم القسم الشمالي من جزيرة العرب وبعض جوانبها ، ثم اختلفت بعد ذلك حتى لا يتيسر حصرها وتحديدها ، ولكننا نعلم أن مجالسهم كانت مرجع المستنجدين ، وميدان الشعراء المادحين ، ومن شعرائهم النابغة، وحسان، والمتلمس، والمنخل اليشكري ،وهم مع الشعراء وقائع تدخل في مجلد كبير[٢]

واختلفوا في ديانة ملوك الحيرة ، فمن قائل إنهم تنصروا على عهد امرىء القيس الأول بن عمرو وفي أوائل القرن الرابع وقائل : إن أول من تنصر النعمان بن المنذر في آخر القرن السادس ، وبينهما أقوال كثيرة لا سبيل إلى تحقيقها لاختلاف القائلين فيها مثل اختلافهم في عدد الملوك وتعاقبهم وسنى حكمهم ، على أننا نرى في سجل الكنيسة Syndicon Drintale أن الحيرة كان عليها أسقف سنة ٤١٠م ، وأن ملكها حمى النصارى سنة ٤٢٠م،ونرى من الجهة الأخرى أن النساطرة وملوك الحيرة كانوا إلى أواسط القرن المذكور على الوثنية ، وأن المنذر بن امرىء القيس بن ماء

(١) العرب على حدود بيزنطة ص ١٤٦

(٢) الأغاني : الأصبهاني ٩ / ١٥٥ ـ ١٥٧

السماء كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزي ، وكان بين نسائه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى أم عمرو بن هند مضرط الحجارة ، كانت مسيحية فتبنت مبادئ النصرانية في ابنها فنشأ نصرانيا ، ويؤيد ذلك ما نقشته على ديرها(١)

ولم يكن هلاك النعمان وسقوط أسرة اللخميين الحاكمة يمر دون أن يخلف آثاره على الفرس ، فإذا كانت تغلب قد بقيت على ولائها للفرس، فإن بكرًا قد شرعت في القيام بغارات على أملاك إيران المجاورة لها أي على أرض السواد(٢)

وحول هذا الخلاف الذي قادته بكر ضد تغلب وأسيادها من الفرس ، وما تبع ذلك من محاولات الفرس لإخضاع بكر ، وسخط العرب على (خسرو) الحاكم الفارسى قد بلغ الحد الذي يكفي فيه انتفاض قبيلة واحدة ليجر عليه في الحال انتفاض القبائل الأخرى ، وقد تقدم جيش الفرس بصحبة حلفائهم الذين ظلموا إلى جانبهم مثل تغلب ، ودارت المعركة الفاصلة أيام الصيف القائظ من عام ٦٠٤م في أغلب الظن، ومن العسير ردها إلى تاريخ تال لذلك؛ لأنها ترتبط بكارثة اللخميين التي حدثت عام ٦٠٢م(٣)

وقد ترك يوم ذى قار أثرا عميقا في أدب العرب وبطبيعة الحال فقد كان يوم ذى قار يوما من أيام العرب الكبرى، ذلك أن نهاية اللخميين أصبحت في ذات الوقت بداية فترة جديدة ،منى الجيش الفارسى فيها بهزيمة نكراء ، وأثبت العرب أن بمقدورهم كسر شوكة أكبر جيش في تلك العهود ، ألا وهو جيش الفرس الساسانيين .

وانتصار العرب في ذى قار كفله من البداية التفوق التقني لأسلحتهم ، وثمة سبب آخر عميق لانتصار العرب يكمن فيما ما طرأ على نظامهم الاجتماعي من

(١) العرب قبل الإسلام : عاقل ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، العرب على حدود بيزنطة ص ١٤٥
(٢) العرب على حدود بيزنطة ص ١٤٧ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : سيد عبد العزيز ٢٥٥
(٣) من الواضح أن (ذي قار) حصلت والرسول قد ابتعث في مكة ، فإذا كانت البعثة قد بدأت بتاريخ ٦١٠ فكيف نوفق ذلك مع ما سبق ؟ المؤكد أن المعركة حصلت عام ٦١٤م وليس ٦٠٤م .

تطورات ، فهم قد تجاوزوا آنذاك نطاق الوحدات القبلية ودخل تطورهم في قوالب جديدة توثقت فيها وقويت عرى محالفاتهم ، حقا إن رسالة النبي الكريم لم تكن قد عمت بعد لتربطهم داخل العقيدة الجديدة بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم بيد أن تطور المستوى الاجتماعي والاقتصادي للقبائل العربية الشمالية بلغ درجة مكنت دعوة الإسلام من أن تجد صدى مباشرًا بينهم ، وتنسب الرواية العربية إلى النبي أنه لما بلغته قبيلة ربيعة خبر الانتصار ، قال : هذا أول يوم انتصفت العرب على العجم وبي نصروا [(١)]

(١) العرب على حدود بيزنطة ١٤٧ ، ١٤٨ . الطبري : تاريخ ٢ / ١٩٣ ـ ٢١٢ ، تاريخ الجاهلية : فروخ ١٣٨ ـ ١٤٥

قائمة ملوك اللخميين عن سدني سميث[(١)]

م	أسماء ملوك اللخميين	سنوات حكمهم	مدد حكمهم	ملوك الساسانيين المعاصرين لهم	سنوات حكمهم	مدة حكمهم
١	امرؤ القيس	٣٨٠_٤٠٤	٣	أرد شير الثاني	٣٧٩_٣٨٢	٤
			٥	شابور الثالث	٣٨٣_٣٨٧	٥
			١١	بهرام الرابع	٣٨٨_٣٩٨	١١
			٦	يزدجر الأول	٣٩٩_٤١٩	٢١
٢	النعمان الأول ابن امرئ القيس	٤٠٥_٤٣٣	١٥			
			١٤	بهرام الخامس	٤٢٠_٤٣٨	١٩
٣	المنذر الأول ابن النعمان	٤٣٠_٤٧٣	٨ سنة ٩ شهر			
			١٨	يزدجر الثاني	٤٣٩_٨٥٦	١٨
			١٧	فيروز	٤٥٧_٤٨٣	٢٧
٤	الأسود بن المنذر	٤٧٤_٤٩٣	١٠			
			٤	بلاش	٤٨٤_٤٨٧	٤
				قباد	٤٨٩_٥٣٠	٤٣
٥	المنذر الثاني ابن المنذر	٤٩٤_٥٠٠	٧			

(١) العرب على حدود بيزنطة ص١٣٨ ـ ١٤٩، الطبري : تاريخ ٢ / ٢١٣ ، وأكمل ما وصل إلينا ذكرها الأصفهاني في كتابه (سني الملوك) ، تاريخ العرب قبل الإسلام : زيدان ٢٦٣ ـ ٢٦٥ ، وجواد علي : ٣/ ٣٠٦_٣١٤

٦	النعمان الثاني بن الأسود	٥٠٣_٥٠٠	٤			
٧	أبو يعفر بن علقمة	٥٠٥_٥٠٣	٣			
٨	المنذر الثالث ابن النعمان	٥٥٣_٥٠٥	٢٥			
			٢٣	خسرو الأول	٥٧٧_٥٣١	٤٧
٩	عمرو بن المنذر	٥٦٩_٥٥٤	١٦			
١٠	قابوس بن المنذر	٥٨٠_٥٧٧	٨ أشهر			
١١	سهراب		٣ سنة ٤ شهر	هرمزد الرابع	٥٨٩_٥٧٨	١٢
١٢	المنذر الرابع بن المنذر	٥٨٣_٥٨٠	٤			
١٣	النعمان الثالث بن المنذر	٦٠٤_٥٢٩	٧ سنة ٨ شهر			
			١٤ سنة ٦ أشهر	خسرو الثاني	٦٢٦_٥٩٠	٣٧
١٤	حكام فرس	٦١٦_٦٠٤	٢٢			
١٥	المنذر بن النعمان بالبحرين	٦٣١		متنافسون على العرش	٦٣١_٦٢٧	

جـ ـ كندة [1]

كندة : قبيلة قحطانية في عرف النسابين ، تنتسب إلى أنور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة ابن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وثور هو كندة وقد عرفت عند الإخباريين بـ (كندة الملوك) لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان ؛ ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل ، وكانوا يتعززون بنسبهم إلى كندة وإلى(آكل المرار)لأنهم كانوا ملوكا .

وكندة :هي (كدت) القبيلة التي ورد اسمها في نصوص المسند مثل نص (أبرهة) بل ورد اسمها في النصوص المذكورة قبل هذا العهد بكثير .

ولقد جرت أحداث تاريخ كندة في مناطق فصلت بينها مساحات شاسعة ، وفي هذا انعكس الطابع المميز لهجرات القبائل العربية التي ظلت خلال هذه الأحداث محتفظة بصلة الرحم بين بعضها وبعض ، ولقد أثارت الأخبار المتواترة لدى العرب عن كندة شكوك الباحثين لأكثر من مرة فوقفوا منها موقف الحذر ، غير أن الكشوف الأثرية الجديدة ببلاد العرب الجنوبية تمكننا من الإفادة من مادة الرقوم والتي ألقت ضوءا جديدا على تاريخ هذه القبائل ، وهذه المادة تتفق إلى مدى بعيد مع روايات المؤرخين العرب الذين دونوا مصنفاتهم في العهود الإسلامية والذين ترتفع مادتهم في جانب كبير منها إلى مصنف ابن الكلبى :(كتاب ملوك كندة)الذي استقى مادته من مصدرين أساسيين أحدهما عربى جنوبى لا علم لنا بمؤلفه ، والثانى رواية:ظرش بن إسماعيل ، وإلى هذا يضيف حمزة الأصفهانى مصدرا كتابيا آخر هو كتاب«أخبار كندة» وهذا المصدر الأخير لا علاقة له البتة بكتاب ملوك كندة لابن الكلبى الذي أشرنا إليه آنفا وبفضل هذه المصادر المكتوبة التي تتمتع بالثقة ، حفظ المسلمون مادة جديرة بالاهتمام أيدتها في الوقت الحاضر الرقوم السبئية[2]

(١) جواد علي: تاريخ ٣/ ٣١٥ ، تاريخ الجاهلية : فروخ ٨٢ .
(٢) العرب على حدود بيزنطة ص١٥٣

في أواخر القرن الخامس الميلادى اتجه (حجر بن عمرو) إلى قلب نجد ، وانتزع جانبا من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة، ثم نزل فيها في مكان يدعى بطن عاقل (جنوب وادى الرقة على الطريق بين مكة والبصرة) ، وهكذا تسرب النفوذ الأجنبي إلى مكان جديد في جزيرة العرب ، نفوذ رومانى مناهض (معاد) لنفوذ الفرس في الحيرة ، ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة .

واتبعت الأسر الثلاث ، كندة في نجد، والمناذرة في العراق، والغساسنة في الشام، في مبدأ الأمر سياسة ودية مرة وعدائية مرة أخرى إن اليمن دفعت حجرا إلى التملك في نجد ، وإلى مهاجمة الحيرة عاصمة المناذرة ، وكان ذلك كله في مصلحة الغساسنة أو في مصلحة الروم من وراء الغساسنة لم يسع حجر إلى توسيع ملكه نحو الشمال (في اتجاه العراق) فقط بل حاول أن يوسعه نحو الشرق في البحرين (الشاطئ الغربي من خليج العرب) أيضًا.

سار حجر بقبائل ربيعة ليغزو البحرين ، علم بذلك «زياد بن عمرو بن الهبولي ابن ضجغم ابن حماطة بن سليح القضاعي » فخالف حجرا ، وسار في غير الطريق الذي سار فيه حجرا إلى غمرة كنده، وأفسد في البلاد، ثم حمل معه أسرى كثيرين فيهم زوجة حجر كما قيل عندئذ لحق حجر بزياد ، فأدركه عند (الحفير) قرب يمن أباغ (بين الفرات والشام) وقتله واستعاد زوجته ، ثم علم أن زوجته كانت راضية عن عمل زياد فانتقم منها شر انتقام .

وكندة أو (كدت) هي مجموعة من القبائل أصلها من الجنوب الغربي ، وكانت تشتغل الجانب الشرقي من اليمن حيث كان مركزهم دمون ، وهذا أمر معلوم حتى لمؤرخ متأخر مثل ابن خلدون ، وقد ورد ذكر قبائل (كدت) لأكثر من مرة بالرقوم السبئية ، وهي الرقوم التي تزايد عددها بفضل الرحلات الأثرية التي قام بها (سان جون (عهد الله فيلبي)، و(ألبرايت)، و(ريكمانس)، وغيرهم من المتخصصين وعلماء الآثار والنقوش البارزين .

وجدير بالذكر أنه قد تأيدت الآن الواقعة التي تؤكد أن شطرا من قبائل كندة قد اضطر إلى الهجرة وانتجاع مواضع وسط القبائل العربية الشمالية بسبب الاضطرابات التي كان مسرحها الجنوب العربي ، ومعطيات الرقوم تلك تؤكد الروابط وصلة التبعية التي كانت للكنديين ببعض الدول والأحلاف القبلية بجنوبي الجزيرة العربية، ومن هناك سلكوا الطرق القديمة المتجهة شمالًا ، حتى بلغوا نجدا ، ثم انتشروا بعيد فيما وراء ذلك حتى بلغوا العراق وفلسطين وفينيقية وسورية ، وببلاد العرب الوسطى شغلوا شطرا من المنطقة التي كانت تقطنها قبائل مصر ، وكان مركزهم بها مدينة (غمر ذى كندة) الواقعة بالنواحى الجنوبية الغربية من نجد على مرحلتين من مكة .

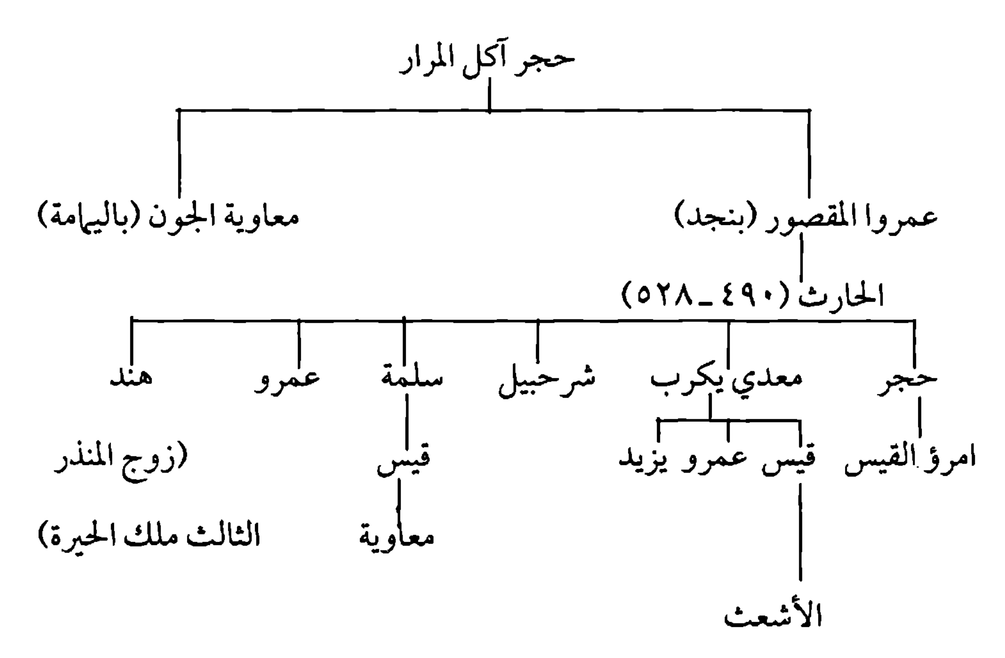
وكندة : على قول العرب بطن من كهلان ، وحكمنا فيهم مثل حكمنا على سائر عرب الشمال في الطور الثانى،وأصلهم فيما رواه الثقات من البحرين والمشقر، وأنهم أجلوا عنهما إلى حضرموت، وعددهم ثلاثون ألف نفس في زمن لا يمكن تحديده ، وأقاموا هناك ما شاء الله في بلد يعرف باسمهم

كندة :مرتفع من الأرض تشرف على حضرموت وتصب أوديته فيه ثم إلى مهره، وقصبة الكبرى اسمها : (دمون) . أقام الكنديون هناك دهرا ، وهم على وفاق مع الحميريين حكام تلك البلاد، وكان الحميريون يستخدمون خاصة كندة وكبارهم في بعض مصالحهم ، ويدخلونهم في حاشيتهم أو بطانتهم واتفق على عهد حسان بن تبع ملك حمير أن حجر بن عمرو سيد كندة دخل في خدمته لقرابته، ولأن حجرا وحسانا كانا أخوين لأم واحدة ، وقد قام حسان بفتوح كبيرة في جزيرة العرب شمالا وجنوبا ، وكان حجر معه ، فلما أراد الرجوع إلى اليمن رأي أن يختصه بكرامة، فولاه قبائل (معد) كلها ، وهي من قبائل البادية التي لا تجمعها دولة ، فولاه عليها ورجع إلى بلده فدانت معد لحجر ، وهو حجر بن عمرو المعروف بآكل المرار[1]

---

(١) العرب على حدود بيزنطة ١ وإيران ص ١٨٣ ، معجم قبائل العرب ـ كحالة ٣ / ٩٩٨

شجرة ملوك كندة من بيت آكل المرار [1]



وذكر اليعقوبي لنزوح كندة عن حضر موت سببا آخر قال : إنه وقع بين القبيلتين حروب طالت حتى كادت تفنيها ، وكندة أضعفها فرأت الرحيل إلى اليمن، فصارت إلى أرض (معد) فجاورتهم ثم ملكوا رجلا منهم هو أول ملوكهم، واسمه مرتع بن معاوية بن ثور ، وخلفه آخر كما في هذا الجدول :

م	شجرة ملوك كندة	مدة حكمهم
١	مرتع بن معاوية بن ثور	حكم ٢٠ سنة
٢	ثور بن مرتع	حكم مدة قصيرة
٣	معاوية بن ثور	حكم مدة قصيرة

(١) العرب على حدود بيزنطة وإيرن ص ١٨٣ . معجم قبائل العرب ـ كحالة ٣/ ٩٩٨

٤	الحارث بن معاوية بن ثور	٤٠ سنة
٥	وهب بن الحارث	٣٠ سنة
٦	حجر بن عمرو آكل المرار	٢٣ سنة
٧	عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار	٤٠ سنة
٨	الحارث بن عمرو بن حجر	كان معاصرًا للمنذر بن ماء السماء[(١)]

ويذكر جورجي زيدان سببا آخر لتولية حجر آكل المرار يقول إن سبب تملكه على العرب في نجد أن سفهاء بكر غلبوا عقلاءها ، وغلبوهم على الأمر ـ وأكل القوى الضعيف ، فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، ورأوا مع ذلك أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم إذ يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، فأجمعوا على أن يسيروا إلى تبع اليمن (خسان) ، وكان التبابعة للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين[(٢)] وطلبوا إليه أن يولى عليهم ملكا ، وكان حجر المذكور ذا رأي ووجاهة فولاه عليهم ، ومع اختلاف الروايات في الصورة فإن المغزي واحد، وهو أن دولة كندة تابعة لدولة حمير ، فقدم حجر إلى نجد ونزل بطن عاقل ، وكان اللخميون قد ملكوا كثيرا من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل،فنهض حجر وحارب اللخميين،وأنقذ أرض بكر منهم فاجتمعت كلمة القوم على احترامه ، وما زال كذلك حتى مات ودفن في بطن عاقل[(٣)]

---

(١) جورجي زيدان : تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، تاريخ الأدب العربي : ضيف ص ٤٨

(٢) هذا التعبير به شيء من الفخر الذي يقدم عليه المؤلف عادة فى جميع مؤلفاته عن التاريخ الإسلامي فلم يكن التبابعة إلا وثنيين ، وربما تنظر إليهم العرب بشيء من المهابة لفضلهم ورفعه مقامهم ليس إلا أما أن يشبهوا بالخلفاء المسلمين ففي الأمر خروج عن المألوف .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : زيدان ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، تاريخ الأدب العربي : ضيف ص ٤٨ ، دراسات في تاريخ العرب ـ مهران ٦٠٩ وما بعد ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : سيد عبد العزيز ١٥٨ ، تاريخ العرب القديم : عاقل ٢١٢ ، العرب على حدود بيزنطة : ١٧١ وتاريخ الجاهلية : فروخ ص ٨٨ ، جواد على : تاريخ ٣ / ٣٣٣ ، الأغاني ٨ / ٦٣

لم تدم حياة كندة كثيرًا في حكم المناطق التي استولت عليها ، والملاحظ أن مساحة الدولة أو حدودها كانت في تذبذب دائم ، وقياسا على ملوك الحيرة فإن ملوك كندة لم يتجاوزوا جيليت من الحكام ابتداء من حجر آكل المرار ، وانتهاءًا بامرئ القيس صاحب القصة المشهورة في الأدب العربي وأحد أصحاب المعلقات، وكما يلاحظ أن كثيرا من ملوك كندة لم يكونوا ملوكا بالمعنى المتعارف عليه في قيادة دولة موحدة وعاصمة واحدة، ولكن كان أبناء وأحفاد حجر من الكنديين يحكمون بوقت واحد في قبائل مختلفة إلا أن الشيء الذي يلاحظ أنه لم تقع حروب بين القبائل التي حكمها أولئك في وقت واحد وإنما كان الإخوة متفاهمين ومتعاونين .

لقد تمكن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار أن يستفيد من الخلافات التي وقعت بين قباذ ملك الفرس ، والمنذر بن ماء السماء بسبب المزدكية ، فوافق الحارث الكندي قباذ دعوته ، فولاه الحيرة فعظم في أعين القبائل ، واستضعفوا بني لخم (أصحاب الحيرة) وتوافدوا إليه، وفيهم الأشراف من (معد) يهنئونه ويتقربون إليه بالطاعة ، وطلبوا منه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل حتى كاد يفنيهم ، ففرق فيهم أربعة من أولاده تولى كل منهم بعض تلك القبائل على هذه الصورة :

١ ـ حجر بن الحارث ، تولى بني أسد بن جذيمة وغطفان .

٢ ـ شرحبيل بن الحارث : تولى بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة ، وطوائف من بني إرم بن تميم والرباب .

٣ ـ معدي كرب بن الحارث : تولى قيس عيلان وطوائف وغيرهم .

٤ ـ سلمة بن الحارث : تولى تغلب والنمر بن قاسط .

أما أبوهم الحارث فلم يطل سلطانه على الحيرة ، فما هو إن مات قباذ وتولى أنوشروان حتى أرجع المنذر ، وفر الحارث بماله وأولاده على الهجن فتبعه المنذر على الخيل من تغلب وإياد وبهراد فلحق بأرض كلب ، ونجا فانتهبوا ماله وهجانه ،

وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث ، فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا ، وفي ذلك قال امرؤ حياة كندة كثيرا في حكم المناطق التي استولت عليها ، والملاحظ أن مساحة الدولة أو حدودها كانت في تذبذب دائم، وقياسا على ملوك الحيرة فإن ملوك كندة لم يتجاوزوا جيلين من الحكام ابتداء من حجر آكل المرار ، وانتهاء بامرئ القيس صاحب القصة المشهورة في الأدب العربى وأحد أصحاب المعلقات،القيس شعرا . أما الحارث فظل في بني كلب حتى قتل فيهم ، واختلفوا بسبب قتله ، وبقى أولاده الأربعة على ما ملكوه، ولكن موت أبيهم أضعفهم(١)

أوقع المنذر الإخوة أبناء الحارث فاقتتل الأخوان سلمة وشرحبيل في معركة الشمس يوم (كلاب) قتل فيها شرحبيل ، وقد جزع سلمة كثيرا لمقتل أخيه ، والتجأ إلى بكر بن وائل، فأذعنت له، وخرجت عن طاعة المنذر ، فسار إليهم المنذر وأقسم إن ظفر بهم ليذبحنهم ، على جبل (بأوارة) حتى يبلغ الدم الحضيض، ففاز بذلك وذبح الكثير منهم في يوم عرف بيوم (أوراة) ، ولكن الدم لم يبلغ الحضيض لأنه كان يتجمد فور الذبح ، فأشاروا عليه أن يصب فوقه ماء فسال حتى بلغ الحضيض ، وأحرق النساء مما أضعف قتل الأخوين شرحبيل وسلمة موقع أخويهما الآخرين حجر صاحب بني أسد ،ومعدى كرب صاحب قيس علان ، فتنكر بنو أسد لحجر ملكهم ، وساءت سيرته فيهم، فاجتمعوا على خلافه وبدؤوا بنبذ الطاعة، وأمسكوا عن أداء الإتاوة وضربوا الجباة الذين أرسلهم في طلبها ، فحمل عليهم حجر بجند من ربيعة ، فأعمل فيهم السيف ، وأباح الأموال ، وحبس الأشراف ، ومنهم عبيد بن الأبرص الشاعر المشهور ، فقال شعرا يستعطفه ، فرق

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: زيدان ٢٨٨، ٢٨٩، تاريخ الأدب العربي: ضيف ص٤٨ دراسات فى تاريخ العرب: مهران ٦٠٩ وما بعدها، تاريخ العرب قبل الإسلام: سيد عبد العزيز ١٥٨، تاريخ العرب القديم: عاقل ٢١٢، العرب على حدود بيزنطة: ١٧١، وتاريخ الجاهلية: فروخ ص٨٨، جواد علي: تاريخ ٣/ ٣٣٣، الأغانى ٨/ ٦٣

لهم ، فبعث في إطلاق سراحهم ، فخرجوا وفي نفوسهم غل ، فلما وصلوا إليه قتلوه طعنا وانهزم رجاله . وهو والد امرئ القيس الشاعر المشهور[١]

وقد استفاضت كتب السير والتاريخ العربية بذكر امرئ القيس بن حجر هذا ، وأفردت له كل المصادر أبوابا طويلة ووردت أخباره في المصادر الأجنبية التي استقت معلوماتها من الكتاب العرب والرومان والمؤرخين المحدثين[٢].كان امرىء القيس يعيش حياة لهو فلما أخبر بموت أبيه قال : ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ولا سكر غدا إذا اليوم خمر وغدا أمر وقرر أن يترك ملذات الحياة حتى يدرك ثأره وكان يعلم عجزه أمام قوة عدوه ، وعلم أن ذلك العدو وإذا عرف مكانه قبض عليه ، فقضى فترة متجولا متنكرا باليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل فلم يجره أحد،حتى أتى السموأل بن عاديا صاحب حصن الأبلق فاستجاره فأجاره ، فاستودعه أدراعه وأمتعته وهو لا يرى مرجعا يلوذ إليه إلا قيصر الروم، لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه ـ على عادة العرب في ذلك العهد ـ فوسط الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب النفوذ عند الروم يومئذ وطلب إيصاله إليه فعل .

وتقول العرب إن القيصر سمع وشاية ضده فألبسه درعا مسموما فقتله ، والمهم مع الشك بهذه الرواية أنه قتل ولم ينل مأربه .

وتضعضعت دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معد يكرب رئيسا على قيس عيلان وأمراء صغار لهم سيادة على بعض القبائل وربما حكم أحدهم بلدا أو واديا، وأشهر فروع تلك الدولة أربعة في الأماكن التالية دومة الجندل ، البحرين ، نجران، غرة ذى كندة ، وكل من هذه الفروع دولة قائمة بنفسها حتى ظهر الإسلام

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : زيدان ٢٨٩ ـ ٢٩٠ بتصرف ، الأغاني ٨ / ٦٣ ، العرب على حدود بيزنطة ص ١٨٠

(٢) الأغاني : الأصفهاني ٨ / ٦٨ ، الكامل : ابن الأثير ١ / ٣٣١ .وجواد علي : تاريخ ٣/ ٣٥٩، والعرب على حدود بيزنطة ١٨٠.

فذهبت جميعا . وأورد جورجي زيدان جدولا تقريبيا لحكام كندة الحقيقيين تجاوزوا عن الذين حكموا خارج قبيلتهم وهم : حجر بن عمرو آكل المرار ٤٥٠، وعمرو ابن حجر ٤٩٠ ، والحارث بن عمرو توفى ٥٤٠م ، وحجر بن الحارث ٥٥٠م وامرؤ القيس بن حجر ٥٦٠م، والملاحظ على دولة الكنديون أنها لم تكن دولة ذات عاصمة وجيوش وقوة ، وإنما هي قبيلة استطاعت أن تنال حكم قبائل أخرى من غير نسبها أو غير منبتها ، وفي فترة من الاستقرار تمكن الكتديون أن يمدوا سلطانهم على بعض القبائل ويحكموها ، ويخضعوها لسلطانهم ، واستطاعوا في حالة وصول الحارث إلى حكم الحيرة أن يرثوا سلطان اللخميين ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى حكم قبائلهم التي ارتضت سيادتهم وارتضت أن يكونوا حكاما بها وكثيرا ما نقضت هذه القبائل سيادة الكنديين وحاربتهم ، ولم تخضع لهم إلا بالقوة ، كما فعل حجر بن الحارث والد امرئ القيس الذي تمكن أن يعيد سلطانه على بني أسد بالقوة .

كما أن العديد من القبائل قد ارتضت بحكمهم وحكمتهم كما ورد في كتب الأدب العربي والتاريخ ، عندما استدعى الكنديون ليسدوا مكان القيادة في هذه القبائل ، على أنهم كانوا يستمدون قوتهم من أصلهم اليمنى المعروف ، ومساندة القبائل اليمنية (حمير) لهم .

ولقد دخلوا في اللعبة الدولية آنذاك وهي لعبة الصراع بين القوتين العظميين من جهة ولعبة السيطرة والولاء ونقل الولاء وغير ذلك مما أتقنه حكام الحيرة وحكام بصرى من الغساسنة ، فقد وقف الحارث مع الفرس المزدكيين ليصل إلى حكم الحيرة ، في الوقت الذي توجه به امرؤ القيس إلى قيصر الروم ليساعده في استرداد مملكته ، أو للثأر من قبائل أسد التي تمكن أحد عناصرها من الوشاية على امرئ القيس عند القيصر مما أدى لقتله ، وباعتبار أن الكنديين حكموا في غير قبائلهم فقد استمدوا قوتهم من ماضيهم أو من تأييد قبائل حمير لهم .

كما يلاحظ أن الحكام من الكنديين قد انتشروا في الكثير من الأماكن اعتبارا من حضرموت إلى نجد إلى البحرين فالعراق فالحيرة ، وهذا النموذج الفريد من الحكم لم يدم طويلا كما دامت دولة اللخميين (المناذرة) أو دولة أبناء جفنة (الغساسنة) .

هذا الوضع أضعف الكنديين فلم يكن لهم استقرار على قبيلة أو مجموعة قبائل موحدة ، بل كانوا حكاما لمن في مستوى سلطانهم ، وهذه الفرقة أيضا جعلت أعداءهم يطالونهم الواحد تلو الآخر كما فعل المنذر بن ماء السماء العائد بعد انكسار المزدكية فقد تمكن من قتل الأب والإيقاع بين الأبناء واصطيادهم بأساليب مختلفة الواحد تلو الآخر .

لم يبق من سلطان الكنديين عند ظهور الإسلام إلا بعض السلطات الضعيفة حيث دخلت كلها في هذا الدين .

(٤) الإمبراطوريات الكبيرة

مدخل :

في الوقت الذي ظهرت فيه القوى العربية المختلفة والمتنافسة وبأشكالها المتعددة ، كان العالم المعروف في ذلك الوقت يقع تحت سيطرة القوتين العظميين، كما هو متعارف عليه الآن وهما دولة الفرس الساسانيين فى الشرق ، ودولة الروم البيزنطيين في الغرب ، وحدود هاتين الدولتين لم تكن ثابته باستمرار ، بل يعتريها التبديل والتغيير يوما بعد يوم نتيجة الحروب المتواصلة بين هاتين القوتين من جهة على مدى ألف عام تقريبا ، لكن النفوذ الفارسي لا يتعدى فى المنطقة العربية هذا الرقم فقد بدأ الغزو الرومانى للمنطقة على إثر انحسار النفوذ اليوناني والذي سبق ميلاد المسيح بعقد أو أقل .

العالم وقتها هم الفرس والروم ، وكل القوى الأخرى لم تكن بمناي عن سيطرة هاتين القوتين ، ولقد مر معنا بعض هذا التأثير فى بعض القبائل ، وبعض المناطق التي وقعت تحت التأثير الفارسي والبيزنطي ، لقد استحوذ تاريخ الفرس فى الدراسات العربية على مسافة أوسع وأكثر مما اعتنى بالتاريخ الروماني، والسبب الواضح فى ذلك هو دخول الفرس فى الإسلام فى فترة لاحقة من التاريخ الإسلامي بل إن كثيرا من القوى فى العصر العباسي كان يحركها الفرس من أعلى المستويات إلى أدناها .

وفي ذلك التاريخ بدأ التدوين العام والموسع للتاريخ الإسلامي ، فتوجه الكثيرون إلى دراسة أحوال هذه الدولة وهؤلاء القوم ، كما أن ظهور عدد كبير جدًا من العلماء والمؤرخين المنحدرين من أصل فارسي ، أو أنهم ولدوا وترعرعوا فى بلاد فارس كان له الأثر الكبير فى الولوج بهذا الباب ، وقد استفاض التاريخ الإسلامي

بذكر حتى الجزئيات البسيطة من هذا التاريخ ، وانفردت كتب فقط بدراسة هذه الدولة أو تلك ، وكان للتزاوج الذي حصل بين الفرس والعرب فى فترات لاحقة أثره الكبير فى هذا المضمار .

أما بالنسبة للتاريخ الروماني، فإن المصادر العربية القديمة قليلا ما تذكره ، والسبب فى ذلك أن بلاد الروم والشعب البيزنطى بقوا دار حرب طوال فترات التاريخ الإسلامي الوسيط ، حتى قرر الأتراك المسلمون حكم بيزنطة بدخولهم عاصمتها فى بداية التاريخ الحديث وباسم الإسلام ، فلم يكتب للمؤرخين الحديث الكثير عن هذه الدولة إلا ما لا بد من ذكره ، حيث أفاض المفسرون بتفسير سورة الروم ، ونقلوا الكثير من الأحداث التي جرت بين الفرس والروم ـ أهل الكتاب ـ أمام الفرس الوثنيين وذلك فى بداية ظهور الدعوة الإسلامية ، مما جعل الوثنيين العرب يتخذون هزيمة الروم وقتها سببا قويا للتشهير بالمسلمين أصحاب الكتاب الجديد (القرآن الكريم) ويفرحون لهذا الانهزام أمام وثنية الفرس على الرغم من أنهم كانوا حديثى عهد بنصر كتبه الله لهم على فارس فى«ذى قار» .

كما أفاض المؤرخون المسلمون بذكر المصادمات والحروب والوقائع التي جرت بين المسلمين والروم لكنهم لم يتطرقوا إلى إفراد دراسات عن عهود خاصة متسلسلة من تاريخ الدولة البيزنطية فى التاريخ العربي القديم منه والوسيط والحديث حتى توجه المؤرخون إلى سد مثل هذا الفراغ ، ونقل عنهم بعض المؤرخين المحدثين من العرب هذه الأحداث خاصة فيما يتعلق بالصراع الدينى ضمن الديانة المسيحية بين نصارى العرب ونصارى الروم ، وما ادت له هذه الصراعات من تحريفات وإضافات فى الديانة المسيحية ، وأصبح لدينا سجلا حافلا بالأحداث التي نحن بصددها عن هاتين الدولتين من العرب والفرس اللاحقين والروم واليونان المعاصرين، وكذلك عن الفرس والعرب الذين غزت أفكارهم المبادئ القومية لينبشوا فى التاريخ القديم الذي وجدوا فيه أملا كبيرا ليمدهم بالأحداث التي تدعم أفكارهم وتثبتها


الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية
(في القرن السادس المسيحي)
أميال
مناطق تحت الحكم البيزنطي الغربي المباشر
مناطق تحت الحكم البيزنطي الشرقي المباشر
دول عربية غسانية تحت وصاية الحكم البيزنطي الشرقي
مناطق تحت الحكم الفارسي المباشر
حكومات عربية تحت وصاية الحكم الفارسي
بحر مديترانيوم (البحر المتوسط)
بحر الروم
يثرب (المدينة)
مكة
جدة
الطائف
صنعاء
اليمن
الإسكندرية
القدس
(دمشق)
الحيرة
بابل
روما
كورسيكا
سردينيا
صقلية
قرطاجنة
أكسوس
نيلوس (النيل)
(الدانوب)
(البحر الأسود)
الخليج العربي
المسيرة النبوية
رسمنا أسماء الأماكن والبحار والبحيرات والأنهار كما كانت تسمى في القرن السادس المسيحي حسب نطقها اللاتيني
ابو الحسن الحسني الندوي

والذي يعنينا فى هذا المقام هو إلقاء ضوء بسيط على هاتين الدولتين اللتين كان لهما تأثير كبير فاعل فى الأحداث التي كانت عند الأنصار أو غيرهم من العرب أو المسلمين بعد ذلك .

سبق ظهور الدولة الرومانية في منطقة الشرق ـ بلاد الشام والعراق ووادي النيل وحوافي الجزيرة ظهور إمبراطورية الإسكندر المقدوني ـ القرن الرابع قبل الميلاد ـ التي تمكنت أن تخترق كل القوى المتناثرة في هذه المنطقة، والوصول إلى بلاد فارس، وانتهى زخم هذه الدولة بموت مؤسسها في بلد فارس ، وكان لهذه الهجمة بعد ذلك التأثير الكبير على المنطقة ككل ، فقد أنقسمت هذه الإمبراطورية الواسعة السريعة الظهور إلى ثلاثة أقسام استقل بكل واحدة منها أحد قادة الإسكندر .

١ ـ أخذ (نتفونس) المقاطعات الأوربية وبعض آسيا الصغرى / تركيا.

٢ ـ أخذ (بطليموس) مصر وجنوبي سوريا وبعض شواطئ آسيا الصغرى / تركيا

٣ ـ أخذ (ساش) ما تبقى من المقاطعات الآسيوية .

ثم تقلصت هذه الأقسام مع الأيام وساءت أحوالها السياسية بالاستبداد ، ولكن تمتعت ببشيء من التقدم العلمي والازدهار في العمران ، ولقد بني في هذه الحقبة مدن كثيرة أشهرها الأسكندرية العظمى في مصر ، والإسكندرونة وأنطاكية في شمال سوريا والإسكندرية في العراق[١]

وحدث تطور خطير في الشرق الأدنى بعد الميلاد ، فقد زالت حكومة (البارثين) (الفرث) (البرث) في حوالي سنة ٢٢٦ ب ـ م ، وحلت محلها حكومة عرفت بحكومة (الساسانيين) ، وهي حكومة نبعت من ثورة على الحكومة السابقة، تولى كبرها ملوك أقوياء أظهروا حزما وشدة جعلت الروم يهابونهم ويرون أنهم لهم في القوة ، ولم يكن الروم ينظرون إلى (الفرث) بهذه النظرة من قبل[٢] ولما قويت

(١) تاريخ الجاهلية : فروخ ص ٦٢ ، وجواد على: تاريخ ١ / ٣٢ وما بعدها .

(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٢٦

رومية في إيطاليا بسطت سيطرتها على الجزء المعمور من أوربا، وعلى الجانب الشمالي الغربي من قارة إفريقيا ، وعلى سواحل سورية من مملكة السلوقيين ، فأنشأت بذلك إمبراطورية واسعة .

وفي عام ٤٨ ق . م قاد (يوليوس قيصر) جماعة على مصر في أيام كليوباترا آخر البطالمة على عرش مصر ولكنه لم يثبت فيها حكم رومية ، وقتل (يوليوس قيصر) في ٥ آذار (مارس) عام ٤٤ ق م فخلفه (أوكتافيوس قيصر) ٣٠ ـ ١٤ ق م، فكان عهده مليئا بالازدهار السياسي والاجتماعي ، وبالأحداث ، فهو الذي أرسل (ماركوس أنطونيوس) إلى فتح مصر (٣٠ ق م) فلما لم تنجح كليوباترا في رد الغزو الروماني عن مصر ، ولا في إقناع (أنطونيوس) بالرجوع كما كانت قد أقنعت (يوليوس قيصر) من قبل فانتحرت .

ثم إن (أوكتافيوس) هو الذي أرسل الحملة على اليمن ٢١ ق . م فلم يوفق في فتحها،وبعد فتح مصر تحولت طريق التجارة، بين الهند وأوربا إلى البحر الأحمر، فقلت قيمة الطرق البرية للتجارة وقلت قيمة اليمن كمحطة تجارية على تلك الطرق .

وفي أيام أوكتافيوس ولد (المسيح) عليه السلام في بيت لحم بفلسطين ، ثم أعلن رسالته في أيام (طيباريوس قيصر) ١٤ ـ ٣٧م دعا عيسى عليه السلام إلى الإيمان بالله تعالى وإلى المحبة والرحمة والزهد في الدنيا ، ولما أراد الناس به شرا رفعه الله إليه ، وكان عمره آنذاك ثلاثين عاما، أما مدة رسالته فكانت أياما معدودة .

في مطلع القرن الرابع للميلاد كان الضعف قد ظهر جليا على الإمبراطورية الرومانية ، فمن العوامل التي ساعدت على ضعف الإمبراطورية انتشار البرابرة في أوربا ، وعودة الفرس إلى قوتهم السياسية والعسكرية ، بقيام الدولة الساسانية ٢٢٦م ، ثم القلاقل الداخلية والثورات ، والنزاع بين النصرانية والوثنية ، ولما تجددت العداوة والحرب بين الرومان والفرس اضطر الأباطرة الرومانيون إلى قضاء زمن في رومية وقضاء زمن آخر في آسيا الصغرى / تركيا ؛ ليكونوا قريبين من ميدان المعارك بينهم وبين الفرس، فلما جاء قسطنطين الأول إلى عرش الإمبراطورية

عام ٣٠٦م بني عاصمة جديدة عند مشهد بلدة بيزنطيوم القديمة وسماها (القسطنطينية)، وفي عام ٣١٣م جعل قسطنطينين النصرانية دينا رسميا للدولة[(١)]

وعلى أثر ذلك انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين،وصارت القسطنطينية عاصمة للجزء الشرقى الذي كون الإمبراطورية البيزنطية وذلك في سنة ٣٣٠م ، وتولت هذه الإمبراطورية إرث النزاع مع الفرس النزاع الموروث من الإسكندر، وأصبحت بحكم وجودها في بلاد الشام ومصر على اتصال بالعرب وبالبحر والبر[(٢)] . ، وكان ذلك قبل وفاة ثودوسيوس ٣٧٩ ـ ٣٩٥م حيث قسم الإمبراطورية بين ولديه ، فجعل أحدهما إمبراطورًا في رومية ، والآخر إمبراطور في القسطنطينية ، فانقسمت بذلك الدولة إلى قسمين مستقلين: وقد عرف القسم الشرقى باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية . أو (الإمبراطورية البيزنطية) وعرفه العرب باسم (مملكة الروم).

وكان لا بد للساسانيين والبيزنطيين من التعامل مع العرب ومن استرضائهم ووضع حساب لهم فقد كانت لكل من الإمبراطوريتين حدود واسعة طويلة معهم ، كما كان في كل من الإمبراطوريتين قبائل ذات شأن نازلة في أرضها في مناطق حساسة هي حافات الحدود ، وأما البادية بادية الشام التي تملأ الهلال الخصيب ، فقد كانت تملؤه بقبائل عربية تعرف عند الروم باسم SARCENS SCENTTES ، وتعني الكلمة الأخيرة سكان الخيام ، أو أهل الخيام ، وهي كما قال أحد المؤرخين الكلاسيكيين في تنقل مستمر وحركة دائمة من مكان إلى مكان ، إذا وجدت أرضا خصبة عاشت عليها وإلا كسبت معيشتها بالغزو تغير على أرض الفرس أو أرض الروم ، فإذا جابهتها قوة تقهقرت إلى البادية حيث يعسر على غير الأعراب ولوجها لتأديبهم ، ولهذا لم يكن أمام الحكومات الكبيرة إلا استرضاء تلك القبائل لصيانة حدودها وللاستفادة منها في إلقاء الرعب في قلوب الأعداء والخصوم[(٣)]

---

(١) تاريخ الجاهلية : عمر فروخ ٦٣ ، ٦٤

(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٢٦

(٣) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٢٧

وعلى نفس المنهج يروى :أميانوس مارسيللينوس[١] نظرة عامة على العرب، وهي بمثابة تعبير للرأي السائد عنهم بين الدوائر الحكومية للإمبراطورية القريبة من القيصر نفسه فهو يقول :«يجب علينا ألا نتخذ العرب أصدقاء لنا وأعداء ، ذلك لأنهم شعب من الرحل ينتقلون من موضع إلى آخر ثم ينقضون بأسرع من لمح البصر،فينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم، فهم أشبه بالعقبان التي تنقض على فريستها من حالق ثم تقلع في سرعة خاطفة مبتعدة عنه»[٢]

لقد كانت جميع أحداث القرون التي لحقت قيام مملكة الساسانيين والبيزنطيين صراعا دائما وحربا مستمرة بينهما وبين القبائل العربية التي سادت في ملك هاتين القوتين ، وبلغ التأثير مداه في العرب حيث كانت العقوبات تنزل بديارهم بشكل مفزع ، إذا تخلوا عن ولاء إلى ولاء،أو إنهم انحازوا إلى جانب ضد الآخر،وكان هذا دينهم وهذه عادتهم ، ولذلك فقد جرت على رقاب العرب الكثير من الأحداث الجسام خلال القرون الثلاث التي تلت قيام هاتين الدولتين وحتى ظهور الإسلام، وقد اتخذ الساسانيون والبيزنطيون هؤلاء العرب درعا لهم وترسا يثقون به ليس غارات البدو قط بل وكذلك الهجمات الكبيرة التي كانت تبدأ عادة بهم ، ومنهم من فنى عن بكرة أبيه ، ومنم من جاءت عليهم الماحقة كما فعل (أردشير) بأهل البحرين كما ذكر حمزة الأصبهاني عندما بي قصرا أسماء« بتن أردشير»بناه بصف من الحجارةوصف من الجثث[٣]

وكذلك فعل سابور الأول ٢٤١ ـ ٢٧٢م بعد انتصاراته على الروم إذا لقى قافلة كبيرة من الجمال أهداها له (أذينة ملك تدمر) ألقاها في الفرات احتقارا لها في دينها ولموقعه؛ إذ ظن أنه أصبح ملك الدنيا من غير منازع لكن (أذينة) كمكن من أن

---

(١) مارسيللينوس رفيق الإمبراطور يوليان أحد أباطرة روما فى القرن الرابع الميلادي ، وقد دون مصنفات تاريخية عن العرب لا يرقى إليها الشك resgestarum لاعتماده على انطباعات شخصية ومباشرة مصادر سماعية وقد كتب عن العرب وأخلاقهم وعلاقاتهم مع الإمبراطورية الرومانية .

(٢) العرب على حدود بيزنطة ص٥١

(٣) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٣٣ ، ٦٣٤

ينال غرة في جيش الساسانيين،وهزمهم هزيمة منكرة حتى تركوا له أكثر الغنائم التي غنموها من الروم[(١)]

أما بالنسبة للبيزنطيين فإن العرب قاموا خير قيام بمهمة حراسة الحدود ، وأن الكثير من مصلحة بيزنطه قد ارتبط بيقظتهم وصلابتهم بالقتال ، أما في داخل الدولة نفسها ، أي حدودها الداخلية فقد وجدت القوات البيزنطية التي كان قوادها من البيزنطيين ، وطلت الحدود (ليميس Limes) بمعناها الضيق جميعها في آيديهم ، ويجب عدم التقليل من أهمية الغساسنة كدولة عازلة تسلمت غير مرة الضربات الأولى والأكثر قوة ، سواء من القوات الفارسية أو القوات العربية للبدء .

ومنذ اللحظة التي فقدت فيها بيزنطة مؤازرة الغساسنة فإن وضعها السياسي الخارجي ساء بصورة ملحوظة ، فالدفاع ضد الفرس أصبح أكثر صعوبة ، ويقف دليلا على هذا ما ناله هؤلاء من انتصارات في نهاية القرن السادس .

وأكثر خطورة من هذا كان وضع الإمبراطورية عند هجوم المسلمين ، ذلك ان الدور المخفف الذي كان من الممكن أن تلعبه دولة العرب العازلة BUFFER لم يتحقق ، وبهذا فقد وجدت بيزنطة نفسها وجهًا لوجه أمام العرب المسلمين ، تلك القوات الفتية الموحدة الكلمة ، والتي أفعم قلوب أفرادها الإيمان بالعقيدة الجديده وهي الإسلام ، فلم تستطع بيزنطة أن تفيق من الضربة الشديدة التي وجهت إليها ، ولم تتمكن من الدفاع عن عاصمتها إلا بمشقة وعناء شديدين[(٢)]

وفي جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير في الشرقيين وفي جملتهم العرب نشر النصرانية ، الديانة التي قبلوها ودانوا بها واتخذوها ديانة رسمية للدولة ، وفي نشر النصرانية تقوية لنفوذهم وسند لسياستهم في نزاعهم من الساسايين ، ولهذا نراهم يشجعون إرسال البعثات التبشيرية والإرساليات الدينية إلى إفريقيا وإلى بلاد

(١) العرب على حدود بيزنطة ص ٢٧٤
(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٢٨

العرب وإلى الهند وينفقون بسخاء لبناء الكنائس في تلك الأراضي والتي أصبحت دوراً للتبشير السياسي والثقافي .

وتمكنت النصرانية من كسب بعض العرب فجرتهم إليها ، جذبت إليها القبائل الساكنة على حدود الأرياف والأطراف، أي سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة إلى الخطط السياسية والعسكرية للساسانيين وللبيزينطيين على حد سواء ، وقد كان من سوء المصادفات أن النصرانية كانت قد تجزأت إلى شيع، وغالبية النصارى العرب تمذهبت بمذهب يخالف مذهب الروم ، ولكنها كانت تشعر على كل حال أنها مع الروم على دين واحد ، ولهذا لم يحفل ساسة القسطنطينية بموضوع الخلاف المذهبى ، وإن تألموا من وجود وظهوره ، فساعدوا نصارى اليمن ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم ، وعملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب ليتمكنوا بذلك من إيجاد محيط ثقافي سياسي يؤيد البيزنطيين .

وقد شجع الساسانيون مذهب (نسطور) الذي اعتنقه العرب، ثم إنهم كانوا مجوسا ولم يكونوا نصارى ، شجعوه لأنه مذهب يعارض مذهب الروم ، فانتشر في العراق وفي إيران ، وفي سائر الأراضى الخاضعة للحكم الساسانى ، ودخل في هذا المذهب أكثر النصارى العرب في العراق ، ومن يدرى فلعلهم ساهموا من طرف خفي في توسيع الشقة بين هذا المذهب ومذهب الروم ، ولإلقاء العداوة بين هؤلاء النصارى والروم[١]

وكانت من نتائج العداوة الموروثة بين الساسانيين والبيزنطيين أن انتقلت تلك العداوة إلى العرب أيضا فصار أناس منهم مع الفرس وآخرون مع الروم وقامت بينهما عداوة وبغضاء مع أنهما من جنس واحد ، وكلاهما غريب عن الساسانيين والبيزنطيين وقد تجسمت هذه العداوة في غزو عر ب الحيرة للغساسنة وفي غزو الغاسنة لأهل الحيرة حتى في الأيام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم ، مما

(١) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٢٩

أدى أحيانا إلى تكدير صفو السلم الذي كان بين البيزنطيين والساسانيين، وتجسمت في شعر المدح والهجاء الذي نجده في حق آل نصر أو آل لخم من الشعراء الذين وجدوا في هذه البغضاء متسعا لهم في الرزق ، فصار بعضهم يساوم في أجور المدح والذم .

وقد انتهت حدود الأراضي التي خضعت لحكم البيزنطيين أو سلطانهم عند حدود المقاطعة العربية الجنوبية فلم تتجاوزها إلى ظهور الإسلام ، ولعل محاولة (أبرهة) الاستيلاء على مكة كانت خطة سياسية عسكرية من خطط البيزنطيين كانت ترمى إلى الاستيلاء على الشقة التي بقيت تفصل بين الروم والحكم الحبشى في اليمن[١] ، فيبسط بذلك البيزنطيون سلطانهم السياسي على العربية الغربية كلها، وعلى قسم كبير من العربية الجنوبية ، ومن يدري فلعلهم كانوا يبغون من بعد ذلك احتلال العربية الجنوبية كلها ، لفرض سيطرتهم على أهم جزء من خطوط الملاحة البحرية العالمية المؤدية إلى الهند والسواحل الإفريقية .

أما فيما عدا ذلك من جزيرة العرب فلم يكن للبيزنطيين سلطان سياسي أو تدخل فعلي ، ولهذا انفردت فعالياتهم السياسة والعسكرية مع العرب النازلين في الأراضي التي خضعت لحكمهم وسلطانهم ، ومع عرب الشام وعرب العراق[٢]

ولقد كان هوى العرب ينتقل بسرعة بين القوتين العظميين نتيجة حسن أو سوء معاملة إحدى هذه الدول للفصائل الواقعة تحت سلطانها ، وامتلأت كتب الأخبار بأعمال الملك الساساني (سابور) الذي فتك بالقبائل العربية في البحرين وسواها مما جعل الكثير من هذه القبائل تنقل ولاءها إلى الروم وتخضع لهم ومع كل هذا فإن الروم لم يكونوا شديدى الثقة بهذه القبائل نتيجة تقلب هذا الولاء .

وذكر المؤرخ (لميانوس مرسيللينوس) أن سادات القبائل قدموا إلى قيصر تاجا

---

(١) من المعلوم أن الحكم الحبشي فى اليمن كان يخضع خضوعا تاما لبيزنطة سياسيا ودينيا وثقافيا .

(٢) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٣١

من ذهب ليعبر عن خضوعهم له ، ولقبوه بلقب (ملك العرب) ، فقبل الملك منهم التاج واللقب لما في ذلك من أثر معنوى يحدثه في نفوس العرب ، وحاربت القبائل التي انضمت إليه الفرس في معارك صغيرة ، فكافأه القيصر على عملها هذا ، إلا أنه لم يقدم لها معونات الذهب التي كانت تقدم عادة إلى سادات القبائل فاستاء الرؤساء من ذلك ، وانحاز قسم منهم إلى الفرس وأخذوا يتحرشون بعسكر (يوليانوس) وألحقوا به خسائر في الأرواح،وباعوا من وقع في أيديهم أسيرا في سوق النخاسة، وكان سبب انتقال أو انضمام تلك القبائل إلى الروم ما لاقته من شدة (سابور) ومن تنكيله، فأرادت بانضمامها إلى الانتقام من الفرس ، وأخذ ثأرها منهم عند سنوح أول فرصة وقد آذوه فعلا مما حمله على تغيير سياسته تجاههم ، فأخذ يسترضيهم فعاد من عاد إليه منهم[1] ، وبلغ من تأثير العرب بالقوتين العظميين اعتناق الديانة التي كانت تفرضها تلك القوة، أو تلك فقد اعتنق الغساسنة النصرانية وكذلك المناذرة ، ولكنهم اعتنقوا مذهبا يخالف مذهب الدولة الرومانية الأصلى .

وكانت الفرس تشجع على هذا الانقسام وتؤيده كما سبق ، ولكن بلغت التبعية حدا بتعصب وثنى العرب إلى الفرس ضد الروم ، ولعل ما ذكره القرآن الكريم خير شاهد على ذلك ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم] .

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشكرون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس،لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] قالوا :يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن

---

(١) جواد علي : تاريخ ٢ / ٦٤٢ ، ٦٤٣

الروم تغار على فارس في بضع سنين ، قال صدق ، قالوا هل لك أن نقامرك (نراهنك) ؟ فبايعوه على أربع فلا نصر إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن بشيء، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ما بضع سنين عندكم، قالوا : دون العشر قال: اذهب فزايدهم وازدد سنتين على الأجل قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على الفرس، ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت في هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير، وقبل أن تحاول الحادث إلى ما وراءه في السورة من التوجهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية ، وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان ، ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر ، مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ، وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوؤهم أن ينتصر المشركون في أي مكان[(١)]

ثم إن رسول الله قال لأبى بكر: زد في الخطر وأبعد في الأجل، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أبى بن خلف (المراهن) من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذريتة أبي ، فقال ﷺ :«تصدق به» وهذه آية بينة على صحة نبوته ﷺ وأن القرآن من عند الله لأنها أبناء من علم الغيب ، وكان ذلك قبل تحريم القمار[(٢)]

وقد استفاض الطبري بذكر تلك الحروب التي قامت بين الفرس والروم في ذلك الوقت والتي كانت حوالى السنة الثامنة للبعثة ٥ ق هـ ، ويصور الطبري

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥/ ٢٧٥٦ ، وتفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣/ ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، والطبري : تاريخ ٢/ ١٨٤ ، ومجمع البيان، تفسير ٧/ ٢٩٤ ، ٢٩٥

(٢) تفسير القرآن الجليل ٣/ ١ ـ ١

وغيره من المؤرخين المسلمين هرقل (قائد الروم) بالإنتصار المذكور رجلا مؤمنا صادق الإيمان ، بإيمانه تمكن أن يحكم الروم أولا ثم يوقع الهزيمة بهم ، وكيف أن وقوع الفتنة بين (كسرى أبرويز) وقواده خاصة الأخوين (فرخان) الذي حلم بأنه يجلس على عرش كسرى ، وأخيه (شهر براز) الذي لم ينفذ أمر الملك بقتل أخيه وإرسال رأسه إليه : وتمضي الرواية إلى القول : وسار هرقل حتى كان قريبا من المدائن فلما تساقط إلى كسرى خبره، واستعد لقتاله انصرف إلى أرض الروم ، وكتب كسرى إلى قواد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يدلوه على كل رجل منهم ومن أصحابهم من فشل في تلك الحروب ولم يرابط بمركزه فيها ، فيأمر أن يعاقب بقدر ما استوجب ، فأخرجهم بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه ، وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه ، وكتب إلى (شهر براز) يأمره بالقدوم عليه ويستعجله في ذلك ، ويصف ما كان من أمر الروم في عمله ، وقد قيل إن قول الله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] إنما نزل في أمر أبرويز ملك فارس ، وملك الروم هرقل وما كان بينهما مما قد ذكر[1]

وذكر هذه الأحداث تؤكد لنا عمق التأثر العربى بالقوتين العظميين آنذاك ، سواء من حيث المعتقد أومن حيث التأثير السياسي أو الإداري ، ونذكر هنا أن العديد من الشعراء قد زاروا بلاط ملوك الفرس أو أباطرة الروم . وكان التفاهم ليس غريبا بينهم إما لوجود مترجمين أو لمعرفة هؤلاء الملوك لغة العرب وهؤلاء الذين كانوا عاملا فاصلا ومهما وخطيرا ومساعدا في انحسار وانتصار إحدى هاتين القوتين ، ولعل نظام الحكم المختلف نوعا ما عن حياة العرب سواء في قبائلهم أو مدنهم أو ممالكهم فإن هذا لا يعنى إطلاقا بعدهم عن هذه الأنظمة ، إذا لم يكن بعضا منهم فاعلا فيها الكثير من القادة العرب أو الملوك قد اتخذوا ألقابا فارسية أو رومية أو حتى ألقابا تتعلق بالكنيسة والديانة النصرانية ، وقد أفردت مؤلفه كتاب :

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/ ١٨١، والكامل : ابن الأثير ١ ٢٨٠ ،تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٣٤

(العرب على حدود بيزنطة وإيران) فصلا مستقلا عن علاقة العرب بالنصرانية وعن المراكز الدينية التي وصل إليها الكثير منهم[١]

كما أن كثيرا من الملوك في بصرى (الغساسنة) أو في الحيرة (المناذرة) قد نالوا هذه الألقاب وأخذوها وسعوا إليها .

إن سكان جزيرة العرب على اختلاف تجمعاتهم السياسية الاجتماعية والدينية قد تأثروا تأثرا بعيدا فيما يجرى على الساحة العالمية في أدنى الأرض وأقصاها ، وهو أمر حتمى حيث إن الرسول ﷺ قد أرسل أصحابه إلى الحبشة لعلمه بورع وتقي وصلاح النجاشي آنذاك ، والمسلمون الذين تحدوا مشركي قريش بأن المؤمنين من أهل الكتاب منتصرون في بضع سنين بموجب التنزيل الذي قاله الرسول وحيا من عند ربه مشجعا المؤمنين على الثبات والصبر .

ولم يمض كبير وقت على ذي قار التي كانت للعرْب في الجاهلية حتى كانت في مؤتة التي كانت في العهد المدني حيث ذهب المؤمنون الصادقون إلى مؤتة لتكون معركة خالدة في تاريخ الإسلام . وتتوالى بعد ذلك الأحداث ويأتي اللقاء بين القوة المسلمة الناهضة والقوتين العظميين ، وتتساقط الهياكل تحت ضربات المسلمين القوية التي قضت على سلطانهما السياسي والديني والفكري والعقائدي .

---

(١) العرب على حدود بيزنطة ٣١٣ ، ٣٣٣

(٥) الفكر السياسي عند اليهود

في القرآن الكريم يبدو لنا أن قضايا الحكم والملك عند اليهود قد بدأت من لدن سيدنا موسى ﷺ الذي أرسل ليجمع شتات بني إسرائيل في مصر بعد أن تدنت حالتهم المادية والمعنوية والفكرية والاجتماعية وحتى السياسية ، وأصبحوا طبقة أدنى من بقية الناس ، فقد استعبدهم الفراعنة واستذلوهم ، ووصل الحال بهم إلى وضع سيئ للغاية ، حتى قتل أبنائهم لمجرد رؤيا كان أمرا عاديا جدا ، تخلص منه سيدنا موسى ﷺ بمعجزة ولأمر أراده الله تعالى ، وليؤدي المهمة التي أرسله الله تعالى بها

لقد كانت مهمة سيدنا موسى ذات شقين :

الشق الأول هداية فرعون وقومه إلى عبادة الله والتخلص من الوثنية وعمل الشيطان وعبادة الملوك، وهذه مهمة الأنبياء قاطبة .

الشق الثاني جمع شتات بني إسرائيل ، وتثبيت الإيمان في عقولهم بعد أن انحرفوا عن دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف إلى الآلهة التي فرضها فرعون وقومه . ومن سياق آيات الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم عن موسى يتبين هذان الأمران بوضوح

فعن القصد الأول يقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[الأعراف] ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

ويرد مثل هذا في مواقع كثيرة في القرآن الكريم في البقرة والأعراف ، ويونس وطه، والشعراء والقصص وغيرها من السور. وفي مجال دعوته لقومه ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾[البقرة:٥٤] ، ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:٢٠] ، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾[الأعراف:١٢٨]،وآيات أخرى كثيرة[(١)]

فكان موسى وأخوه هارون وزيرًا له ، حملا معًا مهمة شاقة؛الدعوة وجمع بني إسرائيل وتخليصهم من الذل والهوان ، وقادوهم بعد ذلك خارجين من مصر إلى الأرض التي وعدهم الله لكنهم جبنوا وتخاذلوا ، ولم يطيعوا موسى بقتال أعدائهم فتاهوا في الصحراء ، وتوفي موسى وهارون بعد أن خرج القوم عليهم وعادوا إلى وثنيتهم باااخاذهم عجلا جسدا له خوار صنعوه من حليهم وذهبهم ، وبعد موت موسى وهارون لم يعد لدى بني إسرائيل قائد أو ضابط ، أو نبي يجمعهم إلى أن بدأت مرحلة جديدة في فكرهم السياسي،وهو أن الله تعالى قد أرسل ملكا ـ وهو ليس بنبي فلم يجتمع لديه الملك والنبوة بعد موسى حتى جاء داود في المرحلة التالية .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦] ، ولعل الملك هنا هو قائد وليس بملك نظرا لوجود النبي ووجود شرعة موسى،وللمهمة المحددة التي طلبوها من هذا الملك وهي (القتال في سبيل الله) ، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : عبد الباقي ٦٨٠ ـ ٦٨٢ مادة موسى .

سَعَةً مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ [البقرة].

واستخدم طالوت علمه وقوته وقاد بني إسرائيل للقاء عدوهم وامتحنهم بالنهر في الآية التالية ، ولم يثبت معه إلا القليل الذين تمكنوا أن يصمدوا لجالوت وجنوده وبرز من القوم الفتى داود الذي قتل جالوت وتحول الملك إليه والنبوة معا، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة] ، ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾[البقرة: ٢٥١] .

وبدأت مرحلة ملك داود ونبوته(١) وتلاه ابنه سليمان نبيا ملكا في قصته المعروفة في القرآن الكريم الذي وسع وثبت ملك بني إسرائيل . وبعد سليمان تبدأ مراحل كثيرة من أنواع الحكم في بني إسرائيل ولكنها كلها تقريبا تبتعد بها النبوة عن الملك ، وأصبح الملك شيئًا والنبى شيئًا آخر ، واصطدم الأنبياء مع الملوك وقتل الأنبياء وانتصر الملوك وكان آخرهم الذي قتل النبى يحيى عليه السلام(٢)

ويصف القرآن الكريم هذا الحال فى كثير من المواقع ، والتي تصور انحراف وانجراف بني إسرائيل ومشاكلهم ليس مع أعدائهم فقط بل وأيضا مع أنبيائهم، إلا أن العهد القديم وفى أسفاره كلها عندما يتحدث عن الملك والنبوة فإنه يتحول إلى مجالات دنيئة لا سبيل إلى الدخول فيها ، فيصور الملوك ـ وإن كان من حملتهم داود او سليمان ـ بأنهم يتمتعون بشهوة الملك والنساء والصراع على الحكم وقتال الأبناء للآباء . والانقسامات الكثيرة التي حصلت فيهم وانقسام مملكتهم وتشردهم ومن ثم عودتهم ، وكلها تنقص من قيمة الأنبياء والملوك الأنبياء خاصة .

---

(١) ينكر اليهود نبوءة داود عليه السلام ، سيرة ابن هشام ٢ / ١٩٢

(٢) قصص الأنبياء : ابن كثير ٤٧٨

ويتحدث سفر صموئيل الأول والثاني من حياة النبي داود ﷺ وحروبه[١]

ويتحدث سفر الملوك الأول عن ملك سليمان[٢]. وما حل ببني إسرائيل بعد ذلك وانقلاب ملوكهم على أنبيائهم ، ويشتد الصراع بين أنبياء بني إسرائيل وملوكهم إلا من فترات هدنة أو وقفة فى تاريخهم حتى بعد أن ذهب الملك منهم وأصبحوا أسرى فى بابل حيث دونوا مدوناتهم وحرفوا كتبهم ولعنوا بها كتبت أيديهم ، ولما انقضى الأسر البابلى المعروف وعاد قسم منهم إلى فلسطين اصطدموا مع الرومان ولم يعد لهم ذكر فى سياسة أو حكم .

أما تاريخهم فى الجزيرة العربية ـ والذي مر ذكره ـ فإنهم لم يقيموا لهم سلطانا إلا فى فترات وجيزة جدا كانت أفكارهم السياسية فيها خليط من تأثرات كثيرة بعضها من تاريخهم وهو اختلاط الفكر السياسي بالفكر الديني وهو ما كان سائدا فيهم ، ومنها ما هو متأثر بالملوك والممالك والحكام الذين استبدوا بهم وعايشوهم أو تعاملوا معهم ، لكنهم على كل حال لم يفقدوا فى كل هذه الأفكار حب السيطرة والسلطان والقوة حتى إنهم خرجوا بذلك كثيرا عما فى معتقداتهم من تأثيرات وقصة الملك فطيون ـ إن صحت ـ فإنها تدل على مبلغ توجههم إلى الإرهاب والتعنت وحب السيطرة والسلطان والجبروت الذي رافق فترات حكمهم المتقطعة .

ويمكن لنا أن نؤكد أن اختلاط الفكر الديني بالسياسي كان فى صميم معتقداتهم ويدل على ذلك تهديدهم المتواصل لأهل يثرب بأن مجدهم الغابر بعد مذلتهم التي لاقوها على يد الغساسنة بتدبير مالك بن العجلان سيعود على يد نبي (مبعثه مكة ، ومهاجره يثرب) يؤمنون به ويقودهم إلى النصر والعلو على الوثنيين العرب الذين استذلوهم وحولوهم إلى مرتبة تالية لهم .

لم يتمكنوا من الوثوب إلى الحكم والاستئثار به رغم سنوح الفرصة لهم بالحرب الأهلية بين الأوس والخزرج وذلك خوفا من عودة اتحاد هذين الحيين من العرب

---

(١) الكتاب المقدس : صموئيل الأول ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٢) الكتاب المقدس : الملوك الأول ص ٥٣٨ وما بعدها .

وعودة الغساسنة للانتقام منهم ، وهم قريبون جدا منهم كما لم ينس اليهود فتكهم بالنصارى في نجران عندما قتلوا العدد الكبير منهم والمعروفة قصتهم (أصحاب الأخدود) وكيف أن الرومان قد تمكنوا بمعاونة عملائهم الأحباش ،وتابعي ديانتهم النصرانية من القضاء على حكم الملك ذي نواس الحميري الذي اضطهد النصارى وقتل منهم ما قتل ؟ . وهذا أمر طبيعي وإلا كيف لم يقم اليهود رغم كثرة عددهم وغناهم في المدينة وخيبر وتيماء وتملكهم الكثير من الأرض والمال والآطام بمحاولة الاستفادة من صراع الإخوة (الأوس والخزرج) لاستعادة ملكهم وقوتهم وسلطانهم ، وجلسوا ينتظرون النبي المرتقب الذي قرب زمانه ليقودهم إلى النصر والرفعة بعد أن عانوا من الذل والمسكنة .

وعند ظهور الإسلام،وظهور النبي المرتقب لم تكن الأماني قد تحققت لأن مجرى هواهم جاء على غير ما وردت به الرسالة السماوية والدين الإسلامي .

وقد رفض اليهود الدخول في الإسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها فيها .

ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول والاعتراف بنبوة محمد الذي أرسل رحمة للعالمين كافة ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب الله وأحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ، ناسخة لبعضها ، وقد جادلوا كثيرا ، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ومجادلة من يأتي من المسلمين لإقناعهم بالدخول في الإسلام حتى من أسلم منهم ، وفي القرآن الكريم صور من جدلهم ومن محاجتهم للرسول في دعوته ومثل ذلك في كتب الحديث والسير والتاريخ .

ويتبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين المسلمين واليهود ، وهو خصام مهم وخطير ، إن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفضا لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام . وتمسكا شديداً بعقيدتهم وبدينهم ، وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني إسرائيل ، ثم تطورت واشتدت

عنفا وقوة ـ هذه الخصومة ـ لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه ، وكثيرا مما ظنوا أنه حق عندهم ، وأنه حرم أمورا ستؤثر في مستقبلهم وقد ألف بين قلوب أهل يثرب ، وأوجد منهم كتلة واحدة ، وأنه سيحد من سلطانهم لا محالة ، وأن وجودهم بعد ملكهم سيزول ، فوسعوا مقاومتهم له واتصلوا بمن وجدوا عنده حقدا وبغضا للرسول ﷺ ، وبمن تأثر سلطانه بدخول أهل يثرب في الإسلام .

ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش لتوحيد خططهم معهم ومهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم فيعجزون جميعا هم وأهل مكة من التغلب عليهم والقضاء على الإسلام[1] ، ونجد أن القرآن الكريم أمثلة من أسئلة وجهها اليهود إلى الرسول ﷺ لإحراجه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم ، سألوه أن يأتي لهم بمعجزة إذ قالوا له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران:١٨٣] فنزل الرد عليهم : ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران].

وقد نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن صيفي ووهب بن يهوذا وفنحاص ابن عازورا ، وجماعة أتوا النبي ﷺ فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا وأنه نزل علينا كتابا عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإذا جئت به صدقناك ، فأنزل الله هذه الآية ، وسألوه أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتابا مكتوبا فيها يدعيه على صدقه دفعة واحدة ، كما أتى موسى بالتوراة ، وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في التوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة وعديدة ، وأوحوا إلى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه، وقد نزل الوحي بالرد عليهم وتأنيبهم على أقوالهم هذه ، وبتذكيرهم بما قام به أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عدم التصديق

---

(١) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٤٥ ، ٥٤٧ .

برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحيد[١]

ومن مراجعة الأسماء التي وقعت في صف عداوة الإسلام والرسول وهي كثيرة ، يظهر لنا أن بعضا منها من الأحبار ورجال الدين ، وبعضا منها من السادات والزعماء الدنيويين ، والبعض الثالث ممن ترأس قبيلة بدينه وشرفه أو سيادته وحكمته[٢]

ومن هنا نستطيع القول بأن فكر اليهود السياسي لم يكن فكرا مجردا من عقائدهم أو مستقلا عن ديانتهم ، بل العكس فإن فكرتهم للحكم والسيادة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمعتقداتهم ودينهم ، لكن الشيء الملفت للنظر هو أن قبائل اليهود التي كانت في خط المدينة ـ تيماء قد تأثرت بالشكل القبلى العربى من حيث الإدارة ، ووازى رؤساء هذه القبائل شيوخ القبائل أو العشائر العربية ، كما أن توزعاتهم وقبائلهم أخذت شكل القبيلة العربية من حيث الترتيب الرئاسى والنجدة والتكاتف والثأر والتلاحم ، وكان يجمع هذه القبائل الدين اليهودى أو المعتقدات والعادات اليهودية بينما كان يجمع القبائل العربية الانتماء والعصبية .

وإذا كان اليهود يبثون أفكارهم بين أبنائهم في (مدراسهم) فإنهم لم يكونوا راغبين بحال في نشر دعوتهم خارج بني إسرائيل ، ولا تتميز الديانة اليهودية بالتبشير ، وهي محصورة ومقصورة بين أتباعها فقط وتزداد بالولاء ولا تزداد بالدعوة ، وهذه الميزة جعلت فكر اليهود الديني والسياسي خاصا بهم مع بعض التأثيرات الخارجية لكن الانغلاق الكبير في الفكر اليهودى أمر واضح ، ومع دخول بعض القبائل اليهودية في التاريخ الماضى ، فإن ذلك كان الشاذ وليس المبدأ .

وكان اليهود يسعون دائما إلى المسؤولين والرؤساء يضموهم إليهم ويستفيدون من نفوذهم للوصول إلى مبتغاهم من تحصيل المال والجاه والوقيعة والدسيسة ، ولا

---

(١) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٤٥ ، ٥٤٧

(٢) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٤٦ ، ٥٤٩ .

يتوانون عن الفتك البشع بأعدائهم ، وربما كانت المصائب التي تقع عليهم نتيجة رد فعل طبيعي لممارستهم مع أعدائهم .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهودا وفدوا إليها أو أحبارا سكنوا بينها لإقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين اليهود ، نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت مساكن اليهود عند ظهور الإسلام في هذه المواضع الخصبة، وطرق المواصلات،والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب،وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا ، وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها، وهي أمور جعلت لهم نفوذا عند سادات القبائل والأمراء والملوك[١]

هذا ولا بد بالطبع أن يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثر بهم ، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنقصهم ، والتي هم في حاجة ماسة إليها ، فذلك أمر لا بد منه كما لا بد وأن يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب ، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الاجتماعية لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية[٢]

لقد برز اليهود بعداوتهم للإسلام على شكل قبائل ولم يقفوا في وجه الرسول ﷺ بشكل تجمع كامل ، وإن كانوا قد اتخذوا عداوتهم الفكرية ديدنهم ، وجمعتهم عداوتهم للإسلام لكن نجد أن العديد من التحالفات. قد جرّت بين الأوس والخزرج ومختلف القبائل اليهودية ، حتى إن حروب الأوس والخزرج قد جرت اليهود إلى الاقتتال والحرب مع حلفائهم ضد أبناء دينهم ، وقد ورد في أيام الأوس والخزرج إشارة واضحة إلى هذا ، وهذا الأمر ربما يكون من القضايا التي سهلت على المسلمين إخراجهم من المدينة في المرحلة الأولى ، ثم الانتصار عليهم في غزوة بني قريظة وغزوة خيبر وإجلاءهم بعد ذلك خارج الحجاز وخارج الجزيرة .

---

(١) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٦٨

(٢) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٦٨ .

وقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها زمن الرسول ﷺ حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قينقاع وغزو بني قريظة ، وبعد غزوة خيبر ، وقد ورد في رواية أن النبي لما أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو خيبر شق ذلك على من بقى من اليهود بالمدينة[١]

ولما مرض عبد الله بن أبي كان اليهود في جملة من التف حول سريره في مرضه الذي هلك فيه ثم كانوا ممن شيعه إلى قبره ، ومنهم من نثر التراب على رأسه حزنا عليه[٢]

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ١٠٦

(٢) جواد علي : تاريخ ٦ / ٥٤٨ ، ٥٤٩

القسم الثاني

الفكر السياسي عند عرب يثرب

تمهيد :

يتجلى الفكر السياسي عند عرب يثرب بنظام الحكم الذين كان متبعا عندهم ، كما يتجلى في العلاقات السياسية الداخلية بينهم أنفسهم كعرب ، أو بينهم وبين من جاورهم من يهود ، ويأتي ذلك في التجمعات والعلاقات والأعمال التي مارسها أهل يثرب قبل ظهور الإسلام ، ولعل من أهم ما أشير إليه في هذا المجال هو فترة الحرب المئوية التي استهلكت كل طاقات القوم ، واستنزفت قواهم ومواردهم كلها، ولعل بعضا من اليهود قد استفاد من هذه الحروب فائدة كبيرة؛ لأن (الهالك) العرب و (الغانم) اليهود في مختلف هذه الحروب إن لم يكن كلها ، وأن فكرهم هذا قد بني على عوامل تاريخية وجغرافية وبيئية .

أما العوامل التاريخية فإن ما درسناه عن تاريخ الأوس والخزرج وانتقالهم بأجيال قليلة جدًا من فترة حكم ملكي مستقر في اليمن يتوارث به الملوك ويحكمون حسب الأعراف الملكية المعروفة عند العرب بعامة الجزيرة العربية متأثرين بما حولهم من قوى كبرى أو صغرى ، إلا أن رحيلهم بعد تهدم سد مأرب كما حكت الروايات التاريخية التي بيناها في طيات هذا البحث قد نقلهم من حياة استقرار وزرع وهدوء وانضباط وملكية قائمة و جيوش وحماية إلى حياة البدو والقبلية وخاصة أنهم ـ (الأوس والخزرج) ـ قد اختاروا المدينة بينما اختاروا أبناء عمومتهم مواقع أخرى كماء غسان وخزاعة في مكة .

ولما نزل (الأوس والخزرج) في المدينة كان بها اليهود ، وقد مضى على وجودهم فترة كافية لأن يكون لديهم الاستقرار والبناء والحضارة والآطام ، والمزارع والقوة

الحامية لها وكان كما أشرنا استنادا للمراجع إلى أن مملكة يهودية على رأسها (الفطيون) كانت قائمة بالمدينة ، وعاش (الأوس والخزرج) فترة تبعية، وفترة ركود سياسي واجتماعي إلى أن تمكنوا من اليهود وقتلوا ملكهم واستقر لهم الأمر في يثرب ، وسادوا عليها ولكنهم بقوا على بداوتهم التي اعتادوها في فترة الضياع بين خروجهم من اليمن وانتصارهم على يهود

ومرت الفترة التالية من سيطرتهم على المدينة إلى دخولهم في الإسلام بتقلبات كثيرة ، اعتبر بعض الباحثين أن هذا التقلب أدى إلى ظهور بعض الأشخاص الذين كانت لهم مواصفات الملك فوق مواصفات سيادة القبيلة .

والاعتقاد الذي يمكن تثبيته هو أن هؤلاء الباحثين قد أطلقوا ألقابا على هؤلاء الذين تمكنوا أن يبسطوا . في فترة من الزمن. سلطانهم على عرب يثرب قاطبة ، أو البعض الآخر من غير الأوس والخزرج ، ويحسن أن نذكر هذه الفترات التي استطاع بها بعض القادة من الوصول إلى مواقع كبيرة وقوية من هؤلاء :

١ ـ **الأرقم بن أبي الأرقم** هو من العمالقة سكان يثرب الأولين ـ كما سبق ـ وتجاوز ملكه يثرب فملك ما حولها كخيبر وتيماء وفدك وغيرها ، لذا كانت المراجع تسمية ملك الحجاز ، وهو الذي وقف بقوة ضد هجرات اليهود الإسرائيليين إلى يثرب وغيرها،فلم يصلوا إليها إلا على جسر من الجثث وشلالات من الدماء ، ويمكن أن يشمل هذا الموقف يثرب وساكنيها في ذلك الوقت المبكر من التاريخ بكثير من الإعجاب والإكبار ، فقد تم هذا الحدث على ما تذكره الروايات التاريخية في عهد موسى عليه السلام[١] ،ولا يستبعد أن يكون الأرقم بن أبي الأرقم شخصية تمكنت من السيطرة على الحجاز ووقوفه بحزم بوجه هجرات اليهود في المراحل التالية من حكمه ، ولكن لا يوثق علاقة الأرقم بجيش موسى هذا[٢]

---

(١) المدينة : الخطراوي ١٣٢

(٢) يثرب قبل الإسلام ـ محمد الوكيل ص ٧٦

٢ ـ **مالك بن العجلان** رجل من الخزرج يمثل الانتفاضة على الظلم اليهودى الجائر ـ كما يمثل الغيرة على شرف العربى وحمايته من الانتهاك والتلوث ، ثار حوالى عام ٤٩٢م على ما يرى (سيديو) أو سنة ٥٠٠م على ما رجحنا ضد اليهود وغطرستهم وتماديهم في إذلال بني قومه من الأوس والخزرج ، فقتل أمير اليهود وطاغيتهم (الفطيون) [١]. ثم استعان ببني عمه ملوك غسان لوضع الحق في نصابه والحد من طغيان الفئة الباغية من اليهود الحاقدين ، فاستجاب له أبو جبيلة ـ كما مر ذكره ـ وقضى على عدوهم وبذلك رفع مالك بن العجلان شأن قومه وأعلى كلمتهم وثبت أقدامهم في أرضهم فآثر اليهود السلامة ، وعاشوا تابعين ، ولكن ما إن انتهت مهمته حتى عاد رجلا عاديا ليس له إلا المكانة والجاه مع تعرضه أحيانا إلى انتقاص حقه من قبل شباب القوم كما حدث في حرب سمير .

٣ ـ **عمرو بن الإطنابة** : هو عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر بن مالك الأغر ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ـ وإنما اشتهر بالإطنابة وهي بنت شهاب بن زبّان من بني القين بن جسر ـ كان فارسا شهيرا اشترك في أيام الأوس والخزرج ، ولكنه استطاع أن يوحدهم تحت رئاسته في مطلع القرن السادس الميلادي على وجه التقريب ، ولقبه الكثير من المؤرخين بملك الحجاز ومعنى هذا أنه كان يمثل دورا من أدوار الوحدة بين الأوس والخزرج ، وامتداد سلطانهم على البلاد المجاورة ليثرب ، بالقدر الذي استحق رئيسهم أن يلقب بملك الحجاز ، ولكنه لم يؤثر عنه أنه دون الدواوين واتخذ الشرطة ، وأسس الأنظمة ، ولم يكن معلوما عنه ما كان معلوما عن ملوك عصره .

ولذا فإنني أرجح أن قومه ومن حولهم كانوا يدينون له بالمهابة والإعظام والتقدير فقط ، ويسمعون كلمته ويصدرون عن رأيه ، ولم يتعد شأنه ذلك بحال وإن لبس التاج فهو رجل ملك القلوب وسيطر على الأنفس حتى دانت له الرقاب ،

---

(١) ذكر الفطيون والفيطون والفيطوان وهو لقب ملوك يثرب من اليهود .

ومالت لهيبته الأعناق فنال الرئاسة فيهم ، وأعطى ذلك كله المهابة لبني قومه على ما حولهم من بلاء وكان زمانه على أيام النعمان بن المنذر[١] ويمكن أن نقبل ملك ابن الإطنابة على أنه محاولة تمت مثلا لم يمهلها الزمن لتتأصل في يثرب ، لكبر سن صاحب المحاولة ، ولعمق الإحساس بالروح القبلية ولجراحات بعض الحروب التي كانت قد دبت فيهم[٢]

٤ ـ أحيحة بن الجلاح هو أبو عمرو بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبي بن كلفة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وهو يمثل الإمارة الأوسية ، فقد كان سيد الأوس على الإطلاق زمن تبع الأصفر أبي كرب بن حسان ملك اليمن ، ولكنه في الواقع باسم الأوس والخزرج وقف وقفته الصامدة ضد محاولة تبع غزوة يثرب عام ٤٩٤م ،والتي كان سببها انتقام تبع لقتل ابنه غيلة في يثرب وتحصن الأوس والخزرج في آطامهم ، وكان على بني النجار من الخزرج (عمرو بن طلة) من بني معاوية بن مالك بن النجار ، ثم إن حبرين من يهود على ما تقول بعض الروايات حذرا تبعا من تخريب يثرب لأنها مهاجر نبي فأمسك عنها، وإذا كان عمرو بن طلة الخزرجي أسهم باسم قومه في صد الغزو التبعي ، فإن الرأي الصائب والقيادة الفعلية كانت لأحيحة بن الجلاح منذ اللحظات الأولى .

ولم تكن شهرة أحيحة قاصرة على قومه فقط ، بل كان غيرهم من العرب يعرف شجاعته ويقدر بطولته وفروسيته وله فيهم حسن الأحدوثة والذكر ، فكانوا يلجؤون إليه في الملمات ويطلبون عنده النصرة والعدة من سلاح أو خيل ، وسبق القول بأنه قد لجأ إليه زعيم الأحلاف من الطائف مسعود بن متعب لينصره على بني عمه ، وكذلك لجأ إليه قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ليعينه على خالد بن جعفر العامرى الذي قتل أباه ، ولكن أحيحة اعتذر للصلة التي كانت بينه وبين خالد .

وكان أحيحة رجلا عجيبا ، يجمع بين الحرص على المال وعدم التحفظ في طرق

---

(١) المدينة ، الخطراوي ١٣٤ ـ ١٣٩ ، وشعر الحرب ـ نفس المؤلف ص ٨٠ .

تحصيله ، ويقيس به منازل الناس ، ويجعل من لا مال له في عداد الأموات :

استغن أو مت ولا يغـررك ذو نـسب مـن ابـن عـم ولا عـم ولا خـال

وبين الكرم والجود والأريحية ، فقد كان سيد الأوس وفارسهم وشاعرهم وجوادهم ، فما وفد عليه وافد من العرب وعقر ناقته على باب أطمة إلا أعطاه خلفها وقضى له حاجته .

وقد كانت كل الأحداث التي خاضها أحيحة محصورة بين سنة ٤٦٤م، و٥٦١م ، وهما سنتا ولادته وفاته ، وهو على ذلك يكون من المعمرين حيث عاش سبعًا وتسعون سنة ، ومن ناحية أخرى يذكر أن وفاته قبل ولادة الرسول بتسع سنين فقط ؛ لأن عام الفيل عام ولادة الرسول كان عام ٥٧١ [(١)]

٥ـ أمه بن حرام : أمرته قبائل حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ، وبنو عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة ، وبنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة وبنو سلمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة ، وكلها ترجع إلى القبيلة الأخيرة / بنو سلمة ، فمكث فيهم زمانا مطاع الأمر مسموع الكلمة لا يعارضه أحد منهم حتى هلك رجل من بني عبيد لم يعقب سوى ولد واحد اسمه صخر فنظر (أمه) في مال أبيه فإذا هو مال كثير . يزيد عن حاجة الولد وثرائه ، وليس بضاره شيء لو أخذ منه جزءا يرده على بعض الفقراء منهم ، لذلك اعتزم على نزع طائفة من تلك الأموال فيقسمها في بني سلمة ، فعظم ذلك على صخر، واستنصر بقومه من بني عبيد وبني سواد وأرغى وأزبد ، وقال : لئن فعل (أمه) ذلك لأضربنه بالسيف وطلب منهم أن يساندوه ويحموه من بني حرام إن هو جز رأس (أمه) لكن (أمه) لم يمت ونذر ألا يؤويه ظل بيت ما عاش حتى يقتل بنو سلمة صخرا ، أو يأتوه به فيرى فيه رأيه وجلس (أمه) عند الضرب (الضلع) الذي فوق مسجد الفتح ، مما يلي الجرف في الشمس ، وتلاوم القوم وندموا على حماية صخر ثم قبضوا على صخر

(١) المدينة : الخطراوي ص ١٣٩ ـ ١٤٤ بتصرف ، وشعر الحرب ٨٦ـ٨٨ .

وجاؤوا به إلى (أمه) فعفا عنه بعد أن أخذ ما أراد من ماله وفي محاولة لخلق نوع من التكافل بين أفراد هذه القبيلة (القبائل) غنيها وفقيرها[1]

ونخلص إلى القول بأن وسط الجزيرة عموما في الجاهلية، وحياة الأوس والخزرج بصفة خاصة تبرز الحقائق التالية :

١ ـ إن وسط الجزيرة العربية بما فيه الحجاز ونجد لم يكن يعرف نظام الحكومة الدائمة المستقرة ، ولم يستطع أن يقيم ما يمكن أن نطلق عليه اسم الكيان السياسي المستقل .

٢ ـ إنهم كانوا يختارون رئيسا لهم منهم يقودهم في أمر حازب لفترة معينة ، ويكون عادة من ذوي اليسار أو من الفرسان المحاربين ، فمنطق القوة هو الذي يحدده ، ومنطق القوة هو الذي يبقيه أو يقصيه .

٣ ـ إنهم رغم التجمعات الصغيرة ذات الفترة اليسيرة لم يشعروا بشعور المواطن الذي ينتمي إلى أرض ذات حدود ، وأمة أو شعب ذى خصائص وتراث أو عقيدة واضحة المعالم ، ونظام حكم أو مفاهيم فكرية أو قانونية مسطورة يدين بها ويخضع إليها ، بل كانت كل تصرفاتهم محكومة بالشعور القبلى وحده وأعراف القبيلة .

٤ ـ إن المراجع والمؤرخين العرب كانوا كثيرا ما يتسامحون في تسمية هؤلاء الرؤساء أو الأمراء المحدودين باسم الملوك ، فكلمة ملك عندهم كانت مرادفة لكلمة رئيس .

٥ ـ لم تكن يثرب مغمورة غير معروفة عند أهل عصرها ، بل إن اسمها ورد في الكتابات المعينية وفي جغرافية بطليموس ، وفي كتابة البابليين والبيزنطيين كما سبق أن ذكرنا .

٦ ـ لم يكلف العرب بدفع أية ضريبة أو إتاوة، وذلك لغدم وجود الحكومة التي

---

(١) المدينة : الخطراوي ٦٢ ـ ٦٤ بتصرف ، شعر الحرب ٨٨ .

قد تحتاج في بعض شؤونها إلى فرض الضرائب ، كما أن وسط الجزيرة لم يتعرض لسيطرة فارسية أو رومية(١)

٧ ـ كانت كل قبيلة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تام الاستقلال ، وقد يحدث أن تجتمع بعض البطون على حلف واحد بسبب من الأسباب ، ثم لا تلبث عراها أن تتفكك ، كما فعل مالك بن العجلان فقد ارتضى وساطة رؤساء قومه في إنهاء الحرب بينه وبين سمير .

٨ ـ لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة غير أنه لابد أن يكون من كبار السن ودوى المال والنفوذ والفروسية ، وسلطته في الغالب مقيدة بمجلس شورى القبيلة المكون عادة من رؤساء الأسر، ويتمتع العضو في هذا المجلس بحرية النقاش والتحدث في مختلف شؤون القبيلة الداخلية منها والخارجية ، وشؤون الحرب والسلم ، ولم يكن يوجد أي أثر للوراثة في مشيخة القبيلة بل هي في الظروف والصفات والاستعدادر(٢)

---

(١) المدينة : الخطراوي ،١٢٩ وما بعدها، شعر الحرب ٧٨

(٢) المدينة : الخطراوي ١٣٠

(١) الحروب أيام الأوس والخزرج

تطرقنا في الفصل الأول بكثير من التفصيل عن الحروب التي جرت بين الأوس والخزرج ، وتوقفنا عند يوم بعاث آخر المعارك والأيام بين هذين الحيين من العرب والذي يعتبر فاتحة خير لهم، إذا وضع حدا نهائيا لما كان بينهم ، وما كان لهذه الحرب أن تتوقف لولا دخول الإسلام في يثرب وانصهار الحيين أو تحت اسم الأنصار الذين أصبحوا جنود الإسلام ودعامته .

ويمكن لنا أن نؤكد في هذا المقام أن هذه الحرب الأهلية التي استمرت مائة عام تقريبا بين الأوس والخزرج قد حولتهم في الواقع إلى مقاتلين أشداء ، ولكن بجانب هذا التحول أشبعت نفوسهم بالرغبة في السلام، خاصة وأنهم قد تيقنوا أن هذه الحروب الطويلة التي تربت بها أجيال وفنت أجيال وأطلقت قرائح الشعراء في الجانبين متفاخرين أو راثين أو مادحين أو ذامين ، قد حولت فكر اليثربيين إلى القبول بتحولات جديدة يمكن أن تؤمن لهم شيئا من الاطمئنان والرخاء والسلام، وهذا ما سنجده باديا في الآثار التي ترتبت على يوم بعاث إذا قبل المنتصر أن يحكمه المهزوم ، وهذا تحول خطير في تفكير الأوسيين ومعتقداتهم السياسية .

فالحروب إذا مع ما ترتب عليها من آثار مدمرة قد بنت المدينة وقوت شكيمة العرب ، ولهذا فلم يتمكن اليهود خلال هذه السنوات الطوال أن يعاودوا محاولة السيطرة على يثرب ، بل بالعكس كان أملهم بالنبي المرتقب يهددون به وثنى العرب بأنهم سيقاتلونهم معه وتحت إمرته ، ويحققون الانتصارات التي يرجون .

إن حروب المائة عام قد جعلت الهيمنة ـ رغم أنها بين الأهل ـ لعرب يثرب عليها وعلى يهودها وحتى ما حصل من علاقات مستقبلا، أو سابقا بين هذا الحي من العرب والأحياء الأخرى كان سببه هذه الحروب حتى انفرد أهل يثرب في التاريخ الحربى والسياسي والأدبي بميزة قل من وازاها إلا ما كان من خبر الحروب بين أهل

الحيرة وغسان أو بين بكر وتغلب، أو بين القبائل العربية الأخرى ، عبر عن هذه الميزة سعد بن معاذ في غزوة بدر حين قال : «وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك[١] ولم يكن بين يوم بعاث وغزوة بدر مجال للمقارنة بينهما إلا القول بأن يوم بعاث كان آخر دم في الجاهلية وبدر كانت أول دماء الشهداء في الإسلام فيها .

إن الحروب التي كثر عددها بين الأوس والخزرج قد علمتهم فنون القتال الشيء الكثير كما أنها علمتهم من معهم ومن عليهم ، سعوا وراء الحلفاء وسعوا وراء النصرة ، وعلموا من قبائل العرب الشيء الكثير وحفظوا أصحاب القوة وأصحاب البأس ، وعرفوا كذلك صفات كل قبيلة ومقامها ، وما تملك من صفات القوة ، وقد استفادوا كثيرا كثيرا من هذه الخبرة في الإسلام ، مثالها ، رفض سعد بن معاذ الاتفاق مع غطفان وإعطائها ثلث ثمار المدينة لترجع عن الحصار في الخندق فقال بأنه لا يعطيهم إلا السيف في حلوقهم .

وهذه المواقف تدل على أن هذا الحي من العرب قد صقلته الحروب وأكلته ، وتعود عليها وعرف من الآخرين شجاعتهم أو جبنهم أو قوتهم وضعفهم والشواهد التي سترد لاحقا تؤيد هذا الرأي وتقويه .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٢٦٧

(٢) المعاهدات السياسية مع القوى المحيطة

تميزت الصلات بين عرب يثرب وغيرهم من عرب الجزيرة أو الشام أو العراق بالعديد من الاتجاهات فمنها علاقات ذات طبيعة اقتصادية بحتة نظرا لموقع يثرب الهام على طريق التجارة إلى الشام، وباعتبارها واحة زراعية يستفيد من خيراتها البدو والأعراب حولها من التسوق لحياتهم من منتجاتها، كما أنها كانت ذات أسواق هامة للكثير من البضائع المستوردة، أو التي ينتجها اليهود مع المصوغات الثمينة من الذهب أو الفضة أو بعض الصناعات المرتبطة بالسلاح .

وهذه العلاقات لم يكن فيها معاهدات مكتوبة بل اعتمدت على العرف أكثر من العقود المكتوبة، وكانت هذه المصالح الاقتصادية قد ولدت الكثير من العلاقات الشخصية الأخرى بين زعماء يثرب ، وزعامات أخرى في مكة والطائف وبلاد غسان والحيرة وحتى اليمن .

وتميزت العلاقات الاقتصادية بمتانتها، واعتبرت قانونا غير مكتوب تنفذت بدقة وبشدة متناهية ، وكانت علاقات العرب الاقتصادية متميزة تماما عن علاقات اليهود بعضهم ببعض أو بينهم وبين العرب الآخرين في يثرب أو يهود والعرب خارجها

كما كان هناك تحالفات عسكرية أوردنا بعضا منها عندما تحدثنا عن العلاقة بين عرب يثرب ومن أحاط بهم من العرب الآخرين وخاصة مع مكة ، أو مع يهود ، وهذه الأحلاف العسكرية كانت ذات متانة قوية وتنفذ بدقة رغم أنها تؤدى في بعض الحالات إلى الفناء والهلاك إلى والهزيمة ولكنها تؤدى في أحيان أخرى إلى النصر والتفوق .

وقد جرت بعض التحالفات العسكرية بين الأوس منفردين والخزرج منفردين

باعتبار أن كل حي منهما كان يسعى لشد الحلف إلى جواره لتحقيق بعض النصر في الحروب الطويلة التي قامت بينهم كما جرى تحالفات بين القوم مجتمعين والغساسنة ذلك العون الذي طلبه مالك بن عجلان،وكانت نتيجته إزاحة سيطرة اليهود عن المدينة .

كما كانت هناك أحلاف قبلية يتحالف بها أبناء البطون المتقاربة من الأخوة وأبناء العمومة على من يعاديهم من الجوانب الأخرى ، ومعروف المثل القائل أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمي على الغرباء ، وهذه التحالفات القبلية كانت تفرضها قوانين القبيلة وأعرافها ودساتيرها الغير مكتوبة ، وهذه الأعراف كانت ذات قوة ونفوذ شديدين في صفوف اليثربين وغيرهم من العرب عامة .

وباعتبار أنه لم تكن في يثرب حكومة تسيطر على الأوضاع فيها، وتنظم العلاقات بين سكانها وبينهم وبين جيرانهم ، والدول الأخرى المحيطة بيثرب ، فقد كانت هناك صلات وروابط اتخذت أساسا لتنظيم العلاقات بين سكان يثرب وجيرانهم وبينهم وبين الدول الخارجية ، وقد اختلف أسس تلك الصلات ، وهذه الروابط بحسب الظروف التي كانت تدعوا إليها ، فأساس الصلات بين أهل يثرب وجيرانهم من أهل البادية هو الحذر والاستعداد ، ذلك لأن أهل البادية كانوا يتطلعون دائما إلى ما في الحضر من خيرات ، وينظرون إلى أنها حلال لهم ، فكانوا يغيرون دائما على المدن ويرعون أهلها وينهبون ثرواتها[١]

وأعراب يثرب لم يكونوا خيرا من سواهم ، وهذا ما جعل اليثربيين يلجؤون إلى بناء الآطام والتحصن بها ، وليس هناك حادث معين نستطيع أن نتخذه دليلا على ذلك ، ولكننا نفهم من بعض المواقف في صدر الاسلام أنه كانت هناك غارات على المدينة كانوا يدافعون عنها دفاع القادر،وإننا لنلمح ذلك جليا في كلام عبدالله بن أبي ابن سلول يوم أحد حين استشار الرسول ﷺ أصحابه في أمر الخروج أو البقاء،

---

(١) يثرب قبل الإسلام : السيد الوكيل ١ / ١٢٥ ، ١٢٦ ، عن سيرة ابن هشام ٣ / ٦٣

يقول ابن أبي يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول، فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا[(١)]

يمكن القول بأن الأمن كان مضطربا في يثرب ، فلم يكن هناك استقرار يجعل السكان ينصرفون إلى تنمية مواردهم الاقتصادية ، ولا أمن ينعم به الناس فيعيشون حياة هادئة وديعة ، بل كانت حياتهم كلها حذر وتربص واستعداد .

ولقد حال هذا الوضع القلق في يثرب بينها وبين بلوغها المركز اللائق بها في الجزيرة العربية، فلم تتبوأ مكانتها رغم موقعها الممتاز وأرضها الخصبة ومياهها الغزيرة ، وكان من الممكن أن تنافس مكة منزلتها في قلوب العرب لولا اضطراب الأمن بها بسبب غارات جيرانها والتنازع المستمر بين أهلها[(٢)] أما بالنسبة للعلاقات السياسية ، فإن السياسة بمفهومها الحديث بمعنى إقامة علاقات دبلوماسية - بين يثرب وغيرها من الدول لم يكن معروفا في ذلك العهد ، بل إن ذلك لم يعرف لدى الدول إلا بعد التحضر الإنساني والتقدم العلمي والصناعي ، حيث أصبح أبناء الأمة يحرصون على إظهارها بالمظهر الذي يرفع من شأنها ، ويعلى من مكانتها أمام غيرها من الدول ، ولقد فرضت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية ذلك التمثيل على الأمم مراعاة لمصالحها،وحفاظا على أمنها،وحيث لم يكن شيء من ذلك يعني أهل يثرب بقدر عنايتهم بمصالحهم الخاصة، لم يكن هذا المعنى واضحا في أذهانهم، وبالتالي لم يتجهوا إليه ليحققوه للبلد الذي ينتمون إليه .

لهذا كانت علاقات يثرب بغيرها علاقات اقتضتها الضرورة وخدمتها الظروف التي أحاطت بها ، وحتى علاقاتها الداخلية بين سكانها لم تخرج عن هذا الوضع ، قد

---

(١) يثرب قبل الإسلام : السيد الوكيل ١ / ١٢٥ ، ١٢٦ ، عن سيرة ابن هشام ٣ / ٦٣

(٢) يثرب قبل الإسلام السيد الوكيل ص ١٢٦ . ولا يمكن ليثرب أن تنافس مكة قبل الإسلام لما ارتبط بمكة من قضايا تعبدية تتعلق بالحج والعمرة وهفوة قلوب العرب لهذا البيت .

لحظنا أن علاقاتها مع الفرس والروم كانت خفيفة ووقتية ، كما كانت متوقفة على ذهاب بعض تجارها إلى أحد هذين البلدين ، وكذلك كانت علاقتها مع الغساسنة حتمتها ظروف القرابة ، وحاجة يثرب إلى مساعدة الغساسنة للتغلب على اليهود ، ثم توقفت بعد ذلك ، أما علاقتها مع اليمن، فقد أوجبتها أيضا القرابة والحنين إلى الوطن الأصلي ، وقدوم بعض تجار اليمن إليها في طريقهم إلى الشام[١]

وأما العلاقة مع مدن الحجاز الأخرى [مكة ، الطائف.، خيبر] وهذه هي أهم المدن الحجازية وقتها وأشهرها، فكانت العلاقة بينهما وبين يثرب قائمة على أساس الاحترام والمنافع المتبادلة وكانت على العموم علاقات حسنة .

العلاقة مع مكة : ولقد كانت علاقة يثرب بمكة علاقة متينة وقوية فيها شيء من المصاهرات كما سبق، وفيها الكثير من المصالح المتبادلة ، وحتى مرحلة الأحلاف فقد أرسل الأوس وفدا إلى مكة يطلب الحلف قبل يوم بعاث ، كما ظهر أن الكثير من العلاقات الشخصية كانت قائمة بين شخصيات مشهورة في مكة وأخرى في يثرب ، أولها عندما تمكن القرشيون من أسر سعد بن عبادة بعد بيعة العقبة الثانية وبحثهم عن حليف له ليدفع عنه الأذى ، وتعتبر بيعة العقبة الأولى ، والثانية من أقوى الأحلاف بين أهل يثرب وصاحب الدين الجديد وصحبه ، وسبقت الإشارة استنجاد عبد المطلب بأخواله بني النجار ، وكانت تتراوح هذه العلاقات بين المصالح الاقتصادية والمصالح الشخصية والأحلاف العسكرية والتفاهم السياسي .

ونرى أن اليهود قد تحولوا للحلف مع قريش عندما ظهر الإسلام في المدينة وطالتهم في أكثر المشورة النافعة ، إلا أن العلاقة بين يثرب وخيبر كانت بين يهود أقوى بكثير من عرب يثرب،ويعتبر اليهود سكان البلدين أنفسهم من أصل واحد وهم أبناء عمومة، ولا يعدم إطلاقا إقامة أحلاف بين زعماء في يثرب وبين زعامات يهودية في خيبر ظهرت جليا في غزو خيبر أو قبلها ، وكان كل الناس معروفون في

---

(١) يثرب قبل الإسلام : السيد الوكيل ص١٣١ ، ١٣٢

خيبر، وقد قالت زوجة أبي الحقيق عن صوت أحد الذين شاركوا في قتله كأني سمعت صوت فلان، وفي الظلام،وعندما أحلى الرسول بني قينقاع عن المدينة،فقد ذهبوا إلى تخوم الشام، ولكن عندما أجلى بني النضير وذهبوا إلى خيبر وأخذوا يجيشون الجيوش ضد المسلمين .

ولم يذكر أن اليثربيين قد خاضوا حروبا ضد أحد من مدن الحجاز مما يؤكد أن العلاقة كانت بين هذه المدن وطيدة وقوية ، كما أن اليثربيين لم يتورطوا بالتحالفات الكبيرة خارج مدينتهم التي تعدت عداواتها وحروبها العقدين من الزمن لأنهم كانوا في شغل شاغل بحروبهم الخاصة .

علاقات يثرب بالدول خارج الجزيرة :

على أن يثرب رغم المنازعات الداخلية التي حدت من نشاطها وحالت بينهما وبين التمتع بالامتيازات التي كان من الممكن لو،لا هذه المنازعات أن تتمتع بها ، رغم كل هذا لم تقتنع يثرب بحسن العلاقات القائمة بينها وبين مدن الحجاز ، بل حاولت أن تقيم علاقات حسنة مع الدول الخارجية ، سواء أكانت في الجزيرة أو على حدودها أو مجاورة لها ، وهذه الدول هي الفرس والروم والغساسنة واليمن أما الفرس والروم فكانت علاقات يثرب بها محدودة، ولم يتعرض أي من المصادر ـ على حد زعم المؤلف ـ لتوضيح هذه العلاقات ، والذي أدى إلى ذلك هو عدم نشاط يثرب التجاري مع هاتين الدولتين بسبب انشغالها بالخلافات الداخلية ، ولا يستبعد أن يذهب بعض التجار في تجارتهم إلى البلدين المذكورين كعادة سكان الجزيرة في هذه الفترة من الزمن ، ويقطع بعض المؤرخين أن أهل يثرب كانوا يخرجون إلى من موقعة تحالفوا مع الأحزاب ـ كل الأحزاب ـ ونقضوا أحلافهم وعهودهم بينهم وبين الرسول عليه السلام

وهذه القضايا ثابتة تاريخيا ومؤكدة فالعلاقات بين أهل المدينة ومكة لم تنقطع ، ومنها علاقة سعد بن معاذ مع صفوان بن أمية قبل الإسلام .ولقد تقوت هذه

العلاقة مع الطائف أيضا، وسبق القول عن استنجاد بعض زعماء الطائف بأهل يثرب أو على الأقل رغبتهم في إقامة حلف بينهم وقيام اليثربيين بإرضائهم وإعطائهم أسواق الشام فيتجرون بها(١)

العلاقة مع الغساسنة :

إذا تجاوزنا استنجاد عرب يثرب بالغساسنة لإنهاء سيطرة اليهود ، فإن العلاقات الأخرى لم تكن بالمستوى الذي يمكن لنا أن نضعه في مصاف الاستمرارية ، إن صلة القرابة بين الأوس والخزرج والتواصل بينهما أمر قائم ومستمر ، وهذا ما أفصحت عنه كتب التاريخ بشكل واسع، وقد مر بعض من تفصيلات هذه العلاقات ، وقبل البعثة النبوية أو قبل الهجرة على الأقل، قد وفد حسان بن ثابت على أبناء عمومته الغساسنة ومدحهم كثيرا في سفره وكان معجبا بهم وبملكهم، وكان ملوك الغساسنة، يتساءلون دوما عن أحوال عرب يثرب وأخبارهم،.ولو أنهم لم يتدخلوا يوما لفض المنازعات التي طال أمدها بين الأوس والخزرج ، أو يسعوا بالصلح كما فعل الكثير من العرب الآخرين بين قبائل العرب المتحاربة حسب روايات كتب التاريخ والأدب ، بل تركوا الحيين يقتتلان ردحا طويلا من الزمن مما أضعف الكثير من قوتها وأبقاهما محصورين بين آطام يثرب ، فلم يتقدموا لينالوا مجدا أكبر أو رغبة بسيطة أو حكمًا أو سلطانًا .

ولعل انشغال الغساسنة بحروبهم أيضا مع المناذرة أو سواهم جعلهم في حل عن البحث عن تقوية الصلة بينهم وبين أهل يثرب ، لكن العلاقات الفردية العادية كانت حسنة وقائمة على صلة القربى والمحبة، ومنها بعض أبيات مدح بها حسان ابن ثابت أبناء عمومته الغساسنة(٢) ، والذي يظهر ويفهم من سكوت الإخباريين أن علاقة يثرب بالغساسنة لم تكن أفضل ولا أحسن من علاقتها بباقي مدن الجزيرة

---

(١) يثرب قبل الإسلام : السيد الوكيل ص ١٢٧، ١٢٨

(٢) الأغاني : الأصفهاني ١٤/ ٢

ولا الدول المجاورة ، حيث كانت علاقتها بالجميع علاقات هادئة مبنية على أساس الجوار القائم على عدم الاعتداء ، ويوطد هذه العلاقات منافع متبادلة بين الأطراف المذكورة[(١)]

أما علاقة يثرب مع اليمن فيمكن أن تختلف اختلافا بينا عنهما مع الآخرين ، فالأصل اليمني للأوس والخزرج والحنين إلى المنبت والأصل والتباهي بهذا الأصل والتفاخر به، وارتباط القلوب بالأصول أمر ثابت ومحقق في علاقة اليثربيين بأهل اليمن ، وإذا استثنينا حملة حسان تبع على المدينة التي بدأت بمحبة وسلم وانتهت بعداوة وبغضاء لأكبر دليل على أن هذه العلاقة كانت متميزة، ويرجع بعض المؤرخين صلات يثرب باليمن إلى عهد المعينيين حسب ورود اسم يثرب بالكتابات المعينية، وكانت من المواطن التي سكنتها جاليات معينة .

ولقد كان لموقع يثرب في الطريق بين الحجاز والشام أثر بالغ في اتخاذها محطة للتجار القادمين من اليمن والمتوجهين إلى الشام عن طريق الحجاز ، فنشأت عن ذلك صلات حسنة نتيجة للمخالطة والمعاملة، أما الأحلاف العسكرية فتلك أمور أخرى اقتضتها ظروف الحرب القائمة بين الأوس والخزرج ، وكانت كل قبيلة تسعى إلى تشكيل أحلاف مع قبائل معينة، حتى يكون الزخم قويا أثناء القتال ، وتحقيق الانتصارات وكانت أحلافهم مع من جاورهم من القبائل بالقدر الذي تدعو إليه الضرورة، فقد حالفت بعض البطون من خزرج مزينة وسليم اللتين كانتا تعيشان شرق المدينة، كما حالفوا أشجع التي كانت تسكن في شمالها الغربي ، وكانت كل قبيلة تستعين بحليفاتها عندما تدعو الحاجة ، وكانت الأحلاف محترمه لا تنقض إلا إذا تعارضت مع مصلحة القبيلة ، فعندئذ ينقض لتحقيق تلك المصلحة ، ولكن هناك أحلافًا كثيرة مع غير هذه القبائل اقتضتها ظروف أيام الأوس والخزرج .

---

(١) يثرب قبل الإسلام : السيد الوكيل ١٢٩،١٣٠،١٣٣

(٣) يوم بعاث وآثاره الفكرية والسياسية

لم يكن ليوم حرب من أيام العرب من أثر في حياتهم كيوم بعاث . وفي صحيح البخاري : «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله، وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم،وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[١]

وليس في كتب الصحاح أو السير أو التاريخ كتاب يخلو من هذا اليوم وفضله ، ولم أورده مع ما أوردت من أيام الأوس والخزرج لأهميته التي ذكرت ، ولقد ورد في قسمين منفصلين عن خبره[٢] ، ففي الوقت الذي ورد في كتب السيرة والحديث عن لقاء رسول الله ﷺ بالوفد الذي جاء ليطلب الحلف ويؤكد عليه ، ويهمل ما بقى من أحداث ، وتقوم كتب التاريخ والتراجم بالتأكيد على مجريات الحزب في هذا اليوم والاستعدادات التي سبقته ومجرى المعارك فيه ، والنتائج التي ظهرت عقب هذا اليوم ، كما يبرز بعض القادة الذي كان لهم دور كبير في أحداث التاريخ الإسلامي بعد ذلك .

وعن القضايا المتصلة بيوم بعاث ، والذي كان فاتحه خير لعرب يثرب قال ابن إسحاق : «حدثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، عن محمود ابن لبيد قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ، ومعه فتيه من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟

---

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار : الشيباني ١/ ٣٥٣، صحيح البخاري بحاشية السندي ٢/ ٣٠٩، باب مناقب الأنصار .

(٢) امتاع الأسماع : للمقريزي ص ٣٢ ، والكبرى : تاريخ ٢/ ٣٥٣، وسيرة ابن هشام ٢/ ٦٩، الكامل : ابن الأثير ١/ ٤١٧ ، وفاء الوفا : السمهودي ١/ ٢١٥، السيرة النبوية : ابن كثير ٢/ ١٧٥ ، البداية والنهاية ابن كثير ، المدينة : عاصمة الإسلام : السيد الوكيل ٢/ ١٦ ، وشعر الحرب فى الجاهلية : الخطراوي ١٦٤ ،والمدينة: الخطراوي ١٧٩، أيام العرب فى الجاهلية : جاد المولى ١/ ٧٣ أوغير ذلك.

فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب قال: ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، قال : فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا ، أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . قال فيأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال:دعنا منك ، فلعمرى قد جئنا لغير هذا . قال : فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكان وقعة بعاث بين الأوس والخزرج قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك قال محمود بن لبيد فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه ، يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات .

فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما . لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع[(١)]

وفي هذا الباب ذكر الواقدى دعاءه ﷺ بني عبس إلى الإسلام ، وأنه أتى غسان في منازلهم بعكاظ وبني محارب، كذلك ولم يزل ﷺ يدعو إلى دين الله ، ويأمر به كل من لقيه ورآه من العرب إلى أن قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى :«الكامل» لجلده وشعره ، وهو القائل

فرشني بخير طالما قد بريتني فخير الموالي من يريش ولا يبرى

فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فلم يبعد ، ولم يجب ثم انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قتل بيوم بعاث ، قال ابن إسحاق فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا نراه قد قتل وهو مسلم[(٢)] ، وقال رزين في ذكر هذه القصة ثم جاءت الأوس تطلب أن تحالف قريشا فجاءهم رسول الله ﷺ وعرض نفسه عليهم وقال: «اسمعوا مني هل لكم في خير مما جئتم به ؟ وتلا عليهم القرآن ثم قال: بايعوني

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٢/ ٦٩ ، ٧٠

(٢) وفاء الوفا : السمهودي ١/ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، والسيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/ ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

واتبعوني ، فإنكم ستجمعون بي» فقال عمرو بن الجموح : هذا أي قوم والله خير مما جئتم له ، فانتهروه وقالوا : ما جئنا لهذا ، ولم يقبلوا عليه ، ثم انصرفوا فكانت وقعة بعاث(١)

قلت : كان يوم بعاث ، وبعاث موضع بالمدينة كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم ولم يبق من شيوخهم إلا قليل(٢)

هذه صورة بعض الاستعدادت التي أعدت لها الأوس جاؤوا لطلب الحلف مع قريش ، وكان أول لقاء بينهم وبين رسول الله ﷺ أعطى ثمرته الأولى بإسلام إياس ابن معاذ ، وعاد الوفد إلى المدينة ليكون ذلك اليوم العصيب آخر أيام الأوس والخزرج .

وبعاث بضم الموحدة ثم عين مهملة مخففة وفي آخره ثاء مثلثة ، وقيل بفتح الموحدة ، وبدل المهملة معجمة ، وقيل وذكروا المعجمة تصحيف ، فعن ابن دريد صحف الخليل بن أحمد يوم بعاث هو بالعين المهملة ، ولا نظر لمن ضبطه بالغين المعجمة، لأنه مجرد تصحيف .

وفي اللسان : إنه اسم حصن من حصون الأوس، ويذكر ياقوت أن بعضهم يرى أنه كان مالا من أموال بني قريظة فيه مزرعة تسمى قوري (بألف مقصورة). والشريف العياشي يقول:«إنه اليوم مزرعة معروفة باسم المبعوث ، واقعة جنوب منطقة العريض على أكثر من ثلاثة أميال من المسجد النبوي في خطة المسجد الشرقي ، ثم يذكر أنه وجد حصنا في قاع فسيح يرجح أنه هو ، وتقع منازل بني الحارثة من الأوس في شماله ، ومنازل بني عبد الأشهل من الأوس أيضا في غربة ، وبنو قريظة في جنوبه الغربي ، ورأي العياشي هذا يفسر موقف اضطراب الرواة في نسبته مرة إلى الأوس ومرة لبني قريظة (٣)

(١، ٢) وفاء الوفا : السمهودي ١/ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، والسيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/ ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

(٣) معجم ما ستعجم ١/ ٢٥٩ . والمدينة : الخطراوي ص ١٧٩ ، السيرة الحلبية ـ علي الحلبي ٢ / ٦ ـ ٧ الكامل ـ ابن الأثير ١/ ٤٢٠

ومن الأسباب التي أدت إلى حرب بعاث اتصال هذا اليوم بما سبق من أيام وخاصة يوم الفجار الثاني عندما أقدم عمرو بن النعمان على رهن النصير وقريظة حلفاء الأوس فقتلهم ، وخالفه عبد الله ابن أبي بن سلول فقال هذا بغى وإثم ، ونهاهم عن قتله وقتال قومه من الأوس، وقال له كأني بك وقد حملت قتيلا في عباءة يحملك أربع رجال ، فلم يقتل وهو ومن أطاعه أحدا من الغلمان وأطلقوهم ومنهم سليم بن أسد جد محمد بن كعب ، وحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزرج[(١)]

ومن الأسباب التي ذكرها المؤرخون أيضا أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف ، فقتل رجل من الأوس أي وهو سويد بن الصامت رجلا حليفا للخزرج أي وهو (زياد والد المحذَّر بن زياد) بالذال المعجمة مشدودة مفتوحة ، فأرادوا أن يقتلوا سويدا فيه، فأبي عليه الأوس ذلك، لأن سويدا كان تسميه قومه (الكامل) لشرفه ونسبه وشعره وجلده وكان ابن خالة عبد المطلب بن هاشم؛ لأن أمه أخت سلمى أم عبد المطلب[(٢)]

كما سبق هذا اليوم الدعوة للحلف ومنها طلب الحلف من قريش ، فإن قريظة والنضير جددوا العهود مع الأوس على المؤازرة والتناصر ، واستحكم أمرهم وجدوا في حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير ما ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت،وأرسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب ، والتقوا ببعاث وهو من أعمال قريظة ، و على الأوس حضير الكتائب بن سماك والد أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي .

وتخلف عبد الله بن أبي ابن سلول فيمن تبعه من الخزرج ، وتخلف بنو الحارثة ابن الحارث من الأوس، واستغرق الاستعداد لهذه الحرب أربعين ليلة ، وجمع كل واحد

---

(١) الكامل : ابن الأثير ١ / ٤١٧

(٢) السيرة الحلبية : على الحلبي ٢/ ٧

منهم حلفاءه من العرب ، فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة ، وجمع حضير الكتائب قومه من الأوس ، وخطب فيهم يحرضهم على الاستماتة في الحرب ، ويذكرهم بما فعلت بهم الخزرج حتى قال قائلهم : والله لئن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحدا . فقال حضير : يا معشر الأوس، إنكم ما سميتم الأوس إلا أنكم تؤسون الأمور الواسعة وتعالجونها .

يا قوم قد أصبحتم دوارا لمعشر قد قتلوا الخيار يوشك أن يستأصلوا الديارا

ثم أشار عليهم أن يعقدوا اللواء لأبي قيس بن الأسلت ، ولكن أبا قيس اعتذر ولم يقبل القيادة فأعطيت القيادة لحضير الكتائب . واتفقوا على ألا يكفوا عن قتل الخزرج إن ظفروا حتى يقول الخزرج: (بزابز) وهي كلمة كانوا يقولونها إذا غلبوا [(١)]

فاجتمع الخزرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان ـ قلت : الذي ذكره ابن حزم أن رئيس الأوس يومئذ هو والد النعمان وهو الرحيق بن ثعلبة البياضي ـ والله أعلم[(٢)]

فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديدا وصبروا جميعًا ، ثم إن الأوس وجدت مس السلاح فولوا منهزمين نحو العريض ، فلما رأي حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح : واعقراه ، واعقراه كعقر الجمل ـ والله لا أعود حتى أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني ،فافعلوا ، فعطفوا عليه، وقاتل عنه غلامان من عبد الأشهل يقال لهما: محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قُتلا

وأقبل سهم لا يدري من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج، فقتله فبينما عبد الله بن أبي يتردد راكبا قريبا من بُعاث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلا في عباءة يحمله أربع رجال كما كان قال له : فلما رآه قال : ذق وبال البغي ، وانهزمت الخزرج ، ووضعت فيهم الأوس السلاح، فصاح

(١) شعر الحرب فى الجاهلية : الخطراوي ١٦٨ ، ١٩٦

(٢) وفاء الوفا : السمهودي ١/ ٢١٧

صائح : يا معشر الأوس أحسنوا ،ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ، ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم قريظة والنضير ، وحملت الأوس حضيرا مجروحا فمات ، وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم ، فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ، ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل (وقد تقدم ذكره).

ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي أخذه فجز ناصيته وأطلقه ، وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الإسلام في يوم بني قريظة .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله ، وكفي الله المؤمنين القتال ، وأكثروا من الأشعار في يوم بعاث ، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري الأوسي

أتعرف رسما كالطراز المذهب ... لعمرة ركبا غير موقف راكب

ديار التي كانت ونحن على منى ... تحل بنا لولا رجاء الركائب

تبدت لنا كالشمس تحت عمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

فأجابه عبد الله بن رواحة :

أشاقتك ليلى في الخليط المجانب ... بغم فرشاش الدمع في الصدر غالب

بكى أثر من شطب نواه ولم يقم ... لحاجة محزون شكا الحب ناصب

لدن غدوة حتى إذا الشمس عارضت ... أراحة له من لبه كل غالب

وليلى التي شبب بها ابن رواحة هي أخت قيس بن الخطيم ، وعمرة التي شبب بها ابن الخطيم هي أخت عبد الله بن رواحة وهي أم النعمان بن بشير الأنصاري[1]

---

(١) الكامل : ابن الأثير ١ / ٤١٧ – ٤٢٠

القسم الثالث

توجه عرب يثرب نحو الملكية

(١) نتائج يوم بعاث

عادت الخزرج تحمل هزيمتها المنكرة لأول مرة وبهذا الشكل المفجع ، وتحمل معها قائدها عمرو بن النعمان بثوب يحمله أربعة رجال ، تتحمل كل نتائج الهزيمة من القتل والتحريق والتنكيل وقطع أسباب الرزق ، إلا أنه لم يكن كل الخزرج قد هزمت ، ففئة كبيرة منها لم تدخل المعركة ، وهي الفئة التي أطاعت عبد الله بن أبي والذي ـ رغم أنه لم يقاتل ـ فاز بالثمرة الطيبة من هذه الحرب والثمرة هي التوجه لتتويجه ملكا على يثرب، ويذكرنا هذا الموقف بأن عبد الله بن أبي قد عاود هذا الموقف ثانية في الإسلام وثالثة عندما انخزل عن الرسول يوم أحد أملا في أن يهزم المسلمون ويولون الأدبار، وتأتي قريش المنتصرة لتكافأه على فعلته بإتمام تتويجه ملكا على يثرب ، ويعود على اقتناص ما فقده بدخول الإسلام إلى يثرب كما فعلها في تبوك أملا بأن يسوق الروم والغساسنة المسلمين مكبلين بالسلاسل بعد هزيمتهم وأسرهم .

لكن الحال تغير والموضوع اختلف ، وحتى أسباب الحروب وأهدافها وجنودها قد تغيرت تماما فأصبح هنالك إيمان وكفر، وعقيدة وشرك ، وهدى وضلالة .

هزمت الخزرج ولم يرتفع عنها الضيم إلا حماية سعد بن معاذ الذي وجد في جوار الخزرج إخوة الأوس خيرًا وألف خير عن مجاورة الثعالب (اليهود) الذين وجدو في هذه الحرب فرصة كبيرة للثأر من الخزرج ، الذين قتلوا رهائنهم، ونالوا غنيمة الحرب ، إذ إن الأوس كفت عن السلب والنهب والسعي وراء الغنيمة ، واندفع اليهود يعملون ما يشاءون؛ إذ إنهم كانوا يجهزون على الجريح ويقتلونه؛ ليسلبوه ويغنموا منه بدلا من مداواته وإسعافه .

رفع اليهود رأسهم فقد حققوا في حلفائهم بعض النصر عن طريق حلفائهم[(١)] وتمكنوا أن يجعلوا يوم بعاث من أيام المآسي المتصلة بين الأوس والخزرج ، وكان نصر حلفائهم الأوس له في نفوسهم وقع كبير ، إذ مكنهم هذا اليوم من القضاء على الأقوى في يثرب ، فالأوس أقل عددا وعدة ، وأقل انتصارات في حروب المائة عام ، ليس هذا فقط فقد ناولوا الكثير من سلب المنهزمين والحصول على الغنائم منهم ، وهذا قد أطفأ بعض أحقادهم ، ولكنه أجج أطماعهم وزادها .

عاد الأوس يحملون النصر، ويحملون (حضير الكتائب) الجريح قائدهم، والذي وافته المنية بعد أيام متأثرا بجراحه التي أصيب بها ، وعاد الأوس ليطفئوا ظمأ قلوبهم وينتقموا من إخوانهم الخزرج أبشع انتقام من قتل الفارين وتحريق دورهم وأشجارهم ومزارعهم ومداهمتهم في كل مكان وصب كل أحقاد الجاهلية فيهم ، لولا أن برز سعد بن معاذ الأشهلى، وأعلن حمايته للخزرج ،ومنع الناس أن يثأروا أو يفتكوا وأعلنها صريحة واضحة بأن جوار بني الخزرج خير بكثير من جوار الثعالب (اليهود)، عاد الأوس فرحين بما حققوا من انتصارات ، ولو أن حضير الكتائب قائدهم قد لقى حتفه كقائد الخزرج عمرو بن النعمان اللذين كانا شيطانى هذه الحرب ومسعريها ، وهكذا بدت يثرب في حال مؤلم جدا فلا المنتصر مرتاح ولا المهزوم مرتاح ، ولعل المرتاح الوحيد هم اليهود .

وإذا عدنا إلى ما قيل من شعر في هذه الحرب لوجدنا أن الألم يعتصر قلوب المنتصرين والمهزومين على السواء ولوجدناه عبارة عن تفريغ شحنات الثأر والانتقام التي تبدت في نفوس الطرفين ، المنتصر الوحيد في هذه الحرب هو عبد الله ابن أبي بن سلول ، فهو لم يدخلها لحكمة فيه؛ لأنه لا يرغب باستمرار هذه الحرب كما تشير كل الأحداث ، إلا أن هذا الأمر قد لا يلازم الصواب تماما فعبد الله بن أبي من الذكاء والفطنة ما يجعله يعلم بأن قيادته للخزرج في حرب كهذه وانتصاره فيها

---

(١) شعر الحرب فى الجاهلية : الخطراوي ١٧٠

ما هو إلا تمتين قيادته في قومه لا أكثر ، هذا إذا انتصر ، أما إذا حمله أربعة رجال في عباءة كما توقع لمنافسه في زعامة الخزرج عمرو بن النعمان فإنه يكون قد انتهي ، وهو صاحب الطموحات الكثيرة ، أما إذا انهزم قومه ولم يتمكن من تثبيت انتصاراتهم فيكون قد قضى على نفسه تماما، وأجل إلى أجل غير محدود آماله وطموحاته .

أما موقفه المحايد فقد فاز به بالكثير ، فاز به بين قومه إذا انهزموا وجدوا فيه مجمعا وقائدا وملاذا يستطيع أن يأخذ بيدهم مره أخرى لمحاولة أخرى ، وإذا انتصروا فإنه يستطيع أن ينال هذا النصر؛ لأن مثل هذه الانتصارات لا يستأثر به قوم عن قوم بل تشمل كل أفراد القبيلة ، ويستطيع أن يجد الحيلة في تبرير تخلفه ، ولقد اجتمع الخزرج عند عبد الله بن أبي يقرون شأن الحرب ويتوعدون الأوس وحلفاءهم اليهود بالفناء التام ، فلم يوافقهم عبد الله وقال لهم إن هذا بغى على قومكم ، وعقوق فإن كان لابد من الحرب فقاتلوا قومكم كما كانوا يقاتلونكم فإذا ولوا فخلوا عنهم ، وحذرهم مغبة الانسياق وراء عواطفهم فقال له عمرو بن النعمان افتضح والله سحرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبدا ، ولكنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة في عباءة إلى مثواك الأخير ، ولم يتابع عبد الله في رأيه سوى نفر قليل من الخزرج(١)

ولذلك فإن عبد الله بن أبي لم يمكث في بيته محتجا على هذه الحرب اللامعقولة ، والتي لم يجر من وراءها قومه إلا الدمار معلنا أنه ضد هذه الحروب يبتغى تجميع قومه ، وجمع شتاتهم ولكنه قاد جماعته وأخذ يتجسس الأخبار المعركة ولمن وعلى من ستكون ؟ وأول انتصاراته رؤيته عبد الله بن النعمان محمولا في رداء يحمله أربعة رجال ، وبعد ذلك هزيمة الخزرج الذين سيقبلون بزعامته ليلم شتاتهم ويطيب جراحهم .

---

(١) شعر الحرب فى الجاهلية : الخطراوي ص ١٥٨

ومن نتائج يوم بعاث المثيرة هو أن حالة الاندفاع نحو الحرب قد خفت بين الفريقين معا،وذهب منهم مسعروا هذه الحروب والمروجون لها، وظهر على السطح العقلاء من كلا الطرفين ، فسعد بن معاذ يمنع قومه من الاندفاع وراء ثاراتهم إلى ما لا نهاية ، وعبد الله بن أبي لا يشارك فى هذه الحرب لسبب أو لآخر ، وعدد كبير آخر قد مل من كثرة هذه الحروب التي لا طائل من ورائها ، وبذلك فقد توجهت الآراء إلى أن يبحث اليثربيون من العرب عن مخرج لهذا المأزق الخطير ، الذي توارثوه فترات طويلة جدا طال أمدها ، وكثرت ضحاياها ، وازدادت فيها الأضغان والأحقاد ، وابتعد القوم كثيرا على أن يكونوا أقرباء أو أبناء عمومة ، وأضحت المجاورة بينهم قاسية .

وأدت كثرة هذه الحروب إلى توقف أي تطور اقتصادي أو تجاري فى يثرب ، أو إيجاد أي صيغة مقبولة تجمع شتات عرب يثرب ، ومن حسن حظهم أن هذه العدوى أصابت أيضا جوارهم من اليهود ، وإلا لو اتحد أولئك لتمكنوا أن يفرضوا وجودهم على يثرب ، ويطرد الأوس والخزرج من يثرب شر طردة .

ومن النتائج الهامة لهذه الحروب أن الكثيرين دخلوها وهم غير مؤمنين بها أو بأهدافها أو بدوافعها ، فقد أعلن إياس بن معاذ ـ كما ورد فى كتب السيرة ـ إسلامه علنا وقد أورد أكثر من واحد أنه مات مسلما؛ لأنه كان يسبح لله ويهلله ، وهذا التوجه، وهذه الفكرة لابد أن يكون له وقع فى نفوس الآخرين؛ إذ إن الإسلام بدأ يدغدغ أفكارهم وسلوكهم ، وهذا الأمر كان من النتائج الطيبة إذ إن الإسلام الذي دخل هذه النفوس سيتحول مباشرة إلى أن يكون هو الرأي الغالب، والسلوك الأكثر اتجاها بعد أن بدأ الخارجون من بعاث يلتفون بالرسول ﷺ في مواسم الحج التاليه ويسمعون عنه ويدخلون فى الإسلام أفواجا .

ومن النتائج التي تحصلت ببعاث هو تقارب النفوس أكثر من تنافرها واقترابها أكثر من ابتعادها وتلاحمها أكثر من تجافيها ، وهذا أيضا أدى ألا تنفرد واحدة من القبيلتين بقبول ملكية ابن أبي أولا ، ومن ثم الدخول في الإسلام وقبول التوحد تحت لوائه وتحت ظله .

كما أنه يمكن لنا أن نقول بأن هذه الحرب الأخيرة في حلقات الحروب المتواصلة قد أدت إلى أن يضع المحاربون سلاحهم ليستريحوا ويتوجهوا إلى بناء حياتهم وبلدهم ، ويبحثوا عن أية صيغة يمكن أن تكون مقبولة لديهم ، أما الأشعار التي قيلت في يوم بعاث فهي كثيرة جدا يمجد كل شاعر فيها أفعال قومه، وما قدموه في هذه الحرب[١]

(١) انظر : شعر الحرب في الجاهلية : الخطراوي ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) المصالحة بين الأوس والخزرج

تحدثنا عن النفوس التي امتلأت قبل الحرب قد خف إصرارها واشتعالها بعده ، وقد حاول كل فريق سواء المنتصر أو المهزوم أن يقدم للطرف الآخر تنازلات تجلت برد الجميل الذي يحمله البعض للآخرين ، فقد أجار سعد بن معاذ الأوسى بني سلمة جميعا وحمى أموالهم من التحريق جزاء موقف سيد بني سلمة عمرو بن الجموع منه يوم الرعل وفي نهاية هذه الحرب حضر حضير الكتائب وأبو عمرو الراهب[١] أبي قيس بن الأسلت، فقال له حضير يا أبا قيس، إن رأيت أن نأتي الخزرج بيتا بيتا ، وقصرا قصرا نقتل ونهدم، حتى لا نبقى منهم أحدا . فقال أبوقيس ـ وكان رجلا عاقلا حليما ـ والله لا نفعل ذلك ومات حضير بعد ذلك متأثرا بجراحه ، لقد كان لموت الزعماء من الأوس والخزرج الأثر الكبير في بروز القادة من الصف الثاني الذين اكتووا بهذه الحرب ، وآثروا الاتجاه نحو السلم

إن الزعماء الذين بادوا في هذه الحرب كانوا معتزين بشخصياتهم كما كانوا موضع احترام وإجلال من أفراد قبائلهم ، ومنهم من كان مرشحا للرئاسة ، وكانت لهم الكلمة العليا لا ينازعهم الرأي أحد ولا يتطلع إلى السيادة دونهم إنسان[٢] ولقد قضت حرب بعاث على هؤلاء الزعماء من الفريقين ، ولم يبق منهم إلا الطبقة الثانية ، وكانت قد اصطلت بنار الحرب وعاشت ويلاتها ، حتى انهم ليفكرون في الانتظام تحت كلمة رجل منهم ، ولم يكن هناك غير عبد الله بن أبي وقد عزموا أن يتوجوه ويجتمعوا عليه[٣]

---

(١) هكذا وردت بالأصل والصحيح: « أبو عامر الراهب » ـ المرجع السابق ص ١٧٠

(٢) المدينة المنورة ـ السيد الوكيل ٢ / ١٦ ، ١٧

(٣) ورد هنا أيضا أبو عمرو وهذا غلط، إذ إنه ورد أبو عامر فى كل الصفحات التالية فى نفس المصدر .

وعلى أثر الهزيمة التي منيت بها الخزرج حلفت اليهود لتهد من حصن عبد الله ابن أبي ، وكان أبو عمرو الراهب مع الأوس ، وكانت تحته جميلة بنت أبي، وهي أم حنظلة غسيل الملائكة ، فلما أحاطوا بالحصن، قال لهم عبد الله أما أنا فلم أحضر معكم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندى فإنني لم أقتل منهم أحدا ونهيت الخزرج فعصونى ، وكان رجل من عنده من أولاد بني النضير ففرحوا حين سمعوا بذلك فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، وهذا هو سر دفاعه عنهم عندما أمر رسول الله ﷺ بإجلائهم من المدينة ، ولم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحبل تحيل بها

هدأت الحرب وعاد القوم لينظروا بعقولهم لا بعواطفهم ، على ما أصابهم من جراء هذه الحرب التي وقعت بينهم، وكيف أنها خلقت ضغائن في النفوس وثارات ودماء ، لا يطفئها إلى المزيد منها ، ولقد قلبت هذه الحرب المفاهيم والمعاهدات والتحالفات ، فقد تمكن ابن أبي الذي احتفظ برهن بني النضير أن يلعب بهذه الورقة في الوقت المناسب ، عندما هاجر اليهود وقرروا أن يهدموا آطمه فأخرج أبناءهم وأمتعتهم برفضه لهذه الحرب الملعونه فصفت نفوسهم، ودخلوا معه في حلف بعد أن كانوا يأتمرون للقضاء عليه وعلى آثاره .

ولم يكن في المدينة من الذين بقوا بعد هذه الحرب إلا رجلين اثنين ، فلما قدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم - يعني الأوس والخزرج - ومعناه أنه قتل يوم (بعاث) أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف أن يدخل الإسلام لتصلبه في أمر الجاهلية ، ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقى منهم من هذا النمط عبد الله بن سلول وقصته في ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله (بالفاسق) .

قال أهل السير : قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله ابن سلول كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج ، ثم من بني الحبلي لا يختلف في شرفه في قومه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام ، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو

عامر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد وهو أبو حنظلة الغسيل ، وكان قد ترهب ولبس المسوح « فشقيا بشرفهما ».

أما عبد الله ابن سلول فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن ، فكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون ، وهو القائل في غزوة بني المصطلق: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون:٨].

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام(١) وروى بعضهم أنه لم يكن في الأوس والخزرج رجل أوصف لمحمد ﷺ من أبي عامر المذكور، وكان يألف اليهود ويسألهم فيخبرونه بصفة رسول الله ، ثم خرج إلى يهود تيماء إلى الشام ، فسأل النصارى فأخبروه بذلك فرجع وهو يقول أنا على دين الحنيفية ، وترهب ولبس المسوح ، وزعم أنه ينتظر خروج النبي ﷺ . فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه، فلما قدم المدينة حسد وبغى وذكر النبي ﷺ بنحو ما سبق إلا أنه قال : فقال رسول الله ﷺ «الكاذب أماته الله وحيدا طريدا ». قال : آمين ثم ذكر خروجه إلى مكة، وزاد : فكان من قريش يتبع دينهم ، وترك ما كان عليه ، فهذا مصداق ما قالت عائشة ﵂(٢)

وبدأت تغيرات كثيرة في يثرب ، تتغير المفاهيم ، وتتغير الأحلاف ، وتتغير النفوس ، وتخطو خطوة أخرى نحو مصير جديد لهذه المدينة التي أصبحت على باب انقلاب أدخلها جملة في عنفوان التاريخ في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من أن هذه الحرب قد أهلكت السراة وأجهدت الباقين ، إلا أن عوامل الثأر ما زالت مدفونة في النفوس، وكادت الحرب تتجدد ثانية بسبب ثورة الأشعار التي تناقلها شعراء الطرفين، والتي أدت على قتل أشهر شعراء الأوس قيس بن الخطيم الذي قال بيوم بُعاث :

---

(١) وفاء الوفا ـ السمهودي ١ / ٢١٩ ، ٢٢٠

ألا أبلغـا ذا الخزرجـي رسـالة رسـالة حـق لـست فيهـا مفنـدا

فإنـا تركنـاكم لـدى الـردم غـدوة فـريقين مقتـولا وبـه ومطـردا

فأجابه أنس بن العلاء :

صـبحناهم عنـد القتـال بغـارة فأصـبح قـيس بعـدها متلـددا

وقال قيس :

سـل المـرء عبـد الله إذ فـر هـل رأي كتائبنـا في الحـرب كيـف مـصاعها؟[1]

ولـو قـام لم يلـق الأحبـة بعـدها ولاقـى أسـودا هـصرها دفاعهـا

ونحـن هزمنـا جمعكـم بكتيبـة تـضاءل منهـا حـزن قـورى وقاعهـا[2]

تركنـا بعاثـا يـوم ذلـك منـه وقـورى عـلى رغـم شـباعا ضـباعها[3]

وقصة موت قيس ابن الخطيم : فإنه لما هدأت الحرب بين الأوس والخزرج بعد حرب بعاث تذاكرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم فتواعدوا على قتله وفي أمسية من أماسية خرج إلى بستانه (بالشوط) وعليه ملاءتان مورثتان ، وعند مروره بأطم بني حارثة رموه بثلاثة سهام فأصابه أحدها في صدره ، فصاح صيحة سمعها قومه من الأوس فجاؤوا فحملوه إلى منزله ، فلم يروا له كفؤا إلا أبا صعصعة بن يزيد بن عوف بن مبذول النجاري ، فاندس إليه رجل فضرب عنقه غيلة ، وأتى برأسه إلى قيس وهو في النزع الأخير ، فألقاه بين يديه وقال : يا قيس لقد أدركت ثأرك . فقال : أبغير أبي صعصعة : ؟ فقال : بل إنه هو ... فابتسم قيس ارتياحا ولم يلبث أن مات[4]

---

(١) عبد الله : عبد الله بن أبي الذي لم يشارك بالحرب ، المصاع : القتال والمجادلة .

(٢) قوري مكان قرب بعاث .

(٣) في نفس المصدر وردت سباعها ص١٦٩ ، وشعر الحرب فى الجاهلية : الخطراوي ١٧١ – ١٧٣ (بتصرف) .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٢) اختيار النظام الملكي

من خلال ما تقدم ، وما كان يحيط بالمدينة من أحداث ، وما كان في أذهان أهل يثرب من الماضي البعيد ، ونتيجة لبروز العديد من الزعامات في الفترة التي كان للأوس والخزرج فيها قوة فقد تحولت الآراء إلى اختيار النظام الملكي ليكون سائدا في يثرب ، والملاحظ من خلال ما تقدم وما أوردته كتب السير والتاريخ أن القرار السياسي كان بيد العرب ، من الأوس والخزرج فقط ولم يشارك به اليهود ، إذ أن اليهود وفي مبدئهم السياسي أن الحكم فيه تشويه وتتداخل به معتقداتهم وآراؤهم الدينية ، ولذلك فإن التحول الكبير في تاريخ يثرب نحو الملكية كان يعنى فقط العرب من الأوس والخزرج دون سواهم .

أما قضية العلاقات والتحالفات بينهم وبين اليهود والعرب الآخرين، فهذا أمر آخر لا علاقة له به توصل إليه عرب يثرب من رأي ، ولقد تأخرت فكرة التحول إلى إقامة مملكة في يثرب باعتبار أن نظام الحكم فيها ، كان لا يختلف كثيرا عن طريقة نظام الحكم في مكة ، فلم يكن لأهل يثرب عند ظهور الإسلام رئيس ، وقد حاول بعض ساداتهم من الأوس والخزرج تنصيب أنفسهم ملوكا على المدينة غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم فلم ينصبوا ملكا عليها ، والظاهر أن للمنافسة الشديدة والعنيفة التي كانت بين الأوس والخزرج على الزعامة ، والرئاسة يدا في عدم تمكين أي أحد من سادة يثرب من الانفراد بزعامة المدينة والسيادة عليها ، وقد كان لوجود اليهود في يثرب يد في تعميق الخلاف بين (أولاد القبيلة) ، إذ لم يكن في مصلحتهم اتفاقهم واجتماعهم على اختيار واحد قوي ، فالرئيس القوى سيبسط نفذه من غير شك على يهود يثرب أيضا ، ويستبد عليهم، ويجعلهم أتباعا له ، أما في حالة تشتت حكمهم وتشاحنهم فسيكون لليهود إمكانية إثارة فريق على فريق ، والاستفادة من سياسة فرق تسد، وبذلك يكون أمرهم ونهيهم بدلا من أن يكون في

أيدي صاحب يثرب[1]

وهذه الفكرة على ما بها من ولوج في الحقيقة، فإننا يمكن أن نتصور عرب يثرب من الأوس والخزرج لم تكن غافلة عنهم عندما تنادوا لوضع حد لحروبهم ، وتوجههم إلى اختيار الملكية ، واختيار الاجتماع على رأي واحد في وضع حد نهائى لأزمة الحكم بينهم .

إن التحول إلى النظام الملكي أمر جد طبيعي ، إذ إن اليثربيين على صلة وثيقة جدا بأبناء عمهم الغساسنة الذين استطاعوا أن يشكلوا ممالك ويحتلوا بلادًا ، ويجيشوا الجيوش ، ويفرشوا سلطانهم على الكثير من القبائل ، ولو أنهم لم يكونوا أكثر من دمى في يد الدولة البزينطية أو دولة حاجزة إن صح التعبير عن هذه الدولة تدفعهم ليزودوا عنها غارات البدو وغزوهم .

لماذا لم تختر يثرب نظام مكة ، مع العلاقة القوية والوثيقة بين البلدين؟

والتركيبة الاجتماعية المتقاربة ، فإن هذا الأمر ارتبط منذ أيام قصي بن كلاب بخدمة البيت الحرام ، وقد أصبح أبناء قصي سدنة هذا البيت والقائمين بأية أعمال أخرى ترتبط بخدمة الكعبة ، وهذا أعطاهم الشرف والرياسة والقوة ، وطبعًا هذا أمر غير متوفر في يثرب ، فليس فيها بيت يخدم ولا إله يوظف له سدنة أوكهان ، وبذلك فقد تم اختيار النظام الملكي عن قناعة كاملة لدى عرب يثرب، وبأنه هو الحل الأمثل والأفضل الذي يستطيع به الملك أن يجمع قوى يثرب المتنافرة المتناحرة القوى التي أنهكتها الحروب المتوالية ، وأوجب لها أن تستريح على الأقل ، أو أن تجتمع ضد عدو مشارك لهم في الأرض والمحيط والجوار .

وفكرة المجاورة بين الأوس والخزرج أفضل من مجاورة الخنازير أو[الثعالب] اليهود قد طرحت في ذلك الوقت فكرة أخرى وهي اجتماع الرأي أولا ، وأن يكون النظام الملكي حلا طيبا لبعض أزماتهم ، وتعتبر أيضا بداية التنازلات التي رضي بها

(١) جواد علي : تاريخ ٥ / ٢٥١ ، ٢٥٢

الأوس المتصرون ليكون الملك من خصومهم .

ومع معرفة كلا الحيين من عرب يثرب أن هناك التزامات قوية تقع عليهم من جراء تحول بلدهم إلى مملكة ، ومعرفتهم ما للملوك من حقوق على رعاياهم فإنهم لم يجدوا غضاضة في ذلك .

فالملك ـ كما هو معروف وقتها ـ هو السلطة العليا في مملكته، وهو الموجه والمدبر والمدير لأمورها،وله على أتباعه حقوق كثيرة منها:حق التسليم والخضوع والطاعة، فطاعته واجبة وله حق جباية الشعب، أي أخذ الضرائب منه، ضرائب على الزراعة، وضرائب على التجارة ، وحق إعلان النفير ، والحرب ، والامتناع عن دفع حقوق الملوك المتفق عليها ، والخروج على أمره هو خروج عن الحق والقانون[١]

والملك هو قائد شعبه أيام السلم وأيام الحرب ، يرأس جيشه في القتال ، ويختار من يشاء في قيادة الجيش وهو القاضي الأعلى والحاكم فيما يقع بينهم من خلاف ، وهو الرئيس الروحى لأمته وكاهنها في الأصل غير أن الملوك تركوا هذه القيادة الروحية أي الزعامة الدينية لغيرهم ، وهم رؤساء الدين واحتفظوا بالسلطة الزمنية التي تشمل سلطة القيادة والحكم[٢]

ومع أن الأوس والخزرج لم تسلما من قيادتها لأحد يحمل هذه الصفات أو يتمتع بهذه الواجبات فإن القبول الآن بهذا التوجه يعتبر تحولا خطيرا في الحياة السياسية لسكان يثرب .

إن استمرار حياتهم كالسابق لم يعط إلا الحروب والدمار ، ولم يغرس في قلوبهم الطاعة إلا لشيخ القبيلة ، ومع أن سادات القبائل لا يتمتعون بما يتمتع به الملوك فهم بحكم منازلهم ومكانتهم في قومهم لهم امتيازات وحقوق، ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبيا تبعة القيام بها لرعيتهم وهم أفراد القبيلة[٣] وكل ما كان لشيخ القبيلة

(١، ٢) جواد علي : تاريخ ٥ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ – ٢٧٠ [بتصرف] .

(٣) جواد علي : تاريخ ٥ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ – ٢٧٠ [بتصرف] .

من منزل هو جباية المرباع وحقه في أخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو (وهم ذو الآكال)، وحق الصفايا وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه من الفرس وما لا يستقسم أي لا يقسم على الجيش لقلته وكثرة الجيش ، وله أيضا حق (الحمى) وهو من أمارات عزه وشرفه وسيادته، فكان إذا مر سيد القبيلة برمضه أعجبته، أو بغدير أعجبه أعلن حمايته عليها أو عليه إلى حد يعينه ويثبته ، وبعض الخصائص الأخرى لا تتوازي بحال بحقوق الملك[1]

ولذلك فإن اختيار للملكية أمر فيه تطور فكرى سياسى واضح ، وأصبح أهل يثرب مؤهلين ذهنيا إلى قبوله ، نعم لقد قادهم رجال يمكن أن يتوجوا ملوكا، ولهم من البأس والشدة والحمية والجاه ما يجعلهم قريبين من مثل هذا ، إلا أنهم سقطوا صرعى في يوم بعاث الذي حصد رؤوس القوم، وأدى بها إلى الهلاك ، وأبقى في يثرب رجال الصف الثاني الذين تحولوا إلى مثل هذا الاتجاه .

(١) السابق ذاته .

(٤) تسمية الملك والاتفاق عليه

الأنظمة السياسية التي تبلورت حديثا أخذت أشكالها غالبا وتسمياتها من الأشخاص الذين كانوا مؤهلين لمثل هذه التسميات، والأنظمة الملكية، والإمبراطورية وهي الأقدم في السياسة الدوليه فإنها في بداياتها كانت قد فصلت على شخص استطاع في وقت من الأوقات أن يكون هو القادر دون سواه على تحمل أعباء هذا المنصب ، ونجد في تاريخنا الحديث أن العديد من القادة قد تمكنوا أن يحولوا أنظمة الحكم لصالحهم في فترات متباعدة ، فعدد لا بأس من العسكريين في العالم نصبوا أنفسهم ديكتاتوريين أو أباطرة أو رؤساء جمهوريات ، أو حكامًا دائمين ومنهم من حول حكمه إلى وراثة تحت مسميات مختلفة ، ويمكن أن نضرب مثالا على الهند حين توارثت عائلة نهرو الحكم (منصب رئيس الوزراء) طيلة عقود لا بأس بها من تاريخ الهند بعد استقلالها ، وآخرون حولوها ملكية أو إمارة أو أية صيغة أخرى وجدها هؤلاء القادة تنفع أو تتوافق مع طموحاتهم وقدراتهم .

في يثرب لم يكن هناك نظام محدود مدون عدا النظام العشائرى ، وعندما استقر في ذهن اليثربيين من العرب تحويل بلدهم إلى مملكة صغيرة فقد كان واضحا في ذهنهم أيضا من يمكن أن يكون هذا الملك ، من هذا الذي يستطيع أن يجمع من الصفات ما يؤهله أن يليق بهذا المنصب ، ولذلك فإن كل الأنظار كلها تقريبا قد توجهت إلى عبد الله بن أبي ابن سلول من الخزرج، ولقد سبق القول بأنه لم يكن له منافس في شرفه ، وعلو همته في يثرب في قبيلته وفي الأوس أيضا، ولقد استطاع أن يستثمر عبد الله بن أبي هذا الأحداث كما لم يفهم استثمارها غيره .

وقد أوردت لنا كتب التاريخ بعضا من هذه الأعمال جاءت قبل وبعد وأثناء يوم بعاث أهلت عبد الله لمثل هذا المنصب ، كما جعلت الأنظار كلها تتوجه إليه:

١ ـ لم يتورط عبد الله بن أبي بالدخول في حرب بعاث ، وقد حذر وأنذر الذين سعروا هذه الحرب بالعاقبة السيئة خاصة عندما تحدث إلى النعمان بن عمرو ، وأخبره بأنه سيخرج محمولا على عباءة يحمله أربعة رجال ، لكنه لم يلبث في بيته يترقب الأحداث والنتائج، بل ذهب بأتباعه من بني حارثة يتلمس الأخبار حتى مر عليه حاملو منافسه القوي النعمان بن عمرو محمولا على عباءة ، وأحب في هذا المقام أن أسجل الملاحظات التالية :

١ ـ إصابة النعمان لم تعرف من أين أفلا يكون أحد رجال عبد الله بن أبي قد ترصد المعركة باعتباره كان قريبا منها، وكان هو المتسبب بهذا السهم المجهول الذي حول الخزرج إلى منهزمين؟قد يكون ذلك وقد لا يكون؟لكن المصادر غفلت عن هذا.

٢ ـ لماذا خرج عبد الله بن أبي يتجسس الخبر عن المعركة طالما أنه هو أصلا احتج عليها، أليس من الممكن أن يكون قد هيأ خطة للتدخل لصالح أحد الطرفين إذا اقتضى الأمر ...؟ولماذا لم يتدخل مع أن الهزيمة قد حاقت بالطرفين أولا وأخيرا ..؟ أيضا لا يوجد جواب لكن كل الأمور كانت توحي بالعديد من التساؤلات حول هذا اليوم .

٣ ـ هذا الموقف أكسبه تأييد الأوس الذين وجدوا فيه رجلا عدلا لم يتحمل مع بقية الخزرج تبعة الدماء التي سقطت في يوم بعاث ، وهذا الأمر رفع اسمه ، وجعل الخزرج المنهزمين والذين فقدوا زعماء الأقوياء ، يتوجهون إليه ليكون ملكا عليهم فعلى الأقل يعيد لهم شيئا من الاعتبار بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بهم ، ويستعيدون قوتهم وبأسهم ويكون الحكم دائما فيهم .

٤ ـ لم يتورط عبد الله أيضا في قتل الرهائن من فتية اليهود الموجودين عنده ، فأنقذ نفسه وأهله من غضبه اليهود المتحالفين مع الأوس ، ولولا أن أخرج لهم أبناءهم وردهم إليهم لقتلوه حرقا هو وأهله وأحرقوا مزارعه وبساتينه ، وهذا أيضا قلب اليهود من أعداء حاقدين أشداء إلى حلفاء أقوياء جدا ، استعان بهم حتى آخر أيامه .

٥ ـ مع كل التدبير لم يكن عبد الله بن أبي من البساطة والحمية والتسرع حتى أنه عرف بين قومه بالحكمة ، ومع أنه أعاد بعض تمثيلياته في الإسلام إلا أنه بالقدر الذي نجح به في الجاهلية فشل به في الاسلام فشلا ذريعا خاصة موضوع انسحابه يوم أحد، ويوم تبوك، ومدافعته عن بني النضير والتزامه بحلف اليهود .

٦ ـ برز عبد الله بن أبي كرجل مد بر قوى،قادر على أن يسلك بيثرب إلى الإسلام والطمأنينه ويستطيع أن يأخذ الأمور بنصابها وأبعادها ، ويمسك جميع الخيوط بيديه في الوقت الذي كان الآخرون يندفعون وراء عواطفهم وآرائهم باستثناء سعد بن معاذ الأشهلى الذي كان ندا قويا لعبد الله بن أبي هو الأقوى والأجدر بالملكية في يثرب .

٧ ـ تنازلت الأوس عن انتصار عظيم حققته بعد طول جفاء مع النصر وطول هزيمة ، وهذا الحال كان له آثاره الكبيرة جدا في تحول يثرب إلى الملكية ، والتوجه إلى عبد الله بن أبي الخزرجى فلم تستثمر الأوس هذا الانتصار ، كما أنها لم تفرض شروطها وهي شروط المنتصر ، وإنما تنازلت لعبد الله الذي لم يشارك بحربها خاصة هذا اليوم ، وكانت ترى فيه داعية سلام أكثر منه داعية حرب ، ولعل حكمة سعد ابن معاذ الذي برز بعد يوم بعاث وحمايته الخزرج من جهة وقبوله بملكية ابن أبي هي التي أوصلت القضية إلى هذا الحد من التطور .

٨ ـ إن قلة أعداد الأوس من جهة ، ومعرفتهم بمدى هذه القوة من جهة ومعرفتهم بقوة أعدائهم، ربما تكون السبب المباشر الذي يجعلهم يقبلون بعبد الله بن أبي باعتباره نزيها لم يغمس يده في دمائهم ، ولم يعلن الحرب ولم يرضى عنها وحالف على مشاعر حلفائهم من يهود فلم يقتل رهنهم ولم يتوغل بالعداوة لهم ، وقد وجد الأوس أن تحول بني النضير للحلف مع عبد الله بن أبي سيضعف موقفهم ويؤثر في مدى محافظتهم على هذا الانتصار .

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة تحول عرب يثرب إلى عبد الله بن أبي ليكون ملكا على يثرب ، واتفاق العرب دون الأخذ برأي اليهود أو حتى مشاورتهم في هذا

الأمر والذي سيتأثرون به لا محالة ، فالملك لن يكون على العرب دونهم بل سيحكم يثرب كلها عربها ويهودها ، ولم تشر المصادر من بعيد أو من قريب إلى رأي اليهود في هذا المجال سواء أكان هذا الرأي إيجأبيا أو سلبيًا ، فقد كانت تعقد الأمور العظام دون الالتفات إلى رأيهم وكلفوا بعمل التاج لعبد الله ابن أبي باعتبارهم صناعًا فقط ، وهذا يدل على أمرين :

أولهما قلة تأثيرهم في مجرى الحياة السياسية في يثرب منذ أن حجمهم مالك ابن العجلان .

وثانيهما : تفرقهم وعدم اجتماع كلمتهم وسيطرة الحياة القبلية عليهم بأبعادها المختلفة كما أننا لم نسمع عن ذكر رأي في هذا الاختيار أو في تعيين الملك،أو المنافسة، أو المعارضة والأمر الآخر هو انكماش اليهود في مجتمعاتهم المغلقة المعروفة تماما في تجمعاتهم خلال التاريخ من الانزواء والتقوقع والتآمر والسرية .

ونلاحظ أيضا أن اختيار«خزرحي» للملكية يثرب إرضاء للغساسنة الذين يعلمون أكثر جوانب الحياة الفاعلة في أيد الخزرج والأوس لهم فاعليتهم ، ولكن ليس على مدى العلاقات الخارجية التي كونها الخزرج من زيارة شعرائهم إلى بلاط الغساسنة ، والاتصال بهم، وحتى بالمناذرة، وكان حلف الأوس لا يتعدى حدود الحجاز ، ومع مكة، ونقضه أبو جهل عندما لم ير مبررا لمثل هذا الحلف، فلما أيست الأوس من نصرة اليهود حالفت بطونا من الخزرج منهم بنو عمرو ابن عوف ، وقال سائرهم: والله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا، فتقاتلوا ، وكثر القتل في الأوس لما خذلهم قومهم ، وخرج سعد بن معاذ الأشهلى فأجاره عمرو بن الجموح الحرامى ، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قل، عزموا على أن يكونوا حلفا للخزرج في المدينة ، ثم اشتوروا في أن يحالفوا قريشا ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض عليه ، فأجار أمواهم بعدهم البراء بن معرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشا ، ثم جاء أبو جهل ـ وكان غائبا ـ فنقض حلف قريش بحيلة احتالها

قلت : روى ابن شبه عن أفلح بن سعيد ما يخالفه في نسبة ذلك لأبي جهل مع بيان الحيله فقال:خرجت الأوس جالية من الخزرج، حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليد بن المغيرة: والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم ، وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس . فقالوا : بأي شئ ؟ قال : إن في القوم حمية قولوا لهم: إنا نسينا شيئا لم نذكره لكم، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت، فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت ، وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم فقطعوه[1]

لقد برز ابن أبي دون منافس وإليه ستؤول هذه القضية ، رتب الدهر بعضا من جوانبها ، ورتب هو جوانب أخرى ، وجرى الزمن لصالحه حتى أصبح هو المعنى في كل حديث في يثرب من أن هذا الأمر سيؤول إليه لا محالة ، وفعلا فقد بدأت الاستعدادات تأخذ أبعادها ليوم التتويج الميمون .

---

(١) وفاء الوفا : السمهودي ١ / ٢١٦

(٥) المراحل التي وصلت إليها الملكية في يثرب

قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج، ثم من بني الحبلى ، لا يختلف في شرفه في قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج يومئذ على رجل غيره من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام .

وذكر أن عادة نظم الخرز في عقد يوضع على الرأس ليكون شعارا للملك والحكم عادة كانت معروفة في الحجاز ، وقد ورد أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان رجلا شريفا في يثرب ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فما راعه إلا مجيء الإسلام إلى يثرب وقدوم الرسول ﷺ إليها ، فانصرف عنه قومه فضغن على الإسلام ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكه .

وورد في الحديث أن الرسول ﷺ شكا إلى سعد بن عبادة عبد الله بن أبي فقال : أعف عنه فقد كان اصطلح أهل البحيرة على أن يعصبوه العصابة ، فلما جاء الله بالإسلام ، شرق لذلك ، ويعصبونه ، معناه يسودونه ويملكونه ، كانوا يسمون السيد المطاع معصبا ، لأنه يعصب بالتاج وفي ذلك قول عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

فجعل الملك معصبا أيضا؛ لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسها ، ويقال: اعتصب التاج على رأسه ، إذا استكف به ومنه قول قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقعة على جبين كأنه الذهب(١)

قال لبيد يذكر الحارث بن أبي شمر الغساني :

---

(١) جواد علي : تاريخ ٥ / ٢١٠ ، ٢١١.

رعى خرزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى فاد والشيب شامل

أي أن الخرز كان يزداد بعدد سني حكمه ، ويقال كان الملك إذا ملك عاما زيدت في تاجه خرزة ليعلم عدد سني ملكه[١]

واستعاد اليهود بعد هذا اليوم مكانتهم في يثرب ، ورأى المنتصر والمهزوم من الحيين سوء ما صنعوا ،وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم ، واختاروا لذلك عبد الله بن أبي ابن سلول من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه ، وعدم اشتراكه في حرب بعاث ، ولكن تطورت الأحوال تطورا سريعا حال دون ما أرادوا وذلك لبدء الإسلام بيثرب[٢]

إذا كان أهل يثرب قد ساروا في هذا الدرب إلى هذا الحد فيعني أنه لم يبق أمام تتويج عبد الله بن أبي إلا القليل . وقد وردت الكثير من الأخبار في أن الرسول ﷺ دخل المدينة مهاجرا وأهلها يعقدون الخرز لعبد الله بن أبي ابن سلول .

إن بدء الإسلام في يثرب ، و هو ما سنتحدث عنه تفصيلا في الفصل القادم قد وافق تماما محاولات تتويج عبد الله بن أبي ، ولقد قام الرهط من الأنصار وبايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية والتي عرفت ببيعة الحرب، وبالقرب منهم ملكهم القادم ، حتى إنه لما سئل بعد ذلك أنكر علمه بشيء .

قال ابن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقالوا مثل ما ذكر كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم ، وما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا .. وما علمته كان . قال : فانصرفوا عنه[٣]

لقد اطمأن عبد الله بن أبي أنه الملك القادم ليثرب ، لكن قناعة قومه تحولت إلى شيء آخر، ولعله لم يكن يضيرهم أن يسلموا وأن يملكوا عليهم ابن أبي ، فلم يكن الأمر واضحا ذلك الموضوح الذي انجلى بعد ذلك، فآثروا الإسلام على ما سواه .

---

(١) لسان العرب: ابن منظور ١/ ٨١١ ، مادة : خرز.

(٢) المدينة المنورة : الخطراوي ص ١٨٤

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ٢٠٥

إن توجه الأوس والخزرج تمليك ابن سلول أمر جاءت به الأحداث الجسام التي مرت على يثرب، وجلس القوم يعقدون له تاجا من خرز، ليتوجوه ، وكان الله تعالى قد أعد يثرب ويوم بعاث ليقدمه إلى رسول الله كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها [(١)]

إذا فيوم بعاث قدمه الله للرسول لتمهيد قلوب الناس لتقبل الإسلام ، ولو أنه سار في نفس الاتجاه أملا أن ينال ابن أبي من نتائج هذه الأحداث التي كانت قوية وقاسية، وكانت خاتمة الحروب الطويلة ، لقد سار اليثربيون جميعا في اتجاه تتويج ابن أبي وأولى الناس بالانتصار لهذا قومه بنو الخزرج الذين سيكون الملك فيهم ، لكن ما هو مدى اقتناعهم بهذا الملك ، وما مدى اقتناعهم بهذه المملكة وهذا التوجه ..؟ فإن هذا أمرٌ آخر

إن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى كان أكثرهم من الخزرج ومن سادات القوم، وكان عدد الأوسيين قليلا ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[(٢)]

وذكر موسى بن عقبة فيما رواه عن الزهري وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه ﷺ بهم كانوا ثمانية وهم: معاذ بن عفراء ، وأسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وزكوان وهو ابن عبد قيس ، وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة وهم من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة وهم من الأوس فأسلموا ووعدوه إلى قابل[(٣)]

---

(١) صحيح البخاري. بحاشية السندي ٢ / ٣٠٩

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧٦ ، ١٧٧

(٣) السيرة النبوية : ابن كثير ٢ / ١٧٧ ، ١٧٨

وبذلك فإن هؤلاء النفر كانوا من الذين تبنوا ملكية عبد الله بن أبي ، لكنهم لم يجدوا في هذه الملكية القناعة ، كما لم يجد بها من جاء بعدهم ، أما الملك فقد كان له شأن آخر ، ومن المفارقات أن ولي العهد المرتقب لعبد الله بن أبي ولده عبد الله بن عبد الله بن أبي لم تكن لديه القناعة أيضا ولا شيء منها بملكية أبيه واستخلافه من بعده .

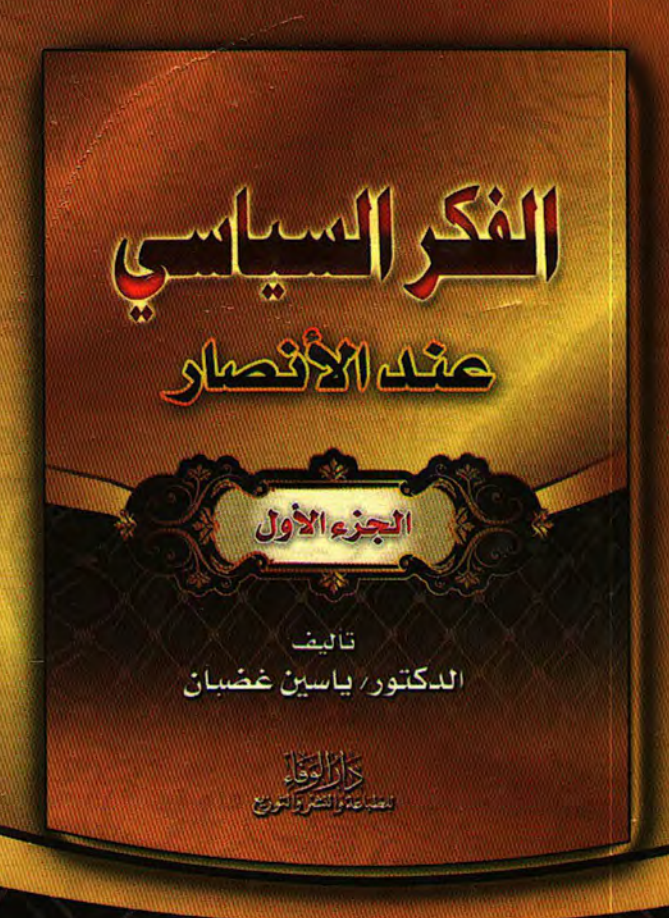
لقد وصلت ملكية ابن أبي إلى حدٍّ كاد به أن يتوج ، لكن دخول رسول الله ﷺ حال دون ذلك، هذه الروايات التي قالت ذلك .

لكن من الواضح أن قضية دخول الإسلام والتتويج اللتين جاءتا متلازمتين ما هو إلا من قبيل المصادفة، ثم إن الإسلام ما جاء منافسا وموازيا لملكية عبد الله بن أبي إذا أراد أحدهم أن يقيس بمقياس القضايا السياسية حاليا أو سابقا ، ولكن الإسلام جاء ليبني أمة وسطا ، تعي حقيقة وجوذها وتحمل رسالة الله إلى الأرض ، وما مملكة عبد الله بن أبي إلا ذرة بائدة في طريق الإسلام العظيم الذي أزاح أباطرة عظامًا وممالك قوية ، وتيجانا جبارة وأزاح كابوس الظلم والطغيان عن الناس ليحل محله عدل الإسلام ورحمته ، وما قضية ابن أبي إلا دعاية طفل في أتون حرب عظيمة تبناها الإسلام بجانبه المشرق المضيء ، وأسقطت من الدنيا كل طواغيت الأرض والآلهة المادية والمعنوية والبشرية ، وأعاد إلى الإنسانية صفاء روحها وطهارة جسدها ، وأعطى هؤلاء الذين كانوا يعقدون الخرز ليتوجوا ابن أبي على جزء من يثرب أو حتى كلها ملك الدنيا التي دانت لهم وسقطت تحت حوافر جيادهم بقوة إيمانهم وتصميمهم ممالك يرتجفون لمجرد ذكر اسمها أو الحديث الهامس عن عظمتها ، وهذا ما سيكون موسعا في الصفحات القادمة إن شاء الله .

فهـــــــرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
كلمة شكر وتقدير	٧
المقدمة	٩
مدخل	١١
الفصل الأول **مدينة يثرب قبل الإسلام «موطن الأنصار»**	١٧
القسم الأول : مدينة يثرب	١٧
سرد تاريخي للحياة في يثرب	٤٥
القسم الثاني : اليهود وقدومهم إلى يثرب	٥٢
القسم الثالث: العرب	١٣١
الفصل الثاني : ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب	٣٣٧
القسم الأول : الاتجاهات السياسية المؤثرة في فكر أهل يثرب	٣٣٧
١ـ الحياة القبلية	٣٣٩
٢ـ تنظيمات مكة	٣٥٧
٣ ـ الملكية عند العرب	٣٩٧

أ ـ الغساسنة ٤٠٧
ب ـ المناذرة (اللخميون) ٤١٨
جـ ـ كنده ٤٣١
٤ ـ الإمبراطوريات الكبيرة ٤٤١
٥ ـ الفكر السياسي عند اليهود ٤٤٥
القسم الثاني : الفكر السياسي عند عرب يثرب ٤٦٥
١ ـ الحروب أيام الأوس والخزرج ٤٧٢
٢ ـ المعاهدات السياسية مع القوى المحيطة ٤٧٤
٣ ـ يوم بعاث وآثاره الفكرية والسياسية ٤٨١
القسم الثالث : توجه عرب يثرب نحو الملكية ٤٨٧
١ ـ نتائج يوم بعاث ٤٨٧
٢ ـ المصالحة بين الأوس والخزرج ٤٩٢
٣ ـ اختيار النظام الملكي ٤٩٦
٤ ـ تسمية الملك والاتفاق عليه ٥٠٠
٥ ـ المراحل التي وصلت إليها الملكية في يثرب ٥٠٥
فهرس الموضوعات ٥٠٩



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية طب المنصورة - ص.ب: 230

ت: 20502370863+ فاكس: 20502370863+

E.mail: darelwafa2005@yahoo.com & darelwafa@hotmail.com

www.darelwafaa.com

الوفاء للطباعة والنشر